مروة جمال

عشق الجياد

justmero

عشق الجياد

مروة جمال

شخابيط وردية

إبداع الحرف وعشق الأبجدية

الجزء الثالث والأخير

https://www.facebook.com/groups/shakhabeit.wardia/

إهداء

إلى هذا الذي ما زلت أبحث عنه

حكيم

هل يعلم أحدكم تعريف العشق

هل منكم من يدرك معنى الحب بإيجاز

دون استفاضة.. ومقطع صارم بلا هوادة

العشق هو العاطفة

هو العطاء

الرغبة..

واللهفة

هو الدفء, وهو الاحتياج

استمالة بعد هروب

وشغف فقد اتزانه

العشق هو..

عشق الجياد

المقدمة

سيخبرونك أن دخان التبغ قاتل..

ولكنهم لا يدركون متعة النظر من خلف سحابته.. فالعالم بشكل ما يبدو أجمل وهو غير واضح!!

زفر دخانه ببطء وهو يراقب الأضواء المتناثرة على مرمى بصره تحوي عدة طاولات مرتبة تدور بينهم امرأة رقيقة بخفة وصوت الموسيقى يصدح ملتهماً حتى الفراغ.

عيناه تجولت من جديد فا صطدمت بشاب يوازي عمره يعتلي المسرح متغنياً بكلمات مبهجة لا تلائم سحابته الخاصة وتجاوره فتاة سمينة بخصلات مشعثة تصرخ بانفعال أكثر منه غناء..

هل تلك هي؟..

متى أصبحت قبيحة بهذا الشكل!

فهي كما يتذكرها..

توقفت أفكاره وضاقت عيناه قليلاً مخترقاً سحابته ليلمح خصلات متناثرة تعتلي المسرح

كما يتذكرها تشبه قطعة الحلوى..

والآن النكهة امتزجت فباتت تشبه حلاوة الفانيلا مع لذوعة الكراميل.

ضاقت عيناه أكثر وبتمعن راقبها تتمايل برقة والشاب يضرب بشغف فوق جيتاره يتغنون بما يلائمها فاليوم هو عيد مولدها الحادي والعشرون.

مرت فوق شفتيه ابتسامة لينفث من بينهما دخان تبغه من جديد وبوحشية أكثر.. وبعدها وجده الستيني البشوش المصادف أنه أبيه!!

وبخطوات أخرى نحو الضوء..

نحو تلك البقعة المختفية وراء السحابة جذب العجوز ذراعه بغبطة وهو ينادي ولده الآخر لتأتي هي معه..

تقترب هي منه وخطوة تلو أخرى فأخرى فتنقشع سحابة..

مجرد تعارف..

ـ محمود..

ـ تميمة..

الفصل الأول

الدنيا ريشة في هوا.. طايرة من غير جناحين

واحنا النهاردة سوا

وبكرة حنكون فين!

اغمض عيناك.. احبس أنفاسك

عُد إلى عشرة.. خمسة عشر

ثلاثون..

أربعون..

توقف عن العد

فقط اترك نفسك دون حياة

هاااا

خرجت شهقته مرتجفة بغريزة الجسد نحو الهواء..

بعد دقيقتان وأربعون ثانية!

كانت قطرات المياة تتسلل من بين خصلاته القصيرة لتمر ببطء فوق حنايا وجهه.. عيناه.. أنفه.. شفتيه

والسخرية ترسم الملامح مع صوت أمه

"ستموت"

بل صرخة.. هلع, أو ربما لوعة كاذبة

وهناك من يبترون وجودك لأنك ببساطة تُفقدهم سلامهم النفسي

طفل مزعج, مراهق عنيد, وابن خارج نطاق المعادلة!

عاد ليتأمل الحوض الممتليء بالمياة, تلك البقعة الشفافة التي ما إن تخفض عالمك بينها ينتهي كل شيء

ينتهي احتياجك للهواء وتغلق شرنقتك بوجه كل مدخل للحياة

كل صوت وكل مؤثر وكل فكرة

فالأفكار مزعجة.. شيطانية وقاتلة ومميتة

وما أن تجد لنفسها درباً بين ثناياك ستتحكم بك, ستأسرك وتوجهك كيفما تشاء..

مهما ادّعيت أنك خارج نطاق السيطرة!

- محمود.. يلا يا حبيبي العشا جاهز!

الأب.. الستيني الحنون بنظارة طبية وجسد تمكنت منه سمنة طفيفة بفضل طعام زوجته, كان الحفل قد انتهى مبكراً

ومبكراً في عرفه تعني أن الوقت كان منتصف الليل تقريباً
فعيناه لا يقربها النوم إلا مع وقت شروق الشمس

أرق.. أو طاقة!

هكذا قالت جارة عربية لأمه وقتما كان مراهقاً يختبر لأول مرة
بروز شاربه, وآخرى أخبرتها أنه شاب قوي لديه طاقة ولم تكن
سهام مهتمة بقلق أم على حاله بقدر تبرمها من معركة كل ليلة
فهو يتشارك مع أخيه الغرفة والآخر لا يستطيع النوم في الضوء

أو حتى مع مصباح طفيف.. وشكوى أخرى من الجوال

هي معركة والسلام

ويتبرم الرجل الآخر ويتأفف وينال هو بشكل غير مباشر عقاب

أو حتى غرفة أخرى جانبية كانت من قبل لمربية وهو يستحقها
بجدارة, ليس لأنه مراهق مزعج أو رأس عنيد

بل لأنه ليس ببيته

- محموووووود.. الأكل حيبرد

غبطة حسن مبالغ بها, هل هي بهجة بعودة الابن الذي تناساه على مدار سنوات أم تشبث برجولة الغائب وفخر بشهادته الدراسية التي أنهاها في فترة قياسية مقارنة بخالد الذي اتخذ قرارً عنترياً بعد عام قضاه بكلية الزراعة بتركها تماماً ودراسة إدارة الأعمال مثل تميمة!

- يا باشمهندس محمود

وتلك المرة يضغط على كل حرف.. يا باشمهندس

وحال رقية يقول "بتتك لي على السين يا حسن"

وحال حسن ابتسامة واسعة بابنه الذي حذا حذوه وأفضل فمحمود اختار كلية الهندسة قسم الانشاءات المدنية كما أخبرته سهام وتخرج بتقدير جيد جداً مع شهادة موثقة من مكتب استشاري كبير بمهارته. ولم يكن يعلم حسن أن ابنه نالها من مصر وليس من جامعة أمريكية بقطر كما ادّعت وأنه نال امتياز

مع مرتبة الشرف وأن وظيفته بالجامعة باتت مضمونة

وأنه ترك هذا كله وقرر أن يبدأ نوبة تحدي جديدة في المزرعة

محمود لا شيء يكفيه

لا شيء يروي ظمآه!

- كُلّ يا محمود.. ماما رقية عاملة وليمة النهاردة

ولم يبالي إن صوت ضحكة استهزائه كانت عالية ولم تكن من الوليمة ولا من كرش أبيه حسن الذي بدا عالياً فوق مائدة زوجته المعظمة ولا حتى من شكل الطائر المسكين الذي كتفته المرأة ليكون وجبة شهية بلا رحمة

بل كان من لفظ ماما نفسه

"ماما رقية"

الأمر لا يليق بها وحتماً هو لا يليق به

كتمت رقية غيظها وجذبت صحن فارغ لتوزع به بعض الأرز فيما تجاهل حسن الأمر برمته ليضع أمامه الصحن مربتاً فوق كتفه..

- وحشتني يا محمود.. وحشتني يا ابني.. رجعت من قطر امتى

ومع قضمة وتأوه شهي بفطائر امرأة أبيه وتلك النكهة المميزة بالطائر المسكين حرك فكّه لتبرز منه عضلة جانبية غير مبالية كما كلماته:

- أنا في مصر بقالي خمس سنين

****

- استني أنا حوصلك

توقفت خطواتها بتردد وهي تلمح ظله الذي ودّع تميمة بكلمات كثيرة ومزحة لها أكثر من نصف ساعة, وهي لا تعلم ما تلك المزحة.. لا تفهم تفاصيلها ولا تستوعب لمَ يضحكون

هو أحضر هدية وتميمة انفجرت في الضحك

وهي مغتاظة!

والاغتياظ وازى خطوة أخرى وتلك المرة أوسع رغم أن جسدها لن يسعفها بهذا ركض.. فهي اكتسبت في خلال ثلاث سنوات عشرون كيلو جراماً ولا تعلم كيف.. قصر قامتها لا يساعد وتشعر أن أنفاسها باتت تساهم في اكتساب الوزن

وخطوة ثانية وزعقة منه

- ندى

توقفت مع تحية "سلام مؤقت" لتميمته ولوّت شفتيها تقلده ولكنها ما لبثت أن توقفت حينما استشعرت عطر تميمة خلفها تماماً.. تلك هي تميمة من نوعية الفتيات التي تتحرك بعطرها الخاص

تُشبه عارضات ماركات العطر الشهيرة بخطواتهن الواثقة فوق درج يمتد ارتفاعه حتى السحاب أو ممر مظلم يرتج في النهاية به جسدها تحت سيطرة الوسيم.

خصلات مسترسلة قبل منتصف الخصر بقليل وآخرها انحاءات لولبية تثير إعجابها هي كأنثى فما بال الرجال

أو هذا المشدوه.. المبهور.. المذهول

له أكثر من ثلاث أيام وهو ينظم جدول الحفل لعيد مولدها ويختار الأغاني وأجبرها على شرب اليانسون الدافيء ثلاث مرات أمس ليكون صوتها صداحاً كما يليق بمليكته

وهي تفعل!

تستمع لأوامره وتنفذ مطالبه وتغلق المحادثة معه قبل النوم مباشرةً أو حتى تنام وهي معه على الهاتف

فهي لا تمتلك صديق سواه وهو أفضل صديق على وجه الدنيا

وأسوء معشوق..

- ندى!

وتبخرت بهجته مع شرود ملامح تميمة

- ندى انت بتعيطي؟!

شعرت تميمة بالحيرة فسألتها في براءة:

- في حاجة.. حد ضايقك؟

أومأت رأسها بنفي سريع وعقلها يسعى بحثاً عن كذبة, وهي ليست مبدعة في الكذب

هي تحمل البساطة بقدر الحماقة

- ناموسة قرصتني

- بتعيطي علشان ناموسة قرصتك!

وملامحه لا تتهكم.. بل تعاندها وكأنه يؤنب أختاً صغرى

ولوت شفتيها وهي تعدل من وضع حقيبتها لتعلقها بشكل عكسي بين كتفيها:

- المزرعة فيها ناموس

- طيب يلا ياختي!

ودفعها أمامه ببساطة ليوصلها محيياً تميمة بإشارة سريعة وعفوية مؤلمة هي اعتادتها:

- لما أرجع نكمل كلام

وطوال الطريق لم تتحدث إليه بل صفعت باب السيارة قبل أن تصعد إلى بنايتها وأغلقت هاتفها مع صوته المكترث كما العادي

العادي جداً

- كلميني لما تطلعي

ولن تحادثه أبداً, بل هذا قرار رقم مائة وعشرون بنص يحمل عدم رؤيته مجدداً

الغبي.. الأحمق.. الصديق الحاضر والعاشق الغائب

خالد

****

هل انتهت حقبة الصمت أم استلمت ابنتها الدفة

تميمة

ابنة أبيها

ونصف خالد الآخر

فهكذا هو خالد

رجل له نصفان.. الأول تميمة والثاني عبد الله أما هي فلا مجال للمناصفة

هي اكتماله كله

مسدّت جبهتها ببطء في محاولة للتخلص من ألم رأس ما بعد الحفل ثم تحركت بخطوات هادئة نحو غرفة آخر العنقود الذي لم يأخذ من ملامح أبيه شيء!

ابتسمت وهي تدثر غطاءه جيداً وتتذكر غضب زوجها الطفولي وممازحته معها قبل سنوات عن انجاب آخر يحمل ملامحه دون تفويت تفصيلة واحدة

كان عبد الله نسخة من أخيها الأصغر مصطفى ولكنه كالعنيدة تفاصيله طباع خالد, بل أن هذا المراهق بات يأخذ منها مجهوداً خرافياً كي تكبح جماحه وتواكب الانفجار الالكتروني بكل ما يخصه

"اتأخرت يا خالد"

وزفرت بها وهي تترك الغرفة وتعود مجدداً نحو النافذة علّها تلمح وصوله, بقرار فجائي أغضب تميمة التي لم تعقب

وغادرت لغرفتها مصطنعة اللاشيء سافر هو دون توضيح السبب سوى عمل هام

سافر بيوم حفل ميلاد ابنته

وتوقعت أن يعود مساءً متعجلاً من أجل استرضاءها ولكن يبدو انها كانت حالمة.. ابنتها واقعية توجهت للنوم ولكنها واقعية صامتة

ابنة أبيها وأمها..

تميمة

***

صهيل..

ما أجمله من صباح حين تكون بدايته صهيل

أو تبغ!

رفع رأسه وعيناه تضيقان مع رسم السحابة, لا شهيق ولا حتى زفير واضح.. هو يحرق ويرسم مساره بضباب لا تمهله الثوان حتى يختفي فيصبح بلا أثر

كانت زوجة أبيه قد استيقظت بدورها وتوجهت لمطبخها بفوضى الأكواب وطعامها الغير منتهي أما خالد فشعر بقدومه متأخراً وصوت أمه يصر عليه بتناول العشاء قبل النوم ولكنه على ما يبدو استرضاها بقبلة جبهة واستغرق في النوم بسرعة طفل بعد أن حياة بحميمية غير مفهومة!

صهيل.. وجلي صحون..

وتبغ

نصف استدارة كانت انتباهه مع صوت الكوب الذي تناثر من بين يديها على الأرض وعلى ما يبدو هي تسب وتلعن وتتمتم باغتياظ من حسن ومصدر قلق عاد إليها مجدداً والآن رجل

وليس طفل.. وقبل أن ترفع بصرها من جديد نحو حديقتها الخلفية التي باتت أرض سجائره كان قد اختفى.

- ماما شايفة الفرس الأبيض

- سلطان افتح بلوك أربعة وشوف كابتن علي فين الناس جاهزة من الصبح

- تمام أنا ححجز الساعة خمسة وعايز الفرسة الرمادي للمدام

- التدريب يا جماعة اتأخرنا

- بوناسيرا سينيور

تبدلت المزرعة, ورغم أن خياله حين تركها كطفل لم يسعفه بالكثير إلا أن التبديل كان خُرافياً, مساحة مزرعة الخيل وحدها زادت الضعف تقريباً وتم إنشاء أكثر من مضمار للتدريب

وهناك مساحة مخصصة لتريض سكان الفندق وممارسة الصغار هواية اللعب مع المُهور واطعامهم السكر.

عدد الاسطبلات بات عشرة وتم بناء ملحق فاخر على مسافة بسيطة به استراحة وكافيتريا للغداء ومراقبة التدريبات, لم تعد مجرد مزرعة خيول عادية بل خلية نحل ومركز تدريبي يشق اسمه بسرعة الصاروخ بل وأكثر..

أسند كوعه فوق الحاجز الخشبي يراقب تردد فتاة صغيرة وإصرار مدربها على كسر حاجز الخوف وعلى مسافة غير بعيدة كان هناك رجل ايطالي الجنسية يزعق مع أحد الساسة والمسكين لا يفهم من لغوه شيء..

ضحك ساخراً وعاد لمراقبة الصغيرة التي على الفور ذكرته بأخرى.. السروال الأنيق القصير.. الضفيرة الناعمة.. وبكاء يُشبه السكر

سحابة أخرى من الماضي.. من تلك التي يرسمها بتفاصيل تبغه ومن أفكار تغدو وتجيء ويبخرها هو بسبابته وقتما يشاء..

سحابة هادئة

أو شبه هادئة..

بل سحابة مزعجة!

وصوت موتور سيارة دفع مكشوفة مع موسيقى عالية الإيقاع بقدر إزعاج المغنية الصارخة وأسوء ضغطة فرامل في التاريخ مع التفافة بوضع مائل لا تشبه بأي شكل قواعد صفّ السيارة ثم سروال كاكي اللون مع بوت أنثوي ضخم وجديلة تمر جوار العنق حتى منتصف الخصر تقريباً وتلك كانت السقطة الوحيدة التي تشبه تاريخ قطعة السكر

الباقي أخرى!

- سلطان فين كابتن علي.. الناس جاهزة من الصبح

- نزل أربع خيول بس.. وسيب المهر لتدريب كابتن محمد

- يا ماجد فين الحقن.. عندنا تأخير من أول امبارح

- نور انت بتستهبل.. الحافر يا ابني لازم تشيل منه كل الرملة الخشنة وادهنه زيت ولما تخلص دخل الحصان بلوك تلاتة وجهز بلوك 18 علشان جايلي وارد جديدّ!

لم تكن مجرد سحابة انقشعت, كانت عاصفة

عاصفة تميمة خالد رضوان

****

فوق أزرار هاتفها أنهت اتصالها في غضب قبل أن توجه دفَّتها نحو اتصال آخر أو لنقل بالعامية الدارجة

"إسفين"

فهذا الكابتن "علي" يستحق أحدهم وبجدارة وهي حنونة فلم تشي به عند البيج بوص كما يحلو لها مناداة أبيها في العمل بل ذراعه الأيمن فقط التي كانت سابقاً كابتن ليلى!

أخفضت صوتها وهي تمر بعينيها سريعاً بين الوجوه وتهدئ السائح الإيطالي المتذمر بإشارة يد:

- زي ما بقولك كده.. دي تالت مرة يفوت التدريب وأنا أشيل مكانه وبعدين بيختفي ومابيردش

أنهت ليلى قهوتها على عُجالة واللفظ واحد ولكنه حازم:

- حاتصرف

وليلى بعد مرور حوالي خمسة عشر عاماً بين جدران المزرعة لم تكتسب موقعها من فراغ.. فهي المدير المسؤول عن الأجنحة الفندقية واستراحات الخدمات اليومية وآخيراً كل ما يخص الجانب التدريبي والترفيهي بمزرعة الخيول..

ولكنها أبداً لم تجذب لجام خيل, فهي مثل زوجها تماماً مخلوقة تنتمي للبحر..

تركت ما في يدها وفي غضون دقائق لا أكثر كانت جوار تميمة تستمع لأعذار سلطان مساعد الكابتن الغائب والأخرى تجهز حالها لتولي التدريب بدلاً منه تلك المرة أيضاً..

زفرت ليلى ثم كتفت ذراعيها لتنطق بقرار وليس مجرد فكرة:

- خلاص.. كابتن علي حيسوي حسابه واحنا حنتصرف

- بس يا مدام ليلى عندنا عجز في المدربين ومفيش حد يسد مكانه

وضحكة ساخرة على نبرة سلطان الدفاعية:

- ده هو أساساً سبب العجز

ثم صمتت لدقيقة مفكرة قبل أن تتابع:

- تميمة شيليه من الجدول وأنا حاتصرف

- على فكرة أنا ممكن أتصرف

والنبرة لم تكن أنثوية تخص تميمة ولا نبرة صوت زاعق بالفطرة كخاصة سلطان السائس, كانت نبرة هادئة أجشة تحمل قدراً من الثقة وقدراً من الغرور.. رفعت تميمة رأسها نحوه لتجد يقف أمامها بملامح مقتضبة وجدية للغاية

هذ ال"محمود" لم تلمح منه ابتسامة منذ يوم أمس

ولا حتى نصف

حياها وانشغل مع أبيه حتى نهاية الحفل

أجفلها بنظرة مباشرة قطعت تأملها لتزيح عينيها قبل أن تلمح بنظرته السخرية التي ناقضت باقي عبارته:

- أنا ممكن أشيل التدريب مكان كابتن علي

ضمّت ليلى حاجبيها والغرض استفسار عن ماهية الشخص قبل استنباط كلماته فتولت تميمة التعارف:

- محمود ابن أونكل حسن.. مدام ليلى المدير المسؤول

ثم تابعت وهي تسحب حصانها لتستعد للتدريب:

- ميرسي يا محمود.. بس للأسف لازم مدرب معتمد

تجاهلها ليقترب من ليلى محيياً باحتراف ثم تابع وهو يخرج أحد البطاقات من جيب بنطاله:

- دي بطاقة الاتحاد الدولي للفروسية.. ودي بطاقة الاتحاد القطري كمان

ثم تراجع خطوتان ليحرك كتفيه ببديهية وقرار لن يجادله فيه أحد:

- أنا حاشتغل شوية مع الولاد اللي بقالهم نص ساعة في الشمس دول وبعد كده براحتكم

وراقبته عينا ليلى بتمعن وتميمة باغتياظ, مغرور.. متبختر.. وسيم.. ومحترف.

محترف لدرجة أن ليلى وفي أول مرة في تاريخها الوظيفي وقعت معه عقد العمل في خمس دقائق

إبهار الأنثى ليس بأمر عسير أما جذب الإنتباه هو الخطة المتقنة!

****

"صباح الخير يا هانم"

والأمر لا يوازي صباح الخير يا سينا أو حتى صباح الخير يا مصر, هي صباح الخير بتأنيب وفقط..

صباح الخير يا هانم

صباح الخير ياختي

مفيش صباح الخير!

المجنون خالد.. وهو يزعق بها في رسالة, ليس لأنها رحلت غاضبة من لا شيء وتذرعت بقرصة ناموسة

هي فعلت الخطيئة الثامنة التي لم يكتبها دانتي

نسيت الجيتار..

لم يكن وقت الظهر قد حان بعد... أزاحت قناع النوم من فوق رأسها ومرت فوق رسائل جوالها التي كان منها أربعة منه ثم لاحت فوق شفتيها ابتسامة لغضبه

وهي أكبر حمقاء على وجه الأرض, فبالأمس اتخذت قرار عدم رؤيته مجدداً واليوم هي ترتدي ملابسها لرؤيته

وهذا هو الحب..

وتلك ندى, بتسرعها وهي تحاول إغلاق مزلاق الباب الصديء وسقوط عويناتها أربع مرات فوق الدرج وتحيتها المقتضبة لأم ممدوح التي تنفر منها لمجرد أنها فتاة جامعية تقطن وحدها والأهل تكنز الذهب والفضة في الخليج!

وتأنيب عين رؤى صديقتها الوحيدة وزميلتهم بذات الفريق وهي الوحيدة التي تعلم تفاصيل عشقها لخالد

وبكاؤها وقراراتها التي أبداً لم تكتمل

ربما لو اكتملت لنالته!

****

كانت ليلة أمس طويلة.. البداية عيد مولد تميمة والنهاية ظهور ابن سهام!

زوجها الذي تبدلت ملامحة لبهجة يظن من يراه أنها كانت مفقودة والآخر ونبرته اللامبالية عن وجوده لخمس سنوات بالوطن دون أن يفكر في رؤية أبيه ولو لمرة واحدة..

وحاول أن يتناسى حسن الأمر.. أن يتجاهله ويمرره وكأن شيئاً لم يحدث!

كما يتجاهل دخان تبغه الذي احتل المنزل في أقل من ساعة وعندمات سعلت لتنبهه أنهى سيجارته وعيناه تتحديانها ببطء ثم أخذ الثانية في الحديقة

وطفل كان أو شاب.. ستظل القسوة المُطّلِة من عيني محمود مخيفة.

مسدّت رقبتها ببطء وكل طمأنتها تتمحور في أن الفتى لن يمكث عندهم كثيراً في نهاية الأمر, لن يطل ثعبان سهام على عالمها ولن ينجح ابنها في افساد سلام عائلتها الصغيرة, وكان جيتار خالد يشدو في الخارج بتوازٍ ساخر.. داخله اشتياق غامض لهذا الأخ البعيد منذ زمن, ولكنه يثق أن شعور محمود نحوه يختلف تماماً ويعلم أن الحق معه!

ضحكت رؤى تشاكسه وتلكز الشاردة جوارها:

- جيتارك حزين يا خالد

كان يستند بنصف جلسة على حاجز حجري في حديقة منزلهم, الجيتار مستسلم له تماماً ولكنه حتى الآن لم يضبط اللحن..
زفر بضيق ثم وضعه جوار خاصة ندى الذي لم تلمسه:

- مفيش فايدة

ولم تُعَقِّبِ هي.. لكزها هو تلك المرة وحاجبيه مضمومان في غضب:

- ما تعملي حاجة مفيدة

لوت شفتيها بتبرمّ وهي تنظر نحو رؤى:

- أنا تعبانة حامشي

- استني حاوصلكم

- مش مستاهلة حنطلب تاكسي

- يا بنتي المسافة ساعة حاوصلك أسرع

وكعادته هي يلقى أوامره وفقط, وهي ليس لها حق الاعتراض بل هل تعارضه أبداً

الاعتراض كان تلك المرأة من صوت آخر.. صوت استشعر الخطر حينما لمح سيارة تميمة تعود وجوارها الآخر الذي لم يظهر إلا يوم أمس فقط!

- استنى يا خالد

قالتها رقية وهي تضع وشاحها فوق رأسها وتحيي الفتاتان بابتسامة جافة قبل أن تمسك بذراعه وعيناها تراقب بوابة منزل إيناس ووداعها الحار مع أخيها:

- مصطفى يوصل البنات في طريقه.. أنا محتاجاك في حاجة

وقبل أن يجيب أو يبدي اعتراضه كانت ندى قد سحبت رؤى في خطوة سريعة وخجل نبضه الغضب فوق عظام وجنتيها:

- خليك مع طنط يا خالد.. قولتلك من الأول حنطلب تاكسي

النبض والخجل والضيق والهروب وحتى الكلمات بشكل ما بُترت ولم تكتمل, خرج صوت أجش من العدم وعيناه متعلقتان بخصلاتها الناعمة التي لا تتقن شيء سوى الهروب من كل ربطة قاسية:

- خلاص يا خالد.. أنا كده كده نازل على مصر وندى في طريقي

وكعادته كلما لمحها أو رآها ببساطة يتجاهل الجميع والكارثة أنها لا تشعر بتوتر في حضوره, أي أنثى بنصف عقل يجب عليها أن تتوتر في حضور مصطفى.. تفكر وتهرب وتختبئ كلها من عيناه إن لزم الأمر, قامته التي تفوقها طولاً بقدر يوازي رأسها وكتفه.. خصلاته الرمادية التي باتت علامة جاذبيته المسجلة مع جمهوره من النساء والتفاتة عينيه الغامضة التي لم تفهمها امرأة أبداً

هي تأسرهن وفقط..

والغبية تجاوره ببراءة وتساعده في وضع جيتارها بالحقيبة الخلفية وتصطدم رأسها بالحاجز المعدني ويقترب هو منها بمكر ليطمئن أن إصابتها طفيفة!

غبية جوار رجل ناضح وسمعته عليها كل غبار

ولم تكن تلك سوى أفكار المنفجر خلفهما وسيقتلها يوماً ما بسبب حماقتها تلك

أو سيقتل هذا الرجل ويحتمل لعنات تميمة خالد!

****

كانت الوقت قد اقترب من الفجر.. السماء سوداء هادئة بظل شعاع وليس أكثر والنجوم انسحبت أو ربما وجدت لها كون آخر!

سكون فخم يستحق التبجيل لم يقطعه سوى صوت سلاسل حادة وسيارة ضخمة تخطت البوابة الحديدية بعدما أيقظت الحارس وأخرى سوداء أنيقة تتبعها في هدوء..

استيقظ دسوقي ليسحب سلطان بهمس آمر:

- اصحى.. الباشمهندس جه

فرك سلطان عيناه بتبرم:

- دلوقتي!

وجذبه دسوقي من جلبابه بحزم وهو يكمل ارتداء حذاءه:

- يلا مفيش وقت.. افتح البلوك اللي قولتلك عليه

وكان هناك سائس آخر شاب استيقظ على تسلل الرجلان من مكان نومهما وفي الظلام لمح تلك السيارة الضخمة وهي تقترب على قدر الإمكان من بوابة الاسطبل القديم.. أربع رجال يجاهدون وحبال غليظة يبدو أنها لا تجدي وسحب في النهاية دسوقي اللجام في زعقة خشنة بصوته الجهوري وتحطمت رافعة خشبية لتفسد نصف المحاولة وبشق الأنفس نجح النصف الآخر

أُغلِقت البوابة واحتجزت هذا الظل الأسود الذي يجزم له خياله أنه ليس بحصان أبداً

هو أكيد شيطان!

ولهث دسوقي وهو يركض نحو مخدومه ليقدم نجاحه بفخر

- تمام يا بشمهندس

أومأ له برضى ثم صرف العجوز ليستكمل نومه وعيناه في مرآة سيارته تخبره أنه يحتاج الراحة بدوره

فهو لم ينل قسطاً طبيعياً منها على مدار ثلاث أيام, بل سافر دون توضيح أو حتى تبرير لتميمة التي يتصور شكل غضبها عليه منذ الآن

ولكن هو يعلم جيداً كيف سيتبخر هذا الغضب حينما تلمح هدية عيد مولدها!

والتوت شفتيه بضحكة ساخرة وهو يتصور غضب إيناس الذي ستصبه بقسوة فوق جنونه هو وابنته

فهو لم يروضه بعد!

الفصل الثاني

وإن لقاكم حبيبي سلمولي عليه

طمنوني الأسمراني عاملة ايه الغربة فيه!

هل تذبل المشاعر مع السنوات, أم تنضج.. أم تراها تكتسب مصطلح آخر لم تسعفنا به الحروف بعد..

حاسة خاصة تتخطى تفاصيل ما نعرفه وتختبيء بأعمق نقطة بين ضلوعك حتى القلب نفسه إن بحث عنها لن يجدها

فهي تحتلَّه بالكامل..

والأمر لا يحتاج هاجس قلق مع صوت هاتف أو حتى انتباه من حركة مجاورة على الفراش, هي شعرت بوجوده حين تخطّى الباب الأمامي للمزرعة..

لم تترك الفراش.. حينما خطا بحرص نحو ظلام الغرفة لمح ابتسامتها تشرق قبل الصباح, تتسلل من بين خصلاتها المرتاحة على الوسادة

إيناس لم تختلف.. بشكل ما حافظت رغم السنوات على رونقها, كل ما اكتسبته بضعة خطوط جانبية على حواف ضحكة عيناها

تزعجها وهو يعشق كل تفصيلة بهم فتلك الخطوط تاريخهم كله

- نفسي أفهم بتعرفي إني وصلت إزاي

قالها وهو يخلع سترته ويسترخي جوارها على الفراش, رأسه أسنده على حافة الوسادة وقدماه ما زالتا محبوستان بالحذاء وتكره هي استقرار حذاءه فوق شراشفها الناعمة ويعلم هو ذلك ويشاكسها

ولكن تلك المرة هو حقاً متعب, مررت سبابتها فوق وجهه حتى استقرت أمام شفتيه فربتت فوقهم بقسوة:

- بعرف إنك وصلت بس مش بعرف إنت فين

كتم ابتسامته ليرفع حاجبه الأيسر بمشاكسة:

- ده قلق ولا غيرة؟

وحينها أسندت هي رأسها فوق كتفه ولم تكن نبرتها تمازح.. كانت دافئة بتفاصيل أنثى وزوجة وأم:

- بخاف

ولم يعلق ولكن قبضته اشتدت تضمها نحوه أكثر, تابعت بنبرة مرتاحة فقط لاستكانتها فوق صدره:

- أنا مش برتاح غير وانتوا في حضني وإنت عارف

طبع قبلة هادئة فوق رأسها وصوته جاور القبلة بنبرة أجشة:

- ده امتلاك؟

- عندك مانع!

ولم يلمح تمرد حاجبيها ولكنه قرأه.. توسعت ابتسامته ونبرته تغيب تلك المرة مع النوم:

- عندي ثلاثة.. عبد الله وتميمة و...

والهمس كان النهاية قبل سقوطه رغماً عنه في بحر السُبات

"جدائل البندق"

ولكن الأمر لم يشفع له!

فهو الغائب دون مبرر والعائد لمعانقة الفراش جوار قُبلة رأس وفوق هذا كله أحضر لابنته جواد

وغير مروض!

****

معركة الإفطار في منزلها كارثة يومية, عبد الله يختار الحبوب الملونة والحليب على عُجالة ويغيب لمدة نصف ساعة مقدسة أمام حاسوبه وقبل أي شيء مهما كان ضروري حتى لو كان

موعد المدرسة أما تميمة فلا تعلم أن للوجبة وجود من الأساس, تتجرع المياة الباردة وإذا تذكرت تأخذ قطعة بسكوت مملح مع عصير البرتقال وتترك معدتها بقية اليوم للنصيب!

والنصيب قد يتمثل في فطيرة محشوة ساخنة من مطبخ رقية تختطف نصفها من خالد وهذا جيد وقد يتمثل أيضاً في ثمرة تفاح أخضر تلتقطها على عجالة بعد تمرينها في النادي الصحي الخاص بالفندق وهذا ممتاز ولكن النصيب كثيراً ما يقودها لقطعة من الشوكلاة أو الحلوى الملونة مع مياة غازية أو قهوة دون حليب وهذا فاصل من الفوضى..

- تميمة مفيش نزول من غير فطار

- تميمة افطري

- تميمة مالك مش بتردي ليه

وكانت تميمة في عالم آخر.. حين استيقظت لمحت جوار فراشها ورقة, بل بطاقة ولم تكن تحمل شيء سوى تعريف مقتضب باللغة الأنجليزية

هذا الذي يخص معلومات تصنيف الخيل.. وشراءه

وبعدها توقف العالم مع كلمة واحدة

أو بالأحرى انفجر

"Mustang"

كل ما لمحته إيناس تميمة تركض من غرفتها ببيجامة وردية وتنقض فوق فراش أبيها لتغرقه بالقبلات.. فعليا تكتم أنفاسه. تحتضن وتصرخ وتقفز ويفرك هو عيناه بابتسامة معتدلاً بجلسته على الفراش متيحاً لها السقوط فوق ساقيه

وهي طبيبة بيطرية ولها صولات وجولات مع الأحصنة

ولكنها تشعر أنها أمام لوغاريتمات..

موستانغ.. ارتفاع ستون إنش.. كاليفورنيا.. أسباني.. بري..

مُتبنى وغير مروض!

انتهت اللوغاريتمات وأصابها الجنون

أنهت تميمة المائة وخمسون قبلة بعناق أخير ووداع مسؤول لأبيها بأنها لن تقرب الحجرة.. فقط ستلمحه من بعيد وتحت اشراف دسوقي وسلطان وكل سائس على وجه الأرض حتى يذهب معها بنفسه.

وحينما رحلت كانت الآخرى قد كتفت ذراعيها وعيناها تضيق نحوه في هجوم

- حصان بري؟

ويجيب هو ببديهية:

- نوع ممتاز.. بس بياخد وقت في الترويض شوية

وتكبح هي جماح غضبها:

- متبنى!

- والبديهية منه يليها الصدق التام:

- مش عارف يبيعه.. الموستانغ مش أي يروضه

وكان يهم بارتداء ملابسه.. وهي تحرك يدها علها تستوعب ترتيب النقاط:

- إنت عايز تقولي إنك جبت حصان بري ومتبنى لأن صاحبه عايز يخلص منه وجايبه لتميمة تروضه

وكانت ابتسامته هادئة بثقة خبير أما هي فأصبحت قنبلة, تخاف نعم... بل ترتعب في كل مرة تمتطي فيها تميمة الجواد, تنطلق في المضمار وتأكل السباق بحرفية تسبق سنها بأعوام وتفوقه في الجنون

فإن امتطى هو بعصابة جواد أعمي

تميمة لن تهدأ واليوم ستمتطي هذا الجواد

وانتصر قلق الأم على شغف الفارس فقد كانت محقة!

****

هو لا يتولى بعض التدريب.. هو يُكفِّرِ عن جميع ذنوبه!

وربما هي لعنات رقية..

كان الصباح مبكراً كما العادة أو قبل العادة بقليل فالساعة لم تتجاوز الثامنة صباحاً ولكن الشياطين الثلاثة كما يُطلق عليهم يفضلون المواعيد المبكرة

الآن يفهم لمَ كان يتأخر هذا الكابتن "علي"

أكبرهم هو قيس وعمره ثمان سنوات ولا يتحدث العربية تماماً! فالأم تفضل المدارس الأجنبية وعلى ما يبدو تتحدثها أيضاً أما الأوسط فهو علاء وهو لطيف أكثر من اللازم فلا يتحدث أبداً,

كل انفعالاته ايماءة وابتسامة ويحاول أن يحفظ اسمه بما أنه المدرب الجديد ويناديه محمد..

أما الصغرى فهي كارثة صوتية!

لانا ثرثارة تتحدث خمسمائة كلمة في الدقيقة وحينما رأته أول مرة فرحت وقبّلت تميمة على وجنتها لأنها أحضرت لها شاب وسيم ولكن بعدها بساعة واحدة تذمرت منه ولوت شفتيها وهي تكرر بامتعاض من فوق مهرتها البيضاء:

- ريحتك سجاير زي بابا

كارثة صوتية بعمر خمس سنوات

ارتشف القليل من قهوته التي أحضرها له أحد الساسة في كوب ورقي مقوى ثم فرك جبهته وهو ينظر للصغيرة بخصلاتها السوداء المسترسلة بنعومة خارج النطاق الطبيعي فكما العادة احتلت نصف وجهها وجبهتها..

كان التمرين قد انتهى وغادر الولدان أما هي فبقيت جواره ترتشف المياة خاصتها ببطء كما قهوته وتثني قدميها لتقلده في الجلسة تماماً

هذا ما كان ينقصه.. مائة سنتيمتر إلا خمسة تقيد حريته في نيل لفافة تبغه المقدسة مع القهوة وموجة لا نهائية التردد برعاية صوتها الرفيع وأحداث كوكب ستيفن وفتيات القوة وكارتون نيتورك!

استدار لها بابتسامة مغتاظة علها يقطع تلك المحطة الإذاعية:

- إنت مروحتيش زيهم ليه

- مستنية بابي

- طيب روحي العبي مع الأسد

ضمت حاجبيها ونظرتها تخبره أنه أحمق:

- مفيش هنا أسد

والزفرة تحمل يا فتاح يا عليم رقية بالمتزل وحيزبون صغيرة في العمل, دفع كتفها بخفة ويديه الأخرى تناوش لفافة التبغ:

- العبي مع المهرة

حركت كتفيها في براءة:

- دسوقي أخد المهرة تفطر ساندويتش تونة

رفع حاجبه وهو يقابل النسخة المؤنثة من أبو العربي ثم زفر مستسلماً والأمر لله لدفة الحوار:

- وإنت فطرتي إيه بقه

- ما فطرتش.. الناني كانت نايمة

ولا تعلم الصغيرة أنها لفتت انتباهه, بل استرسالها كله وازى توحش عيناه..

- مامي في بيت تاني.. بابي كان مستعجل..

والباقي لا يحتاج تفسير, لم تشعر الصغيرة سوى بقامته التي استطالت جانبها فجآة ليرفعها جواره بذراع واحدة ونبرته لم تكن شيئاً من مزاح

حتى أنها نبرة لا تناسب طفلة..

- تعالي أجيبلك فطار

وبعدها بدقائق كانت تخرج جواره من المقهى الصغير على جانب المضمار وتحمل بين أناملها قطعة من الكعك المحلى المحشو بالفراولة تلتهمها بتلذذ وهو يحرك بين شفتيه سيجارة غير مشتعلة

يتجاهلها لا مبالياً ولكنه لن يتركها وحيدة.. حتى أنه لم ينتبه لملامح أبيها التي رافقت صوته الناعم وهو يشكره متعجلاً, فقط انتهى الوداع بضغطة صغيرة من قبضتها فوق سبابته وقُبلة كانت قصيرة لتطال وجنته فقذفتها في الهواء..

وهرب من الأمر برمته بانتباهه, فكل ما يبتغيه كان دخان تبغه وعودة سحابته الخاصة, والخلفية صارت أكثر متعة بسروال من الجينز الأزرق وقميص أبيض مبتهج بخصلات متناثرة بلون القهوة وحضورالبندق

ألوان تستدعي الإنتباه

ولم يدم الأمر طويلاً, فبعد هرولتها للإسطبل بخمس دقائق بدأت الكارثة.

****

كل فارس وله جواده الخاص.. أو نصفه كما يقول أبيها, ومنذ نعومة أظافرها وهي تسمع الحكايات عن رعد

نصف أبيها الآخر, وإن كان رحل بلا عودة

تنهدت أربع مرات والأخيرة وازت ارتجافة.. خطواتها ترددت رغم زعقتها الآمرة بنور حينما ذهب لمناداة دسوقي وانفجر التردد حينما سمعت صوته من خلف الحاجز الخشبي

إيقاع صعب التميز فهو ليس بحمحمة ولا صهيل..
بدا وكأنه استكشاف بشأنها مثلها تماماً.

حركة عين.. استدارة جبهة.. نصف وجهها الأيمن ونصف وجهه الأيسر ومواجهة من ثنايا لا تتيح الرؤية الكاملة, ولكنه أدهم.. حالك بسواد الليل دون بقعة ضوء واحدة.

نقاء من نوع خاص لن تجده سوى في ظلام البقعة الآخرى من الكون حيث تفقد الشمس هيبتها الخاصة. وستهلع في البداية.. تخاف وتضطرب وتدرك أنك أضعف من الظلمة حتى يتم احتواءك بشكل تام

حينها ستنال خديعة اطمئنان.. لمحة عين.. صهيل ناعم.. وقرار

وسائس شاب يتطوع للمساعدة وتثبيت اللجام

وودّع بشموخ السيطرة!

كل شيء حدث في لمح اللحظة.. الصهيل الذي أفزع السائس فانطلق يهرول متخطيها.. الحاجز الخشبي الذي تحطم في حركة واحدة من رأس غاضب والقدمان اللذان كادا أن يفتكا بها لولا تشبثها بأول مباديء النجاة وهو الهروب

وحين خرجت واصطدم ضوء الشمس بالدجنة المنفجرة خلفها عاد الجواد للخلف للحظة قبل أن يرفع قدميه الأماميتين بقوة ويضرب بهما فوق الأرض من جديد.. والتقدم تلك المرة كانت سرعته خيالية حتى أن الجميع بدأ يهرول بشكل عشوائي سواها وسائح لطيف يود أن يلتقط صورة وقبضتيه التي تخلتا عن اللفافة لتدفعها بعيداً وتلو ذلك محاولة فاشلة لجذب اللجام.

محاولة وفشل ومحاولة وفشل انتهى بدماء انبثقت من بين ثنايا كفيه وهروب الشيطان الأسود لوجهة غير محمودة العواقب, وحين فقدت هي الأمل تماماً مع تشوش الرؤية من وسط خصلاتها التي تناثرت جوار الجموح والفوضى ظهر ذراع

صلب من العدم وببأس فجر الدماء بعروقه استطاع تطويعه للحظة

شد وجذب ونبرة زاعقة أفزعت الجميع لينتفض العجوز دسوقي ساحباً الجواد لمكمنه مع أربعة آخرون واختبأت هي من نظرة أبيها الحادة..

بل الزعقة التي رجّت بحروف اسمها أركان المضمار

- تميييييييييييييمة

والفرمان كانت قسوته توازي الثقة التي أعطاها لها صباحاً وفقدتها هي في لحظة طيش..

- ممنوع تدخلي الاسطبل القديم.. تماماً

****

كانت مقولة

أن الأنثى دمعتها قريبة

تترقق العبرات بعيناها مع اهتمام صادق أو تنفجر ببكاء كامل في انتظار كلمة أحبك أو يهديها الدلال عبرات ماسية حتى وإن كانت طفلة بجديلة وسروال أحمر قصير وكل أمنيتها جواد وسكر

الأنثى دمعتها قريبة

كانت خدعة!

فالجمع انفض والوحش استكان وغادر أبيها بعد طوفانه وهي على وضعها ترتكز بإحدى ركبتيها على الرمال بينما تثني الساق الاخرى وعيناها تحدق في الفراغ متحجرة

ولكن لم تبكي..

أياً كان بتلك الحدقة فهو أي شيء سوى البكاء

مد قبضته نحوها فرفعت عيناها بنظرة جانبية دون تعبير واضح ليرفع هو كلا حاجبيه بانفعال بدا ساخر

- العفو على فكرة

لوت شفتيها بتهكم:

- على ايه بقه ان شاء الله

واستفزته.. يبدو أنها كالثرثارة الصغرى ستخرج شياطينه

- على إني أنقذتك!

- إنت زقتني

والملامة تحمل نبرة طفلة.. بل النظرة ووتر الجبهة وتبرم الشفتين الشبه باكي

مجرد شبه

فهي لا تبكي..

واستقامت في النهاية مستندة على كفه وكبح هو ابتسامته كي لا تنفجر أكثر:

- الغلط عندي.. المرة الجاية حشيلك

وتجاهلت تلميحه رغم أنها تتذكر أنه فعلها بالفعل وهي طفلة وفي البقعة خلفهم تماماً، نفضت يداها وتخطته ولكن نبرته التالية لم تكن تحتمل تجاهل

- حد يطّلع حصان موستانغ كده ومش متروض كمان

الآن العبقري المغرور يسخر منها!

زمت شفتيها وتعمدت تجاهله وهي تجيب:

- على فكرة أوقات الحصان اللي مش متروض بيبقى سلس جدا عن حصان متروض وعنيد

وتجاهلها بدوره، بل أعاد ربط حذاءه وهو يردّ بعملية تامة:

- مش الموستانغ.. الحصان ده أصله وحياته ضد مبدأ الترويض أساساً

- مفيش حصان ما بيتروضش

حسناً، هو ليس مغرور وحده.. ابتسم وتلك المرة كان انفعال عفوي كامل وبشكل ما الابتسامة تمنحه وسامة

وتجاهلت وسامته كما نظرته ونبرته الهادئة وهو يشرد بتفاصيل المضمار:

- لا في.. وده حصان ما بيتروضش، يوم ما يسيب نفسه للجام حيكون قرار

ما باله يتحدث مثل أبيها.. بل يتحدث وكأنه الخبير وهي ضيفة شرف فشلت في إنجاز أول مهامها بجدارة!

وتخطته تلك المرة برحيل وهو اكتراثه عاد للفافة تبغه وسحابة جديدة وتلك المرة ليست مجرد ستار وفقط

بل ترسم تفاصيل برؤيته الخاصة وليس كما يبتغيه أحد

- حتسميه ايه؟

وتوقفت، يبدو حواراً غير منتهي وهي تعود إليه كلما ابتعدت

وردّت تبتر الكلام دون استدارة:

- لِسَّه مقررتش

وتحركت شفتيه هو بهمس جاور دخانه:

- سميه عشق!

ونال وقتها الاستدارة.. بل التعجب، والسخرية والرفض:

- عشق! مش لايق عليه

وحينها التفت نحوها بنظرة مباشرة وإن كانت لا تحمل انتهاك أو اختراق إلا أنها لم تختبرها من قبل مع رجل

هي نظرة تختزل كل معاني الاهتمام، بالأصح الشرارة الأولى كما يدّعون..

وجاورت نظرته الابتسامة والثقة وهدوء النبرة

- لو فهمتي حتعرفي تروضيه..

****

هي تستجمع جميع أفكارها الوردية وقت جلي الصحون!

والغرابة لا تكمن في الأفكار ولا في البلوزة القطنية بأكبر رسمة وردة في التاريخ وحتى السروال الداخلي الملون برسومات بطوط ليس أكبر كارثة في الأمر.

المشكلة أن لديها صحون للجلي من الأساس..

هي تمكث وحيدة وتقضي أكثر من نصف يومها بالخارج بين الجامعة وتدريبات الباند الشُبهة كما تحب أن تمزح رؤى وجارتها العجوز ترمقها بتلك النظرة المريبة أربع مرات في اليوم

والحارس يتبرم بحركة شفتيه كلما لمح خالد يقوم بتوصيلها ولم ينقذها منه سوى ابتسامة أبيها في أحد العطلات الخاصة به ومصافحته للشاب فتم وضعه في خانة ابن العم

ابن الخالة.. ابن الصديق

أي ضمان وكفى..

ولم تعد تدير هي بالها بأشياء كتلك.. هي خطت للجامعة وحيدة بسذاجة ربما لا ترضى بها طفلة بعمر خمس سنوات, أريحية أفقدتها ميزة اكتساب الصداقات بل ونالت السخرية بشكل أجمع حينما غنّت لأول مرة برحلة نظمتها الكلية..

وهي عندما تغني تنسى.. تغمض عيناها وترفع صوتها حد الإنهاك وتتوه, تميل مع اللحن وتبطيء وتسرع حتى تغوص به كلياً وتفقد الصلة بالواقع.

وواقعها لا يحمل سوى صديقان

رؤى وخالد

وهي أكثر من راضية..

وتركت سماعات رأسها حين انتهت من الجلي والتكسير إن صح التعبير ولمحت بهاتفها خمسة عشر مكالمة فائتة, هو منفعل وغاضب ويصرخ بلا سبب..

- إنت كنتِ نايمة على ودنك ولا إيه

سحبت علبة من الحليب بالموز لتتحرك عائدة محو غرفتها بهدوء مناقض لحدّته:

- كنت باسمع ميوزك يا خالد

- يا رايقة

- شوفت المسج اللي بعتتها

ولا تعلم أنه منفجر بسبب "المسج" وكررها بنبرة هازئة والتالي فرمان.. بل قرار ديكتاتوري وصِفَته أنا الرجل:

- مصطفى ده علاقاته كلها مشبوهة.. شكراً جداً الباند بتاعنا مش محتاج مساعدة

تخضبت وجناتها بحمرة, ولم يكن خجل.. لا. بل غضب منفجر من هذا الذي يحسب كل خطوة باسم تميمة

الآن يرفض الزج باسم خالها في عملهم

وابتلعت نصف علبة الحليب دفعة واحدة فخرجت جوار النبرة البحَّة والشهقة:

- على فكرة هو كان عايز يساعد وهو حد محترم ده أخو طنط إيناس

- اجري العبي بعيد

وهي لا ترى وجهه.. أم ربما لا تفهم الغضب بملامحه

- بتقول إيه!

- الموضوع خلص يا ندى ومالناش دعوة بأخو طنط إيناس

ويقلد نبرتها مجدداً.. يهزأ ويسخر ويزأر ويغلق الهاتف وحتى قضم نصف كلمة سلام مع ثمرة اليوسفي التي كان يقلبها بيده

- ما تاخدها قلمين أحسن!

ضاقت عيناه وهو يراقب جسد حمزة الذي خرج أخيراً من وسط فروع الشجرة النصف مثمرة ونظارته القوية الإطار تنزلق لمرة ثالثة من فوق عينيه وهو يتابع جودة محصوله..

ترك الورود ويزرع اليوسفي!

وسخر خالد وزادها بلفظ "يا خالو"

- أنا مش خالو...

والزعقة كانت جدّية, حتى أنه أخذ منه نصف الثمرة الباقي ثم تابع وهو يمضغ بقاياها في فمه..

- أبوك اللي خالي أنا مش خالك

ضحك خالد ويداه تبحث عن ثمار آخرى:

- ماشي يا حمزاوي.. قولي بقه هو زمان ورد وبعدين بحر ودلوقتي يوسفي, هو الجواز بيبهدل كده.. أنا كده مش حتجوز

ونظر حمزة حوله قبل أن يخفض صوته ويسحب ابن حسن كما يناديه من كتفه بهمس صارم:

- ما هو أنا ماكنتش أعرف أنه الكابتن بتخلف اتنين في واحد.. أربع صبيان لو شافوا الورد حياكلوه يا حبيبي

كتم خالد ضحكته قبل أن يتجول بعيناه حولهما متابعاً بغمزة مشاكسة:

- يعني هي بتجيبهم لوحدها

- امشي يا سافل

وحمزة يزعق.. يخشن صوته تلك المرة ويشزره ببصره ثم يعود لفاكهته متذكراً الذي مضى

ويدعو على شخص اسمه أمين

ويشعر أنه أنجب من السبعة صبيان أربعة

ويوجه بصره للسماء

"استر يا رب"

ويعلم حمزة أن خالد يهرب من الإجابة.. خالد يقسو على ندى ويحجر عليها في مرتبة أخت صغرى, ينصب نفسه مسؤولاً عن حالها في صداقة باتت تزعج رقية.. وحمزة نفسه بخبرته وصولاته لم يعد يفهم

هل يميل خالد بمشاعره نحو تميمة.. أو يغرق في بحر مسؤولية رسمها دون إرادة لندى..

****

هو لا ينساها بآخريات.. فتلك رفاهية لا تستحقها خائنة!

وحين يتعرض الرجل للخيانة يظل الهاجس الأوحد لماذا

هل لأنه أحمق

أم لأنها عاهرة

وسيظل الجواب أوحد ايضا

لأنه أحمق تزوج بعاهرة

طبل.. وزمر.. وعروس.. ومهر.. وشبكة

وعامان من السعادة!

بل عام واحد وآخر خدعة..

ونهاية الخديعة كارثة.. بل ليلة مظلمة عاد فيها ليسمعها تناوش أحدهم على الهاتف

تتدلل.. تتغنج.. وتتأوه!!

وكانت لحظات جاءها هو مبكراً قبل أن تبادر هي بتشغيل الكاميرا وبعدها بخمس دقائق فقط كانت دماؤها بين يديه

صفعات وركلات وشد وجذب والصورة تقول أن المفعول به امرأة

ولكن لا

كان هو المفعول به

هو المخدوع.. الساذج والغبي والأحمق

ولم تنال على يديه موت وحتى الفضيحة كتمها كي لا تموت بالحسرة أمه

نالت الطلاق واختفت بعهرها من عالمه

ولم يعد هو أبداً كما كان

أو كما تخبره أخته الكبرى

حتى ابتسامتك اختلفت يا مصطفى

- سرحان في ايه

كما العادة تقطع شروده رانيا، ورانيا امرأة جميلة بل امرأة تقطع شرود آي رجل

تكفي نبرتها المبحوحة وحروفها البطيئة التأثير، تمر فوق الأذن بإيقاع محسوب فتصل نحو وجهتها تماماً

ابتسم بمكر وازى تعلق عيناه بخصرها ثم تابع بنبرة رزينة:

- اجهاد شغل

والنبرة تتلون تبع مزاجيته الخاصة:

- ممكن محتاج مساج

- يبقى تعزمني على العشا وبعدين نفكر

وشفتيها تجيد الابتسامة في ذاك موقف، فلا هي تعد ولا تقدم نفسها بيسر ولكنها تظل امرأة ممتعة

بل أكثر من عرفهن متعة

ومع خطواتها نحو باب الخروج وجد عيناه تحيد بالنظر نحو هاتفه وحروف خاصة

سجل رقمها مؤخراً مع وعد واهي بدعمهم بحفل قريب بعلاقاته

كذبة بيضاء والكارثة أنه ينسجها حول طفلة!

ولام نفسه

وجاورت الملامة لعنة

هي بعمر تميمة

بل أصغر!

وهي لا تغادر عقله..

****

سواح وماشي في البلاد سواح

والخطوة بيني وبين حبيبي براح

مشوار بعيد وانا فيه غريب

والليل يقرب والنهار رواح

وان لقاكم حبيبي سلمولي عليه

طمنوني الاسمراني عاملة ايه الغربة فيه

هل تستمع الخيول في جوف الليل لكلمات عبد الحليم!

أصدر أبيها فرمان وهي تعصيه..

تتجاهله وتُمنِّي نفسها بنظرة, لفتة واحدة لهذا الساخط خلف الحاجز الخشبي.. هو محبوس بسببها وبشكل ما تشعر بالذنب

وهمست بحماقة

"حاسميك عشق"

واستدارت لتعود أرداجها قبل أن يشعروا بغيابها عن المنزل..
حتى أن عجلتها لم تمهلها استيعاب رائحة التبغ!

وضاعت الهمسة وسط الصرخة حينما اصطدمت بصدر عاري
وظلام عينين طغا التبغ على تفاصيل أغوارهم

عيناه ككهف مظلم لا يدرك دواخله أحد

"محمود"

الفصل الثالث

ماتفوتنيش أنا وحدي

ماتفوتنيش أنا وحدي أفضل أحايل فيك

متخليش الدنيا تلعب بيا وبيك

لم يكد يُتّم أيام ويشعر بالملل, فمنزل رقية مثالي بدرجة سخيف جداً.. فطائر برائحة زكية في كل وقت وعصير البرتقال الطازج في الصباح وضوء الشمس الذي يتسلل للمنزل كله مع دقات الساعة التاسعة وموعد الغذاء المقدس والمائدة العامرة وصوت أبيه الجهوري بداعٍ وبدون وفي المساء جيتار خالد

تظن رقية أنه جاء ليلوث الجنة! هو اختار الجحيم..

أسند رأسه على الجدار وجالت عيناه ببطء في المكان حوله, الإسطبل قديم لا يحتوي سوى على ثلاث حجرات شاغرة إن صح التعبير والنزلاء حصان عجوز ومهرة عربية ثمينة و.. عشق!

ولم يدرك وحشة ابتسامته حين مر بخاطره اللفظ.. بل هو نفسه لا يدرك حينها لمَ اختاره, هو لن يُرَوَض لا بالعشق ولا غيره..

هو يستحق أن ينال عالمه الذي يريد لا أن يقيد بلجام لتصبح أقصى أمانيه صفير الجمع ورضى الخيَّال.

أشعل لفافة تبغ هي الخامسة في تلك الدجنة وضاقت عيناه بقسوة مع صورة أمه.. تتقرب إليه فقط حينما تريد.. تسب رقية وتلعن حسن وتصطدمه بالواقع دون رحمة

أنه لا شيء..

بل هو لا يمثل فارق والأب الحنون بابتسامة وعناق لن يعدل

واللفظ مؤلم قاسي.. خانق حد الاستغناء عن دخانه!

العدل

هل ناله بحفلات أعياد الميلاد.. الهدايا الثمينة.. مصاريف الجامعة

هل نال خالد زُرقة حزام جلدي غليظ..

وتوحشت النظرة واللمحة.. حتى الأنفاس باتت مخيفة

هل سيأخذ الأب بذراعه كابن أكبر إذا مثلاً ما أراد تميمة!

أم هي مثلها مثل كل شيء في عالم أبيه, حيث تبقى الأولوية لخالد.. وطالت الزفرة ورسمت بحرفية تفاصيل السحابة, بل الخطة والهدف وما يستحقه رغماً عن الجميع

التميمة التي يحتفظون بها لخالد..

****

"حاسمّيك عشق"

وكانت مصادفة حلوة النكهة لونت غيمته الخاصة أم نقول جحيمه.. تشب على أطراف أصابعها وعيناها تختطف نظرة من خلف الحاجز لشيطانها الأسود وتدعي القوة وتدعي السيطرة وتدعي عدم الدلال وهي مدللة بالفطرة

مدللة رغماً عنها

مدللة بساقيها الكريمتين اللاتي يظهرن بسخاء من تحت سروال كاكي قصير حتى الركبتين وقميصها الأبيض اللطيف والمناسب أكثر لفراشها المريح ومشروب اللبن الدافيء الذي ستحرص عليه أمها وتسكبه هي في نبتتها القرمزية في تمرد.

مدللة بلون خصلاتها الذي ورثته عن أمها بتفاصيل البندق وإضافة القهوة, مدللة بتموج الخصلات حد المشاكسة وحد الشقاوة وحد الاستحواذ!

ما إن تخللت أصابع رجل تلك الخصلات لن يتركها أبداً..

واستدارتها وازت شهقة.. بل أن الفزع تمكن من وجهها كله فنال شحوباً تلاه احمرار.

غضب أو خجل لن يشغل باله بالفارق فالواقع حمل عبقها بين صدره ولو أن الأمر لم يتعدى اللحظة واللحظة مسلية وممتعة ومناسبة لأي رجل حتى أنه أكمل سيجاره ولم يكترث بإغلاق قميصه ولا بزعيقها الرافض لحمرتها كأنثى:

- إنت بتعمل ايه هنا؟

وأحد خصلاتها كانت قد شردت لتتعلق بجانب شفتيها.. مشهد وهمي لن يفهمه أحد دون سوء نية أبداً!

أطفأ لفافة تبغه ثم ضمّ شفتيه ساخراً:

- بشرب سجاير

- نعم!

- وإنت بتعملي إيه هنا؟

والآن هو يسأل.. بل يتجاوز وهذا ليس من حقه ولمعت عيناها برفض ولكنه لم يعطيها فرصة, بل خرجت نبرته التالية شرسة:

- إزاي تخرجي لوحدك بالليل كده.. مش خايفة!

- وأخاف من إيه؟

وجملتها وازت تقهقراً أمام خطوة تتقدم منه

- من أي حد..

- مش خايفة

وتوقفت لم تتحرك رغم اقترابه.. رغم عيناه التي بشكل ما تهدم سلامها النفسي.. عفويتها.. صباحها المشرق وانفرادها بصهيل الخيل وصبيحة الجمعة بإفطاره المتأخر وفطائر رقية وصوت جيتار خالد

كل شيء يختلف.. يقلب المائدة رأساً على عقب..

يقترب منها ويتخطاها ويميل بأكثر مما يجب ليهمس بخشونة لم تستغرق أكثر من ثلاث ثوانٍ:

- يبقى لازم تخافي

****

في منزل حمزة وليلى هناك طقوس، روتين ممتع ولكن ليس للجميع

ست أكواب ساخنة من الشاي بالحليب وشرائح الخبز والجبن والخيار والمبدأ

Help your self

ف ليلى إمرأة عاملة ولكنها ستبقى سوبر وومن

تستيقظ من السادسة لتقوم بإعداد الساندويتشات ثم توقظ الكبار أولاً بصراع يجب ألا يتعدى الخمس دقائق بدورة المياة

ليحين وقت التوأم الأصغر الذي يأكل الوقت بكل ما تحمله الكلمة من معنى

قاربت على السابعة والنصف ولم يرتدوا ملابسهم بعد..

- أنا لو بدفع غرامة تأخير في المدرسة دي كان زماننا فلسنا

قالها حمزة وهو يسحب شريحة خبز يقضمها متعجلاً ويراقب بغيظ صغيره الرايق كما يطلق عليه وهو يفرد ببطء الجبن الكريمي فوق خبز التوست المحمص وينظر نحوه بلامبالاة وكأنه يحادث طفلاً آخر..

- تاني شاي بلبن

وكانت تلك نبرة أخيه الأصغر بفارق ثلاث دقائق والمسحوب من لسانه كما تطلق عليه رقية

- أنا زهئت

- عيب يا ولد ماتقولش زهئت على نعمة ربنا

- وهو مفيش من نعمة ربنا غير الشاي بلبن

- اسكت يا حمار اش فهمك إنت

- حمززززة

وتدَّخُل ليلى الصباحي في الحوار بذات الكلمة.. ونظرتها الصارمة تنبئه أن يراقب حديثه مع الصغار ويبتسم عن غير اقتناع ويكتم حديثه والصغير لا يرحم:

- أنا عايز نسكافيه

فرك جبهته واستسلم للأمر الواقع بأن موعد الحصة الأولى ضاع وعليه العوض

- عيب الكلام على الأكل يا ياسين

- أنا مش ياسين أنا يحيى

"صبرني يا رب" وكان ذاك همسه

- خلص فطارك يا يحيى

- أنا مش يحيى أنا ياسين.. في أب ميعرفش ولاده

وليت الصغير يمزح، ملامحه تحمل كل جدية.. أما هو فاحمر وجهه لينقض جانب المشاكس الذي أنهى على تاريخه العالمي:

- خلص فطارك يا كلب وإلا حتنزل من غير ما تاكل

- حمززززة

استدار نحوها وقد فاض به الكيل

- سكتي الواد ده

ابتسمت وهي تراقب يأسه المكرر مع الصغار ثم سحبت حقائبهم لتناوله إياها مسرعة وهي تهمس بجدية:

- لما ترجع عايزاك في موضوع

فتح الباب ليتحرك الصغار وخرجت منه زعقة يائسة:

- مفيش مواضيع

- ايه!

- ليلى كفاية الأربع مواضيع اللي مطلعين عيني مفياش حيل

كتمت غيظها لتزجره بصوت منخفض

- حمزة أنا بتكلم جد

دفع صغيريه ببطء ليتخطوه نحو الدرج ثم طبع قبلة صغيرة فوق وجنتها ليهمس بمشاكسة لم تختطفها منه السنوات:

- ليلى انت بتحملي من الكلام أساساً.. بس وماله حضري لبس مارلين

وتركها لحنقها المكتوم وتلك الابتسامة التي تسللت في النهاية نحو شفتيها، نحو مشاعرها كأنثى..

....

أسندت رأسها فوق صدره تراقب عقارب الساعة التي تخطت العاشرة ثم زفرت بيأس:

- أنا أتأخرت على الشغل

أغمض هو عيناه ليرتخي جسده فوق الفراش ثم أغلق هاتفه ليغمز لها بمزاح تخلله تثاؤبه:

- أنا مش حروح الشغل.. حنام حيلي اتهد

- حمزة استنى

ونبرتها كانت جادة ووازت ليس فقط انفعال عينيها القلق بل ضغطة قوية فوق ذراعه أخبرته أنها تحمل في جعبتها أمراً مهماً بحق..

- ليلى في إيه خضتيني؟

- أحمد

وزفرتها كانت تنهيدة طويلة.. توأماه أحمد ومحمد لم يأخذا عنه جنونه كما الصغيران.. بل هما بشكل ما يشبهان ليلى خاصة أحمد الذي ورث طباعها الهادئة وجديتها خاصة في العمل

وهي قلقة.. ملامحها قلقة على أحمد رغم محاولتها تجاهل الأمر حين أرادها معه..

- ليلى في إيه قلقتيني!

- أنا بصراحة مش عارفة هو موضوع يقلق ولا عادي

- ليلى انطقي

وهو الآن يشعر بالقلق، وقالتها هي دفعة واحدة فما بداخلها لم يعد يحتمل تأجيل

- أحمد بيحب

ورغماً عنه سخرت عيناه، ليلى تضخم الأمور

- طيب وايه المشكلة؟

وانحنت شفتيها بالانفعال المطلوب وهي تتم الجملة:

- المُدَرِّسة بتاعته

****

رغم مرور السنوات المكان كما هو لم يتغير.. غرفة مكتبة الخشبي المتواضع والآخرى التي يستقر بها حسن.. الأثاث القديم والسجادة ذات النقوش التي تأملتها أمها يوماً هرباً من عينيه.

وتميمة لم تكن تتأمل النقوش ولا وجه سكرتيرته الشابة المنشغل مع عدة أوراق تستدعي توقيعه بل توترت عضلة جبهتها, تلك التي تتحول للون شبيه بالأزرق كلما أصابها القلق..

أو الغيظ.. أو الغضب.. ومنذ الأمس هي تمتلك الكثير منهم

والآن التوتر يحتل القائمة.. فهو أيضاً جالس في الأريكة المقابلة لها تماماً ولباسه رسمي وأغلق قميصه ويا مغير الأحوال استغنى عن لفافة التبغ!

وعلى ما يبدو في انتظار موعد...

البيج بوص استدعى كلاهما!

- آنسة تميمة اتفضلي

أحلام.. سكرتيرة أبيها الرسمية للغاية ولا تعرف هل اختيار أحلام هو بوازع من أمها التي ربما ما زالت تغار أم أنه هو أبيها من يفضلها هكذا.. جدية ورزينة وترتدي نظارة طبية تبتلع نصف وجهها تقريباً

ولا تعرف لمَ هي مستغرقة بتفاصيل أحلام وكأنها تهرب من تلك المواجهة المبكرة, كانت تنوي خداعه والانفراد به في حديقة منزلهم مع لوي شفتين طفولي وذكريات من صورة

تجمعهما سوياً ثم تحين وصلة الاستجداء التي ستنتهي في النهاية لصالحها

فهو لا يغير قراراته سوى لتميمة وتغضب إيناس وتزجره وتضيق عيناها وتترك لهما الجمل بما حمل ولكن الآن الأمر يختلف..

هو غاضب.. وسيحاسبها قبل الموعد وأيضاً معها هذا ال..

مهلاً..

هل ينظر لأحلام.. هل تخضبت وجنتي الرسمية بخجل

غبي!

وسبقته بزوبعتها نحو المكتب

ولكن مجرد زوبعة لحظية.. انتهت تماماً بلفظ أبيها القاطع دون أن يرفع نظره نحوهما:

- اقعدوا

أنهى توقيع الأوراق بيده ثم استدعى أحلام وتابع بجدية وهو يتخلص من نظارة القراءة خاصته:

- خلي المهندس حسن يوقع وبعدين ابعتيهم

- أمرك يا بشمهندس

وخرجت.. وأغلقت الباب.. وحان وقت المواجهة

والآن هي لا تعرف أهو تأنيب بشأن عشق أم أن هذا الماكر قد وشى بها.. لا لا هو لم يفعل.. هو سيُدان بدوره

- في حاجة يا تميمة

أخرجها صوت أبيها من شرودها لتنطق وهي تجول ببصرها بينهما:

- لا.. مفيش

اضجع خالد في جلسته لوهلة قبل أن يتابع وعيناه تضيق بينهما بحدّة:

- مباديء الترويض إيه يا تميمة

- هه

ولم يكن هناك متسعاً ل "هه"

تابع بغلظة أرجفتها:

- مباديء الترويض

- الأول نعوده على السرج وبعدين اللجام وأدهن الشكيمة بالعسل علشان يقبلها وأول التدريب مشي وبعد كام يوم هرولة والركوب مش قبل أسبوعين..

التخويف مطلوب لكن الأهم منه الثقة. الخيال لو مكسبش ثقة الحصان بتاعه عمره ما حيروضه أبداً..

كانت كلماتها تخرج بشكل ديناميكي واضح.. تحفظه, تحفظه عن ظهر قلب كمقرر منهجي طويل وبشكل ما تشعر أنه لا يناسبها

عيناها ترفض.. ملامحها ترفض.. لغة جسدها ترفض

رفع خالد حاجبه الأيسر ليفكر بتمعن ثم أعاد سؤاله بشكل آخر وبنبرة أهدأ:

- و إنتِ حتروضي الحصان بتاعك إزاي

وشعرت أنها صمتت لدهر.. ورغم هدوء نبض العضلة الشاردة إلا أن عيناها كانت تكتم ضجيج:

- مش عارفة

ولا ينكر أن أنفاسه ارتاحت فخراً بابنته.. ابنة أبيها

مع الخيل لا مكابرة.. لا العند سيجدي ولا الثقة تكفي وحدها. هي علاقة خاصة إذا ما بُنيت لا تهدم أبداً ويكمن السر في الوقت..

- خلاص

نطقها بشكل واضح ثم توجه ببصره نحو محمود, قاطعته وقد ضاع عنها الفهم:

- يعني ايه خلاص.. وعشق

- عشق!

وكانت عيناه متعجبة.. بل أن كلا حاجبيه ارتفعتا في اندهاش وتلك طريقة أبيها المعهودة في التعبير عن ما يثير فضوله

- سمّيتُه عشق

وأنفها رفعته في شموخ.. هي لا تعرف كيف ستقوم بترويضه ولكنها اختارت له اسم.

راقب محمود رحيلها في صمت ثم أخفض رأسه بتعبير مهذب ليبدأ هو الحديث:

- أنا عارف إن حضرتك حتلومني

- يعني عارف إنك غلطت

ونبرة خالد أكثر من جادة, وهو لا يحتاج لمواجهته بنفسه ليعرف عن قسوته في العمل هو سمع الحكايات ومنذ زمن.

شبك أنامله ثم أسند ذراعيه فوق ركبتيه متابعاً بصوت خفيض:

- مينفعش أقف قدام الحصان وأنا مش قدها

التوت شفتي خالد بسخرية:

- مباديء السلامة

وقابلتها سخرية محمود ولكن بكياسة:

- وأنا منفذتهاش

تنهد خالد للحظة قبل أن يتابع متخلياً عن قناعة القاسي:

- أنا حفوتها المرة ي علشان..

وقاطعه محمود بكبرياء:

- لا

ضم خالد حاجبيه في اهتمام وحينها تابع الآخر في حدة لم تفقده لباقته:

- يا ريت حضرتك تتعامل معايا كموظف عندك مش كابن المهندس حسن

ورغم ثقته توتَر.. نظرة هذا الرجل ستصيب من أمامه بالتوتر أياً كان.. ابتلع ريقه وابتسامة خالد تعود لوجهه ببطء مع نبرة أجشة:

- ممتاز.. كده على حسب القانون إنت أخدت أول إنذار

وتابع بعد أن سطر ما يريد في الملف أمامه:

- تاني إنذار رفد

وتعبيره كان قاسي ولكنه مطلوب.. تعبير يستحقه رجل مثل محمود.

- عنئذنك يا فندم

واستقامة وازتها مصافحة.. مصافحة شدّ على تفاصيلها خالد ليكمل دون أن يترك يده:

- وكأب بشكرك لأنك أنقذت بنتي..

ورغم التساؤلات التي تجول بصدره بشأن هذا العائد إلا أنه لا ينفي أنه يذكره بنفسه..

وهذا ما يقلقه

****

عشرون عاماً فارق جلّ

يحمل حنكة رجل وحماقة فتاة!

أو ثقة.. وذاك أسوء

قطبت حاجبيها وصيغة الاعتذار تهرب من ثنايا عقلها البائس، بل تلعن خالد الأحمق الذي فوت عليهم فرصة لن تتكرر

والسبب غموض وتعقيدات العلاقة مع عائلة تميمة وخاصة خالها الأعزب الذي يبدو لسبب ما أنه لا يطيقه

زفرت..

"أنا آسفة برنامج الفرقة زحمة الشهرين دول وحنأجل الموضوع شوية"

أغبى رسالة نصية في العالم! الرجل يعرض المساعدة وهي تجيب ب.. "مش فاضيين"

زفرة ثانية وتجربة آخرى

" الامتحانات قربت وحنوقف نشاط الفرقة"

وتكذب لتنجو وهي غبية فهو ببساطة قد يعرف تفاصيل جنونهم بجملة عفوية من تميمة

زفرة رقم ثلاثة وكان قراراً أسوء، لم تنص أي رسائل..

هاتفته...

وكان هو يتناول غذاءه وحيداً.. المطعم هادىء خاصة وقت الظهيرة ويمتلكه صديق مع زوجة من أصول آسيوية، كان يتصفح القائمة بملل حين أضاء الهاتف

ندى..

والاسم سجله بالعربية فبشكل ما رؤيته على الشاشة أفضل وهي متلجلجة ونبرة صوتها نادمة على الاتصال، بل بشكل واضح لا تجد ما تقوله..

وصرف النادلة الهزيلة بإصبعه بينما تشكلت ابتسامة ماكرة فوق حواف شفتيه والصوت الرقيق يبرر

- أنا آسفة شكلنا حنأجل موضوع الحفلة شوية

وخالد شاب لطيف، يظن أنه بعضلاته النامية قريباً وخطوط شاربه الذي لم يكمل بعد سنواته العشر أنه سيكون الدرع الحامي لصديقته الصغيرة، يكشر عّن أنيابه ويزعق وتتلون نظرته

بتحذير صارم ويقف فوق عرش الملك بفرقتِه الغنائية لحماية الفتيات

وهذا جيد..

ولكنه ساذج، هو فعل ما يريده تماماً

وعادت ندى للتبرير، ونبرتها خجول تبرر رفض مساعدة راقية منه..

- الامتحانات قربت وخالد بيقول مش حينفع نتفق على حفلات جديدة

وها هي قالتها في السياق.. كلمة السر "خالد"

ولم يعقب بالكثير، سياقه هو كان كلمة آخرى ولها مفعول السحر

- براحتك

والنبرة غاضبة.. مباشرة وجافة ومبتورة لإنهاء حوار، وتجدي جداً مع الأنثى

وتلجلجت هي من جديد، ببراءة تشعر بالذنب!

- أنا آسفة والله حضرتك شكلك زعلت

- أنا مش زعلان منك يا ندى

واختلفت النبرة.. باتت ناعمة، الوضع يشبه لعبة شد الحبل.. أنت ترخيه وتبتسم تضحك وتبعث بالنفس الاطمئنان وحين الوقت ستجذبه فجأة

ولن تنال حينها الفوز فقط، بل ستنال من تريد بأحضانك..

وهو نال البداية..

النبرة الغاضبة وشعور الندم الذي تسلل إليها من رفضهم لمساعدة بريئة تؤمن بمواهبهم الفذة

أو تنوي أعطاءهم بطاقة خاصة اذا ما أرادوا بوقت ما ترتيب حفل بساقية الصاوي

كلمة سر لن تخيب أبداً وتوضيح عاجل منه بوجوده الآن بمطعم قريب من منزلها اذا ما أرادت البطاقة

وواجب اعتذار عليها ستقدمه بشكل شخصي وستأخذ البطاقة لا لأنها لاهثة خلف الحفل بل لأن الرفض مرة ثانية قلة ذوق لا تمتلكها خاصة مع رجل لطيف

"أخو طنط إيناس"

****

بلوزة قطنية فاتحة بنقش لامع بلون وردي فوق سروال أبيض له تصميم رياضي أنيق وفوقهم سترة صيفية خفيفة بلون أزرق فاتح.. شعرها جمعته في جديلة قصيرة ورفعت باقي خصلاتها المتناثرة بنظارة شمسية رفيعة الإطار وهي صغيرة لتعرف من مستحضرات التجميل الكثير ولكن أنوثتها تشبثت بأحمر شفاه

وردي ليعطي شفتيها امتلاءً لا تدرك خطورته فتاة صغيرة مثلها أما العطر فهو لا شيء يعرفه وعلى أغلب تقدير هو مزيل عرق بعبق ورود منعش.

ولا ينكر حينها كم كانت مغرية ابتسامة شفتيه المشاكسة لحاله كما حيرتها وهي تجول ببصرها في مدخل المطعم باحثة عنه، بل يشاكسه العقل نفسه

ماذا تريد منها يا مصطفى

ندى ليست بامرأة لعوب سينال منها متعة فوق فراش وليست بفتاة مراوغة تبحث عّن صيد ثمين يقطعه هو بانتصار يستحقنه أمثالها.

ندى بريئة ربما أكثر مما يجب

أكثر مما يجوز لتكون في محيط رجل مثله، فهو بكل تصور ممكن لا تناسبه البراءة ولكن سيبقى السؤال.. هل يستحقها!

- أستاذ مصطفى

والبراءة لا تدرك أن أستاذ مصطفى له أكثر من دقيقة ونصف شارد في تفاصيلها.. ولا تدرك أيضاً أن كلمة "أستاذ" تضحكه كما تَرَدُدها كلما حادثته باحثة عن لقب مناسب فهو ليس "خالو" كما تصرخ بها تميمة وليس "أونكل" كما اعتادت هي أن تنادي والد خالد ولهذا فلفظ أستاذ يبدو اختياراً مناسباً تماماً.

وابتسم مرحباً وجلست هي بإشراقة لا تناسب المكان..
فالمطعم مظلم بجدران نبيذية اللون وطاولته هو جانبية تحمل خصوصية مطلوبة لزبون مثله طالما يتكرر همسه فوق أذن امرأة جميلة.

ابتلعت ريقها بتردد قبل أن تبدأ متعجلة الحوار:

- أنا آسفة مرة تانية و....

- هششششش

ومقاطعته كانت هادئة وازاها بابتسامة مسيطرة وجذب قائمة الطعام يتفحصها بجدية:

- أنا جعت جداً.. ناكل وبعدين نتكلم

وتصلبت شفتيها بحرج، كانت تنوي الاعتذار وأخذ البطاقة فقط دون مشاركة مطولة بموعد غداء!

وبَتَرَ هو هروبها قبل أن يبدأ

- تاخدي ايه

ولاحظ تجول عيناها على القائمة في حيرة قبل أن تلوي شفتيها في اعتذار صادق

- أصل أنا مش بحب الأكل الصيني.. معدتي مش بتستحمله

لم تلحظ أنه ظل يتأملها لفترة قبل أن يستطرد وهو يسحب مفاتيح سيارته ويترك القائمة:

- خلاص يبقى الغدا النهاردة على ذوقك..

واستقام واستوعبت هي الأمر بعد ثلاثون ثانية. هي راحلة معه لتناول الغذاء في مكان آخر..

وكانت تلك وحدها معضلة..

هي لا تعرف من المطاعم سوى خاصة الوجبات السريعة المزدحمة بضوضاء تناقض رقي اختياره ووجبات التيك اواي التي تبتاعها في طريق عودتها للمنزل.

الآن تبدو فكرة المطعم الصيني ليست سيئة على الإطلاق!

وحينما سألها لثالث مرة عن الوجهة لم تملك سوى أن تشير لأحد البقع المضرّة لأي نظام غذائي فكرت أن تتبعه..

- حنروح هنا!

وكما توقعت تماماً، كان المكان مزدحم حتى أنها بمعجزة وجدت طاولة صغيرة بالكاد تكفي لفردين وتأخر النادل عشر دقائق لكي ينظفها..

رفعت كتفيها بحرج لتنطق تلو هذا بيأس:

- نروح مكان تاني

ابتسم لها بأريحية ثم تخلص من سترته الكلاسيكية ليعلقها خلفه على المقعد جالساً بأريحية مد بها ساقيه الطويلتين حول المائدة ليهمس بعدها بصوت دافيء:

- اطلبيلي على ذوقك

وانزاح التوتر عنها تماماً بعدها بحوالي ربع ساعة.. كان يلتهم شريحته بنهم ويكتم ابتسامته وهو يجفف بمنديله باقي الكاتشب الذي تسلل من فوق قطعة البيف برجر

- أنا بقالي كتير ماكلتش هنا

ابتسمت ببراءة وهي تنهي مشروبها المثلج:

- أنا علطول هنا

ثم تابعت ضاحكة بعفوية:

- ماما خلاص يأست مني.. بتقولي بطلي عكّ

كان قد اقترب من إنهاء شريحته، تركها وفتح مشروبه البارد ليضيف له بعض الثلج ثم تخلص من الغطاء والماصة المزعجة ليتجرعه مباشرة من الكوب وتابع وهو لا يحيد نظره عنها:

- الحياة بتحتاج أوقات شوية عكّ.. وإلا حننفجر

لم تفهم مقصده، ابتسمت مومئة وعادت للمشروب ولباقي طعامها:

- أنا صدعت حضرتك.. المكان دوشة بالنسبة للمطعم التاني

- ليه متقوليش مختلف

- وده حاجة حلوة ولا وحشة

وسؤالها كان طفولي، حمل ملامح انفعال عينيها وهي تبتسم وترفع كتفيها في استفسار مشروع تماماً

هل أعجبه اختيارها أم أزعجه

وأنهى باقي المشروب وهو يناولها البطاقة التي أخبرها عنها مع وعد مغري بترتيب تقديم خاص لها وللفرقة وفي نفس يوم حفل منير

هل قال منير!

هل يجوز تقبيله؟!

وكانت شاردة في البطاقة وأحلامها حتى أنها لم تستمع لهمسه الأخير

نصف الكلام همسه ونصفه أفكاره

- المرة الجاية برده حتختاري المطعم..

ولكن سنجعله موعد عشاء..

الفصل الرابع

وهتبتدي الحكاية من كلمة صغننة

حكاية جديدة خالص من تأليفي أنا!

كانت هناك طفلة, تقرر في لحظات جنونها أن تُكمل هي الحكاية.. يصيبها الضجر من حذاء سندريلا ولا تستسيغ مذاق تفاحة سنو وايت ولا تنتظر الشاطر حسن فوق حصان.

هي تمتلك الحصان

ووقتما تريد تمتطيه وتركض!

مسدَّت عنقها ببطء وهي تنظر لطبق المعجنات الممتليء أمامها حابسة أنفاسها بين شفتيها دون شهية. دعوة إفطار صباحية غير

قابلة للرفض ألحَّت بها رقية حين اعترضت طريقها بتلك الابتسامة الصافية التي لا يرفضها أحد.

هي تحب رقية.. تناديها ماما بأغلب الأوقات وتتفهم سر اهتمامها الزائد بخالد ولكنها تكره أن يجبرها أحد على شيء وحتى لو كان دعوة إفطار وطبق ممتليء وفول وبيض مسلوق وجبن وجرجير!

من يأكل جرجير في الصباح

كتم ابتسامته ثم قضم البيضة ببطء وهو يتأمل ملامحها التي بدأت تميل للون الأصفر.. هي لم تبتلع الطعام قط بل تشعر بالغثيان!

وملامحها خير دليل..

قطعت رقية فترة تأمله وعلى ما يبدو عن قصد:

- ما أكلتيش يا تميمة

- لا أكلت

- حبيبتي طبقك بحاله.. ولا أكل ماما رقية مش عاجبك

- ماما تميمة ما بتحبش البيض

وكانت تلك نبرة خالد التي خرجت بشكل عفوي مع حركة يده وهو يزيح طبق البيض من أمامها ويرمق أمه باستغراب لتنتبه رقية:

- اه حبيبتي أنا نسيت خالص.. بس معرفش إن ريحته بتضايقك

والشفتين ملتصقتين بشبه ابتسامة ومحاولة منع الشهيق والزفير على سواء.. استقامت فجأة وكأنها وجدت في حروف خالد نجاتها:

- أنا آسفة يا طنط بجد بس فعلا مش قادرة

وفي لحظة كانت قد علقت حقيبتها لتترك المقعد مع صوت رقية المهتم:

- طيب استني خالد يوصلك.. رايحة الجامعة ولا الإسطبل

كانت قد فتحت الباب بالفعل.. تحتاج للهواء.. لنقاوة الأنفاس بعيداً عن رائحة البيض والفول والشاي والحليب والجرجير

ولا تعلم لمَ يزعجها الجرجير..

ابتسمت وهي تقذف بحقيبتها في السيارة:

- أنا رايحة عند الإسطبلات.. سيبي خالد يكمل فطاره مش مستاهلة يعني

ولم تدرك أن نبرتها كانت غاضبة.. وليس من رقية بل من هذا الذي رمقها بابتسامة ساخرة حين لمح تأففها من البيض.. سخر والتهم بيضه وجرجيره وخبزه وكأنه عبد العال سكينة في ليلة الزفاف برومانسية منقطعة النظير!

ولا يجوز أن تبدو وسيماً وأنت تلتهم البيض والجرجير

لا يجوز أبداً!!

****

على قارعة الطريق دوماً ما تبدأ حكاية, والأفلام الرومانسية خير شاهد بداية من مصادفة تصادم.. مغازلة ليست بريئة.. ونظرة مطولّة نحو ملكة جمال ميامي!

ولكن ماذا عن قارعة الطريق التي تحوي جسداً منثنياً بألم وبين ضفيرتين معقودتين بإحكام يُجاهد وجه شاحب في التقيؤ!

ومهما بلغت ثقة المرأة بنفسها.. أو غرورها.. أو حتى تهورها فوق صهوة جواد لن تقبل أبداً بأن يراها رجل جوار قيء..

- إنت كويسة؟

ولا تعلم متى ظهر.. بل حتى أنها لم تستمع لصوت سيارة تتوقف أو ما شابه, تشنجت قبضتها فوق معدتها بينما يدها

الآخرى تشير إليه بإشارة غير مفهومة. هي تودّ أن تقول أنا بخير وارحل وهو يلمح تشوش

- تميمة..

حسناً هو يقترب أكثر, رائحة تبغه تعبِّر عنه والحمد لله شتتت نكهة البيض

رفعت عيناها بيأس ولم تمتلك حينها القدرة على إشارة ابتعد.. كانت قد انتهت وأنهى عليها الوضع إن صح التعبير.. أسندها بلطف حتى وصلت للسيارة وكانت جيب حمراء مفتوحة من تلك التي يستخدموها في التنقل داخل المزرعة.

ارتخى جسدها على المقعد بضعف, وكانت أنفاسها بطيئة بسبب ما بذلت من مجهود.. رفع ذقنها نحوه ليسألها بنبرة عالية بعض الشيء:

- معاكي عصير أو حاجة

أومأت بلا.. زفر بحيرة ثم وثب لمقعد السائق بحركة سريعة يضم حاجبيه بقرار لا حوار:

- خلاص حرجعك..

حركت سبابتها برفض واضح رغم خفوت نبرتها:

- لا.. كمّلِ على الإسطبلات حاجيب أي حاجة من الكافيتريا

ظل مستديراً نحوه لفترة دون تعبير واضح قبل أن يرفع ذراعيه بلامبالاة:

- براحتك.. بس أوصل بيكي فايقة مش نايمة على كتفي

تصلبت كلماتها ولا تنكر أنه نجح في إفاقتها بشكل أفضل من عشر زجاجات عصير. تنفست ببطء مكشرة عن أنيابها:

- نعم!

كان قد أدار مفتاح السيارة بالفعل, تابع وهو يؤرجح سيجارته بين شفتيه:

- مش عايز أوصل بيكي نايمة على كتفي كلامي واضح..

قد المشوار كملي مش قده نامي في سريرك

أغمضت عيناها بغيظ تتحاشى الغضب ليس هروباً منه ولكن لإفتقادها فعلياً للطاقة

- سوق وإنت ساكت يا محمود

- حاضر

وهي لم تلمح بين الشفتين شكل الابتسامة.. كل ما شعرت به جسدها الذي ارتد بعنف إلى الوراء حتى أنها اضطرت للتشبث بالسقف المعدني للجيب كي لا تُقذف بجسدها للخارج.

وتلك هي قيادته.. "وهو ساكت"

****

نظرية الرجل عن المرأة واحدة لا تتغير هي تضخم الأمور..

الصرصور حشرة ضخمة ومكالمة زميلة العمل زواج عرفي مستتر والشرود كارثة عاطفية والإبن الأكبر عاشق!

ولسان حاله أن ليلى تضخم الأمر.. ليلى تقلق زيادة عن اللازم وليلى تخبره أن حدسها ليس وساوس أم.

بل جواب غرامي في درج مكتبه..

اسمها خلود وهي مدرسة الكيمياء بصفّهِ وعلى ما يبدو غير متزوجة وأحمد ينثر أحاسيسه حسب خطابه للمرة العاشرة

يحاول ويخجل من الاعتراف

أسند رأسه على مقعد السيارة وهو يبتسم بيأس متذكراً الخطاب الغرامي الذي صورته ليلى بهاتفها الجوال أربع صور بجودة

مختلفة وملامحها المقتضبة وهي تكبر وتصغر الشاشة على حروف اللوعة الخاصة بمراهقها

حينها لم يستطع أن يكبح جماح لسانه فخرجت مزحته في غير وقتها:

- أهم حاجة مسحتي بصماتك من على الدرج

ونظرتها حينها كانت كافية ليهرب ففي تلك اللحظة كان سيسدد ذنب أحمد وكل أحمد على وجه الأرض فكر أن يعشق مدرسته

والخطة لم تكن مبتكرة.. هو ولي أمر يودّ أن يعرف مستوى ابنه والحقيقة هي رؤية معشوقته وبطلة أحلامه ويقظته كما نص بالخطاب!

رفع حاجبه بتفكير مزعج

"الواد جاب الكلام ده منين"

ولم تكتمل أفكاره.. حضرت ولا ينكر أنها بددت الصورة التي رسمها في خياله. فهي ليست فاتنة ممشوقة القوام ولا تشبه مدرسات الموسيقى في أفلام الزمن الجميل بأحذيتهن الناعمة ونبرة هند رستم

كانت مختلفة

جميلة لا ينكر وهادئة النبرة وضعيفة الجسد والبنية وعلى الأرجح جميع طُلابها يفوقنها طولاً.. ترتدي وشاحاً هاديء الألوان وشفتيها رفيعتين بمظهر أملس دون أي رتوش وتملك الابتسامة بالفطرة

حتى أنه ابتسم ولم يسألها عن مستوى الولد بل ارتشف قهوته ببطء وشكرها بل أطربها بمدح عن مستوى أحمد المبهر في مادة الكيمياء وكانت هي مهذبة بدرجة قدير جداً واحترافية بقدر الملف المعدّ باسم ابنه وتفاصيل مستواه وسلوكه في الفصل.

نصف ساعة من الراحة الغير مفهومة..

....

ولم تفهم ليلى شيئاً من ردّه.. بل توسعت عيناها بغضب وجميع الأمثال الشعبية المتأففة مرت برأسها وهو لا يقدم شيئاً يُذكر

مثلما ذهب مثلما آتى!

- مش فاهمة يا حمزة.. يعني إنت من كلامها حسيت بإيه

- بصراحة يا ليلى

- عايزة الصراحة

- ومن غير نرفذة

- حمزة اخلص

وشفتيها أصبحتا مزمومتين بتحذير اهرب مع أربع خطوط حمراء فهو يواجه جنون الزوجة وقلة صبر الأم

- بصراحة.. هي تتحب

وسخرية ملامحه في لحظتها هي من أنقذته.. حتى ضحكته التي انفجر بها حينما أبصر ملامحها.. جذبت يدها مبتعدة عنه:

- إنت بتهزر والموضوع جد يا حمزة

كانت قد تحركت تتخطاه ونيتها الذهاب للعمل.. الهروب وربما الانفراد بأفكارها فيما يخص تلك المصيبة, جذب ذراعها بتحكم وجدية واضحة تلك المرة:

- ممكن تهدي

- ابنك كاتب جواب غرامي للمُدَرِّسة بتاعته

- والعصبية مش حل

زفرت بقلة إحتمال فأردف هو بنبرة جادة:

- أنا شوفتها وأهم حاجة هي غلبانة ومحترمة.. كده الكورة في ملعب أحمد وملعبنا بس

استدارت نحوه بترقُّب:

- حاتعمل ايه.. حاتكلمه

وابتسم هو باحتواء:

- حاكلمه.. راجل لراجل المهم إنت متتدخليش مهما حصل

ولا يعرف هل اقتنعت أم رضخت ولم يكن هذا هو محور اهتمامه في تلك اللحظة, كل مبتغاه كان عقل أحمد

يجب أن يفهم كيف يفكر هذا الولد

****

بشفتي الأنثى تفاصيل مجهدة.. ولا يدرك خباياها سوى القليل من الرجال.

وهو تربع على عرش هذا القليل, بل أصبح من ذوي الخبرة.. فرانيا تمتلك شفتين ناعمتين بمذاق سكري خاص. أما سماح فشفتيها رخوتين تضع فوقهما أكثر من مستحضر لتُخفي عيوب التشققات, وفي النهاية تأتي ريما وريما لا تحبذ القُبلات فهي بنظرها انفعال لا تستحقه.

عجيب أمر النساء.. مهما حاولت لن تفهمهن أبداً

وقطع علاقته ب ريما حين اكتشف أنها خائنة!

توجه نحو النافذة الضخمة التي تحتل ثلثي مساحة الجدار في غرفة معيشة منزله, وتطل على أحد الأركان النيلية الهادئة بحي المعادي بمدينة القاهرة. شقة دفع بها مبلغ وقدره بعد أن تخلص من منزل الخائنة بمحتوياته..

من خلف زجاج نافذته العاكس استطاع أن يلمح ابتسامة فتاة صغيرة تتلفت حولها كل عشر ثوانٍ على الأكثر ثم تعود لأناملها المتشابكة مع شاب عشريني لا يكف عن الهمس بأذنيها بكلمات الحب المكررة على الغالب. تشبه ندى.. ليس بالملامح ولكن هو تقارب العمر.. هذا السن الذي لا يفقه عن الحب سوى كلمات الهيام والقبلات المسروقة, هي تمثل البداية وأجمل ما في الأنثى بدايتها..

تتشكل بفضلك فتزرع برغبتك ما تشاء, ومن ثم تحصد فتنال كل الحصاد وحدك وبالشكل الذي قررته!

أنانية مفرطة ولكن أليس من حقه؟!

كان يرتدي قميصاً كلاسيكياً بلون رمادي باهت فوق سروال أسود أنيق, بيُمناه كأس كريستالي من عصير التفاح الفوار ويده اليسرى تستقر في جيبه بثبات مثل أفكاره. هو يشرد نعم ولكن تفاصيل أفكاره محددة لا تنحرف ولا تميل, هي مثل الخط المستقيم الذي يعرف وجهته والوجهة تلك المرة وجه دائري

بخصلات سوداء قصيرة وشفتين ورديتين بامتلاء شهي يذكره بثمار التوت الأحمر النصف ناضجة, ساقين قصيريتن تُخفيهما هي تحت بنطال واسع وأي رجل سيداعبه خياله بالسيقان العارية.

تنهيدة حارة مع ابتسامة غامضة وازت قُبلة رانيا التي على ما يبدو كانت قد بدلت ملابسها للتو وأعدت لنفسها عصيراً فواراً مثله.. تلقت وجنته هدية شفتيها الدافئة ببرود ثم تجرع باقي عصيره على دفعة واحدة.

لوت شفتيها بحنكة لتضع خاصتها على الطاولة وتتابع دون أن تنظر نحوه:

- زهئت؟

نظرته نحوها وازت علّو طفيف بحاجبه الأيسر, سؤال جوهري وهي تطرحه ببساطة تماماً.. وضع كأسه جوار كأسها ليحيط خصرها من الخلف بكلا ذراعيه مستنداً فوق كتفها بذقنه:

- مش عارف!

واستقرت أنفاسه الحارة بجانب عنقها وهي امرأة جميلة تمتلك عنق طويل تحرص هي على نعومته بمستحضرات عالمية, عبقها مميز بعطر باريسي شهير غالباً ما تنثر رذاذه خلف أذنها تماماً.. رانيا امرأة مغرية وفي كل ظرف ممكن ولكنه حقاً يشعر بالاختناق

فتلك هي المرة الأولى منذ سنوات التي لا يعرف فيها ماذا يريد؟

لا بل يعرف

ولكن معضلته كيف!

****

"زي القرد"

ورغم أن إدراج الكلمة غالباً ما يكون على لسان زوجة ملول عانت تبرم زوجها لساعات بشأن المأكل والملبس ونكهة البطيخ في حر أغسطس وفي النهاية يتأنق بليلة الخميس لمقابلة أصدقاءه إلا أن الكلمة الآن تلائمها تماماً

كانت تموت منذ ساعات والآن تقفز بفرستها بطاقة طفل منفعل التهم أربع أكياس من الشيبسي

ولم لا!

فهذا ما فعلته بالضبط، حين ترجلت من السيارة توجهت للكافيتريا لتبتاع شرائح البطاطس بالخل مع زجاجة عصير ليمون مثلجة واستفاقت بعدها بخمس دقائق..

بل تألقت

اختلفت ملامحها.. تمتطي فرسة رمادية يافعة وجهز لها أحد الساسة المضمار خصيصاً بعدة حواجز بدأت في تخطيها برشاقة.. أصبحت هي وفرستها كيان واحد، تنقبض عضلات وجهها ويرتفع وركيها من فوق السرج بمقدار إنش واحد فتقفز الفرسة بسلاسة مبهرة..

عيناه تتأمل تفاصيل كلاهما

هي بضفيرتيها الرفيعتين وشفتيها التي تلوكان قطعة علك بنكهة فراولة تعاركت مع البائع المسكين ليبحث لها عنها.. شفتيها لا مكترثتين تتجاهلانه وكأنه ليس هناك، وعيناها تتم التحدي فلم تخطيء النظر نحو بقعته ولو لمرة واحدة.

وفرستها عربية أصيلة بتكوين انسيابي واضح.. صغيرة الحجم لها عينان واسعتان بلون براق شاخصتين بحِدّةٍ فاتنة

الاثنتان لوحة.. ولكن هو اهتمامه ينصب على صاحبة الخصلات المنكهة بالبندق والقهوة..

- خلصت..

وصاحبة اللسان الأكثر فعالية في هدم أي لحظة مهما كانت تفاصيلها حضرت!

وقفت لانا تعدل من وضع بنطالها القصير ثم جلست جواره على ذات الرصيف الحجري لتخرج مصاصة ضخمة بنكهات ملونة ولعقتها في تلذذ، استدار نحوها غير مصدقاً نفسه أنها جلست بالفعل

- احنا مش خلَّصنا

- بابا اتأخر عليا

وديناميكية لانا بريئة حد حلواها، ولكنه لم يتعاطف.. تلك المرة لن يتعاطف هي طفلة مزعجة ولسانها سبع محطات إذاعة وربما لو كان أبيها لتأخر

أو هرب!

- كنت بتتفرج على تميمة

كتم غضبه ليستدير نحوها بزعقة مكتومة:

- لا.. وورايا شغل وشوفي حد غيري صدعيه

رفعت كتفيها في عفوية

- مفيش!

وهذا رائع.. تزعجه لأنه المتاح. وحين استقام ليباشر تدريبه الثاني لمح ما خطف الابتسامة من بين شفتيه حتى من قبل أن تكتمل

كان خالد وعلى ما يبدو في حديث جانبي هام مع الصديقة وخطط المستقبل المبهر

تميمة

****

- خلاص يا نور خد لونا أنا خلصت

تركت السائس الصغير يشق طريق عودته مع فرستها المدللة ثم استادرت للوجه الغاضب الذي باتت تفهمه من قبل النظرة

- برده متخانق مع أونكل حسن

كانت بين يديه تفاحة خضراء, أخذ منها أول قضمة مع شرود ساخر نحو درس التدريب في المضمار المقابل:

- الطبيعي يعني يا تميمة

جاورته ثم زفرت ببطء:

- دماغك عكس باباك يا خالد

- ودي مش حاجة كويسة؟!

والسخرية انقلبت لاستهزاء مرير.. هو يكره نفسه بتلك الحالة بل يكره العراك المكرر مع أبيه وفي نفس مربع الأسباب دون تطور.

الجامعة.. الطموح.. المزرعة.. والباند

مضغ ببطء قضمة آخرى ثم استدار نحوها باهتمام:

- معاكي محاضرات الأسبوع ده

- معايا بس إنت لازم تروح

فرك فروة رأسه بملل ثم انتبه لهاتفه الجوال ليجيبها وعيناه تمر على الرسائل:

- لما أحتاج أروح حاروح

ثم استقام فجأة واهتمامه ما زال منصباً على هاتفه:

- عندنا بروفه.. حنشتغل شوية.. تيجي

لمعت عيناها ببهجة فتركت دور المهتمَّة في لحظة وباتت طفلة بانتظار برنامجها المفضل:

- أكيد

ابتسم لشكل ملامحها ثم تابع وهو يتحرك جوارها نحو السيارة:

- أخبار البيض إيه صحيح

- ما تفكرنيش

وهاهي علامة المائة وإحدى عشر ظهرت في لحظة.. ثم تابعت وهي تقفز لمقعد السائق بزفرة طويلة:

- أمك كانت حتضيع مستقبلي أنا عندي بطولة

كان قد جاورها وثبت حزام السيارة الخاص بمقعده

- صحيح امتى البطولة؟

- كمان شهور.. نط حواجز وسبَق يا جميل

لمعت عيناه باهتمام:

- بجد حتتخشي سبَق

وعيناها هي كانت متوهجة ببريق مختلف.. تحدي.. جنون.. خطوة تعلم أن أبيها يباركها حتى إن لم يصرِّح. واختلفت نبرتها حين الردّ فباتت أكثر تصميماً:

- خلاص سجلته.. وخمس شهور وحيكون جاهز

ضيق عيناه لا يودّ أن يفهم وربما يدعو أن يخيب تخمينه وأكدت هي بذات النبرة وذات الوهج:

- عشق..

صرخ.. فعلياً صرخ لا يصدق:

- إنت مجنونة.. الخيل لسّه ماتروضش ده إنتِ بقالك أسبوعين ماقربتيش من البلوك ودسوقي اللي بيطلعه

ولم تعقب بحرف.. هي مجنونة إذاً!

وتحركت بالسيارة فجأة ولولا حزامه المثبت لصدم رأسه والهمس كان جملة واحدة وازت نظرتها نحو ظل آخر منشغل بتدريب ثلاث إناث يظنن أن الفروسية ضحكة!

- أنا حاركب عشق.. وحافوز

****

سقيفة فيلا رقية العلوية أصبحت مسرح تدريب خالد, وفي البداية شجعت هي الأمر بل هي أول من أهدته جيتار حمزة وسعدت بانبهار معلم الموسيقى بموهبته ولكن بعدها كما أي شيء

الانبهار خمد!

بات حسن يزعق بشأن جامعة منتظرة أو طموح مستقبلي ووظيفة وباتت هي تشك في الطريق الذي اتخذه ابنها

أرادتها هواية لا مهنة

طريق فرعي لا وطن

وخالد جيتاره الوطن.. صوته وإن لم يكن بقوة وصدوح مثل ندى ولكنه يشبهه, يحاكي أوتاره ويعزف بدلاً منه جوار لحن من جنون عقله

ببساطة يشدو وسط فرقته وحينها يختفي العالم

أنا

وأعوذ بالله من كلمة أنا

أنا كل عادي والغرور مكانه مش هنا

أنا المشوار الطويل..

أنا كل حاجة ممكنة مافيش قصادها مستحيل

أنا كل حلم جواك اتخلق وكان نفسك تحققه

أنا كل صوت بيقول "تقدر" ومش عاوز تصدقه

أنا كل حاجة وعكسها

أنا الحياة بحلوها ومرها

أنا كل فرحة عشتها

وكل دامعة جارحة بين الجفون حبستها

أنا كل حالة من جواك بتحبها

أنا حالة من الجنون وسط الملل بتكسره

أنا حالة من الأمل في المجتمع حتغيره

أنا كل ضحكة صافية بتطلع من قلوب بريئة

أنا كل صرخة في وش باطل بتطالب بالحقيقة

أنا كل طريق قدامك محتاج خطوة جريئة

أنا دافع للنجاح

بص قدامك مش وراك فكر في اللي جاي مش اللي راح

الحياة مش سوداوية

وبردو مش هي هي

الحياة مش عاوزة أكثر من نظرة إيجابية

ولو ماقدرتش عليها.. إوعى في يوم تشيل في نفك

المهم النية

وتنتهي الأغنية بوتر شارد من الجيتار.. تلك هي تتمته وبصمته وضحكتها جاورته بفخر فالكلمات خرجت كما أرادا تماماً, على مدار شهر يعملان عليها هي تفكر وهو يبدل ثم تقرر وتلمع عيناها مع صرخة "وجدتها" ويرضخ لحلاوة اللفظ

Teamwork

فريق عمل متكامل بدرجة قدير جداً وصوتها يعيد ألحانه وجيتاره يعود ليشدو مع مقطع لا يجوز سوى مع نبرته وحين يبتسم مع نهاية اللحن تضحك لها الدنيا.. تنسى تورم جفونها من السفر وأوقاتاً من البكاء

تنسى الحب وتتشبث بالصداقة لأنها ببساطة كل ما تمتلك معه

حتى الابتسامة رغم خروجها منقوصة خرجت راضية

- استني يا ندى حاوصلك أنا نازل القاهرة

وترك تميمة وتشجيعها الحار وحديثهما السري الذي لن تفهمه أبداً وتكرَّم وتعطف بتوصيلها ورضخت لا لشيء سوى رغبة حقيقية أن تكون جواره.

****

وقاعدة الأنثى بسيطة.. غبية وقديمة وليس بها تجديد

وخاصة عندما تكون ندى..

نصحتها رؤى نصيحة وهي ُمحِقَّة, الرجل لا يرى تلك المرأة التي تجاوره.. تشبه تفاصيله وصباحه ومساءه وتتشبث بكذبة أخُوَّة غير موجودة

ولوت شفتيها بغضب طفولي حين تذكرت جملة رؤى

"ثالثهما لن يكون الشيطان أبداً"

والحمقاء زرعت الفكرة برأسها ونامت واستيقظت فزعة موقنة أنها حلمت بتقبيله.. فضيحة!

وغسلت وجهها الأحمر بماء بارد والآن هي جواره بالسيارة ووجهها أحمر ودون ماء وهو وسيم بشكل مغيظ, يرتدي قميصاً أبيض بإشراقة مستفزة فوق سروال جينز مستقيم بلون داكن والعطر لاكوست رياضي بنسبة زهر ليمون متزنة

اللعنة هي تحفظ نوعية عطوره!

- ندى وشك أحمر قوي

تحسست بيدها وجنتيها ببراءة كاذبة ثم فتحت المرآة بمقدمة السيارة:

- الحر! قولتلك المزرعة فيها ناموس

كتم ضحكته بمكر:

- الناموس قرص كل وشك

أغمضت عيناها بغيظ وبذات الوقت في قلة حيلة, غاب عن لسانها كل كلمة ممكنة وكعادتها نطقت بالأسوء ظانة أنها تغير دفّة الحوار:

- أستاذ مصطفى يعرف ناس ممكن يجيبولنا وقت في ساقية الصاوي

ولم تدرك أن نبرته تداخلت معها, بل شوشت عليها وغاب هدوءها والصوت الذي كان هامساً حل محله وحش

- عايز إيه أستاذ زفت

انتفضت مع زعقته ولم تملك سوى استدارة بصدمة:

- خالد.. في إيه!

- ندى ماتطلعيش عفاريتي وقولتلك ميت مرة الراجل ده مش كويس

- بس ده أخو طنط إيناس

والنبرة مسكينة.. وهي غاضبة من نفسها ومن استكانتها ومن عينها التي اغرورقتا بالدموع مع زعقته ومن ترددها من انفجار قد يخبره أنه لا يكترث سوى بتميمة وربما كل تلك الغضبة لأن مصطفى خالها وهو لا يودّ تداخلاً بعمله

"غبية"

وكان ذاك عقله

"غبي"

وكان ذاك قلبها

وحين وصلت للمنزل كانت قد استهلكت خمسة عشر محرمة ورقية وهو الغيظ يأكله وما يستفزه أكثر أنها تبكي

مخططة وتبكي!

وتصفع باب سيارته ولولا أنه يمتلك أخلاق حفرتها به عائلته لضربها على مؤخرتها بسبب تلك الفعلة.. تحمل المقود غضب قبضته وهو يحتد عليها بنبرة أخيرة:

- لو عرفت إنك كلمتي الراجل ده تاني حابهدلك

والأنف أحمر كحبة طماطم صغيرة.. مخنوقة بعبرة لا بجواب أما هو فيمتلك الأمر والنهي بصفّة يقرها لنفسه دون دعوة أحد

- طول ما أبوكي وأمك مسافرين إنتِ مسؤوليتي وخصوصاً إن المعرفة السوداء دي من طرفي أنا

وأكلت عجلات سيارته الغضب والزعقة وكيس حلوى سقط من فتاة باكية بالدور العلوي

"المعرفة السوداء"

كما توقعت تماماً كل ما يهمه تميمة!

وكان رقم المعرفة السوداء يرن على الهاتف, ووبمعاندة أنثى بسيطة وغبية وقديمة وليس بها تجديد أجابت.

****

القدرة الحقيقة ليست فقط حب أعداءك.. بل كراهية أصدقائك!

فريدريك نيتشه

وما هو الحب وما هي الكراهية؟!..

الحروف نسبية كما كل شيء في العالم وكما نظرية أينشتاين. ولا ينكر أنه ينتمي للنوع الثاني, هو قادر على الكراهية فهي ليست بشيء عويص!

وإن لم تكن لحالها مشاعر مكتملة وإن شعر بالشفقة ليلة أمس مع صوت أبيه المتألم نتاج التهاب مكرر يصيب كبار السن مثله وإن تحاشى رقية ففي النهاية لم تعد المرأة الضخمة التي كانت تتأفف من وجوده حين كان طفل.

ولكن هو لا يمتلك تلك المشاعر التي يتحدثون عنها ومفادها الحب

ففاقد الشيء لا يعطيه..

وكان استيقاظه مبكراً.. ارتدى ملابس كلاسيكية وخرج بتحية فاترة نحو أبيه وتجاهل مائدة الإفطار وصوت خالد الذي يقدم ويؤخر في محاولات مثيرة للشفقة كي يُصبح أخ!

محمود لا يحتاج أخ!

ولا أب..

وتَدَبَّر حاله مع هامش الأم

محمود لا يحتاج سوى محمود وفقط..

وصاحبة النظارة الطبية الضخمة اسمها أحلام, وترتبك بابتسامة من نظرته وهو يجيد نظرة تعرف كيف تتسلل نحو المرأة

- المهندس خالد موجود

- اتفضل

وكان ربه عمله منشغلاً بأوراق عدَّة, عوينات قراءة قاسية الإطار ونظرة ثاقبة تركت الأوراق لتتوجه نحوه.. نظرة تستطيع في لمحة أن تلمح توتر عضلة فكه اليسرى جوار كبرياء عيناه

كبرياء لا يتكرر كثيراً بهذا زمن

ابتسم بلباقة ولم يجلس.. تقدم خطوة واحدة من المكتب يحي خالد بإيماءة صامتة ثم ضمّ كفيه مع طلب ليس مفاجئآ

ليس مفاجئآ أبداً

- أنا محتاج سكن لوحدي.. زي أي موظف في المزرعة

والجملة الأخيرة تصميمها مفهوم وللأسف يستحقها حسن

- مش حاعيش مع بابا

****

الفصل الخامس

أنا شاب لكن عمري ولا ألف عام

وحيد ولكن بين ضلوعي زحام

خايف ولكن خوفي مني أنا

أخرس ولكن قلبي مليان كلام

الشمس رائعة.. قوية.. بازخة.. جبّارة الحضور.

يتذكر فيلم خيال علمي شاهده وهو طفل, تلك المركبات الفضائية الشديدة النقاء من الداخل.. رغم صغر مساحتها يهيأ إليك أنها شديدة الاتساع, هواءها بنقاء الفراغ حول روّادها وذرات ترابها معدومة.. وحين يتوقف الزمن ويصبح دون داعٍ لإضاعة الوقت فأنت ببساطة تُجمد عقلك

تختفي في انتظار اللحظة المناسبة

وانتهى كل شيء حين اقتربت المركبة من مدار النجم الضخم.. احترقت كخردة حديد بالية وقفز فريقها للفضاء الشاسع متأملين بالنجاة

أو في أحسن الظروف علم ملوّن فوق سطح القمر!

طَموح من يريد القمر ومجنون من يبتغي الشمس..

جالت عيناه ببطء حوله جوار حضور شمس الظهيرة المتقدة, سائس عجوز يجفف عرقه بطرف قميصه وبيده الآخرى يسحب مُهرة شقية ترفض الخضوع وسائحة إنجليزية تمثل لها الشمس جنة ولكل رجل على وجه الأرض, كشفت عن ذراعيها وفخديها وسرتها الدائرية ولو أن الأمر مباح لكشفت عن شيئين أكثر متعة.

والمجد لحرارة الشمس..

تلاعب بعقب سيجارته الشبه منتهي بين شفتيه تاركاً السائحة بتعرقها المثير للخيال منتبهاً نحو تعرق آخر.. بل تحفز وغضب ويدين ناعمتين تشبثتا منذ الصباح بفرشة خشنة جوار إسنفجة رطبة.. دلو متوسط الحجم وخرطوم مياة ضخم ولا يُنكر أن حاجباه ارتفعا في اهتمام ذكوري خالص حين لمح المشهد لأول مرة.. فقط ذكرته براقصة نصف مشهورة وعرض مبتذل جوار إثارة متواضعة لا ينكر أنها جذبته في طور مراهقته ولا ينكر أيضاً أنها لا تشبه شيء مما يراه الآن..

فالسروال ضخم بلون بني عتيق والقميص قديم متشابك المربعات بموديل انتهى توقيته من زمن أما الحذاء وحده فكارثة لا تغتفر.. يُجزم أنه بلاستيكي كهذا الذي يخص عمال النظافة

مين أين أحضرت حذاءً كهاك

خصلاتها اليوم لم تكن مجدولة ولا ملتفة جامحة كما تجذب انتباهه, كانت ملساء تصل لمنتصف خصرها وتقيد مقدمتها

بوشاح أزرق فاتح مع بضعة نقوش سمراء يجيد قيد مقدمة غُرّتها كي تبيح لنفسها كل تركيز ممكن. فقد قامت بتطمير خمسة جياد حتى الآن وحان وقت السادس..

توقفت لوهلة تمسح العرق المتصبب من جبهتها قبل أن تطيل النظر لمرة سادسة نحو الغرفة الممنوعة.. ورغم أنها لم تعد ممنوعة بأمر والدها إلا أنها ما زالت تخشى الإقتراب.

في الصباح اتخذت قراراً بتحميمه.. الإقتراب منه.. تدليله ربما كما يستحق, ولكنها خافت.. تصلبت قدميها حين اقتربت من موضعه لتغير اتجاهها في لحظة لتجذب حصاناً آخر

وآخر تلو آخر تلو آخر دون أن تقترب منه..

- عارفة إنت بتفكريني بالأم اللي جمعت ولاد الجيران علشان تأكل ابنها وفي الآخر كلهم أكلوا إلا هو..

لم تعد تحتاج لاستدارة لتميز ملامحه.. الآن باتت تحفظ صوته, بل تحفظ نبرته الساخرة كلما اقترب منها.. ثنت شفتيها بابتسامة صفراء لتعود لعملها دون أن تجيبه.. يلمح عن خوفها.. فشلها في السيطرة على عشق أو حتى محاولة الإقتراب

- شكراً!

ولم تدرك أنها لم تكن همسة.. بل كان جواباً عالياً مغتاظاً يجاور هذا العِرق الأزرق النابض بجبهتها.. كتم ابتسامته بمكر قبل أن يخطو خطوتان لا غيرهما ليصبح جوارها تماماً وبيده إسفنجة مماثلة مررها بحرفية فوق وجه الفرسة الطيِّعة.

- أنا مش محتاجة مساعدة على فكرة

تجاهل عبارتها وعادت أنامله للإهتمام بالفرسة الطيّعة, كانت بُنية الوبر وتكاد تكون ذهبية الخصلات, جميلة بشكل أنيق وعلى ما يبدو هي خليط من أصول بلجيكية صافية مع فرس

إنجليزي مروض. انتهى في وقت قصير ثم سحب إسفنجة آخرى بدأ بتمريرها عند الفخدين بحرفية وازت صوته الخشن:

- لما نويت أحترف في مجال الخيل أول حصان ركبته كان بلجيكي.. كان أضخم من دي تقدري تقولي بربري أصلي, وأنا كنت واثق في نفسي قوي مش عارف ليه

توسعت ابتسامته بسخرية وتلك اللحظة لم تكن منها كما تختبر معه دوماً بل كانت من ماضي قديم لا تفهمه ولكن هذا البريق الداكن بعيناه يخبرها أنه انتصر عليه. أردف وهو يقترب من وجه الفرسة مجدداً ولكن تلك المرة بأنامل فارغة:

- وقعت من على ضهر الحصان بعد خمس دقايق وقعدت في الجبس شهرين وبعدها شهر نقاهة.. قعدت ثلاث شهور بعيد عن النادي ولما رجعت لقيتهم مسميني الفاشل

- وبعدين عملت إيه؟

لم تشعر حتى أن النبرة خرجت منها.. وأنها خرجت مهتمة.. متحفزة وبريق عينيها رغم أنه بني وهاديء بملامح ورثتها رغماً عنها إلا أنه مُعاند.. مُشتاق للتجربة والحكاية بفضول طفلة ما زالت تدمن عيدان الحلوى.

ابتسامته وازت تنهيدة حارة رغم اللااكتراث الملازم لنبرة صوته:

- بقيت بدربهم..

وارتفعت لفافة تبغ جديدة نحو شفتيه, أشعلها وترك الفرسة الذهبية كما صاحبتها ليتوجه لمقدمة الإسطبل ومجدداً نحو الشمس

نحو السيطرة المطلوبة لعالم لا يعترف سوى بالقوة..

خرجت نبرتها ضعيفة وربما صادقة لأول مرة:

- أنا خايفة أفشل..

ثم تنهدت لتصبح أكثر ثقلاً وكأنها تُحادث نفسها:

- مرعوبة أفشل

لو استدار نحوها بلحظتها للمح انقباض حاجبيها المؤلم.. ذراعيها اللذان أحاطا بجسدها الرفيع والزفرة الحارة التي التي طبعتها جوار استناد على جبهة الفرسة التي أخفضت رأسها من أجلها بتلك اللحظة.. لو استدار للمست بداخله مشاعر مدفونة قتلها منذ زمن وردم فوقها كل لحظة احتياج مرت بطفولته.. لو استدار لرأى فيها فتاة آخرى غير تلك التي رسمها بخطته.. لو استدار لعاد سنوات نحو ماضي ودب وردي لطيف ناولته إياه طفلة في لحظة عوز.

لم يستدر.. ابتعدت خطواته نحو الهواء جوار تبغه وسحابته الخاصة.. لم يستدر إلا حينما عادت السحابة وعاد العالم كما يجب أن يكون وتبدو هي من بعيد أنثى..

ورغم أنها ما زالت بأول طريق فرعي بدرب الأنوثة, ورغم أن تفاصيل الإثارة بعقله ذات طموح هي لم تفقهه بعد ورغم مرور أكثر من شهر على وجوده بالمزرعة ولم يلمحها بثوب من هاك الذي يخص النساء

إلا أنها تشبه بشكل ما مذاقات مختلفة

الشمس والبحر

الأرض والجنة

حلوى مسكرة النكهة جوار ملوحة البحر

هل مهد لك خيالك من قبل تقبيل أنثى بهذا المذاق. وجنتيها الحلوى وشفتيها الملوحة

هل استنبطت هذا فقط من ملامحها فوددت أن تقوم بتجربته لا لعشق جامح أو مجرد هوس مثير للشفقة, هي أحقية رجل في التفكير في أنثاه التي قرر أن تكون له في النهاية زوجة.

البنت الشلبية .. عيونا لوزية

بحبك من قلبي .. ياقلبي أنتِ عينيا

كان صوت فيروز يصدح من مذياع قديم موضوع فوق رف خشبي مزخرف يقع بزاوية مظلمة تتجنب الشمس بعيداً عن النافذة المربعة التي تتوسط المكان وتقع مباشر خلف رأس ماجدة، وماجدة أرملة ثلاثينية أرغمها ضيق الحال على البحث عن عمل أو فرصة أو زوج.. والزوج كان جاهزاً وبأمر عائلي صارم وتفاصيله الإرث والأرض والعرض، أي مسميات تُرغمها على القبول بالعم وأخ الزوج الأكبر والذي لديه زوجة بالفعل وسبعة أولاد..

ورحلت ماجدة.. تركت الإرث ومعاركه لولديها حين يكبران وتركت المنزل الدافيء وتحكمات الحماة وقيود رجل نصب نفسه عليها ولي دون حق وبدأت ربما من قليل ولكن كانت تمتلكه..

محل متواضع بزاوية صغيرة أسفل منزل قديم بحي عتيق بأطراف القاهرة، ومصاغ كان هو النجدة فوفر المأوى بإيجار زهيد ومهارة امرأة توصل الليل بالنهار من أجل عيشة كريمة لأهم كائنان بالعالم.. ولديها

ابتسمت ندى بأريحية وهي تتجول بعيناها في المكان، يبدو ككنز لا يقدره سوى الذواقة.. والتذوق هنا ليس بشأن الطعام فقط بل هو تشبع بتفاصيل دافئة تجاور صوت فيروز ورائحة الطعمية الساخنة وكوب الشاي الزجاجي بنكهته المميزة.

في البداية شعرت بالندم لقبولها تلك الدعوة.. ماذا تفعل ومن تعاند

خالد!

اذاً هي تخرج مع رجل غريب وتجاوره بسيارته فقط لتعاند حبيب لا يشعر بها..

وبتلك اللحظة تحديداً قطبت حاجبيها، توترت ملامحها وتشبثت أناملها القصيرة بكوب الشاي فالتفت حوله وكأنه غنيمة دفء واستوعبت أنها لأول مرة تنظر لمصطفى من هذا الجانب

رجل غريب

هي دوماً تضعه في مرتبة أخوية ساذجة وكأنه كما هو خال تميمة فهو خال لها أو أخ أكبر إن صح التعبير.. منطقة آمان لمجرد أنه ينتمي لعائلة تثق بها والآن خالد يهز بقسوة تلك الثقة

خالد يظهر أمامها كشيطان صغير بحجم عقلة الإصبع على كتف مصطفى الأيسر، يرمقها بتحذير ويكرر عبارته على مسامعها حتى أنها طغت على صوت فيروز

"ده راجل مش كويس"

وابتلعت هي ريقها واحمرت وجنتاها.. بل توترت.. نبضت بخيالات حمقاء ومصطفى لا ينظر نحوها في تلك اللحظة، هو يقضم لقيماته ببطء ويحيي النادل بإيماءة سريعة وعيناه ألقت نظرة خاطفة على ماجدة التي تعرقت بفعل حرارة الزِيت وجلبابها الشديد السواد.. منابت خصلاتها الحمراء تظهر من تحت وشاحها المحكوم ولها عنق طويل شديد البياض مثير للإنتباه رغم أزرار جلباباها المحكمة

هي تنظر.. وهل هو ينظر!

وعادت بعينيها نحوه من جديد وفجأة وشيطان خالد يكرر الكلمة وهو كان ينظر بالفعل ولكن ليس نحو ماجدة بل نحوها:

- عجبك المكان

ونبرته هادئة تقطع الصمت بلباقة.. وتقطع الصوت الصغير من هذا الشيطان الأحمق فوق كتفه وتعود هي للتجول بعيناها فتهرب منه ومن أريحيتها المعتادة معه:

- حلو قوي

عاد لطعامه.. وبابتسامة طبيعي أن تبدو ساحرة من رجل مثله تابع:

- مالك يا ندى.. شكلك مش مبسوطة

وتوترت وأزاحت خصلة من فوق أذنها اليمنى ورمشت بعينيها ثلاث مرات وتلك ليست تفاصيل يحفظها هي عادات مكررة في النساء عند الكذب:

- لا مفيش.. بس مجهدة شوية

كانت قد تجاهلت النظر نحوه وحين عادت ببصرها إليه من جديد لمحت بعيناه نظرة متأملة شعرت وكأنها اخترقت كل شيء

نظرة تعرف حديثها مع خالد وتفاصيل أفكارها ومخاوفها وكل ما يدور برأسها بتلك اللحظة

استرخى بمقعده ليعود للوراء قليلا ثم تابع بنبرة جادة دون أن يحيد اختراقه عنها:

- إنت عايزة تعرفي أنا عايز منك إيه صح؟

وها قد حان وقت المخاوف.. الكلمات السيئة الجادة الأكبر منها والتي لا تعلم لها ردّ

هي لا تفكر ولا تفند أسباب وتفاصيل، هي تتصرف بأريحيتها وفق اللحظة

هي ببساطة ندى

ولأنها ندى تصورت بتلك اللحظة أنه سيزعق بها.. سيستقيم بطوله الفارع على الطاولة وتحتد نبرته ويوبخها كما يوبخ المعلم تلميذته

" إنتِ غبية يا بنتي.. حعوز منك إيه!"

وبكت بالفعل دون أن ينطق بحرف واحد

انحنت شفتيها وتضخم أنفها بلون وردي طفيف وتسللت ثلاث عبرات لم تنجح في حبسهما مع الباقي وفي النهاية حركت رأسها بإشارة لا ولم يفهم بالضبط أي "لا" تقصد

هل هو جواب على سؤاله أم نفي للحظة البكاء نفسها

والكارثة هنا البكاء

لمَ تبكي من الأساس!، لم تتصرف بتلك العفوية التي أصبحت تثير بداخله أشياء لا يفهمها

يود أن يستقيم ويحتضنها مربتاً فوق رأسها الصغير مجففاً عبرتها بمنديل ورقي وكأنها طفلته المدللة

يود أن يطبع قبلة بريئة فوق جبهتها وكأنها أخت صغرى تحتاج حنانه ويحتاج هو أن يمطرها بالإحتواء

يود أن يغير براءة القبلة.. يطلق لها العنان وينال توابعها
بأحقية رجل له أفضلية اختيار المذاق، وليس هناك أفضل
مذاقاً من ثمرة نصف ناضجة ترسم خرائطها أنت بخبرتك
وتقرر لها كيفما تريد المسار

وكانت خجلة تنظر للطاولة متحاشية النظر نحوه.. هي فقط لم
تهرب من جواب سؤال سخيف بل تبكي أمامه

وكان هو مسيطراً بفارق عمري يبيح له التحكم كيفما يشاء
حتى بالأفكار

مد أنامله برقة لتسند ذقنها فرفعه ليتكمن من نظرتها.. ثم ابتسم
بأريحية لم تفشل من قبل مع أي امرأة وتابع بأكثر نبرة مطمئنة
في التاريخ لو رآه مارتن سكورسيزي لرشحه بفضلها للأوسكار

- عايزك تكوني أختي الصغيرة يا ندى.. شايفك أختي
الصغيرة اللي برتاح لما بتكلم معاها. موافقة؟

عرض أخوّة راقي كان سبباً في نصف زيجات العالم وكوارثها

هي توافق طبعاً.. بل تمسح عبراتها وتزيح بطرف يدها عفريت خالد

مصطفي رجل محترم

مصطفى وقور

مصطفى بريء النوايا كبراءة الذئب من دم ابن يعقوب

مصطفى مجرد أخٌ أكبر

وتوسعت الابتسامة مباشرة، وانقلبت لأريحية عالية النبرة بل وفطيرة سكر مع كوب شاي ثاني وهي لا تمتلك أخ أكبر ولا حتى أب كأخ أكبر ولا أخت تنصح أو أم تهتم بتفاصيل غبية

والآن هو يهتم.. يستمع ويفكر ويحلل وينصح ويجيد دوره تماماً بل ويستمتع بإتقانه.

في عالمه هو يعرف مداخل النساء.. والمرأة هي المرأة مهما اختلف العمر

ستأسرها بالاحتواء

المهم أن تعرف نوع الإحتواء المطلوب تقديمه ومتى..

****

ومنذ قديم الأزل والعلاقة بين الرجل والمرأة مُتعبة

هي تريد هو يرغب.. هي تخطط هو ينسف.. ترفض يسيطر.. تهرب يتوحش.. تعشق يمِّل.. تبكي ينتشي.. ترحل يصيبه الجنون

باختصار مأساة

والقاعدة التي تقول أن وراء كل رجل عظيم امرأة صحيحة مائة بالمائة.. بل عبقرية ولكنّ النساء هن من يفهمنها خطأ. فهو ليس عظيماً لأنها قادته ببراءتها نحو النعيم ولا بحنكتها نحو العرش، هو العظيم لأنه بفضلها تعلم ألا يثق بامرأة وإن فعل فالآن بات يملك خبرة الاختيار.

- القهوة المظبوط

أخرجه صوت ماجدة الرخيم من شروده، كانت ندى قد رحلت بوجه مُرتاح رافضة بأدب عرضه لإيصالها للجامعة وترك هو لها الحرية.. المساحة التي ستخدعها كالفراشات حول اللهب فلا هي ستهرب ولا هو يودّ أن يحرقها باقتراب، فقط لتبقى هكذا فراشة نقية تلون نكهة عالمه..

تنحنحت ماجدة وهي تضع له الفنجان لتبتسم منسحبة ولكنها قاطعها بنبرة مهتمة:

- ازيك يا ماجدة وازي الأولاد

- بخير نحمد الله

- عاملين ايه في الدراسة؟

- الحمد لله يا أستاذ

- لو محتاجة حاجة بلغيني

- خيرك سابق

حوار مكرر غالبا ما ينتهي بذات الكلمة، وهو بالفعل خيره سابق وهو من ساعدها بمبلغ مالي لا بأس به حين واجهت أول كبوة ببداية إدارتها للمحل وحينها توجست منه فهو مجرد زبون وعلى حضوره مع نساء متعددات ألف خط أحمر وظنت أنه مثله مثل أي رجل سيريد شيئاً في الحرام كما العبارة الدارجة ولكنها اكتشفت فيما بعد أنها ليست أكثر من خطوة نحو النور ربما يكفر بها عن عبثه.. وأنه رغم كل شيء رجل من أصل طيب وشجعها هذا فعضت شفتيها قبل أن تُبادر بسؤال كان الأغرب:

- أختك؟

لأول مرة تسأله ماجدة عن نساءه، ولأول مرة تستخدم هذا اللفظ الغريب

أختك

هل تُراها سمعت حديثهم أم أنها لا تستوعب وجود الطفلة معه سوى كأخت

ولمعت عيناه بتوحش جوار صوت صارم

- لا

وكانت نبرة أخبرت المسكينة ماجدة أن تهرب وندى يجب أن تهرب.. كل نساء العالم يجب أن يهربن اذا ما حضرت تلك النبرة

****

وما تزال العلاقة بين كل رجل وامرأة هي الفيصل.. هي المعركة الدائرة منذ بدأ الكون والفتاة الحالمة التي ظهرت في كتيب عشاق تمسك زهرة

يحبني.. لا يحبني

وكأنها معضلة العالم!

ورغم أنها قاربت على حاجز الخمسون وأصبحت تطيل النظر في المرآة بحثاً عن تجاعيد وجه قاربت على الظهور ويناوشها الشيطان في التحكم في ابتسامتها كي لا تزيد من غذاء الخطوط إلا أن منظورها يظل ثابتاً حين يتعلق الأمر بالحب.

تنظر من مرآة تحمل اسمه ويقول لها خالد أنها رومانسية بالفطرة والكارثة أنها لا تشعر أن أياً من أبناءها يشبهها, لا تميمة ولا عبد الله

فالاثنان يحملان بصمة خالد.. والمناوشة بينهما تحمل ذات البصمة رغم مرور السنوات, هي تصر على أنها تحبه أكثر ولهذا أخرج رحمها نسختان منه وهو يصر على أنه يحبها أكثر والدليل تميمة التي امتلكت سحر البندق.

ولكن يظل هناك الحب.. واضح كبزوغ الشمس في صباح ربيعي منعش ورقية تجاورها جوار قدح بارد لم تقربه.. رقية

تمكن منها العمر وهي تحاربه لا لأجلها بل لأجل الحفاظ على عمدان منزلها قائماً كما المطلوب, رقية تستيقظ من الصباح الباكر قبل الجميع تبتلع حبات دواء متعددة لأمراض عادة ما تهاجم الجسد مع مرور السنوات وتقف على قدميها معاندة وجع كاحليها المستمر من أجل أن تعد شاي حسن كما يُحِّب وتخفق العصير لخالد وتنفرد بنباتات عطرية تزرعها لحديقتها خصيصاً كي تدوم نكهة مطبخها ولا تنمحي.

ويبقى السؤال هل يُحِّب حسن رقية

هل أحب حسن رقية

وجوابها هي لا.. وإن فعل فملعون هذا النوع من الحب أما رقية فتؤمن أنه يحبها.. يحبها بطريقته الخاصة وحتى إن كانت لا تناسب الجميع سواه, التزمت إيناس الصمت حتى راقبت تلك الدمعة الساخنة التي تسللت من بين جفني رقية موازاة مع تنهيدة غامضة دون معنى, ولكن واضح هو الألم

- مالك يا رقية؟ في حاجة

ولم تجب رقية.. التفت أناملها فوق القدح البارد دون أن تلمسه ولكن البكاء هو من تولى الأمر, انهمرت العبرات أكثر وكم هو سيء أن تلمع العبرات بعيني امرأة تخطت من العمر الستون.

كتمت إيناس غضبها لتعود من جديد بنبرة رغم اهتمامها هي أكثر حزماً:

- رقية حسن اتخانق معاكي؟ اتعصب علشان محمود ساب البيت؟

وبعد تنهيدة آخرى تلو آخرى وآخرى خرج صوتها في النهاية متحشرجاً يجاور العبرات مع ابتسامة ساخرة تحوي مرارة قلة الحيلة:

- بالعكس.. ده مبسوط جداً! دخل عليا المطبخ امبارح بيقولي ابني راجل وإن سهام عرفت تربِّي مش زيي طلعته فاشل في حضن أمه

وإلى هنا استقرت الشياطين فوق ملامح إيناس بل يكاد ينفجر بصدرها بركان ملتهب يحمل حروف

"إلا خالد"

هذا الشاب الذي لم ترى في عقلانيته ولا في سموّ أفكاره, خالد له عالمه الخاص وهذا ما يُعجبها بشأنه.. يلهث خلف موسيقاه وأحلامه وليس كما يدّعون أنه تائه بل على العكس خالد يعرف ماذا يريد ولكنه يخطو إليه بخطوات متأنية بفضل ما يضعوه أمامه من حواجز

طريقه متعرجاً بفضلهم لا لنقصانه

شهقت رقية بقسوة فأدركت إيناس أن الأمر أكبر من هجوم حسن ورغماً عنها توحشت نبرتها بقلق عن ابن ثالث:

- عملتي إيه؟

وتلك المرة استدارت رقية منفجرة بما تبقى لديها من بكاء:

- هاجمته.. هاجمت خالد يا إيناس وطلعت غضبي كله عليه وطلبت منه ينسى موضوع الباند خالص

- رقية إنت بتستهبلي؟

ورغم زعقة إيناس إلا أن جواب رقية كان صرخة:

- تعبت.. تعبت يا إيناس من الهجوم والمعايرة وتربيتك يا هانم وإنت السبب وأدي آخر الدلع ودلوقتي في محمود الكامل اللي خلص دراسته ومن الأوائل وابني أنا ضيَّع سنة

كانت تلهث من بين كلماتها.. وكأن كل حرف يخرج بذكرى العراك. جذبت منديل ورقي لتجفف وجهها بعنف لم يجدي في إيقاف الطوفان ولا تغيير ما قد حدث بالفعل:

- خالد ساب البيت امبارح ومن ساعتها قافل الموبايل

ولم تستطع إيناس أن تعقب.. تجمدت الكلمات على طرف لسانها كما النظرة وهي تلمح إنهيار رقية ببكاء يبدو أنه لن يتوقف, ببساطة لن يتوقف إلا حين يعود خالد...

****

حين تلكأت أناملها فوق الحاجز الخشبي المشقق جرحت إصبعها الأوسط, نقطة دماء صغيرة تلكأت فوقه لتترك مسار, ولا تفهم لمَ شردت بتلك النقطة.. لم تمسحها ولم تحاول أن تمتصها كما تفعل.

سرحت وذكريات أوقاتها بهذا المضمار منذ صغرها تدور.. أول مرة ركبت فرس.. أول ركض وخوف أمها وزعقة أبيها المحفزة للإستمرار, المهرة التي بدأت معها وما زالت حتى الآن فرستها المفضلة رغم تقدمها بالعمر.. أول مسابقة دخلت بها وأول ميدالية حصلت عليها جوار شهادة تقدير.

الخيل هي حياتها.. نصفها الآخر بل نصفها الأهم.. مشكلتها تكمن في أنها دوماً تود أن تنجح, أن تُخضع الصعاب وتمحيها من طريقها فتتضائل كما أنها لو عثرات مخفية تحت حافر جوادها الراكض.

ربما لهذا لم تجد الجواد المطلوب بعد.. النصف الحقيقي الذي ينتظر كل فارس, العلاقة التي تحدث في العمر مرة واحدة ولا تتكرر

وهذا النصف قوته لا أن تختبر معه النجاح أو تنتصر عليه..

العلاقة الحقيقية هي التي ستستمر رغم الفشل!

جفَّت نقطة الدماء.. ولكن بقي الأثر وجواره ريح خفيفة مرت فوق وجهها وخصلاتها المكتومة تحت قيد ربطة متعرقة..
خصلات تركت لها العنان وابتسامة تلونت مع رائحة تبغ جاورتها منذ وقت قليل مع كلمة السر نحو كل نجاح

"الفشل"

- نور!

ولم يسمعها السائس الشاب, كان منشغلاً بتجهيز فرسة ضخمة ونبرتها هي أضخم إن صحت المقارنة

- نور!

وحين استدار لمع شعاع الشمس بعيناها وهي تتوجه للغرفة الممنوعة

- حضرلي لجام وافتح مضمار الترويض

وتخطته.. نعم في تلك اللحظة هو كان يقف بطريقها.. لفافة تبغه تتحرك بين شفتيه كما العادة وليس بالسخرية المكررة

شيئاً آخر تجاهلته هي جوار نبضات قلب لا تفهمه ولكن خرج الهمس

ألا يقولون أن بداية كل ترويض همس

بداية كل حب

وربما بداية كل ملحمة

همسة سريعة مهذبة دون معاندة ولا زعيق ولا جملة سخيفة تجد طريقها بينهما في الحديث

- شكراً

وتضائلت الهمسة مع ابتعادها ولم يكن هناك ردّ, فقط ابتسامة قاسية هي لم تلمحها وعينان ضاقتا تراقبا الأفق

عينان داكنتان تحملان بالظلمة سواد الليل وبالضياء شعاع بني طفيف يُجاهد ليعبر عن حضوره.. حين النور يتمدد الشعاع ويعكس لون خصلات شعرها الجامح وحين الدجنة يبتلعه الظلام كما يبتلعها معه

ورغم هوسه بسيطرة الشمس إلا أنه يُفضِّل الدُجنة.

****

أن تكون أم فتلك فطرة, وأن يكون أب فتلك أصعب وظيفة في العالم.

فالفتاة تترعرع من نعومة أظافرها على الأمومة.. تهتم بعروس صغيرة, تحضِّر لها اللبن والطعام وتلون كوب المياة خاصتها وتضعها جوارها في فراش خاص, حين تكبر تبحث عن قطة أو عصفور لتتولى أمره وتتذكر بدقة موعد ري النباتات.

ومهندس النباتات ضائع.. حائر

مفقود مفقود مفقود

ومنك لله يا نزار!

وليلى أصابها الهوس. ككل امرأة فوق سطح الأرض وتثرثر فوق رأسه كل مساء وتتمة الحديث أحمد

"كلمت أحمد"

"سألت أحمد"

"حليت موضوع أحمد"

حااااااضر!

وكانت تلك خاصته ولم تكن ل ليلى بل لنفسه ولصمته ولثمرة لا تعجبه أوراقها من محصوله الجديد.

نظر أحمد لأبيه وقد أصابت الدهشة ملامحه:

- في حاجة يا بابا

استدار لولده والتردد بملامح "بابا" يوازي ألف مرة من ملامح أحمد البريئة والحائرة من دعوة أبيه الغير مفهومة لحديث هام

جاد.. مصيري!

- إنتِ أوفر ليلى

وتلك المرة كان همساً ولحاله ولقرار فكر أن يتخذه بعدم الحديث من الأساس, مراهق وله أسراره ما المعضلة!

"ده الواحد عمل بلاوي"

- بتقول حاجة يا بابا

ومجدداً يقاطعه صوت أحمد.. هذا الفتى الوسيم الهاديء الملامح.. لا يشبهه في شيء, فهو نسخة من ليلى

وربما تلك البراءة هي ما تثير قلقه كأب, ابتسم بأريحية أخفت توتره قبل أن يضرب رأس صغيره بكفه ضربة خفيفة:

- إنت مركز معايا ليه.. أركز معاك أنا بقه

ضحك أحمد بعقلانية تفوق عمره قبل أن يتابع بشكل مفاجيء:

- كفاية ماما

وقبل حتى أن يندهش حمزة كان الفتى قد دلا بباقي حديثه وبصراحة تامة:

- أنا عارفة إن ماما فتشت درجي وقرأت الجواب

والمتابعة كانت الصدمة التي لا بعدها رجوع

- أيوة بحبها!

الفصل السادس

وأنا وعيونك الحلوة نعيش قصة غرام حلوة

في بيتنا عاشق..

في بيتنا قنبلة موقوتة!

حين نطقها أحمد بكل سلاسة ممكنة "بحبها" لا ينكر أن العالم توقف لديه للحظة, وفي تلك اللحظة حدث الكثير فأحمد انسحب من الحوار في إشارة واضحة لعدم الرغبة في الخوض بتفاصيله وصورة ليلى حضرت في ذهنه تزعق وتزأر وتمسك بورقة وقلم وتفند معه خطوات حل المشكلة الكارثية!

وهذا هو الفرق بينه وبين ليلى..

فهو يرى أن الأمر ليس بمعضلة كونية ما دام مجرد مشاعر مراهق. ألم يمر هو بنفسه بتلك المشاعر.. ألم تراوده خيالات عابثة بشأن زميلته بالمدرسة بعد درس متعمق في مادة الأحياء! وتحركت مشاعره لأول مرة نحو أخت صديقه الكبرى في ليلة خطبتها وتمنَّى بعدها لأسبوع أن تفسخ الخطبة قبل أن ينشغل عقله بعدها لأسبوع آخر بخروج مهين لمصر من كأس العالم. وصديق له وقع في غرام زوجة المُعلم حين رآها على الشاطيء بلباس بحر أحمر مثير. أما يوسف رفيق شبابه ومراهقته فكانت بطلة أحلامه الأولى فردوس زوجة سعد البواب وهذا سر حربي لا يعلمه أحد في الكون وبالأخص زوجته.

الأمر ليس جلل ما دامت المعلمة امرأة محترمة ولا تمارس عليه أي نوع مريض من الإغواء.. الأمر ليس جلل.. وتلك المرة وازت أفكاره تنهيدة قلقة

فأحمد لا يشبهه.. أحمد ليس بعاشق للفتيات ولا يلفتن نظره من الأساس.. ليس مشاكساً ولا ثعلبي النظرات كأخيه محمد

الذي توقع له مستقبلاً مبهراً منذ عامين فقط حين لمح معه أول فتاة صادقها بفضل نجوميته بفريق كرة القدم ووعده أن يُبقي الأمر سراً بينهم كرجال بعيداً عن الأجواء العاصفة لـ ليلى..

بل حين يشاهد فيلم "إمبراورية ميم" وهشام سليم بشعره الملون وقبلة المصعد لإبنة البواب يرفع كتفيه ويتوقع أمراً مشابهاً مع محمد

وربما يحيى

أو حتى يس

ولكن أحمد.. لا.. لم يمر بذهنه أحمد أبداً بهذا موقف

ربما الكارثة أن أحمد بالفعل عاشق.

****

هو يحفظ تفاصيلها حينما يُشغلها أمر.. تنسى أن تضع له السكر وتشرب هي بدلاً من الشاي قهوة ووضعت فوق رموشها الماسكرا

ليلى لا تضع الماسكرا إلا حينما تتوتر!

ولا يسأله أحد ما العلاقة؟ هل يفهم رجل النساء؟!

ارتشفت قهوتها بحركة سريعة قبل أن تستدير نحوه بسؤال فقد صبره:

- عملت إيه؟

ويودّ هو أن يتحاشى الجواب, بل الحوار من الأساس.. ليلى ستُجَّن.. ستفقد صوابها حتماً وسينتهي بها الأمر ساهرة أمام حاسوبها المحمول تفند مشكلة كبيرها من خلال بحث مكثف على الإنترنت وهذا وحده مآساة.

ارتشف هو الشاي بالحليب خاصته ببطء ليردّ عيلها وهو يصطنع انشغاله بجريدة:

- بتسألي ليه؟

- يعني إيه بسأل ليه يا حمزة!

والآن النبرة غاضبة.. بل ربما قهوتها نفسها دون سكر, استدار نحوها ولم يكن متردداً أ مراعياً لغضبها كدأبه معها.. بل كان هو الغاضب بنبرة حازمة يجب أن تنهي هذا النقاش وتوابعه:

- اتفقت معاكي متتدخليش في الموضوع يا ليلى فلوسمحتي تخليكي بعيد

همّت أن تقاطعه ولكنها أوقفها بإشارة يد:

- ومتفتحيش درج أحمد تاني واذا عرفت إنك عملتِ كده حيكون في مشكلة كبيرة وبينا احنا يا ليلى

ورغماً عنها صمتت, هو ليس بشخص يغضب كثيراً لكن حين يفعل يجب أن تصمت

****

قالوا أن أقصر طريق إلى قلب الرجل معدته..

وتلك كذبة! أو بالأصح كذبة لا تخصها..

فأقصر طريق إلى قلب الرجل معدتها!

ونصيحة آخرى لرؤى، التي ستدمر مستقبلها والحمد لله.. أو جهازها الحيوي

ريجيم الثلاث أيام.. افقدي خمس كيلو جرامات

رائع!

وباتت تلك الخمسة كيلو جرامات بداية العالم ونهايته، بل هن الحلول لكل معضلة ولكل أزمة حب. ورمقت نفسها في المرآة بعد نصف ساعة من التزين.. وتلك نصيحة آخرى لرؤى

" البسي حاجة تظهر أنوثتك.. يا خايبة

وافردي شعرك شكلك أحلى وهو مفرود.. يا خايبة

واقلعي الكوتشي ده والبسي شوز بنات.. ياخايبة!"

وانتهت نصيحة رؤى مع ثلاث مرات "يا خايبة" وتأملت هي حالها بمظهر مختلف جديد على مرآتها وعليها.. تنورة ضيقة بلون أسود تصل حتى منتصف ركبتيها وبلوزة بلون رمادي فاتح تحوي كتابة إنجليزية ساخرة بلون أسود لامع وتحمل حروف اسمها بنقش طولي متقطع، أسدلت شعرها إلى الخلف وارتدت بوت طويل أخفى ساقيها تماماً واستغنت عن القرط فهي لا تحتمل أي ملمس معدني فوق أذنيها ولن تجازف.

في الخلفية تصدح محطة إذاعة غربية بأغنية عن فتاة تشتاق حبيبها، تصرخ لأنه لا يشعر بأنوثتها!

بل ربما يتجاهل مكالماتها منذ ثلاث أيام وحينما ردّ البارحة فقط كان صوته متعباً مما أقلقها بل أنهى المحادثة سريعاً جداً بلفظ واحد دون غيره

"مجهد شوية يا ندى"

وإلغاء لموعد تدريب الباند. وهي ستذهب.. بل تتزين.. بل يقتلها الفضول فهو صديقها ولا يُخفي عنها شيء وسحبت خلفها رؤى أليست صاحبة الفكرة!

وفي المزرعة كان اليوم هادئاً، حينما حادثته رؤى على الهاتف تعجبت نبرته من وجودهن ولكنه أخبرها أنه عند الإسطبلات وبعفوية فتاة تمكن منها الحنق بل فكرت في العودة من حيث جاءت ولسانها يبرطم:

- طظ فيه.. أنا جاية أطمن عليه وهو قاعد هناك جنب تميمة

انفجار أنثوي بنصف فوضى كادت أن تتمكن من كحل عيناها وتؤدي إلى كارثة تبرج ولكن رؤى تداركت الموقف بمنديل طرفه مبلل مع همسة حازمة:

- اتحركي.. يا خايبة!

وهي لم تكن تعلم ولا رؤى تعلم أنه هذا الصباح بأسوء حالاته وأنه عاد للمنزل بالأمس فقط بعد أن هاتفته إيناس بطلب

مباشر أن يعود من أجل رقية وبكاء رقية، ووقتها شعر بغصة قاسية تمكنت من قلبه فهو لم يكن ينوي بأمه بكاء ولكنه كان يحتاج للإبتعاد.. للهروب من بالون الضغط حوله والرعاية حصرياً لأمه وأبيه وهو عليه أن يرضخ وفقط..

ببساطة يختارون له المهنة والزوجة وتفاصيل الحياة وإن شرد عن دربهم فهو فاشل.. أو متمرد.. أو غبي لا يفهم مصلحته!

ضيق عينيه بيأس وهن يراقب تميمة التي تأخذ عشق للمضمار للمرة الثالثة، في الأولى رفض أن يخرج معها نهائياً وبالثانية تخطى الجواد المضمار بالفعل ولكن وحده.. ظل يركض بين جوانبه بجنون رغبة في القفز وتركت هي له حرية الغضب والمحاولة حتى هدأ تماماً وسمح لها في النهاية أن تلمس وجهه، واليوم هي تقف أمامه خاوية اليدين سوى من حبل غليظ تمرره ببطء فوق ملامحه.. تقترب بحرص وتربت بيدها الأخرى فوق خده الأيمن ويهدأ هو ثم يعود لزمجرة طفيفة لا

تكتمل.. فهي لا تترك جانب وجهه قط بل تحافظ على وتيرة لمستها الناعمة.

لها أكثر من نصف ساعة على هذا المنوال، رغم صلابة الحبل إلا أنه كان يبدو رقيقاً جداً جوار وجهه.. ورغم شراسة وجهه إلا أنها كانت شراسة الحائر الذي لم يلقنه عالمه سوى غريزة الدفاع عّن النفس.

له عالمه الخاص وكل ما حوله دخيل.. هي دخيل.. والمزرعة سجن.. والحبل سوط سيكون قيده أبد الدهر

بل سلاح ضده وهي تمسكه بيدها وزمجر من جديد.. بل صهل بقوة حتى ابتعد عنها ثلاث خطوات رافعاً ساقاه الأماميتين ضارباً تلوها على الأرض بحوافره بقوة تقول لها أهربي..
والخيَّال أبداً لا يهرب من جواده

لا يخاف.. ولا ينوي القيد

ألقت بالحبل جانباً ثم اقتربت منه ببطء حذّر لتمرر تلك المرة كلا كفيها فوق وجهه.. تحتضن رقبته ببطء وتهمس بصوت دافيء جوار أذنيه ثم تصمت تماماً وكأنها تستمع إليه، عيناها مرتكزة على عينيه لا تتركها ومن حين لآخر تبتسم مع كل انفعال يقوم به حتى لو أوحى له بهروب..

وفي النهاية سمح لها مجدداً أن تمسك بالحبل وكانت ذكية تدرك أن الوقت لم يحن بعد لاستخدامه كلجام، ولكنه اعتاد لمسته فوق جسده واعتاد منها هي تلك اللمسة.

****

إن كان الشرود لعنة فهي إذاً ملكة اللعنات، وشرودها رغم أنه لم يستغرق نصف دقيقة إلا أنه كان البداية لنهاية حملت دموعها وفوضى عيناها برتوش كحل أسود أنهى على محاولة التبرج.

كان يقف بعيداً عن المضمار بحوالي ثلاث أمتار، عيناه هادئة متعلقة بتميمة المنشغلة على ما يبدو مع حصان عنيد وجسده مستنداً بوضع مائل على عمود خشبي عريض.. زفرة واحدة خرجت منها بضيق لم يكتمل ففي لحظة شرودها به اختفت رفيقتها وعلى ما يبدو توجهت لشراء شريحة ما من الكافيتريا وصبّت في تو اللحظة كل تبرمها على رؤى التي تركتها من أجل وجبة طعام!

- مش باين عليكي

ولوت شفتيها في غيظ من صديقتها وقادتها خطواتها للإقتراب من المضمار ومراقبة تميمة مع جوادها الثائر.. نعم ستتجاهله تماماً، وكأنها لم تلمحه

بل هي مستندة على حاجز المضمار الخشبي تراقب تميمة رغم أنه لا فكرة لديها عما تفعله ويؤلم قدمها هذا الحذاء الغبي بتصميمه الكلاسيكي المزعج.

زفرة آخرى وازت عيناها التي تلكأت بنظرة مترددة نحوه، وهي خاسرة أمام نفسها تدعي التجاهل ولا تصبر عليه أكثر من دقيقة وهو كما هو.. شارد في ملكوت آخر ولم تعد تفهم هل يراقب تميمة أم هو غارق بها!

وتلك الكلمة تحديداً أثارت نبضات قلبها واستحوذت على ما يمكن أن تطاله أنفاسها من الهواء حتى أنها أغمضت عينيها كي تمنع عبرة خائنة من المرور وتراجعت بجسدها خطوة إلى الوراء متَّخذة قرارها بالرحيل من المكان كله.

خطوة واحدة لا غير ففي لحظتها اصطدمت بجسد صلب ولم تملك سوى استدارة سريعة خجلة من ارتطامها هكذا بغريب فتحركت شفتيها على الفور

- آسفة

أياً كان هذا الشخص فهو تفوح منه رائحة تبغ وكأنه ولد بها، حين رفعت عيناها على استحياء اصطدمت بعينين داكنتين لم

تراهما من قبل سوى مرة واحدة حيث كان حفل عيد مولد تميمة وعرفت وقتها أنه أخ لخالد

هذا العائد من غياب الذي قلما ما يتحدث عنه أحد..

أخفضت عينيها مجدداً مع تنهيدة سريعة وازت اعتذار ثاني وكأنها تود أن تقول أي شيء كي تُكمل هروبها من المكان ولكن خطوتها بدت مستحيلة مع هذا الذي يسد طريقها بجسده ويرمقها بنظرة غريبة لم تفهمها, تحدثت بعفوية خائبة كحالها دوماً:

- حضرتك أخو خالد؟

لم يعقب، اختلفت نظرته للحظة وكأنه يتذكرها ثم تابع بعد أن جاورها أمام المضمار وفوق شفتيه ابتسامة ماكرة:

- افتكرتك.. إنت كنتِ بتغني في الحفلة

أومأت رأسها بخجل وفي لحظتها لمعت عيناها مع الآخر الذي على ما يبدو الآن لاحظ وجودها فتابعت وعيناها تعود سريعاً نحو المضمار وتميمة:

- أيوة أنا ندى زميلة خالد في الباند

نظرة تقييمية سريعة أكمل بها تفحصه الذي بدأ حين لمحها مستندة فوق حاجز المضمار، هو لا يخيب أبداً في تقييمه لأنثى ولكن تلك على ما يبدو كانت ظالمة لنفسها فوق المسرح..

فملامحها تستحق أن تنال وضوحاً دون النظارة الطبية التي كانت ترتديها يومها وجسدها بمنحنياته يستحق الظهور بدلاً من الإختفاء تحت قميص رياضي واسع وسروال كتاني عقيم.. ممتلئة بعض الشيء ولكن ما المعضلة فالامتلاء حين ينال ردف مستدير يكون لا بأس به على الإطلاق!

مرة آخرى تغلب عليه انحناء شفتيه المشاكس فتابع وعيناه تتأرجح بين ملامحها المرتبكة على ما يبدو بالفطرة وتميمة المنشغلة بجوادها في عالم آخر:

- محمود

ابتسمت بعفوية تبيح متابعة الحوار:

- فرصة سعيدة

وحينها استدار نحوها متجاهلاً تميمة التي كانت قد لاحظته لتوها ليردف بنبرة بطيئة:

- أكيد أنا الأسعد

ثم مال برأسه بعد أن اقترب منها بخطوة آخرى ليضمن وصول همسه كما يجب:

- وعايز أقولك على سر

هي بريئة أكثر مما يجب ولكن هو أيضاً قريب أكثر مما يجب.. أزاحت نفسها قليلاً مبتعدة عنه ثم تابعت وهي تعدل خصلاتها في حيرة:

- سر!

أردف بنبرة ماكرة وهو يشعل لفافة تبغ حان وقتها:

- في مدرب خيول هنا أنصحك متقربيش منه.. بيعاكس البنات الصغيرين والحلويين واللي خدودهم جامدة كدة

ولا تنكر أن الأمر ربما كان سيستغرق منها دقيقة كاملة لكي تفهم مقصده ولم تنل تلك الدقيقة فبعد انتهاء جملته بفارق ثانية واحدة انتهى الأمر مع قبضة خالد

أو ابتدأ!

****

- خاااااالد

- إنت بتستهبل

وابتسامة ساخرة!

والأمر كان للمراقبين منقسماً بين ثلاث ورابعة انزوت في جزع تراقب المعركة

تميمة التي تركت جوادها صارخة بخالد وخالد الذي تبعت قبضته بوجه أخيه دفعة غاضبة أدت لاصطدام وجه محمود بالحاجز الخشبي ومحمود الذي قابل هجوم أخيه الجسدي واللفظي بابتسامة تحمل سخرية غير مفهومة للرابعة التي كانت بلحظة بقلب الحدث وبآخرى مُزاحة بفضل ذراع المنفجر من الغضب والتي تولت تهدئته تميمة..

وبوقت كان أكثر من مناسب ظهرت رؤى لتسحبها وعبراتها المتجمدة بعيداً عن العاصفة.

- خالد ممكن تهدى

- سيبيني دلوقتي يا تميمة

قالها وهو يضم قبضتيه بحنق بينما شفتيه مزمومتان تماماً حابساً نيرانه إن صح الوصف وليست أنفاسه، تنهدت بتفهم قبل أن تقترب خطوتان مربتة فوق كتفه:

- هو غبي.. بس ممكن ميعرفش معزة ندى عندك

لم يُجب.. كانت عيناه متحفزتان لعراك آخر لمجرد ذكرها للأمر من جديد، مرر أنامله بخصلات شعره بعنف قبل أن يتأهب لرحيل وشفتيه تبرطمان بقسوة:

- ندى أو غيرها.. يا يحترم المكان اللي هو فيه يا يمشي

وغادر المكان متحاشياً النظر نحو الساخر بموضعه كما هو مستلقياً جوار الحاجز الخشبي، لم يفعل شيئاً سوى أنه اعتدل بجسده ثانياً قدميه ومشعلاً لفافته من جديد

مهيئاً سحابته جوار حضورها العاصف.. خصلاتها متطايرة لولبية كما تخطف عينيه دوماً وشفتاها قاسيتان تنويان به تأنيباً سيتقبله بصدر رحب!

توقفت أمامه مُكتفة ذراعيها وحاجبها الأيسر مرفوع باتهام قابله هو بزفرة لا مبالية تحمل دخانه:

- إيه حتضربيني إنتِ كمان

- تستاهل

والحاجب ما زال متحفزاً وهو بني بلون القهوة والبندق كخصلاتها تماماً.. هلالي ولكن بانحراف محسوب يبرز بشكل خاص تفاصيل مختلفة من الفتنة تتفرد هي بها عن جميع النساء، وكِلا حاجبيه ارتفعا بلامبالاة رغم جنوح أفكاره

- وأنا حفوتهالك زي ما فوتهاله بالضبط

ولا تنكر أن النبرة الهازئة بصوته استفزتها أكثر، مين أين له بكل هذا الرصيد من الغرور بل من أين..

وفجأة تجمدت أفكارها مع الخيط الأحمر الرفيع المنسدل من جوار حاجبه الأيسر لتقترب تلك المرة ولكن بزفرة غاضبة:

- اتفضل قوم قدامي

نظر نحوها باستغراب ولكنه بعدها أدرك الجرح بجانب جبهته ليمسح حينها طرفه بظهر يده وصوتها هي يتابع بغضب:

- يلا علشان تطهر الجرح

حين تبعها لاحظ أنها تتوجه للعيادة البيطرية وعينيه ضاقت بتحفز فلم يعد يفهم هل تعالجه أم تنتقم منه.. لم تكن أمها بالعيادة ولا شيء سوى مكتب صغير وبضع الملفات المكدسة وثلاجة تحوي على ما يبدو بعض العقاقير والمراهم الضرورية.. أخرجت زجاجة ضخمة من البيتادين وبعض القطن الكبير الحجم ثم تابعت وهي تقطع الكيس المغلف بأسنانها:

- ده بيتادين.. اكبس بيه الجرح علشان تطهره

كان قد استرخى بجسده على المقعد الخشبي جوار المكتب وأسند رأسه للوراء مغمضاً عينيه مستسلماً برضاء تام لأناملها الناعمة التي لم تقربه!

فحين أنهت كلمتها جذبت كفه لتضع به الزجاجة والقطن وبقوة تكاد توازي قبضة خالد، لم يعدل من وضعية جسده.. ظل مسترخياً وساقاه ممدودتان تكاد تصطدم بساقيها فتحركت هي مبتعدة في غيظ وشفتاه تتمتمان بمشاكسة هامسة:

- إيه ده إنتِ مش حتعالجيني

ولا ينكر أنه يكتم ابتسامته ورغم ذلك هي لها واضحة ساخرة وغير مبالية وتحمل وسامة مستفزة..

- help yourself يا جميل

وتلك المرة المبالاة كانت نبرتها.. ويود أن يرفع لها القبعة لأنها أتقنتها رغم أنها كاذبة

حتى خطواتها المبتعدة عنه عائدة نحو جوادها تكذب

هي مغتاظة وترغب بشدة أن تحطم رأس هذا المتباهي الوقح العينين المغازل لكل تاء تأنيث على وجه الأرض

- غبي

والهمسة لم تكن لأفكارها، بل لجوادها المستكين لأول مرة وليس بفضل لمستها المدروسة بل لعفوية جبهتها التي استندت فوق رأسه الضخم لتثرثر بشأنه

تهمس بشأنه..

****

حين وضعت قدمها في سيارة الأجرة التي طلبتها رؤى بدأ الفيضان, حتى أن السائق نفسه شعر بالشفقة من أجلها وناولها علبة ضخمة من المناديل.

والفتيات يحتجن تلك الكمية الضخمة حين يبكين فقط من أجل الحب.

وربما لأن حبيباً رغم غضبه لأجلها تجاهلها تماماً, قذف بها خارج الصورة ولم يكترث بالبحث عنها وكأنها هي المُلام.

وخرجت نبرة رؤى مفتقدة للصبر رغم فضول السائق:

- خلاص كفاية يا ندى.. ممكن أفهم حصل إيه؟

والجواب لم يكن أكثر من نشيج مكتوم تتخلله همهمات غير مفهومة, وندم مبطن لأنها ارتدت تلك الملابس اليوم ولأنها تحاورت مع هذا الآخر ولأنه غضب وفي النهاية ضرب أخيه

وهي السبب..

وعاد النشيج من جديد وتفاصيله حماقة أو تشوش وهروب من نصيحة آخرى لرؤى التي بدأت تفهم

"هو ده الحب.. يا خايبة!"

****

تقف ثانية قدمها اليسرى جوار سخان المياة الكهربائي وتلوك بين شفتيها علكة بنكهة الموز وتبحث بيأس بين خزانته عن مسحوق بديل للسكر.

ابتسم وهو يتأمل تفاصيلها المكونة من تنورة ضيقة قصيرة بلون كريمي هاديء تحت بلوزة زرقاء ناعمة الملمس، جسدها ممشوق القوام يصلح لأحد عارضات الأزياء بجدارة فكل شيء قياسي قدر مثالية خصر، واستدارة نهد.. ونعومة عنق جماله لا يستحق أن يُشَوَّه بعقد أو قلادة.

أملس وعاجي وبجانبه الأيمن شامة صغيرة بصبغة بنية فاتحة تتماشى مع شقرتها بتناغم مثير.

- أفروديت

وكأن صوته الأجش قرر الحضور ليوقف مراقبته وأفكاره.. استدارت نحوه وبعينيها الخضراوتين تعجُّب ساخر فهو ليس

برجل كثير الكلام ولا المغازلة.. بل أن لقاءاتهما المتعددة بدأت مؤخراً تتخذ شكلاً روتينياً كما الأزواج وها هي الآن تقف بمطبخه وتعد له القهوة وهي امرأة لا يتقابل مسارها مع المطبخ أبداً..

- أعتبر دي رشوة علشان بعملك النسكافيه

وكانت السخرية قد تركت عيناها لتنتقل نحو شفتيها جوار علكة الموز التي كانت ملكة نكهتها الليلة.. ممتعة رانيا، بل مثالية بقدر عشيقة من الطراز الأول.

وقف خلفها تماماً ليمد ذراعه الأيمن من خلفها نحو علبة السكر المختفية ويده الآخرى تتولى مزج القهوة ليهمس جوار أذنيها بثقة:

- أنا مش محتاج أقدم رشوة

مع استحواذ قبضته على قدحه الساخن كانت هي قد تحركت من تحت ذراعه بخفة لتتوجه نحو المبرد جاذبة

زجاجة مياة باردة سكبت منها القليل في كوب كريستالي ضخم ثم تابعت وهي تشرب مياهها ببطء:

- واضح إنه الصداع راح

غامت عيناه قليلاً وكأنه ذكرته بما أراد تجاهله ثم تابع بابتسامة مرواغة وهو يرتشف قهوته ببطء:

- البركة فيكي

وحينها اقتربت منه هي مجدداً بثقة امرأة تركت له حرية محاصرة خصرها دون أن تهتز لها شعرة:

- حبيبي أنا ممكن أنسّيك اسمك لو ليا مزاج، مش مجرد يوم وحش

وبتلك اللحظة توحشت عيناه، هي تصر على تذكيره بصباحه.. بل بداية اليوم ووقت الظهيرة كله. كعادته بيوم العطلة يمر باكراً على منزل أخته يتناول معها الغداء ويستمع بنصف عقل لمحاولاتها اليائسة كي تنقذه من مساره.. تارة بنصيحة منتقاة

قرأتها في كتاب نفسي وتارة آخرى بترشيح امرأة من معارفها كعروس.

أراحها بتعبير صامت وابتسامة وتناول قهوته مع خالد وآثر رحيلاً مبكراً بعد أن يمر على تميمة ولكن في لحظة كل شيء توقف.. تجمد..

وتوقفت استدارة الأرض مع الجسد الممنحني أمامه في ارتخاء باكي على كتف صديقتها، خصلاتها تناثرت مع العبرات فتلاحمت بابتلال طفيف فوق تفاصيل وجهها ليتحول الأمر للوحة عبثية بطلتها زهرة ندى باكية، والزهرة وريقاتها رقيقة بصبغة فانيلا شرقية خالصة وجسد بض وجد ما يناسبه من الملابس!

حمقاء لا تدرك خطورة ما تفعل به

بل لا تدرك خطورة وجودها في محيطه من الأساس



فهو ليس برجل عاشق للملامح الملائكية.. لقد تخطى تلك المرحلة.

الفصل السابع

ياللى ظلمتوا الحب وقلتوا وعدتوا عليه قلتوا عليه مش عارف إيه

العيب فيكم يا فى حبايبكم

الوقت يا جميلتي لا يشبه تعداد عقارب وثوانٍ، الوقت ليس مقاييس أتشبث بها بحثاً عن تتمة أو خلاص..

الوقت لا نهائي، كمذاق ثمرة عطبة عليك أن تتجرعها..

والمشكلة الآن لم تعد بالوقت ولا تفاصيله

المشكلة أنني اعتدت تلك الثمرة!

وتأخذه ذكرياته لأول امرأة في تاريخه، وأهم امرأة

"ست الحبايب يا حبيبة"

ورغماً عنه يطال التهكم شفتيه مع ذكرى ست الحبايب، يحاول أن يتشبث بشقاء التسعة أشهر بين رحمها كما تنص المواعظ ويدور عقله بدوامات الحجج والذرائع، حسن هو السبب..
المُلام.. حسن هو من تركه وهي لم ترد سوى بيت كحال رقية بالمزرعة وأن يكون هو مثل خالد!

حسن كان صاحب القرار وحرباءه وليست هي..

والهمس بليالٍ باردة اختلط بالفحيح، عناق وقُبلة وحكاية قبل النوم وبما إن وقتها قد ولّى فالحواديت لا تناسب مراهق في الرابعة عشر انقلبت لمواجع.. فضفضة.. ومحاولات تقرُّب أم!

فحميميتها كانت ذكريات باردة عن أبيه الذي تخلَّى عنه، عن زوجته الماكرة وأخيه المدلل

عن الهامش الذي ابتدعوه خصيصاً له، وعن المساحة التي لا يستحق أكثر منها في تفاصيل عالمهم الواسع.

ولمعت عيناه مع مبتغاه الذي عزم على تحقيقه وشدد على أركانه منذ اتخذ قرار العودة، سيحطم بذراعيه تلك الهوامش.. سينال ما يريده غلاباً وسيكشر عن أنيابه كما يستحقون منه..

لقد ولّى وقت أبيه وحتماً زوجته والمدلل

فتلك هي حقبة محمود وفقط.

ترك الشرود عيناه حين استدار نحو غنيمته أم كما يصح الوصف تميمته التي انتوى، جميلة.. رقيقة بمذاق السكر كما تتذكرها طفولته، تصورها أكثر رقّة تتورد بمغازلة بريئة وتنال القلوب عينيها بعبارة حب ولكنها ومنذ اليوم الأول خالفت توقعاته، هي قوية الشكيمة مثل أبيها تتشبث بقسوته وسط العمال فتأمر هذا وتصرخ بذاك وتمارس رياضة الفروسية بهوس وعلى حسب ما سمع هي من المتفوقين بدراستها.

تفهم جيداً تلصص عيناه عليها وتتجاهل الأمر تارة وتواجهه تارة آخرى بنظرة متحدية كما تفعل الآن.. وكأنها تخبره أنها تدرك نظراته ولا تبالي

وتوسعت ابتسامته الساخرة وبالنسبة إليها ستسقط نقطة الخاء وتجزم أنها ساحرة ولكنها تهرب

تتقن الكذب واللامبالاة أمامه، وخاصة هذا الصباح..

فهو الغبي الوسيم بلصقة شفافة فوق جرح حاجبه الأيسر، ذقنه منبتة بعض الشيء وعيناه شاردتان وسط دخان تبغه.. يجلس بهدوء مستنداً على مقدمة الإسطبل وأخبرها دسوقي أنه أجّل كل تدريبات هذا اليوم..

شكراً دسوقي الأن أعطاها حُجَّةً للحديث، أو المجادلة!

- ازيك

قالتها وهي ترفع أنفها في شموخ وعيناها تتأرجح باهتمام فوق جرحه، لم يجب في حينها.. نفث تبغه ببطء ثم ردّ بنبرة هازئة وهو مغمضاً عينيه:

- محسساني إنك مهتمة!

كتفت ذراعيها في غيظ لترد بذات التهكم:

- الحق عليا إني بسأل على فكرة

- كتر خيرك

وهو أيضاً كان سريعاً ومتهكماً أكثر ولكن شفتيه كانتا تكتمان ابتسامة ولاحظت فنال منها الغضب أكثر:

- ممكن أعرف إنت بتضحك على إيه؟!

حينها فتح عينيه فجأة مستأثراً بصورتها بين نظراته فأربكها.. وهذا هو المطلوب

ارتبكت وعدلت بشكل سريع أحد خصلاتها، رسمت فوق الرمال بحذائها نقش غير منتظم.. ثم عادت سريعاً لساحة الحرب..

- في حاجة بتضحك؟!

وساحة الحرب عيناها، وعيناها غاضبة.. بها نبض ضوء غير واضح يحمل نكهة غروب الشمس، لا يريد أن يقول أنه لون ساحر بل لون مخيف

خطير لأي رجل

أي رجل سواه!

ولم يُحد نظره عنها، بل رفع حاجبه الأيسر متحدياً:

- الابتسامة مش شرط تكون ضحكة

وثنت هي شفتيها متهكمة:

- وتبقى ايه بقة لو مش ضحكة

حينها ارتكز هو على أحد ذراعيه ليستقيم فجأة مما اضطرها لتعود خطوة إلى الوراء.. خطوة تتحاشى اصطدام، واقتراب.. وطوفان تبغ.

وتابع ورغماً عنه تركيزه ينصب نحو عينيها:

- ممكن تبقى سخرية

- هه

وخرجت منها عالية ومقصودة

سخرية هل يمزح! هو كائن مصنوع منها

وحينما احتدت نظراتها فهم فتابع وهو يهرس عقب سيجارته بحذاءه الضخم:

- ماهو الدكتور بتاعتي ما عالجتنيش وبتسالني عامل ايه

حركت رأسها في يأس لتتخطاه نحو الإسطبل وهي تهمس:

- أنا مش دكتور على فكرة

وتوقفت خطواتها مع مشاكسة نبرته التي قاطعتها تقريباً

- بس ممكن تكوني الدكتور بتاعي

تجمدت غيظاً لوهلة قبل أن تستدير لتواجهه بشراسة:

- ليه إنت ناوي تنضرب تاني

ثنا شفتيه بمراوغة قبل أن يقذف بينهما لفافة تبغ أخرى لم يشعلها:

- لو حتعالجيني معنديش مانع

ضمّت حاجبيها وكأنها تفكر في عرضه بتفهم راقي ثم أومأت بصمت قبل أن تتحرك خطوة جمدتها قبل أن تكتمل لتعود بجسدها مقتربة منه بهمس جاد:

- في مدربة خيول هنا أنصحك تبعد عنها.. مش بتعرف تعالج، بتروض بس

وتمكنت منه ابنة خالد.. لم يشعل اللفافة، تركها تنساب من بين شفتيه وهو يراقب ظلها الراحل نحو جوادها الثائر،

هي حولت الأمر لتحدي، وهذا بات يعجبه..

****

ما هو الحب..

الحب هو أن تتحول أنثاك لوطن.

وفي تلك المرحلة ستغدو مشاعرك بشأنها مختلفة تماماً، فالأمر يتعدى اشتهاء اللحظة أو الفكرة أو وتيرة الحياة.. الأمر بتفاصيله يشبه ملحمة هم أبطالها، بل أن كل ركن من أركان مزرعته يذكره بتلك الملحمة.. كل ركن منها يشبه لحد ما عائلته، تميمة تمثل الصهيل.. الجنون والعنفوان ونضارة الصباح فوق صهوة جواد. أما عبد الله فيمثل الحمحمة، تلك اللفتة الهادئة وسط أنفاس خَيل.. ويأتي بينهما عبق البندق.

لا يوجد لها توصيف

تبقى هي وكفى..

بات يحفظ تفاصيلها، تترجم عيناه كل انفعال حتى من قبل أن يبدأ.. يدرك توتر أناملها فوق ثمار الليمون وهي تحاول جاهدة منذ أكثر من ساعة أن تعدّ عصير متوازن النكهة، الأمر ليس بمعضلة.. ثمار ليمون مقشرة وماء مثلج وبعض أوراق النعناع، وارتسمت فوق شفتيه ابتسامة وهو يعيد الكوب للطاولة:

- نسيتي السكر!

وتلك المرة زفرتها تطلبت تدخلاً منه.. بل تلك الانقباضة التي هاجمت جبهتها وهي تبحث بين الخزائن عن علبة السكر التي كانت تحت عينيها على الطاولة.

سكب لنفسه بعض القهوة ليجلس على الطاولة الصغيرة وعيناه مرتكزتان عليها:

- سيبيه

استدارت نحوه وعيناها هي تضيق رفض:

- يعني هو ده الحل!

- ما الحصار ده مش حل يا إيناس

ورغم جلسته الهادئة إلا أن النبرة تلك المرة محتدَّة.. المعركة بتفاصيلها له أيام يراقبها من بعيد، عبد الله الذي خرج عليهم بقرار إنفرادي برغبته في السفر لأحد الدول الأوروبية في أجازة الصيف والقرار لم يكن يحمل أي تدلل أو رفاهية يتشبث بها مراهق بل هي دعوة من أحد مراكز البحث العلمي لقضاء فترة شهرين بمعسكر تدريبي خاص

أمر رائع

أمر مرعب!

ولا ينكر أن مخاوفه كأب تحكمت في البداية في انفعاله، بل ربما لو استسلم لوثّق حبال الحصار مثلها تماماً ولكن لم يستطع أن يكتم اعجابه بهذا الصغير الماكر الذي ظنّوا جميعاً لفترة أن وقته أمام الحاسب تضيعة تقليدية للوقت ليكتشفوا مؤخراً أن

تلك اللعبة التي كان يقتات على تفاصيلها ليلاً ونهاراً هي من برمجته وحده وأنّه انتهى منها وراسل إحدى الشركات العالمية وقبض الثمن!

المشكلة عند من؟

إيناس التي اختصرت اهتمامها بعبد الله في الرياضيات والحساب ومادة الجغرافيا التي يكرهها أم هو المنشغل بعمله دوماً ولا يملك له سوى ساعتين بالمساء أو رحلة فوق صهوة خَيل غالبا ما يفوتها الصغير.

والصغير لم يعد صغير.. بل اقترب من كونه شاب ناضج واخشّن صوته جوار شارب خفيف يحرص على تشذيبه ويترك العنان لتلك اللحية الخفيفة التي تبلور وسامته، عيناه بنيتان ضيقتان تلمعان خلف نظارة طبية رياضية الإطار تناسب وجهه وشفتيه الرفيعتين القليلتين الكلام والابتسامة.

الصغير ليس مولعاً بصهيل الخيل أو سحر النباتات وأسماء الزهور، الصغير عالمه مختلف تماماً ولكي يمارس أبوته يجب أن يفهم هذا العالم..

وقراره كان جملة قاطعة:

- عبد الله حيسافر يا إيناس، وأنا حاوصله بنفسي

****

لا تقولوا إخوة

فقد قتل قابيل هابيل!

"ولادك ضربوا بعض يا حسن"

والجملة تغدو وتجيء بين ثنايا عقله، لم تكن بلسان رقية فابن رقية هو المعتدي ولم تكن بلسان سهام فمنذ زمن هي ولسانها

علاقة مقطوعة.. لم تكن بنبرة تنغص أحلامه بصوت حزين لأمه الراحلة ولم تكن ملامة من صديق أو قريب.

كان هو.. كان صوته.. يحادث نفسه ويصرخ بنفسه، والخبر له ثلاثة أيام وعرف تفاصيله من فم سائس يثرثر.. جبهة محمود كانت خير دليل وإن لم يسأل وانسحاب خالد من محاولة سؤال كان التتمة

تعارك الشقيقان.. وهو لا يكترث بالسبب حتى أنه لا يكترث بتفاصيل المعركة، الاكتراث هو لحدوث المعركة بالفعل..

والهاديء فقد نفسه والمتمرد هل سيُلام!

وبغرفة مكتبه وقف الاثنان.. الأكبر مستنداً على حافة مقعد دون اكتراث والأصغر يضم قبضتيه خلف ظهره في مواجهة يراها حاسمة.

أما هو كما العادة فتشبثت قوته بزعيق.. وإن خرج بشكل حشرجة يائسة:

- ممكن أفهم حصل ايه يا خالد؟

حشرجة بائسة!

بات جلياً أن عصا اللوم ستوجه نحو خالد، أي مبرر يبيح له ضرب أخيه.. أي حماقة ارتكب

وغابت الحشرجة وبقي الزعيق

- إيدك متتمدش على أخوك الكبير، هو كان عاقل كفاية انه متجاوبش معاك

والنبرة الساخرة لم تستطع أن تمنع نفسها، وكان خالد يدرك أنها ستثير جنون أبيه:

- عاقل! لا حقيقي ونعم العقل

- عيب يا ولد

وانفجرت عروق وجه حسن دفعة واحدة، ورغم أن الانفجار جذب عيني محمود اللامبالية إلا أن الأمر لم يثني خالد عنّ التكملة، وبزعيق أيضاً:

- العيب هو اللي عملوا ابنك

- ابني ده واخد باله من شغله ومستقبله حاول تكون نصه

- برافو!

وانتهى النقاش..

والتتمة الأخيرة كانت هي الحقيقة الوحيدة في هذا العبث

برافو خالد ضرب أخيه

برافو حسن أسس قواعد جديدة للكراهية بين ولديه

برافو محمود اهتزت صورة المدلل!

بات هو المخطيء والملام وصاحب النقص!

برافو محمود كما توقعت وتريد رد فعل حسن ضعيف مثير للشفقة لا يرقى لصفعه وطرده وحرمانه من جنته فيما قبل

برافو محمود أنت رغم كل هذا الأفضل وهو الحاقد

برافو ليلة سعيدة ماما رقية!

و.. برافو!

همس بها خالد بجانب أذني أخيه وهو يغادر الغرفة

" إنَّ أيَّ إنسانٍ يمكنُ أن يكونَ وغدًا، ولا شك أنّنا جميعًا أوغادٌ بدرجاتٍ متفاوتة ".

الاخوة كارامازوف

فيودور دوستويفسكي



السهرة تحلى مع الست!

وليلة الخميس مقدسة عند حمزة، عشاء فاخر من "حلمبوحة الكبابجي" ومخلل منزلي الصنع تتقنه ليلى بوصفة خاصة ورثتها عّن أمها والشاي دون حليب

إنه الكباب يا سادة..

وليلى معترضة على اسم المحل ويحرص هو أن يظل الإعتراض على الإسم فقط فلَو رأت المكان لقطعت علاقتها بليلة الخميس كلها.

نعود..

سهرة الخميس تحلى مع الست

وارتسمت ابتسامة عريضة فوق وجهه مع عينان مغمضتان واستلقاء هاديء فوق وسادة مخملية بلون أحمر فاقع.. تجاورها أخرى زرقاء والثالثة برتقالية تستقر فوق ساقي ليلى، سطح منزل حمزة لوحة فنية لا ينكرها أحد..

على جوانبه المربعة تتناثر مزروعاته بشكل عشوائي لزهور تحمل اللونين الأصفر والبرتقالي الفاتح، فوق السور تتجاور بشكل منظم أصائص الريحان والنعناع والروزماري الخاصة بليلى.. وفي مقدمته شاشة تليفزيونية ضخمة تكون ملجأهم في فترة الصيف أما المجلس فليس سوى بعض الوسادات المتوسطة والضخمة المتناثرة بشكل عشوائي حول طاولة قهوة غربية التصميم ولكنها مستديرة.

سكبت ليلى لنفسها المزيد من الشاي لتتجاهل اندماج زوجها مع المقطع المفضل لديه

" يا ما عيون شاغلوني لكن ولا شغلوني"

والله عليكي يا ست، لتكتم ضحكتها وتتوجه ببصرها نحو الوسيم الشارد

- ايه يا خالد انت مش رومانسي زي ابن عمتك وابنه

ولوت شفتيها في مكر وهي تضرب انسجام زوجها بجانب عيناها ليفتح هو عينه اليمنى مع ارتفاع طفيف في حاجبه ليشزرها متابعاً:

- هو رومانسي بس مش انترناشونال.. خالد بيشجع المنتج المحلي

ونجح في اغاظتها أكثر فكتمت أنفاسها متابعة والكلام وكأنه موجه لخالد!

- وماله بتفهم يا ابني.. ذوقك راقي

تابع حمزة مقاطعاً خالد حتى من قبل أن يبدأ:

- طالع لخاله

وأردفت هي بمعاندة:

- بس إنت مش خاله

- أنا خاله الروحي يا حبيبتي

- جديدة دي

- نحن نختلف عن الآخرون

ووازاها بغمزة مشاكسة من عينيه لم يتخلى عنها رغم مرور السنوات لتتوسع عيناها له محذرة وتوقف الحديث برمته عائدة مرة آخرى للموسيقى وصوت الست

تحاول أن تصفي ذهنها متجاهلة التفكير بشأن معضلة أحمد، يقتلها الفضول والقلق عما يجول بصدر صغيرها وعن نضوج ضربات قلبه لتكون بشأن أنثى.. بداية السهرة كان تجمعهم العائلي المعتاد ورفيقهم المعتاد دوماً خالد، التوأمان خلدا للنوم بأمر ديكتاوري من حمزة بعد تناول عشاءهم مباشرة

ف ياسين ويحيى والست

don't mix !

أما محمد فلحق بهما بعد ساعة لا أكثر استعداداً لمباراة مهمة مع فريقه بالغد وجاور أحمد خالد في حديث هامس استمر

لأكثر من نصف ساعة ثم تركهم بدوره كما يدّعي من أجل النوم وهي تعلم أنه كاذب بل هي غاضبة والغضب ملتصق بوجهها لا تستطيع إخفاءه وإن كانت الست تخاف من الحب وسيرته على نفسها هي تخاف من سيرته التي تخص صغيرها

صغيرها عاشق

صغيرها يكتب الخطابات لامرأة

ليست فتاة ولا طفلة بل امرأة

وزوجها مستكين في راحة غامضة وكأن تصرفه للموضوع أن لا يفعل شيء وفي تلك المرحلة تحديداً لولا أنها تحبه لقتلته!

وكانت الست ما زالت تشدو عن العشق وحلاوته، أم ربما مآسيه.. هي تتحدث عن علاقة رومانسية بين اثنان

رجل وامرأة

حنين واشتياق

وكأنها توليفة مكررة في كل علاقة، لا جديد.. لا ابتكار فيما يخص الحب، أو الكراهية!

وقطع حمزة أفكاره بنبرة صريحة:

- إنت مش عاجبني يا مان

وابتسم خالد لكلاهما مع هروب أنيق:

- الامتحانات قربت

نظر له حمزة بتفحص:

- على بابا

ليضحك خالد هارباً:

- لا على خالو

قاطعهما ليلى التي استنبطت بحنكتها أن هناك أمراً ما يدور في الكواليس بعقل خالد حمزة نفسه لا يفهمه:

- خالد أنت كتبت حاجة قريب

شعر وكأنها أنجدته، هو حقاً لا يود الحديث عن ثرثرة عقله.. ابتسم مومئاً:

- مسودات

شردت عيناها قبل أن تردف بنبرة هامسة:

- عايزة فرحة.. سمعني حاجة فيها فرحة

ثم ثقلت نبرتها قليلاً وهي تتأمله بنصف نظرة والنصف الآخر كان شروداً بابنها:

- كلنا محتاجينها

وغاب كلمات الست ليحل محلها صوتاً آخر، ربما ليس موهوباً أو قوي الصدى كغيره ولكنه كان مثل أوتار جيتاره صادق

يحتاج كما قالت ليلى إلى البهجة.. الخير.. يحتاج لأن يخرج من هذا المستنقع الذي يجذبه شيطانه نحوه

"إنني أحب الإنسانية، غير أن هناك شيئا في نفسي يدهشني: كلما ازداد حبي للإنسانية جملة واحدة، نقص حبي للبشر أفرادا"

الاخوة كارامازوف

فيودور دوستويفسكي

ريهام!

قالتها رؤى وهي تأخد قضمة كبيرة من شريحة الجبن أمامها والتعجب يوازي مضغها لكل قطعة

فتلك التي رأتها منذ ساعة واحدة لا يمكن أن تكون ريهام أبداً، ربما يليق بها لفظ الحيزبون.. الشمطاء.. الساحرة الشريرة.. ولكن ريهام!

وتابعت وهي آخر فتاة في الكون يمكن أن تحبس لسانها:

- يا بنتي دي اتولدت قبل ما اسم ريهام ينزل أساساً، الأوبشن ده نزل بعدها بعشر سنين

كتمت ندى ضحكتها وهي تتقبل السخرية برحابة على خالتها!

ولم لا؟!

فالخالة الحنون التي وكلتها أمها بالجانب المادي فيما يخص استهلاكها للنقود والذي لم يكن قراراً مفهوماً لها في البداية استخدمت وكالتها بنهج خاطيء تماماً..

فالأمر بات يتعدى تخفيض مصروفها الشهري أو احتياجات ملابسها، بل أصبح قيل وقال ومتى ولمَ وكفاية!

وكلما كانت تشتكي ندى لأمها بقلة حيلة تنص خالتها الردّ بأسطوانة محفوظة

بحافظلك عليها

وبلغ الحفاظ أشده حين توجهت لخالتها لأخذ نقودها الشهرية وعادت لمنزلها باكية مع الجواب

"معادك كمان ٣ أيام.. وقبل كده مفيش!"

وكانت المشاجرة بين الأختين التي نالت منها ندى رفاهية طلب النقود من أمها كباقي البشر والخالة تعطيها المتفق عليها ودون حوار.

راقبت رؤى شرود ندى بتمعن قبل أن تقاطعه عن قصد:

- الحيزبون متجوزة؟

ضحكت ندى بيأس:

- مفيش فايدة فيكي

تابعت رؤى بلامبالاة وهي تترك الشريحة نحو كوب الشاي:

- وانت حتفضلي طول عمرك خايبة، وأساساً تلاقي اسمها قديم وغبي وريهام ده الخديعة اللي أمك متسترة عليها

تلك الفتاة تضحكها.. تضحكها من قلبها بحق وهي بتلك الأيام تحتاج للضحك.. تحتاج أن تنسى خروجها باكية من المزرعة بفضله وتنسى غيابه وتجاهله لها على مدار الأيام الفائتة.. حتى أنه لم يهتم ليطمأن عليها باتصال!

وانتفضت فجأة مع صوت الهاتف ولاحظت رؤى لتكتم سخريتها أما هي فسخرت أيضاً ولكن من حماقتها

لم يكن هو

لم يكن هو يا غبية

وردت مسرعة وكأنها تعاقبه ببحثها عن نفسها

ووجنتيها متوردتان لا لخجل، هو اضطراب.. جنوح عّن طريقها المرسوم جوار خالد وتشوش يحاول أن يفهم اللحظة

أو المفاجآة

أو هدية أستاذ مصطفى!

- بجد عايز يسمع صوتي

- موافقة جداً

- تمام نص ساعة وحقابل حضرتك في سيلانترو

نظرت رؤى نحوها بفضول:

- ده خال تميمة!

وأجابت ندى بعينين لامعتين لا تفهم رؤى هل هي حقاً متشبثة بفرصة أو هروب:

- فرصة عمري يا رؤى.. حدد لي معاد مع ماجد منير (ملحن شهير)

ودَّعت ندى صديقتها بشكل مسرع وهي تعلق حقيبتها بوضع عكسي كما المعتاد وفي عجالة

ورؤى مثلها مثل خالد لا تستريح لمصطفى هذا ولا تعلم لم تلجّم لسانها الطويل فصمت سوى عّن همس لم تسمعه الآخرى:

- الراجل ده مش سهل يا ندى

****

بسيطة.. رقيقة.. تناقض آخر صورة رسمها خياله بشأنها

فالتنورة السوداء القصيرة باتت ثوباً أبيض طويل حتى كاحليها تحت سترة هادئة بلون رمادي.. حقيبة وردية ضخمة حول

كتفها بشكل عكسي وشفتين هادئتين دون صبغة.. خصلاتها كانت مجدولة في ضفيرة قصيرة وعيناها أضافت لهم فقط على استحياء ظل أزرق فاتح.

نعم خالفت الصورة ولكنها كانت رقيقة كزهرة فوقها ندى.. زهرة ما زالت في طور تفتحها, ورِقَّة أوراقها هشة ككل ما هو قابل للكسر..

حين لمحته ابتسمت له ببراءة فترك شروده وقهوته واستقام لتحيتها بكياسة أربكتها.. حتى أنه سحب لها مقعداً لتجلس عليه، وحين فعل اقترب وحداثة سنها لم تدرك هذا القرب ولم تفهم أنه اشتَّم عطرها بتلك اللحظة وأن عينيه غامتا لأنه عطر طفولي برائحة الفواكه

رائحة الفراولة مع التوت

ويقنعونهم أنه طفولي ولا تدرك هي أنه عطر ببساطة يعطيها لذّة..

لذّة هادئة تناسب براءتها ولذة خطيرة لرجل مثله.

وقاطعته مجدداً وعيناها تتجول في المكان بحيرة:

- هو أستاذ ماجد حيجي هنا

- لا

وكان ردّه حاداً.. قاطعاً فأجفلها واهتز بيدها كوب المياة فترك فوق أناملها بضعة قطرات باردة.. ابتسم بغموض وهو يعيد عبارته ويجذب بيمناه منديلاً ورقي جفف به ظهر يدها في ثبات:

- منتظر منه تليفون.. يلا بينا

واستقام بعدها على الفور حتى أنها تكاد تكون لحقته وهي تعلق حقيبتها مجدداً

- فين؟!

ولم يجب في حينها.. استقل سيارته وجاورته هي بعد أن فتح من أجلها الباب وبعد أقل من نصف ساعة كانا قد وصلا إلى وجهتهم.. حي هاديء وعمارة سكنية فخمة تزيد عن الثلاثون دور..

كم هي غبية

بالطبع سيقابلهم ماجد منير بمكتبه

وسألته بثقة:

- مكتبه هنا

وردّ بنبرة جافة مجدداً وهو يغادر السيارة

- لا!

وعادت عيناها للحيرة من جديد، تجول مقلتيها فوق ملامحه وتسأل في براءة:

- طيب احنا رايحين فين

أما هو فإجابته كانت سريعة وقاطعة وقاسية بنبرة آمرة:

- بيتي..

****

يفصل العالم خط رفيع بين ضوء وظلام, والقلوب أيضاً يفصلها خط رفيع بين سماحة وظلام!

وهناك من يختار أن يطل زائر ليل.. بل يلوث نقاء الصورة بعالمه بلفافة تبغ..

فالصورة النقية لا تمثل شيء سوى كذبة

وأحمق بل غبي من يُصِرّ على العيش بكذبة

- محمود

والصوت رخيم.. هاديء.. شتت التبغ والدخان ووجود اللفافة ليخرج شبح من ماضي قريب

البذلة الرسمية المنمقة والخطوط الرفيعة حول العين والقبعة البنية العتيقة وتلك الابتسامة التي غادرها برغبته

حكيم!

الفصل الثامن

تملي في قلبي يا حبيبي وأنا عايش غريب عنك

تملي ولا أنت داري بي وأنا بشكي إليك منك

وحش وسيم!

تهرب الطفلة من الوحش وتتعلق الأنثى بالوسيم

وليتنا بقينا صغار..

وهي طفلة.. هي بالنسبة إليه مجرد طفلة تخضع لقوانين الشد والجذب, يستطيع بسلاسة أن يحركها كدمية كيفما يشاء ولا ينكر أن هذا مُغرٍ له كرجل.

مغوي متلاعب بأوتار احتياجاته.. واحتياجاته لا تتخلص فقط في امتلاك أنثى المشكلة ليست الأنثى

المشكلة أن تتلخص في امتلاك ندى!

- بيتك!

قالتها بتوجس.. تردد رسمته شفتيها قبل النبرة وعينان تجولتا في حيرة تودّ الرفض, وكما تقول القاعدة هي طفلة

كشَّر.. زمجر.. أخافتها عيناه وتمكنت من نبرته الخشونة:

- هو أنا صغير يا ندى؟!

ولأول مرة يعطيها تلميحاً واضحاً, هو ليس بصغير ولا شاب عابث

اللعنة هو خال تميمة!

وتوترت عيناها فطلّت منهما عَبرة, وكما المتوقع تلاها اعتذار:

- أنا آسفة بس..

- خلاص!

وكأن العَبرة لم تشفع لها عنده.. كان متجهماً منشغلاً بهاتفه فتراجعت تعض شفتيها غائباً عنها الردّ, هي قصيرة لا تتعدى كتفه تقريباً.. دون وعي كانت تتحرك خلفه كطفلة مُعاقَبة تنتظر العفو, أنفاسها قلقة وكفيها تعرقا في توتر واضح والغريب أنها تبعته دون وعي حتى المصعد.

استدار نحوها فجأة وقد ارتفع حاجبه الأيسر في حدّة:

- ندى انسي الموضوع خلاص وأنا حكنسل مع ماجد ونشوف يوم تاني في مكتبه

حين ارتفعت عيناها نحوه أوجعه الذنب, لقد أبكاها.. العبرة أصبحت عبرات والأنامل تباطآت بنقرات عشوائية فوق الشفتين والشفتين تحبسان الكلام في حيرة والوجنتين تخضبتا بحمرة الخجل والقلق وحرارة الطقس

رقّت عيناه فمال برأسه حتى وازاها تقريباً وتلك المرة النبرة كانت رقيقة هامسة:

- بتعيطي ليه دلوقتي

تحشرجت نبرتها هي وظهر كفها يجفف بعنف دموعها الغبية:

- أنا مكنش قصدي وحضرتك زعلت مني و..

قاطعها على الفور ولم تلحظ هي بريق عينيه:

- خايفة على زعلي يا ندى

وأجابت بعفوية صادقة ولكن ليس بصوتها كانت مجرد إيماءة, إيماءة أصبحت البداية لمجهول هي لا تفهمه ولا هو مدرك كيف ستكون تفاصيله..

لتبدأ رحلة صعود

صعود إلى الهاوية ولكن غير معروفة لمن

هي أم هو!

****

منزله يشبهه.. مبهم مثله

صغير بتصميم غربي الطراز, غرفة استقبال واسعة بها أريكة جلدية ومقعدان بتصميم عصري مناسب مع سجادة داكنة تحتل مساحة متوسطة ومطبخ مفتوح تقدم هو نحوه ليفتح المبرد بأريحية يسألها ماذا تشرب.

هي شردت لوهلة بمالمنظر النيلي من نافذته.. النافذة ضخمة مثيرة للانتباه تحتل الجدار بأكمله تقريباً وعلى يمينها كان مدخل غرفة النوم التي تحاشت النظر نحوها بخجل كاد أن ينفجر حينما لمحت اللوحة الفنية فوق الفراش

بالأحرى اللوحة العارية الواضحة التفاصيل للنصف العلوي من جسد امرأة.

تجمد بصرها وحين استدارت لمحته بجانبها مباشرة يكتم ابتسامته في مكر:

- تشربي إيه

عدلت خصلاتها باضطراب:

- ولا حاجة شكراً

تركها ليتوجه مجدداً نحو المطبخ وهو يشمر أكمام قميصه:

- حاعملك نسكافيه

ولا ينكر أن الابتسامة عادت لشفتيها وهو يلمح جلوسها بخجل فوق الأريكة وصوتها الرفيع يطلب ما يشبهها وبتردد واضح:

- ممكن هوت شوكليت

رفع حاجبيه في يأس وهو يبحث بين خزاناته عن ما يناسبها.. "هوت شكوليت" وبالطبع لم يجد سوى القهوة والشاي وحظها جيد أن بمنزله حليب!

ضحك وهو يسحب قدح ملون من أجلها:

- عندي لبن يا ندى

ابتسمت بخجل:

- لا مش للدرجة دي حاشرب نسكافيه بس غالباً مش حنام يومين

وضع القهوة أمامهما ثم تابع وهو يناولها القدح:

- ماجد على وصول.. زحمة الطريق بس

أومأت مرة آخرى دون حديث وانشغلت عيناها بمتابعة السيارات المتتابعة من النافذة أما هو فكان يتابعها هي يتأملها..

اليوم هي تخلت عن التنورة الضيقة التي لمحها بها من قبل, اليوم هي بريئة كزهرة لطيفة بلون وردي هاديء والثوب واسع منسدل على أرضية منزله وهي لا تدرك أن رغم السمنة البسيطة التي تؤرقها إلا أن الثوب يجعلها تبدو رقيقة صغيرة الحجم وسط أريكته الجلدية الضخمة.

ماذا بأنت فاعل يا مصطفى, لمَ أحضرتها هنا بمنزلك بل على بعد خطوات من غرفة نومك.

ماذا تريد منها!

وببراءة استدارت نحوه غير مدركة لحديث نفسه:

- الفيو حلو قوي من هنا

زاغ بصره قليلاً وكأنه بعالم آخر بعيداً عنها ثم أجاب وهو يرتشف قهوته مستنداً على ظهر مقعده بأريحية:

- أنا لما بتعجبني حاجة بستحوذ عليها كلها

ومرر عيناه فوق نافذته الضخمة فتابعت بعفوية:

- بيت حضرتك منظم قوي.. أنا بيتهيألي لو قعدت هنا ساعة حلخبطه

والنبرة وازت انفاسه بعد رشفة آخرى من قدحه الساخن.. نبرة هادئة متروية ثابتة وتوقن جيداً ما تُخرجه من تفاصيل الحروف:

- أنا واثق من ده

ولم تفهم مقصده ولم يكن لديها فرصة لتحاول.. في النهاية هو التزم بوعده معها

وحضر ماجد...

****

بقلبي لك أنا كلي

وشغلك عني ايه قولي

أنا بشكي إليك منك

يا حبيبي!

هل يجوز!

أن يُبقيها هنا في عالمه بغرور سلطان في زمن الجواري, أن يستأثر بعود ماجد ويضعه بين يدي ساحرة لتتحرك أوتاره منفردة مع صوتها وفقط..

عيناها.. حاجبيها.. تعبير شفتيها وحركة كتفيها وابتسامتها الموازية لكلمة حبيبي!

ندى لا تغني.. ندى تحيا الكلمة وتشربها وتروي نفسها والعالم أجمع, تتوه بين طيات الحروف فتصبح آخرى

جريئة.. واثقة.. ناعمة

عبقرية!

بل تنظر نحوه.. وبسعادة

وكانت تكرر حبيبي ولا توقن الكارثة!

أما عود ماجد فطلب مقطع ولم يتوقف إلا حين انتهت الأغنية كاملة.

وناقضت وجنيها المتخضبتين بحمرة مع مديح الضيف ثباته, بل شروده باللوحة.. ماذا تفعل به تلك الفتاة

ماذا تنوي بعالمه

هو من جعل من العبث منظومة وأحضرها لتُخِّل بقوانينها!

****

والفراشات الناعمة هن من ابتعدن الرقص حول الضوء.. ليست نار هو ضوء

كاذبة يا هواجس

وقلوق يا خالد

مصطفى أفضل رجل في العالم!

كانت تدور مع الهاتف حتى من قبل أن تدخل المنزل, الملحن الأكثر شهرة أراد أن يوقع معها في التو واللحظة

حق حصري

حفل حصري

الفرحة عمياء لا تتذكر المفاجآة

ولكنها حادثته بالكثير والكثير.. سردت حلمها جوار صوتها وصارحته بمشروع فرقتها.. بكلماتها هي وخالد وجيتاره وطبول رؤى.. عود معتز وكمان حسن

الحلم

حلم قاطعه صوت العقل أو الحيزبون كما تنعتها حين تُسقط فوق رأسها الواقع:

- حتقولي لخالد إنك روحتي لمصطفى!

هناك وجهان للحب

العاطفة والنكد!

أغلقت الهاتف بوجهها وتجرعت الحليب بالموز دفعة واحدة.. وتلاه الحليب بالشوكلاة, وختمت بالفراولة

لم تأكل الطعام ولكن وجدت مصدرأ آخر للسكر, وذكر السكر وازى نبرته المتهكمة بعد أن قرر أن يحادثها في أفضل لحظة!

- يا سكر..

وقررت أن تغضب.. ألا يحق لها!

هو تجاهلها وأخافها وزعق وضرب أخيه والآن بعدما هدأ جنونه وبرج الثور يمازحها بسخرية لاذعة.

أو لنعود إلى بداية.. بداية الاتصال والحوار

- مين بقه اللي ضحك عليكي وخلاكي تلبسي كده

وردّها لم يكن مرتجفاً ولم يكن مشتاقاً, كذبت ببراعة:

- أنا حرة!

ولم تجد نبرتها سوى السخافة:

- يا سكر!

رغماً عنه لو طالها سيفجرها

ولكنه هاديء.. بغموض لا يفهمه وهي غاضبة وتستحق دلال:

- لو لبستيه في الجامعة حاضرب مين ولا مين

وتخضبت الوجنة مجدداً والحمرة قررت أن تستأثر بالوجه كله.. فعلياً ولأول مرة بدفء يهمس!

همسة شاردة أخدها الغراب وطار

أو الحيزبون..

- رؤى على الويتنج

قالتها بعفوية ورغماً عنها كانت تهرب وساعدها هو الهروب وساعد نفسه:

- حاشوفك بكرة

ولم تخبره..

اللعنة.. لن تخبره أنها ذهبت لمصطفى أبداً..

****

الإنسان ذئب لأخيه الإنسان!

توماس هوبز

الحياة تشبه كوب شاي دافيء, ليس ساخناً حارق المذاق ولا مثلجاً بصبغة رفاهية!

هو مجرد كوب شاي عادي للغاية, كوب زجاجي بذراع نصف مكسور جرح اصبعه بأول ليلة له بالمنزل الفارغ كما اعتاد تسميته وآلمه الجرح وغضب وودّ أن يقذف بالكوب مستعرضاً قوته فيتناثر, ولكنه مجرد كوب مسكين مثله.. حافظ عليه فبات صديقه المفضل.

قرار فردي اتخذه ولم تنل أمه سوى ثلاث كلمات

- أنا راجع مصر

هناك وبعد ما عاد بثلاثة أشهر لفظت جدته أنفاسها الأخيرة, ولم تأتي أمه لنظرة شبه أخيرة.. بكت نصف يوم ووضعت بمنزلها مقاعد عزاء وانتهت الليلة.. أما هو فوجد نفسه وحيداً بعمر تسعة عشر عاماً يرقب كفن امرأة عجوز, ربت جار لطيف فوق كتفه وساعده آخر بتفاصيل لم يفقهها وتناثر أقارب لا يعرفهم على مقاعد مرصوصة ومر اليوم..

ورغم أن العجوز كانت مريضة وكانت ثرثارة وكانت شاكية وكانت باكية وفي الصباح تلعن أمه التي لم تعد ترسل لها النقود وفي المساء أبيه الذي تكرهه بفطرة حماة إلا أنها كانت بشكل ما تملأ فراغه!

زفرة آخرى مع سجائر باتت حريته في المنزل, وكوب الشاي الدافيء.. ولمياء المراهقة في الشرفة المجاورة بجسد يفوق عمرها بأربع سنوات ونصف!

ولمياء تدّعي أنها تتحاشاه وأنها غاضبة وأن براءتها أُنتهكت يوم الاثنين السابق الساعة الثامنة والنصف مساءً حين طرقت

بابه بخجل وبيدها طبق ساخن من حلوى أم علي ألهب يديها ولهذا كانت مضطرة أن تدخل وأن تضعه سريعاً على الطاولة وأن تلتصق به مرتان وتبتعد وعيناها متعلقتان بمشهد رومانسي قديم يحمل نبرة

"سيبني يا محمود!"

وكان سخيفاً والفتيات يعشقن سخافته:

- هو أنا ماسكك!

وضربته فوق قلبه وكانت تقصد وكادت تقع وكانت تقصد وأسندها هو من الخصر وأغلق عليهما الباب

ولم يحدث أكثر من القبلات يا صاحبة النهدين الأوفر حظاً!

ومرت حكاية لمياء كغيرها وبشكل ما هن ملأن الفراغ.. ولكن كلهن كن مثل كوب الشاي المعتاد بيديه, عاديات.. مكررات.. دون نكهة.

سنوات تمر.. أُم انشغلت بالحياة وأب كان ينتظر أن يبحث عنه!

ومن بين كل هذا ظهر حكيم

****

خذوا الحكمة من أفواه المجانين

خذوا الحكمة من أفواه العقلاء

لا تأخذوها من الأساس فالجهل سعادة!

الفطرة خير

الفطرة شيطان!

يقولها روسيو يناقضها هوبز وينفث محمود دخان تبغه بين مكتبة عتيقة تحوي ألف كتاب ويتندر وكوب الشاي أمامه لم يمسه:

- القراءة صداع!

ويخرج عجوز بعوينات بنية سميكة من بين أوراق كتاب:

- الصداع حياة!

وتلك الثلاث السنوات كانت أكثر أوقات السلام النفسي بعالم محمود.. نسي سهام.. نسي حسن.. ونسي خالد

ثلاث سنوات بدأت بعلاقة صداقة غير مرتبة مع مُدَّرِسه الجامعي لمادة الإنشاءات!

خطوط.. قوانين.. والهوامش فلسفة

واسترخى محمود برأسه وعيناه متعلقتان بمصباح اضاءته فقيرة فوق رأس حكيم, ورأس حكيم مستدير ببشرة بيضاء تشوبها الحمرة وخصلات رمادية ناعمة لم يلمحها منذ عرفه سوى مرات معدودة, فالقبعة تقليد كما أوراق العقاد وأطروحات نيتشه ووجبة العشاء القادمة من محل محروس للكبدة والمخ!

- كبدة مع أفلاطون

والساخر من العالم بأجمعه لم يكن يهزأ بل كان سؤاله حقيقياً ومحمود وقتما يقول الحقيقة يولد بعيناه بريق طفولي صادق وابتسامة لم يلمحها في الكون أحد سوى حكيم ويرفع حكيم حاجبيه في إتزان:

- الفلسفة للفقراء

والإتزان غير موجود بوجه محمود وهو يبتلع أول قضمة ويتندر عن قصد تلك المرة:

- والكبدة لعلية القوم!

- محمود

الذاكرة بدأت وعادت مع ذات النبرة

عاد حكيم!

واستدارته وازت انعقاد حاجبين رافضين لمجرد وجوده, بل خطوة رافضة تبتعد وتبتعد وكأنه قرر أن يهرب من خطر هذا العجوز

الفطرة حماقة..

الفطرة لعنة!

ابتسم العجوز بلهفة أب وجد ابنه قبل أن يقترب مجدداً وتلك المرة مع نظرة متأنية للمكان, اسطبل خشبي صغير لا يحوي سوى ثلاث أحصنة على الأكثر على ما يبدو اعتادوا على تبغ محمود الخانق:

- ممكن سيجارة؟

قالها بجزالة وهو يمد يده خلف الأنفاس الثائرة لمجرد رؤيته, ناولها إياه دون أن ينظر لوجهه

النظرة ضعف..

المحاورة معركة..

وقد ينتصر حكيم!

وحينها فقط استدار.. دُكنة عيناه باتت ظُلمة وملامحه تحمل قهر سنوات, وتغضنت ملامح الأب الروحي كما اعتاد أن يناديه.

بل العقل يقولها قبل اللسان

"تهرب من فطرتك يا محمود والانتصار ألا ينجح أحد!"

- نورت يا دكتور

والاستهزاء مقصود وقاسي.. ثلاث سنوات امتلأ عقله بما يسمونه الراحة, العقل والحب والفضيلة والخير

الغفران!

كاد أن يسامح حسن.. كاد أن يفهم سهام.. بل كاد أن يُصادق خالد

ثلاث سنوات من الحماقة..

- هربت ليه يا محمود؟

كان يجب أن يكون للحوار بداية.. محمود الذي اختفى أم محمود الذي هرب.. محمود الذي قرر أن يلقي بكل ما علمه إياه بعرض الحائط ويعود كما كان

وكأنهن ثلاث سنوات من الفراغ

أو من العبث!

- هربت ليه يا محمود

كررها واقترب أكثر ومحمود لم يُشعل له لفافة التبغ, بل دهسها من قبل أن يناولها إياه

- وإنت رجعت ليه

- رجعت علشانك

- أنا مش حرجع زي ما كنت

والنبرة كانت حازمة والعينان فقدتا ذاك البريق القديم وابتاعتا لنفسهما شراسة بها النجاة.

والابتسامة هادئة.. مُتفهمة وساحبة لعالم حكيم

حكيم المُعلم

حكيم العاقل

حكيم شيطان الخير!

- لا

والرفض وازى ابتعاده أكثر والعقل سوف يرتب محاذيره

هل جننت؟ هل تصدق نفسك؟ هل ما زلت تؤمن أن في العفو الكمال..

وضحك محمود وكأنه يجيب بحاله على النبذ الذي لم يسمعه الآخر

- الكمال لله وحده..

وانحنت شفتي الفيلسوف برصانة جاورتها صرامة:

- والفطرة؟

ولمعت مقلتي الغاضب وعادت للتشبث بالشراسة

- شر..

وبداية الانتصار حوار.. يبحث عن ابنه حكيم والعاقبة للجملة الأخيرة:

- السَريرة خير

- السَريرة فساد

- المجتمع هو الذنب

- المجتمع في الحالتين ذنب

- تفتكر الشر نجاة يا محمود

- حتى لو جحيم فشرير مُنتصر أفضل من ملاك مهزوم

- الشرير مش حيلاقي السعادة

- ولا الملاك.. ده بيضحك على نفسه

- لو في الحالتين تعيس اختار الخير

وخرجت الضحكة هازئة.. هل هناك خيار بالفعل هل كانت لتصيبنا اللعنة لو كنا بتلك القوة واقترب حكيم أكثر بل أخطأ وربت فوق الكتف.. قدَّم الحُنو كي يجذبه قهراً نحو مدرسته نحو الحماقة!

وكانت اللفافة الثانية المقتولة دهساً تحت قدميه:

- جاي ليه يا حكيم

وتحشرجت النبرة فباتت صرخة.. غريق يود الهروب من النجاة!

- حتكلمني عن إيه.. حتكلمني عن الحق.. عن الحرية عن العدل عن الرحمة عن العطاء, حتكلمني عن الحب ولا عن الخير والشر والمجتمع والفطرة.. ارتاح يا حكيم..

فطرتي شر

فطرتي شر لأنهم ميستاهلوش غيره.

****

غاضب

بل منفجر.. حتى أنه اعتذر عن التدريب وامتطى أول جواد بطريقه وركض..

ركض كما لم يركض أحد بالمضمار من قبل، حتى أن عدوى غضبه احتلت جواده فبات كلاهما هائجاً لا يحتمل حواجز.

حينما انتهى وانفض الجمع عن مراقبته جلس على الأرض غير مبالياً مستنداً برأسه فوق السياج الخشبي حارقاً باقي أنفاسه بالتبغ كما المعتاد.

عيناه كانتا في مكان آخر لا يعلمه أحد، وكأنه لا يرى الضوء ولا الشمس ولا خصلاتها التي اعترضت نظره قبل أن تميل بجزعها أمامه مستفسرة في اهتمام:

- محمود مالك؟

لم يجبها.. بل حتى لم ينظر نحوها، تابع حرق أنفاسه وحاجبيه يضيقان في غضب مستعر هي لا تفهم جذوره

- حصل ايه المزرعة كلها أخدت بالها أنك متنرفذ

- وإنتِ مالك؟

وكان رده مباغتاً، عيناه ارتفعتا نحوها في قسوة جمدتها فهرب منها الحديث لوهلة لم يفلتها هو:

- شاغلة نفسك ليه!

والجمود تحول للون أحمر احتل وجهها كله.. غضب.. خجل.. لا فارق، وزفر مع ضيق آخر من نفسه.. من فقدان سيطرة أوقعه بها حكيم

- سيبيني لوحدي دلوقتي يا تميمة

ورغم أن نبرته تلك المرة كانت أهدأ إلا أنه كان الوقت قد فات، فتميمة هي تميمة:

- تصدق أنا غلطانة أصلاً إني بسألك.. فعلاً أنا مالي

والعرق النابض بجبهتها بات خير دليل أن الغضب مُعدي.. والنساء حين يغضبن لا يصمتن، لا يصمتن أبداً

- اولع!

ورحلت بإعصارها.. بعفوية رغماً عنه سرقت منه ابتسامة أو ربما كما يقول حكيم

فطرة!

والفطرة طفل والطفل براءة والبراءة مزعجة وثرثارة وقصيرة وعالية الصوت!

صبغة تميمة أفسدت نساء تلك المزرعة..

- نعم!

وقالها بعد نفذ صبره وبعد أن أنهى فقرة التدريب والتوجيه والإفطار الذي لم تأكله وليتخلص منها أحضر لها الحلوى

"لانا"

كانت ترتدي مثله!, قميص أبيض فوق سروال من خامة الجينز ولكن خاصتها ممزق, وجاوبت قبل أن يسأل

- موضة!

وزفر هو تبغه مستغنياً عن قواعد الأصول والسلامة في وجود طفلة لا تنوي تركه:

- أروبة!

والطفلة أو الأروبة أو لانا لها أكثر من نصف ساعة تقلد كل حركاته, تجاوره باسطة ساقيها فوق حاجز حجري ممهد وترفع رأسها كل خمس دقائق كي تشرد في الشمس. تضحك حيث أنها لا تستسيغ عبوسه ويصيبها الملل فتعبس وتنفث دخان وهمي من عصا ماصتها المنتهية

وضحك وتلك كانت المرة الأولى له هُنا من قلبه!

وهربت الضحكة مع ابتسامة حكيم.. عفريت قفز من خياله ليعيده نحو بريق يجب أن ينساه.. وعاد العبوس أشد وكان مع زعقة

زعقة قوية وصارمة ولأول مرة..

- بابا فين؟!

تأخر الأب أو شبه الأب كما العادة وبكت الفتاة ولا يعرف لمَ بكت, هل بسبب زعقته أم بسبب الغياب

بكت وصارت ثرثرتها صراخ وهذا أسوء

استقام فزعاً وتلك حركة لم تقلدها وبريق عيناه قلق حيث أن العبرات لا تستحقها زعقته:

- في ايه؟!

ولم تجيب.. صرخة فدمعة فتحشرج والسبب ليته لم يعلمه, أنت دعوت علي في طريق عودتك يا حكيم.. لانا أكلت الكثير من السكر والآن يؤلمها التسوس.

ورغم أنها مزعجة وقصيرة تُجهد عينيه إلا أنها باكية ولا يملك لها حل, حملها فوق كتفه كذنب ودخل بها إلى الكافيتريا.. غسل وجهها وفمها وابتاع لها شاي ساخن!

وما زالت تبكي..

بيأس ارتشفت الشاي وضغطت وجنتها بمنديل والمنديل الآخر مسح هو به عبراتها ويكاد يُجن:

- وجعتك فجأة يعني

والإيماءة لطيفة.. لمَ عليك أن تكوني لطيفة يا لانا, عودي ثرثارة ومزعجة كما كنتِ.

وحملها مجدداً وغادر الكافيتريا وزعق بأبيها على الهاتف رغم أنه لا يملك حق ولولا ظهور الرجل لاهثاً لكان وضعها في أقرب سيارة وقاد به بقرار فردي نحو طبيب.. ورغم الألم ووجع الأسنان الكثير عليها كطفلة لم تغادر إلا بعد أن ودعته ووداعها كان على الوجنة قُبلة مع همسة آخرى

بريئة وعفوية وثرثارة

- ماتزعلش..

****

هل يغير الحب الأحاسيس؟

هل معه بحق تنمو المشاعر؟

والمعضلة..

هل هناك حب من أول نظرة!

يقول أفلاطون

المرأة بلا محبة.. ميتة..

وفي هذا هو محق ليس للمرأة فقط بل الرجل أيضاً, الحب يعطيك إدراك مختلف وبعقلك وقلبك على السواء ستنمو الحياة

والخوف!

وهي قضت ليلتها ساهرة فهي حينما تغضب يجافيها النوم, ولا تحبذ هي السهر في الظلام بل تكرهه وأضاءت كل أنوار الغرفة ولم تبالي بفضول أمها أو حتى السؤال قبل أن يبدأ وبسطت لوحة بيضاء وتلك هي عادتها حينما توتر

بل سرها العظيم الذي لا يعلمه أحد وتاريخ جنونها مع هذا السر لوحتان , أول واحدة كانت قبل دخولها أول سباق للخيل في عمرها والثانية الآن!

ومع أول لون فوق الهدوء الأبيض قطبت حاجبيها وهي تنفي أهميته, هي غاضبة وفقط.. وهو أحمق وغبي وهناك شيء غامض سببته زيارة تلك الرجل, عجوز بقُبَّعة ومحمود منفجر

ألا يحق لها الفضول!

وبالصباح كانت نشيطة رغم أنها نامت ساعة ونصف ولم تتناول الإفطار وتجاهلت صراخ إيناس وهربت قبل أن يستيقظ خالد وكان لديها الكثير من العمل أو هكذا قررت أن تنشغل والخطوة واسعة والخصلات متناثرة ومجدولة وهمجية كما شكل اللوحة التي دمرتها بالأمس ومع كل خطوة كان ظله يتبعها بملامح هادئة تناقض جنون ليلة أمس

تجاهلته..

مرة.. اثنان.. ثلاثة..

زعقت بنور واستدعت سائس آخر ووقعت أوراق هامة ثم قررت أن تمر بنفسها على حجرات الخيل والظل يتبعها في صمت

واحد.. اثنان.. عشرة

ووقتما فقدت الصبر وتركت من يدها لجام كانت تنوي تركيبه خرج همسه في براءة:

- آسف

وكان مبتسماً بهدوء من نال قسطاً وفيراً من النوم.. ذقنه منبتة قليلاً وخصلات شعره مشذبة بأناقة, عيناه كانتا مغمضتين بنصف استفاقة وكأنه رغم كل الارتياح الغامض بملامحه ما زال يحتاج لقيلولة.. رفعت كتفيها بلامبالاة تناقض كل ملاحظاتها السابقة:

- على إيه!

لوى شفتيه بمكر والخطوة اقتربت أكثر تلك المرة ليخفض نبرته حتى لا يسمعها غيره:

- حقك عليا

ولم تجيب.. بل ابتعدت منشغلة بلجام معقد غير قابل للفكاك, ليناقض هو الابتعاد باقتراب آخر وتلك المرة حصاره يحمل بحّة عابثة:

- طيب قوليلي بتتصالحي ازاي وأنا أصالحك

ومن تميمة بهذا موقف الردّ فوري يحمل غضب صوتها مع تحفز الخصلات:

- والله!

والألف قطعتها واللام مدتها والواو كانت بداية تحذير

وكانت جادة وآخيراً حلّت اللجام ع الفرس المسكين وحين استدارت كان كما هو..

ليس كما هو.. هو اليوم مختلف

عيناه لطيفة كطفل مذنب!

ولكن كلماته لا..

- كده حاضطر أصالحك تاني

والمكر مقيم بشفتيه ولا أمل في إصلاحه, تجاهلته وهي تتوجه لفرس آخر:

- شكلك فاضي

- وإنتِ شكلك مشغولة

ولا تعلم هل كان يسخر أيضاً أم جاد ولكنها أجادت دور الشريرة وهذا ما يستحقه:

- بلوك خمسة عنتر لازم يغير اللجام وبلوك ثمانية اتأكد إن عند فريدة مية نضيفة وإن نور حط لها في الأكل العلاج ولما تخلص ركب السرج لبلوك واحد وتسعة وأربعة عشر علشان

عندي ثلاث بهوات مأجزين النهاردة وبص على بلوك ستة علشان الخيل محتاج تطمير من حد محترف وعنده طولة بال بس قبل ما تدخل اقرأ الفاتحة مرجان عصبي شوية

وشفتيها كتمتا بمهارة ابتسامة.. هي تنتقم منه أو تظن ولكنها كانت محقة بشأن مرجان.

انتهى ليسقط من التعب فوق تبن منثور في منتصف الإسطبل تماماً ليلمح عيناها تطل من فوقه في وضع زاوية قائمة تطمئن على ضحيتها

- تعبت؟

- إنتِ شريرة

- تاني!

وتلك المرة هي تمزح ولم تكتم الابتسامة, لم يتحرك ظل على وضعه ولكنه رفع يده نحوها في مصافحة:

- مفيش زعل؟

وصافحته وهي أغرب مصافحة مرت عليها في التاريخ مع تعقيب هاديء يشبه براءة لانا:

- مفيش زعل

وقبل أن تبتعد لاحظت أن عيناه ستستسلم لنوم وترددت ولكن في النهاية غلبها السؤال والبحّة لها من صوتها نصيب:

- محمود؟

- مممممم

وكان النوم قد حضر بالفعل, ضمت حاجبيها لتمنع باقي التردد:

- إنت ليه سكنت لوحدك

والجواب جاء هادئاً رغم التاريخ ورغم الذكرى ورغم تلك النظرة الداكنة التي لم تلمحها بعيناه:

- علشان اتعودت أكون لوحدي

****

صباح الخير

دائماً ما تكون البداية.. ولم يتبعها بأي تأنيب أو حتى مزاح ساخر.

كان ساحراً وابتسامته تُغرق قلوب

حيته نشوى وتسامرت معه فرح وضحكة سلمى كانت مستفزة، لو امتلكت القليل من شراسة رؤى لأنزلت فوق رأسه تتر النهاية وأسمت المسلسل "تميمة وأخريات"

ولكنها ليست نصف هذه ولا تلك

هي ندى وفقط..

استغنت عنّ اقتراحات رؤى وعادت لسروال واسع من الكتان تحت بلوزة صيفية فاتحة وطلبت لنفسها عصير البرتقال ولرؤى شريحة هامبورجر فاسد أما هو فلا شيء.. تركته لصديقاته..

التهمت رؤى الهامبرجر في تلذذ قبل أن تلوي هي شفتيها يأس:

- ما يبانش عليكي أنا باتخن من المية

برقم خمسة وعشرة وخمسة عشر أشارت رؤى بكفها وتابعت طعامها وهي تلكزها بهمس أيقن قربه

- قولتيله

ونفت بإشارة رأس وجحوظ مُقلة

لا لم تخبره ولن تخبره فالقاعدة المنتظرة ستكون "خناقة"

وهي لن تحتمل!

- صباح الخير يا رؤى

قالها وهو يجاورها على مقعده بوضع معكوس ثم مدّ يده نحو العصير خاصتها مرتشفاً بعضه بمشاكسة قبل أن يحول نحوها دفة الحديث:

- طلبتيلي ايه

لم تجيب تابع وهو يعود للعصير مجدداً

- بشرب بتاعك

ولم تجيب أيضاً، يطلب لنفسه بعدما ينهي حواراته.. وغمز وهو ينهي على ما تبقى من البرتقال المثلج:

- حاجري وراكي!

ولجمّها التلميح، أو ربما هكذا هو خالد.. يمزح ويمزح ولم تعد تدرك جديته من المزاح

رمقته رؤى بتفكر قبل أن يستقيم هو ليتركهن سريعاً كما حضر:

- حححضر محاضرة وحطنش التانية.. نشتغل شوية النهاردة

ثم تحرك فجأة ليميل نحوها يعني بهمس طائش:

- اجري بقه!

ومع رحيله وشرود الآخرى هما تتر نهاية اللحظة بحق

- رؤى.. أنا خايفة!

أن تختبر الحب هذا أمر مكرر
أن تفهمه فتلك هي الورطة!

الفصل التاسع

لا حاسلم بالمكتوب!

ولا حارضى أبات مغلوب

وحاقول للدنيا يا دنيا

أنا راجع.. أنا راجع

أنا راجع للمحبوب

هل فهم أحدكم الحب يوماً, هل لديه موسوعة مرتبة بفوضى تفاصيله أم نصَّب حاله من الأقوياء وقالها بكل تعنُّت..

أنا لست مريضاً بالحب!

المكان قد نطلق عليه لطيف, إستراحة منزوية يعرف مكانها القلة من رواد طريق القاهرة الإسكندرية الصحرواي فبقيت تلك مميزة هادئة دون فوضاهم.. لم تكن ضخمة, مجرد مكان مغلق يتسع لخمس طاولات متناثرة وحديقة تجاورها بها نفس العدد تقريباً, اضجع حمزة في مقعده وعيناه تراقب قطة هزيلة تنتظر باقي شريحة شاورما يلتهمها مسافر وحيد ثم تابع وشفتيه لأول مرة يجتاحهما تردد:

- عامل إيه يا أحمد

هكذا ابتدأ الأمر, ليلى لا تكل ولا تمل وككل امرأة على وجه التاريخ "تزن"

أحمد وخطابات أحمد ومعشوقة أحمد والكارثة حملت خطاباً جديد ولم تجد بعد حملتها التفتيشية سوى بقاياه والمعركة أركانها أنه رجل وكل رجل على وجه التاريخ "يومه بسنة"

زفرته وازت فرك جبهته ثلاث مرات متتالية وبعقله هو أب واثق.. حازم.. وسينهي الأمر في جلسة واحدة! وابتسم المراهق بعذوبة دائماً ما تخطف قلب أمه:

- الحمد لله كويس يا بابا

- مذاكرتك؟

- تمام

- صحتك؟

- زي الفل

- زي الفل زي الفل؟

- زي الفل!

ضاع حمزة

"ويخرب بيت الزواج على اللي عايز يتنيل"

وكان شبه همس واستفسر المراهق بجدية:

- في حاجة يا بابا

ولمعت عيني الغواص السابق بمشاكسة جادة وهو يرتشف الشاي الحليب خاصته بتركيز:

- وخلود؟

وتوترت ملامح الفتى.. لوهلة فقط لوهلة قبل أن تشع عيناه بغضب واضح ولأول مرة:

- ماما فتشت درجي تاني

وحينها تصلبت كل عضلات حمزة في انتباه, لو رآه حينها مؤلف كتاب لغة الجسد لكتب أطروحة بشأنه.. كان متحفزاً ككل ودعونا نحيد الحب جانباً وكل تاريخه بشأن ليلى أو دعوة أمين.

نحن هنا بصدد قلق أب

- وثالث ورابع وعاشر

والنبرة محتدة ولم يكن هذا ما وعد به نفسه بل استكمل محطماً كل القوانين:

- وعايز أعرف آخر الموضوع ده إيه؟

وليلته ما حطم القوانين.. ليس لشيء تربوي لا يفقهه ولكن لصدمة الجواب وعينا صغيره التي نطقت جوار لسانه بما لم يتوقعه:

- حاتجوزها!

****

عشر دقائق!

عشر دقائق كاملة مرت فبات كوب شايه ثلجي..

عشر دقائق وازت نبرة مراهقه المرتجفة والواثقة! وبين الكلمتين التوضيحية..

سيتزوجها!

والفرق بينهما ماذا عشر سنوات؟! ما الجلل.. حسبها الطفل ببراءة

طفل ليس طفل!

وكان عقله يصرخ

ده ابن ......

- لما يكون عمري أربعة وعشرين حتكون أربعة وتلاتين وده فرق مناسب جداً!

- وحياة أمك!

عفواً قلنا نحن لسنا بصدد توجيهات تربوية, مُزِّقت الدفاتر والفاعل هلع أب..

ابتسمت له النادلة بحيرة وهي تلمح الشهيق والزفير والماء الذي انسكب فوق بنطاله في فوضى تلويح منفجر:

- إنت بتستهبل يابني

وانقبض الحاجبان في رفض عنيد:

- أنا..

وحمزة نقاشه زعيق:

- عارف.. بتحبها عادي يا أحمد منا كنت بحب طنطك إيناس ودي كانت قدي على فكرة

وجحظت عينا الفتى لوهلة:

- طنط إيناس!

- مش موضوعنا

وزعقة حمزة تلك المرة غاضبة من نفسه.. وأكمل بزفير حادي عشر في استدعاء هدوء مفقود:

- بص يا حبيبي.. حتحبها وتحب غيرها بس بدري قوي التفكير في الجواز

والمراهق سينهي عمره وبعامية دارجة "حيجيب أجله"

- مش ححب غيرها يا بابا ومش عارف الجواز تاعبك ليه أنا بوضح لحضرتك

- حضرتي! ده إنت اللي حضرتك

وكتف أحمد ذراعيه في تذمر والباقي من نصيب حمزة رغماً عنه:

- افرض اتجوزت ولا ناوي تُشبك ولا إيه

وأشاح أحمد ببصره, عيناه حملت انفعالاً صادق ود أن يُخفيه عن أبيه.. يعشقها وعشقه بين ضلوعه صادق, هل هناك قوانين للحب.. هل هي جرعات موزونة يختارها بنكهة معشوقة وبآوان.

الحب لوثة

الحب جنون غير محسوب

الحب اختلال!

- أحكيلك حكاية طيب

ومسح أحمد العبرة قبل أن تنهمر.. وغضبه يرفض النصيحة المتخفية بين طيات قصة:

- لا

- يا غلس

وعادت ابتسامة حمزة رأفة بولده والقلب الحنون قد يقول "حوجهزهالك يا واد" ولكن حمداً لله تراجع وهمس بمشاكسة تحمل سر عظيم:

- حححكيلة حكاية حمزة وخالد وطنط إيناس ويمسيها بالخير بقه اللي مش حتككر كارمن

وكوب آخر من الشاي بالحليب.. ولحظة امتدت لساعة ورغم الضحكة ورغم الصدق والقرب والنصيحة الغير مباشرة

حمزة خائف..

****

- حمزة.. إيه هو الحب؟!

والنظرة ناعمة والنبرة حالمة وَيَا فتاح يا عليم!

- انتم متفقين عليا يا ابني

وكان مغتاظاً واغتياظه دائماً ما يوازي عبث أصابعه بحواف عويناته وثمار اليوسفي نضوجها غير مُرضي ولا أوراق أشجارها تحقق أمنياته.

استقام بحنق وهو يفرك ورقة خضراء بين كفوفه ويزعق بمهندس تحت التدريب فقاطعه خالد بنبرة مرح كانت غائبة:

- مالك بس يا حمزاوي

- اطلع من نافوخي يا خالد

- طيب بس قولي ايه هو الحب؟

- فاكر نفسك قاعد مع أسامة منير!

وحينها حضرت الابتسامة ولكنها كانت ساخرة بنصف اكتمال وكأنه ليس حمزة.. شرد خالد متابعاً وكأنه يسأل نفسه

- الحب هو رقية وقلقها في ليلة برد علشان تغطيني؟ ولا الحب هو ضحكة ليلى اللي بشوفها في يوم ميلادك.. ولا مجرد بنت جميلة شبه حلم راجل وأمنياته عن تفاصيل الزوجة.

الحب اختيار ولا خطف يا حمزة

مجرد مشاعر ناعمة ولا نصه شهوة

- شهوة!

ولن ينكر.. هُنَا جذب الفتى انتباهه، ولكن خالد كان جاد، جاد جداً لدرجة أنه استكمل حديثه متجاهلاً تساؤل حمزة:

- تعرف.. الحب كل اللي فوق ده، من الآخر مفيش حب شبه حب.. الحب قلق وخوف وفرحة وضحكة وراحة وبوسة

وارتسمت الابتسامة الحالمة لتقاطعها حنكة متفحصة من أخ أكبر وأب حائر وبالعربي "مش ناقص"

- وانت بوست ولا لِسَّه؟!

والحالم بذات الابتسامة:

- في الحلم بس

وحينها تغيرت نبرة حمزة لتوجس جاد:

- بس مش حينفع تحبها علشان حلمت بيها يا خالد

توتر فاعتدل على الفور بنفي:

- هي مين!

اقترب منه حمزة متفحصاً:

- أياً كانت بقه.. عايز تعرف إيه هو الحب؟

صمت خالد ولم يعقب فاستدار حمزة ليمتد نظره نحو الأفق وشروده يترجم ذكريات برائحة البحر:

- الحب هو ليلى

وعاد ببصره مجدداً نحو المتذاكي الذي كان يبحث عن فتاة ولم يجد نفسه:

- يوم ما تحط اسمها جنبه حيكون هو ده الحب.

وكان داخل حمزة شك عّن هويتها ولكنه لم يسأل ولن يسأل، فالجواب لن يكون صحيحاً إلا اذا توقفنا عّن السؤال.

****

الحب

يشبه امرأة جميلة قوامها نسيج أزرق وترتشف القهوة..

الحب تاريخ غير قابل للنكران وقصة لن يستطيع أحد أن ينسج أختها!

والأبطال...

هي أبداً لن تصبح مثلهم!

ولا يفهم أحد أن وريثة خصلات البندق تعيش معضلة, الفطرة تأخذها نحو نعومة الأنثى والواقع أنها ابنة خالد..

زعقته.. حدته.. والأسوء غضبه!

وحين خاضت أول معركة لها كفتاة لم تسطر قصتها باكية ولم تنسج كغيرها مكيدة, ببساطة أسقطت الفتاة أرضاً وأخذت حقها في التو..

- انفعالية

- جدعة!

تذمرت إيناس ومجّد خالد ولكنها في النهاية أخذت العقاب, ومع مرور السنوات..

أصبحت.. تميمة

تزعق.. تصرخ.. ترسم!

تمتطي ألف جواد وتتردد مع وحش عنيد ما زالت تخافه

تضحك كما يجب أن تكون السعادة وتحبس حزنها خوفاً من تبعثر عبرة

تُقيِّد جنونها بين ضلوع قلب متمرد ولا تتنفس حريتها إلا فوق صهوة راكض.

- تميمة!

ناداها أحدهم وتستدير هي والخصلات على سواء وضياءهما ابتسامة..

صادقة كما القبلة التي طبعتها فوق ظهر الجواد, وكما عيناها التي راقبته رغم توازن إجاباتها مع محدثها عن نوع وفصيلة ومميزات خيل قيد البيع..

اللسان ينطق بسلاسلة والعينان معه.. مع ملامحه التي تبدلت مع رؤية لانا, ضحكته التي أنارت وجهه وهذا حدث نادر.. وذراعه التي رفعت الفتاة في حركة واحدة تحت رعاية رفع أثقال منفرد والبطولة لمحمود

حينما انتهت من ضيفها الثرثار واقتربت كانت ضحكات الصغيرة خلفية المشهد ومعها منه تساؤلات

- أسنانك كويسة

- خلعتها!

والفخر يحمل فم مفتوح بعرض ثلاثة سنتيمترات وأسنان لبنية مفقودة..

- برافو!

وكعادته كان ساخراً ولكن مع جدية عينيه الفتاة لا تفهم.. الفتاة تمجده ولم تغلق فمها إلا حين أخبرها أنها تبدو أجمل. وازته وهو يضع لانا فوق مهرتها قبل أن يتركها قليلاً مع السائس لتتباع هي بذات سخريته مع نبرة اهتمام:

- واضح إن في قصة

على الفور قذف بين شفتيه لفافة تبغ قبل أن يستدير نحوها بتحذلق شفتين ماكر:

- القصة لسة حتبدأ

أدارت ظهرها نحوه وثقة نبرتها تتابع فرس يصهل:

- ومين المؤلف

وهي أيضاً متحذلقة وبابتسامة ولكن مع من..
اقترب والهمسة وازت سخونة تبغه فوق يسار جيدها وتلك مرة أولى:

- المهم البطل

وأغاظها.. وقح أنت يا محمود ولا تعرف ممن تقترب
واستدارت بعينين لتعاند:

- الأهم البطلة

والهمسة تكررت مع تبغ قاتم وقريب من الشفتين تلك المرة:

- البطل هو اللي بيختار البطلة

ولأنها أنثى فالقانون يبيح الخجل.. والغضب.. ولا فارق فكلاهما احمرار.

ابتعدت وتلك المرة بوجهها وجيدها بل أشارت بغرور لسائس ليُحضر عشق, والأنثى تتشبث بالغرور حين يُفكر في هزيمتها رجل.

هل روضت الجميلة الوحش؟

لا..

هو فقط وقع في الحب

حين قربت وجهها من الوحش الأسود كان ساكناً, عيناها التهمته بثقة قبل أن تمرر أناملها برقة فوق وجهه.. لم تمتطيه بعد وهو يعلم أنها تحسب بحرفية ابنة أشهر مروضي الخيول الوقت.

استدارت له من جديد بعد أن تشبعت بالثقة:

- أنا قصتي عشق

تأملتها عيناه بإعجاب رغماً عنه قبل أن يراوغ:

- وترويضه البداية ولا النهاية

وكانت قد تركت المعركة, كتفيها ارتفعا بأريحية وكل انتباهها بات للجواد:

- مش مهم.. المهم إنه يكون سعيد معايا

ولكن هو معركته لا تهدأ.. ألم يجزمها لحكيم ويضع قواعده الخاصة للفطرة:

- الحكاية كده مثالية قوي يا تميمة.. والجملة الأخيرة سعادتي سعادته!

- وإيه المشكلة؟

- الواقع مش شبه كده.. الخيل لما صلاحيته بتنتهي بيضربوه بالنار

وما قاله لا شيء يشفع له.. غضبت.. بل أحزن عيناها ودافعت وبزعيق يستحقه:

- مش هنا..

وفهم غضبها وكان يستحق:

- عارف

وعادت الهمسة رغم أنها تلك المرة دون اقتراب:

- المهم إن قصتك عشق

ولم تفهم.. حتى مع انتهاء لفافة التبغ ودهسه لها وآخر دخانه يرسم جوار المشاكسة ابتسامة:

- وأنا اللي كتبت عنوانها

****

- أنا اللي كتبت عنوانها!

مغرور والعقل يكررها وهي تقلد نبرته.. من يظن نفسه وكيف تلجمت كما الفرسة الغبية أمام صهيل جواد واثق

وكان عشق هادئاً وتلك ليس عادته, أينعم هو بات يثق بها ولكنه يظل موستانغ شرس

- أنت السبب

ورغم أن عيناها تشاكس إلا أنها تحبس خوف, فهي تميمة التي لم تتأثر من قبل برجل.. حتى أحلام المراهقة بمعلم واثق أو ممثل وسيم لم تتمكن منها..

جذبت لجام عشق نحوها مجدداً وتلك المرة مع ابتسامة وتجاهلت أنه يراقب.. أنهى تدريبه وجلس كعادته قريباً من الاسطبل مع تبغه, والمناوشة منها واثقة.. هل ستتورد وتهرب لأنه يغازل!

- كتير كده على فكرة

ونظر ببراءة:

- ايه!

أشارت بسبابتها نحو تبغه ومعها حق.. هو ليس مُدخّن هو انفجار!

وضحك وهو يستقيم ليجاورها وهي توصل عشق لحجرته:

- على فكرة إنت لما بتتوتري بتهيبري

وبغضب خالدي استدارت رافضة:

- إيه بتهيبري دي

كتم ابتسامته لتتابع بعدها برضوخ لوت جواره شفتيها:

- بكون متسرعة لما باتعصب

ابتسم مُعلقاً سيجارته بين شفتيه ليسحب باب الحجرة ويساعدها بعفوية:

- على فكرة وأنا كمان

تنهدت وعيناها تتأمل الجواد الذي رغم هدوءه الظاهر تعلم أن تمرده فطرة:

- تفتكر هو سعيد معايا

وعيناها كانت شاردة.. تعكس ضوء شمس طفيف تسلل من بين ثقوب باب الإسطبل وتمر بكل أفكارها فوق ملامح عشق

سألت في لحظة صدق كما كل النساء وأجاب هو كما كل الرجال

بشيء آخر

- تعرفي إن عينيكي حلوة قوي

وظلت على وضعها دقيقة كاملة وكأنها تتأكد أنها سمعت بشكل صحيح

نصف استدارة.. وجه متجهم.. ووجنتين تنبضان بتورد

- أنت بتستهبل

أياً كان مقصده الجواب سيكون

"بتستهبل"

أباح لنفسه الغزل ولأنوثتها الخجل وفي عرف تميمة هذا لا يجوز

وخرجت في شكل هروب وصفعت باب الإسطبل الثقيل وأمنية كاذبة بأن ينتقم لها منه عشق..

أسندت رأسها فوق الباب لتجلس في مكانها غير مبالية سوى بأفكار متزاحمة ينصب هو لنفسه بها دور البطولة.. ملامحها

تحمل أقصى فوضى ممكنة قد يراها إنسان, حاجبان غاضبان ووجه حائر وتناوش الشفتين ابتسامة

وكانت رغم تيهها صادقة

وتوازيها آخرى فوق وجهه وبين تبغه ومع استناد رأسه على نفس الباب

لم يكن يراوغ أو يغازل رغم أنه بيّت النية

هي حقاً تملك أجمل عينان مر عليهما في تاريخه

وبعالم آخر.. مع هذا ال "محمود" الذي يقدسه حكيم قد يتوقف العالم وينتهي جوار عيناها

وسيكتفي..

****

واحشاني عيونه السودا يا أبويا ومدوبني الحنين يا عين

وهي ظهيرة عادية.. الطقس بدأ يميل نحو البرودة وارتجافها هي وازي طقس آخر مصدره صوته!

وهل الصوت كالطقس

مع خالد طقس ورعدٌ وجنون إن لزم الأمر

أجواء وازت ظهور مرتب بنادي الصيد الإجتماعي الحديث, تدربوا منذ عشرة أيام على غنوتهم الجديدة التي سيفتتحون بها عرضهم وكانت متوترة وتوترها يناقض ندى التي يعرفها على المسرح ورغم أن المقطع الذي قدموه كان عن الفرحة ورغم الإبتسامة المرسومة بحرفية صادقة فوق وجوههم جميعاً مع تكرار الكوبليه الغنائي وصيحات الجماهير معه

- قول أنا قدها!

افرح وعيش

الحياة جميلة مفيش زيها

دور على السعادة جواك.. المسها وحسها

شوف الفرصة فين.. مش عايزة تجيلك روحلها

قول أنا قدها

كانت تكرر معه ولكن بشرود, تشدو عن الفرحة والأجدر بها أن تشدو عن الحيرة والقلق والتردد!

والنساء في طباعهن مذاهب.. هناك قويات النبرة اللاتي حين تكذب تثق في كذبتها قدر التصديق وملامة محاولتك الفاشلة إن شككت, وهناك المتمردات وتلك تُطلقها في وجهك ودون اعتذار والشأن شأنها ولن يكون أبداً شأنك.

وهناك ندى.. ترتبك مع مرور الفكرة وتخاف غضبك حتى وإن كان غير مستحق.

ستخبره..

قابلت مصطفى وفازت بفرصة من أجل الفريق ما المعضلة!

احلم.. خلي حلمك قدامك حبه و صدقه

لو تايه حلمك جوا منك.. دور عليه.. اخلقه

احلم

احلم ولو حلمك بنفسك لو مش لاقيها اوصلها

قول هوصلها

آن الآوان تكره سكوتك

سمع الكون واليأس صوتك

قول أنا قدها

وشرودها تلك المرة كارثياً, فتلك المرة نسيت مقطعها هي.. وتوقعت أن يزجرها بنظرة, فخالد فيما يخص عمله مهووس ولكن..

- معلش يا جماعة إحنا حنوقف الأغنية

جحظت عيناها وهي تستدير نحوه مع صوت تذمر جمهوره الذي لم يُبدِّل بملامحه شيء.. عضلات فكه بدت قاسية دون تعبير واضح وعيناه تجاهلت النظر نحوها ولو بلوم ثم اقترب مجدداً من الميكروفون لتخرج نبرته واضحة:

- زميلتي يا جماعة مش مركزة وبصراحة كده أنا عايزها ترجع تركز معانا فحغني ليها أغنية عارف انها بتحبها.. موافقين

ووسط ذهولها ولو يجوز الوصف بتعبير دقيق فالمعنى فتح فاه صرخ جمهوره بانفعال زادت إثارته مع رؤية ملامحها المشدوهة

- موافقيين

- معايا

- معاك

ومع الموسيقى التمهيدية التي تعرفها جيداً ارتفعت كما الموسيقى للسماء وهي تخاف

هي حقاً مرتعبة أن تسقط..

ولكنها سقطت بالفعل حتى قبل أن يصدح صوته كما حماس العندليب وامتداد عضلة وجنته اليُمنى في شبه ابتسامة كانت لها قبل أن يبدأ من أجلها أغنية

وكانت أول مرة..

- أنا كل ما أقول التوبة يا أبويا ترميني لماقاديري يا عين..
واحشاني عيونه السودا يا أبويا ومدوبني الحنين يا عين

والنساء في انفعالهن الأول مذاهب

هناك من ترفض وهناك من تدلل وهناك من تتقن التمنع

وهناك من تفضحها عيناها وإن كانت من البداية مفضوحة

بعيونها السوداء..

هو يعلم تماماً أنها تحبه, والآن يبيح لنفسه اكتشاف نفسه

والحب بوح وإباحة واستباحة!

والبوح بين القلوب محمود

ونتيجته شئنا أن أبينا إباحة

وبين كل إنفجار وشغف استباحة

ستمر بالنظرة والهمسة وسرقة القُبلة.. ستتورد ويناوش وتهرب

قبل أن تنال اعتراف

ولأنها ندى فالاعتراف كان مبكراً للغاية وحتى قبل أن يتطرق أحدهم للحب.. فقط بالسيارة وبعد يوم طويل سألها باهتمام:

- مالك؟

وتنوي الكذب وهو يعلم فيضغط بكل سيطرته:

- مخبية عليا إيه؟!

واقترب بعطر جوتشي خاصته وابتسامته التي تقول لها أفهمك من نظرة وعيناه تتفحصان وتحذرها من الكذب

انتهى..

لأنها ندى

- أنا روحت لمصطفى البيت وعرفني بماجد منير

وعن النظرة..

لا يجوز التعبير بشأن النظرة فوق وجهه

فالتفسير مرعب!

****

وإن واجهت ندى بلسانها اعترافاً كارثياً نالت ليلى ليلتها الأسوء منذ زواجها وبنظر الجميع هي مذنبة

هي من أصرت على السهرة العائلية والسفرة للقاهرة ولم يحق لأحدٍ التنصل أو التذمر, هي من جمعتهم لحضور زفاف رغم أن العريس مجرد قريب من درجة ثالثة وحتى الأمس لم تكن تتذكر اسمه.. هي من دخلت الحفل بأسرتها وقلبها ينبض بقلق لا تفهمه وتبريرها لحمزة بدا غير قابل للتصديق.

هل سيصدقوها حين تقول أنها تشبثت بالفعل بتلك السهرة لهم معاً كعائلة, أنها ظنت أن ثلاث أيام بمنزل أبيها القديم ستعيد لها الود جوار أحمد وأنه سيفرغ كل ما في قلبه ووجدانه

تحت رعايتها هي وليس بقوانين حمزة. هل سيصدقوها حين تخبرهم أنها حقاً لم تكن تعلم من هي العروس وحمزة نفسه الزاعق بها في انفعال نادر والأمر يستحق فخلود المزين اسمها في بطاقة الدعوة لم تكن سوى فتاة أحلام ابنه..

أي أم تملك قلباً حجري تعرض ابنها لهذا موقف

هل أسعدتها عبرته

هل يستحق توثيق الحقيقة كل هذا الوجع!

هل سيصدقون حقاً أنها لا تعلم

ولأول مرة تبكي.. ليلى القوية لم تبكي أمامه منذ سنوات, تشبثت بحافة الفراش وأناملها مغروزة في عمدانه بألم امرأة لا يكذب أبداً:

- إنت ليه مش مصدق.. مكنتش أعرف

وجموده وإن أنهى الجدال لم ينهي الكارثة.. فهي ليلة طويلة وصوت محمد لأول مرة يرتجف خوفاً وهو يقاطع بكاء أمه وصراخ أبيه:

- بابا.. أنا مش لاقي أحمد..

ما هو الحب

الحب قد يكون أجمل اعتراف وأسوء كذبة..

****

الفصل العاشر

أربع أشياء تشبه أحلامي بك في ليلة عشق شتوية

أربع أشياء تشبه أفكاري.. أوهامي.. تشبه كل نساء الأرض

سمراء شقراء خمرية حنطية

باتوا لا شيء وكل شيء

فأنت كل النساء

أربع أشياء هم كل تاريخي معك وقبل أن أبدأه آن أوان تمزيقه

أربع أشياء

أربع حروف

أحبك

حين توقف انفجار حمزة انقلب الكون لصمت مرير سوى من أنفاسها اللاهثة مع كلمات ابنها الآخر

عن آخر..

غادر محيط عيناها

وكأنثى أصابها القلق وكأم أصابتها اللوثة!

كادت أن تخرج برداء بيتي وقست فوق ذراعها قبضة حمزة قبل أن يتركها وتسابق قدميه الريح في رحلة بحث

رحلة بحث ها هي قاربت على الأربع ساعات دون جدوى!

كانت تجلس منكمشة فوق الأريكة بنفس الرداء البيتي الي تركها به حمزة.. توقعت أنها ستخرج خلفه تسابق قدميها الريح بحثاً عن طفلها ولكن فجأة تجمدت, تيبست جميع أوصالها وانفجرت بعينيها الدموع لأول مرة في حياتها بهذا القدر

حتى وقت وفاة منصور كانت متماسكة.. كانت رجل. والآن هي ببساطة أُم تخشى على ابنها كل مصير, حين لمحها حمزة بدت زفرته بعمر رجل عجوز تمكنت منه قلة الحيلة.. فعل كل شيء.. بحث بكل بقعة ممكنة حتى أن المزرعة كلها استيقظت استنفاراً بحثاً عن أحمد بلا جدوى, قاد سيارته بجنون بين ظلام الطريق من الإتجاهين وقلبه ينتفض من مجرد احتمالية حادث وبات اختفاءه هو الحل الأكثر رحمة!

جاورها ليضمها إليه بقوة مربتاً فوق كتفها البارد كالثلج ورأسها الذي ثقل فوق كتفه.. عبراتها كانت ما زالت منهمرة بللت مقدمة قميصه أما حشرجة صوتها أوقفها هو بعزم قبل أن تبدأ:

- حيظهر وقت ما يعوز

كلام رائع سياسي مطمئن! وهي لا تملك تعقيب.. هي تطحن بين أناملها ورقة مجعدة تحمل أشواق مراهق نحو معلمته, لا ليست أشواق بل لعنة.. لعنة أفقدتها ابنها ولم تعد تعلم ما المصير

نظرت نحو حمزة بقلة حيلة قبل أن ترخي رأسها مجدداً على كتفه وشفتيها تتمتم بمحتويات الورقة

حفظتها عن ظهر قلب

رسالة اللعنة والحب!

أربع جنيات زاروا أحلامي وباعوني تعويذة حب

عن عشق بات شغفي وكياني وتمردت على الكون بحكم القلب

وسألت الجنية الأولى هل تملك لعيناكي درب

أما الثانية ضحكت ونثرت فوق وجهي أوراق مصبوغة

نقوشها مستحيل وصعب

الثالثة كانت تعلم أصل الحكاية وضحكت ولم أعد أفهم هل تتندر مني أم تبكي حالي..

أنا من عشقت السراب وتشبثت بذيوله وفي النهاية بت أضحوكة نفسي

وعروسي المنتظرة مع رجل آخر

لتبدأ قصة انزويت أنا بها كظل بين صفوف الجماهير

****

طير بينا يا قلبي ولا تقوليش السكة منين

ده حبيبي معايا متسألنيش رايحيين على فين

بدايات الشتاء على الأبواب والنسمة أصبحت باردة لذيذة تلسع وجنتيها برقة, كانت ساهرة تحصي فوق أصابعها مهام يومها التالي.. ترتدي ثوباً وردياً هادئاً مع رسمة فراشة وتترك شعرها مسترسلاً بابتلال طفيف.

كل هذا الهدوء النفسي توقف مع صوت والدتها القلق مع رقية على الهاتف وتفاصيل اختفاء أحمد, وبلحظة كما أبيها وأخيها الأصغر كانت قد ارتدت ملابسها لتخرج مثلهم باحثة عن الفتى..

قبل أن تفتح الباب أوقفتها نبرة أمها المستغربة:

- رايحة فين يا تميمة؟!

والجواب بديهي.. منطقي.. لمَ تسألها دوماً عن ما هو معلوم!

- حدور على أحمد..

- بابا وعبد الله نزلوا وشباب المزرعة كلهم برة..

ونبرة إيناس محتدة.. أما هي فلا تفهم ولن تفهم أبداً

- ماشي وأنا حدور زيهم..

- الوقت عدى نص الليل.. كلمي ليلى اتطمني عليها أحسن

- وليلى حتعمل بمكالمتي إيه! أكون مفيدة أحسن وأدور على الولد

- تميمة!

وكانت زعقة لم تبالي بها.. خرجت وهي تحشر هاتفها بجيب بنطالها الخلفي وتعقد جديلتها مسرعة في رحيل غير مستعد للنقاش

فلتبقى أمها مثل رقية وباقي النساء يتبادلون قلقهم على الهاتف ولا يملكون سوى هذا برعاية حروف أنثى..

أغلقت الباب خلفها وحينها لمحت خيال أبيها يستقل سيارته ليتحرك نحو الطرف الآخر من المزرعة.. أما عبد الله فكان على ما يبدو يحادث محمد على الهاتف ليفهم منه تفاصيل الأمر.

الترتيب فهمته في وقت بسيط.. البعض يبحث في الجانب الأكبر حيث يقطن حمزة وليلى والقليل وزعوا نفسهم حول

الفندق ومنطقة اسطبلات الخيل المظلمة, كانت تجاور عبد الله ومحمد الذي بدا على وجهه الإنهاك قلقاً على توأمه الذي رغم كل البحث بدا وكأنه إبرة في كومة قش اختفت دون رجعة..

مع اقتراب الفجر كانت قد افترقت عنهم.. لا تعلم لمَ قادها حدسها نحو مكتب ليلى المغلق في الفندق فهو المكان الوحيد الذي يستطيع أحمد الولوج إليه بمفتاح وينزوي بنفسه ولكنه كان حدس مخطيء

زفرت بضيق وهي تغلق الباب مجدداً بمفتاحها الاحتياطي واستدراتها توازي ألف احتمال وفكرة عن مكان هروب هذا الشقي الذي أوجع قلب أمه ولكنها كانت استدارة غير مكتملة..

لم تصطدم به.. هي تجمدت حينما رأته بوجهها, كان صامتاً كالصنم وعيناه تراقبها في تعجب ما لبث أن تحول لإستنكار:

- خارجة ليه متأخر لوحدك كده!

ولم تفهم في البداية أنها زعقة بل حتى أنها جاوبت بعفوية وهي تعيد خصلاتها الهاربة من الجديلة:

- أحمد مش لاقينه وليلى حتجنن و..

وتوقفت فجأة وهي تلمح نظرته الداكنة وكان لأول مرة خالياً من عبق التبغ:

- وبعدين إنت مالك أخرج متأخر أو بدري!

ظلت ملامحه كما هي لم تتبدل بأي انفعال حتى عندما سألته مكملة دون أن تعطيه فرصة الرد:

- وإنت إيه اللي مخرجك متأخر لوحدك كده؟!

ونالت إنفعال.. ارتفاع حاجبين متهكم لا يصدق المحاورة تركها بعده متخطياً ردهة الفندق نحو الحدائق وهي جواره لا لشيء سوى لأنها راحلة للبحث في مكان آخر, توقف هو

ليشعل لفافة ثمينة وتخطه هي غاضبة قبل أن يوقفها بتهكم آخر:

- هو إنت ليه عاملة فيها سبع رجالة في بعض؟

- علشان أنا سبع رجالة في بعض!

أسرع جواب في التاريخ وهذا لأنها تميمة..

مستديرة نحوة مكتفة ذراعيها وعاقدة حاجبيها وشفتيها متحفزتان لكل ردّ..

وتوقف كل هذا الكثير مع ابتسامة.. وهذا لأنه محمود!

مشدوهة إن صح التعبير ولا تعلم لمَ اختطفتها تلك الابتسامة الواسعة التي استحوذت على شفتيه, هو لا يضحك لا.. هو ترك شفتيه لتلك الإبتسامة.

ومن قال أن الضحكة حالة معدية ومستعصية هو صادق!

كبحت انحناء ثغرها بالتواء طفيف لم تفوت عيناه سحره قبل أن تتابع بنبرة أرادتها متهكمة:

- مبسوط؟!

- عايزة الصراحة

وكان قد مل تبغه فألقى نصفها ثم اقترب خطوة فآخرى ويعلم أنها لن تتزحزح.. أليست رجل

بل سبع!

- جداً

والهمسة لا داعي لذكر الهمسة ولا النبرة

عيناه..

عيناه كانت قاسية قريبة منها لحد لا يجوز معه تنصل.. قاتمة التعبير بتناقض غريب لرقة صوته أما إنفعال حدقتيه فهو سيبطل كل محاولة هروب.

وإن كانت هي سبع رجال فهو رجل واحد وهذا يكفي ولأنه محمود فهو قد كسب بجدراة تلك الجولة, وإتمام الجولة كان حروف ساخرة لم يغير نطقها من ملامحه شيء ولا هي حتى بعدما سمعتها:

- ممكن تيجي تدروي عليه في أوضتي على فكرة؟

- إيه؟ مين!

السبع رجال هربوا.. كانت ما زالت تائهة واستفاقت مع لذوعة التعبير

- أحمد!

توسعت عينيها بغيظ قبل أن تتصلب جبهتها وعرقها النافر لتبتعد في لحظة والخطوة رجولية مفتعلة

- حسابك معايا بعدين على فكرة؟

وتفاصيل الثرثرة في غرف العقل

"حوريك"

"قليل الأدب"

"أحمد مين؟!"

لمَ عليها أن تتعثر في هروبها الليلي به ولمَ تنفجر دقات قلبها مع كلماته ولمَ هي غير متضررة من عبق التبغ!

اللعنة لمَ تحب مشاكسته؟!

اللعنة هي هربت ولكنها عالقة معه!

وبغرفته مكان الدعوة كان المكان مظلم سوى من ضوء القمر المتسلل من النافذة المفتوحة.. هو لا يستطيع النوم سوى جوار نافذة مفتوحة ولكن تلك الليلة لم يكن وحده, أغلق الباب

خلفه وعيناه تتأملان الجسد المنكمش على المقعد الضخم وعيناه سارحتان في الجدار يرسم فوقه أحزانه.

فقد حبه الأول.. يال الكارثة!

ومع أفكاره خرجت نبرته الخشنة والمكترثة رغم كل شيء:

- خليك للصبح.. دوخهم شوية علشان يعرفوا قيمتك

وانتهى..

عاد محمود لأرقه والمسمى فراشه, يحرق أنفاسه جوار تبغه وعيناه تراقب السماء الخالية في تلك الليلة من الضوء. وعلى النقيض لم تكن بطلة خياله تميمة..

أفكاره تجنح رغماً عنه نحو أبيه

نحو حسن ونحو سهام ونحو خالد!

نحو تلك الفكرة المظلمة التي اقتحمت هدوءه مع ظهور ذاك الفتى ومحاولته التسلل لسطح المبنى من خلال سُلّم الطواريء.

أنه لو اختفى لن يبحث أحداً عنه

****

هل تعرفون تلك الطفلة التي حبست نفسها داخل الخزانة بعدما هشمت قدح أمها المفضل, ركضت بسرعة بطة بيضاء نحو غرفة الاستقبال لتختفي خلف الأريكة بعدما أوقعت الشاي فوق أوراق أبيها وبكت يومها قبل التوبيخ..

تلك هي ندى..

وندى كانت أجبن من انتظار التوبيخ.. أو الزعقة.. أو أي شيء قد يأتي بعد تلك النظرة التي أرجفتها ككل, ببساطة عادت الطفلة كطفلة واختفت من أمامه في غمضة عين.

والآن هي رفيقة "اسم الأغنية" جوار ثلاث شرائح بيتزا هم من نجوا من الملحمة وعلبة مثلجات بنكهة الفواكة أنهت على نصفها تقريباً

وخلفية ما تفعله من بكاء وأنف متورم وبيجامة منزلية قصيرة بوجه كارتوني بات يشبه ملامحها الآن

"Angry bird"

كان صوت رؤى الزاعق:

- إنتِ يا بنتي.. ردي

وهي لن تجيب.. هي أفرغت جعبتها في أذن رؤى مرة واحدة وانتهى, وحينما حاولت أن ترتكب أسوأ حماقة في التاريخ

أن تهاتفه

نالت أسوء جواب قد تنتظره عاشقة

"الهاتف مغلق"

وأنهت على باقي المثلجات والبيتزا!

****

- فراولة؟

قالتها رانيا بنعومة وهي تمرر كاحلها العاري فوق نقوش الأرضية البارزة بمطبخه.. وتمرر طرف الملعقة بلذة فوق شفتيها في عرض عابث.

كان مسترخياً فوق مقعدٍ جلدي ضخم وعيناه مرتكزتان عليها دون تعبير واضح.. خصلاتها الشقراء كانت منسدلة حتى منتصف خصرها, اختصرت ملابسها في قميص كلاسيكي يخصه وصل إلى منتصف فخديها تقريباً, ابتسمت له بثقة قبل أن تجاوره تقريباً على نفس المقعد والمجاورة هنا كانت تملك أنثوي لطيف لساقه اليُمنى قبل أن تأخذ من بين يديه قدح القهوة وتذيقه المثلجات بملعقتها الخاصة.

همست وهي تتأمل لجوء عيناه!

نعم عيناه كانت كاللاجئين بين وطن وهروب.. وكارثته أنه لا يود التعلق بالوطن. قدره أن يظل رجلٌ هارب.

- اسمها ايه؟

- ندى!

هي تهمس وهو ببساطة يجيب, وهنا تكمن قوة علاقته برانيا.. لا لشيء سوى أنها ببساطة تُنصت.

فتنة النساء لا تكمن فقط في شفتين ونهد, فتنة النساء تتلخص في ارتخاء جفنين ناعمين فوق حدقة انفاعلها يخصه وحده.. فتنة النساء ناعمة كأوراق زهور مغلقة ما زالت تحاول اكتشاف العالم.. فتنة النساء صوتها مع نغمة هادئة توازي إنحناء شفتيها من أجله

فتنة النساء ندى!

وقاطعت شروده مجدداً:

- حب؟

وعيناه ترفض.. بل تستجير, مصطفى في أضعف حالاته
وهي كامرأة لا ترضى أبداً أن تكون بديل أو وسادة تنفيس
هروباً من ظل آخرى ولكن لأنه هو تركته

تركت له القُبلة وما تلاها..

تركت له الإنفجار أياً كانت تفاصيله

تركت له الهروب لأن قدره لن يكون هذا الوطن

ولكنه كان اجتياحاً غير مكتمل.. دقة باب.. دهشة.. وانزواءها
خلف باب خشبي وهي تراقب وجهٌ شاب.

- خالد!

ونبرة مصطفى رغم ثباتها لم تكن خالية من التعجب ليس فقط
لعدم اعتياد خالد المرور بمنزله أو معرفته بالعنوان من الأساس
بل لأن الساعة كادت تتخطى الخامسة فجراً..

أما المشهد بعيني رانيا فآخر ما قد ينال منه أهمية هو الوقت!

فمع ملامح مشدوهة كانت هناك ملامح آخرى بفارق سن يكاد يتخطى الخمسة عشر عاماً نبرة غاضبة, وفك متصلب فهمت من تحذيره كلمة واحدة "ندى"

- مالكش دعوة بيها

ومع حدة خالد بدا مصطفى أكثر هدوءاً تلو دهشته, حتى أنه ترك المُنفعل وتوجه نحو مبرده ليتجرع زجاجة مياة

- تشرب حاجة؟

وكانت نبرة سياسية تراقب هوس شاب أهوج, كان مثله بأحد الأيام يغار, بل أنه ظل لسنوات متحفزاً ضد خالد الذي تزوج بأخته.. وعند تلك الكلمة تحديداً غادر الهدوء ملامحه فـ ندى ليست بأختٍ لخالد.

قست ملامح وجهه وهو يستدير للقادم دون موعد متابعاً بخشونة لم يُجَمّلِها:

- وإنت إيه وضعك.. ولي أمرها؟

وكأن خالد ينقصه غضب أكثر, هو منفجر من الأساس وصرخ بتميمة منذ ساعة على الهاتف لتمليه العنوان دون أن تفهم.. مع تقدم خطواته لمح تلك المرة الشقراء النصف عارية والتي لم تعد تهتم باختفاء على قدر مراقبة المشهد. لوى شفتيه بسخرية ما لبثت أن تحولت لنظرة صارمة:

- ندى مكانها مش هنا

وسبابته أشارت باستهانة نحو غرفة نوم تحوي امرأة وكتفت هي ذراعيها تودّ العراك أو اللوم أن تلقين أي درس أياً كان نوعه لهذا الفتى ولكن..

خطوة مصطفى نحو خالد هو ما جمدها مع مراقبة ملامحه.. لم ينطق بردّ ولكن ملامحه كانت أكثر من خير دليل.

لن يبتعد..

وضاقت عينين رماديتين أمام إحتدامٍ شاب ومسكينة
لا تعرفها هي في المنتصف بين رجلين وعلى ما يبدو كلاهما
لا يعرف ماذا يريد..

****

كان ليلة طويلة.. مراهق اختفى ودون أن يعلم أنهى عراكاً قبل البداية, حينها كانت تمر بين قنوات التلفاز في ملل وحسن جوارها منشغلاً بأوراق ما تخص عمله. بدا منهمكاً لقدر فاجآها حين خرجت نبرته بآخر ما قد يمر بتصورها بهذا الوقت

- رقية أنا عايز أغير المبايعة

في البداية لم تفهم مقصده.. حتى أنها تركت قدح القرفة الساخنة من يدها لتتسائل عيناها قبل نبرتها:

- مبايعة إيه؟

وحينها عدّل عويناته وأغلق أوراقه ليستدير نحوها بكامل جسده في توكيد لما يريد ويعني

- مبايعة الأرض بتاعة خالد حتتغير

الآن اتضحت الرؤية.. ابن سهام عاد للصورة. تركت قدحها تماماً لتضربه فوق الطاولة فتناثرت بضع محتوياته بغضب امرأة كما تقتضي الصورة:

- إنت بتهزر صح؟

وغضبه كان لا شيء جوار زعقته:

- إنتِ اتجننتي يا رقية

وبالماضي كانت تخاف.. كانت تنكمش وتنزوي وتترك نفسها لِما يَنُصه من قرار ولكن الآن لا.. الزعقة تلتها صرخة:

- لا ماتجننتش.. الأرض دي مش بتاعتك لوحدك يا حسن, أنا شريكتك فيها بالنص تمام وإنت عارف إنها من حق إبني

توسعت حدقيته في ذهول:

- ده جزائي إني كتبتلك النُص!

وذهوله وازى حنق منها غير قابل للسيطرة:

- إنت مكتبتش بمزاجك يا بشمهندس.. الأرض دي كانت هدية خالد لينا أول ما سكننا معاه في المزرعة.. هدية لينا ركز كويس.. حسن أنت عمرك ما ادتني حاجة إنت بتاخد بس ودلوقتي عايز تاخد حق ابني

وقبل رده كان قد انتهى النقاش مع لهفة حمزة وابن هارب وآخر حتى السادسة فجراً كان لم يعد بعد.. أنهت صلاتها وعادت لسطور المصحف بين يديها مجدداً وعيناها لا تفارق الهاتف الذي وجدته لأكثر من عشر مرات مُغلق

همست بضيق:

- ما تقلقش قلبي يا خالد

ومع كلمتها الأخيرة كان آخيراً قد عاد.. بملامح مجهدة يبدو أنها تشتاق للنوم ووجه متجهم ولا تعلم السبب

انتفضت تكاد تكون راكضة نحوه:

- خالد إنت كويس

أجابها بتعب وخطواته تشدو غرفته:

- كويس يا أمي محتاج أنام..

وقبل أن تسأل بالتالية أجاب لينهي الحوار:

- موبايلي فصل شحن

وأغلق بابه مستنداً برأسه على الباب الخشبي وعيناه مستعرتان في شبه ظلام.. نال العابث منه ما نال أما الآخرى فهي لم تختبر عقابه بعد.

وابن رقية يختلف عن ابن سهام وكلاهما يختلفون عن ابن ليلى!

ويُقال أن الصلابة يكتسبها الفتى من الأب ورقة القلب يخصها بأمه وكفى.. وخالد استغرق في النوم ثلاث ساعات لا أكثر

واستيقظ ليقبل رأس رقية التي أقلق منامها بالأمس أما محمود فلم ينل النوم من الأساس وشيء ما لديه بالغرفة وهذا الشيء ظل يتحرك طوال الليل في تذمر وكأنه على الهروب يلوم نفسه وحين أغمض عينيه للحظة واحدة مع حلم مزعج لعين أيقظه محمود بنغزة قاسية فوق الكتف ونبرة حملت قلة صبر:

- روح لأمك

وعاد أحمد.. لم يستطع أن يوجع قلبها أكثر من ذلك ففي النهاية لا ذنب ل ليلى, وليلى قضت ليلتها بعينيان متورمتان من البكاء وأنامل أصبحت ثلجية بضغط دم منخفض اضطر حمزة في النهاية أن يتحكم به بعقار.

ليلى فقدت أنفاسها بالفعل حين لمحته يقف بالباب وفقزت ولا تعلم كيف لتجذبه بعنف بين ضلوعها في لهفة ولم تبالي حتى بحبس أنفاسه.

ليلى كانت أم والأم تمتلك حدس بشأن أولادها لا يخيب..

وأحمد اختلف

أحمد الذي ذهب غير ذاك الذي عاد

حتى وإن امتلك قلب شاعر

****

كانت ليلة طويلة وأسبوعاً أطول

المراهق لم يبارح غرفته تقريباً وطالت ذقنه الناعمة بين أشعاره

أما الطفلة المُعاقَبَة فتبكي مع هاتف لا يجيبها رغم أنها تخطت حاجز المائة ميسد كول..

جذبتها رؤى بتملك وجففت عبراتها لأن عبرات الأنثى لا يستحقها رجل

"يا خايبة"

وعيناها كانت منتفخة فعادت مضطرة للعوينات وبشرتها شاحبة كلوحة فقد صاحبها الألوان وفوق اللوحة رتوش متمثلة في خصلات تهرب.. تتجول فوق صفحة وجهها لترسم حالة

كانت تجاور صديقتها وعيناها زائغة بين الوجوه, حماقتها تبحث عنه.. براءتها تبحث عنه.. وقلبها يبحث عنه. ترتدي بلوزة بيضاء واسعة بأكمام مزينة بأشرطة رفيعة حتى رسغيها وسروال أزرق داكن وتعلق فوق كتفها حقيبة بكل ألوان العالم

من أين ابتاعت تلك الحقيبة المضحكة؟!

عيناه التي راقبتها من خلف نظارة شمسية قررت أخيراً التخلي عن الظل ومجاورة الصورة.. حتى إن لم تُعجبه الحقيبة يمتلك حق التخلص منها..

يمتلك الحق ويبيحه لنفسه كما يشاء وبالوقت الذي يريده

وتوقفت السيارة لتباغت حركتها هي ورؤى ولا مجال للفرار.. والنبرة تحمل خشونة منتظرة

- اركبي..

****

ليلة طويلة وأسبوع أطول

يسخر منها.. يتندر

والتتمة

نبرة غاضبة حينما علمت من ليلى

- كان في أوضتك فعلاً!

كان يرتكز بذراعيه فوق الحاجز الخشبي يراقب تريض الخيل وبين شفتيه ترقص لفافة سحره.. ابتسامته واسعة وكلما نال من وجنتيها نبض الغضب ابتسم أكثر.

كتفت ذراعيها وهذا شيء مقبول تتحكم بيه كما تريد.. أما الخصلات المجدولة فهي ملك الهواء وفقط.

- مش حانسهالك يا محمود

وقبل أن تتحرك كانت خطوته تسبقها.. كعادته الهمسة تجاور النظرة والهواء بينهما جزيئاته تبغ

وبتر اقترابه بجملة واحدة لا يجوز بعدها استكمال:

- تتعوض.. أول ما حد تاني يهرب تعالي علطول

الفصل الحادي عشر

حبيبتي من تكون؟! حبيبتي..

رغم أن الوقت تعدى الثانية ظهراً إلا أن الشمس غائبة..الشتاء بات على الأبواب والطقس أصبح يشتاق للبرودة, وبشكل ما غريب وغامض السيارة تشق طريقها نحو منزله والأغرب أنها صامتة.. متجمدة كمن يخشى التحرك فينفجر البكاء.

ببساطة..

- اركبي

وفعلت!

حتى أن رؤى صاحبة أطول لسان قذف مسافات طويلة أصابها الخرس. جاورته وعيناها تراقب الطريق بحزن لا لأنه ظهر

ولكن لأنه ظهر دون آخر.. عيناها ناعسة بشبه اغفاءة وكأنه تشتاق للنوم أو بالأحرى الراحة.

كانت تشعر بالبرودة فانكمشت داخل بلوزتها البيضاء الرقيقة وباتت تتلمس من حقيبتها الضخمة الدفء, أما هو فكل ما كان يجول بخاطرة هو أحقيتها كأنثى في تلك اللحظة في دفء رجل.. هل سيخدع نفسه أم سيراوغ, هل سيهديها وردة وعشقاً أفلاطونياً بكلمات قد نسيها عن الغرام أم سيوازي نصف الحرف بقبلاته.

والقُبلة بين جولاته وبراءتها معروفة فهي لن تصطدم بشاب حديث المحاولات يضيع تخبطاً بين شفتيها, هو رجل ورجل يعرف كيف جوار الشفتين سيرسم خرائطه وبينهما يدرك مساراته, والشفتين باردتين يستطيع أن يستشعر هذا الآن من لونهما.. قاسيتين كالحجر فحزنها فقد رفاهية مرطب أنيق حتى العطر الطفولي بعبق الفواكه غير موجود وكأن أنثوتها قررت أن تنبذ كل رفاهية ممكنة من أجل رجل

شاب أهوج هو نفسه لا يعرف أي دور يود اختياره,

الصديق أم العشيق أم الغبي!

وتوترت عضلة في فكه الأيسر وهو يسأل ودون أن يبطأ من سرعة السيارة أو حتى يخلع نظارته الشمسية

- خالد؟

والسؤال هنا كلمة واحدة تحمل مفاهيم كثيرة

هل غضب خالد.. هل زعق.. هل توعد أو هدد أو لمح بفراق

هل تخاف خالد أم تعشق أم هو يعشق؟

أي دوامة أغرقت نفسك بها يا مصطفى!

ولم تجرؤ هي على استدارة حتى هذا الطوفان المنفجر جانبها هي لا تفهم تفاصيله, هي تعرف أنه رقيق أنه صديق ولطيف ومكترث على الدوام.. هو يساعد وهي لا تتخطى بعقلها ما بعد تلك المساعدة.

هي الغبية والمخطئة والهاربة من محادثات رجل لم يفعل لها شيئاً سوى مد يد العون لمستقبلها. أومأت ونعم هنا تحمل ألف جواب وربما الكارثة أنها تحمل الجواب كله.. الجميلة دخلت فخ الوحش وتكتب فوق ورقة بيضاء اعترافاً ضمنياً بالعشق لغيره

رائع!

وبكاؤها لم يدرك حينها توقف السيارة.. هي نفسها لا تعلم لمَ تبكي ولمَ تحشرجت نبرتها وهي تكرر آسفة دون استيعاب,لمَ كتفيها يرتعشان ببطء حتى أنه رغماً عنه ربَّت.. لامس الكتف بطبطبة خفيفة بسببها عانقت الأنامل الخصلات, والخصلات ناعمة رقيقة سهلة الألتفاف هاربة من حزنها بعبق يشبه رائحة الخوخ المسكَّر

تربيته خفيفة حملت تاريخه.. تاريخ لن يحدث والتاريخ هنا أخافه بل أرعبه.. أي ورطة تنزلق قدميه بها مع تلك الفتاة, أي

تفاصيل مربكة تنوي بها الحياة وكأنها قررت أن تتخذ معه نهجاً عقابياً بفعل بدايات امرأة

ندى ليست امرأة بعد.. ندى هي البداية التي تبيح له كل فكرة وفتنة

وانزلقت سبابته رغماً عنه, شيطانه أراد أن يتخذ مسار جيدها بطول عمودها الفقري مستبيحاً أول المتعة وعقله ابتعد كما طفل صغير أيقن بهلع أنه لامس سلك كهربائي شائك وينوي تعريته!

وكما بدأ الأمر توقف

توقفت السيارة بغتة ولولا تشبثها بالمقعد لصدمت رأسها الرقيق

- انزلي يا ندى

****

تكونش بتسأل عنهم.. علشان تتعلم منهم!

ولتكتمل الحماقة

ترتشف شاي نصف دافيء مع شريحة جبن بالطماطم وفيلم رومانسي قديم!

صوت أمها يمر بحروف اسمها كسراب قادم من عالم آخر فيه انتقلت رسمياً جوار عمر الشريف ونظرته المُهلكة نحو فاتن حمامة.. تلك النظرة التي تجاوزت كل درب ممكن ونقبت باحترافية رجل عن ضعف الأنثى ويال الكارثة وجدته

نظرة قد يهوى في سبيلها الغالي والنفيس وتستسلم البطلة في نهاية الفيلم للقُبلة! وهنا تكمن براءة كلاسيكيات السينما في عصرها السابق

قبَّلها وأغلق الستار

تبات ونبات وصبيان وبنات

ولوّت شفتيها بواقعية قبل أن تُغلق التلفاز, لا يعلم أحد أنه طالما جاورتها تلك الفكرة أنها لن تتزوج عن قصة حب.. لن تجد رجلاً يمتلك إصرار أبيها ولا هي أنثى باحتواء أمها, رفاهية العشق لا تتكرر على مدار الأجيال

وأغلقت التلفاز ولا تعلم لم تجولت بعقلها تلك الفكرة المقبضة عن صوت رقية وهي تؤكد على أمها من قبل

"تميمة عروسة خالد"

وقتها ضحكت وتندرت وضايقها الأمر لغباء دمج اسمها بصديق الطفولة الذي حل محل الأخ لأعوام وما زال

أما الآن بات الأمر مُقبض

لا لشيء سوى لأنها تفكر بآخر ومعه لا يجوز ذكر هذا الدمج

"غبي"

وكررتها أربع مرات حتى الآن وهي تقضم ما تبقى من شريحة الجبن في أنوثة مفقودة وتعقد جديلتها وترتدي ملابسها على عُجالة وكالعادة بنطال قاسي وحذاء أدغال وتزعق بنور لأنها نسي أن ينظف حافر عشق وتسحب جوادها كما العادة في المضمار.

جولة يومية باتت تسطر كتاب مضحك ستطلق عليه اعترافات تميمة, وتتورد وتتلون بغضب موازي وتخبره عن آخر جملة وملعون أنت يا محمود هي لا تروض الجواد هي فعلياً أصبته بوجع رأس

وابتسمت وهي تستند برأسها عليه مجدداً وعيناها شردت رغماً عنها في الأفق

- زهئتك أنا

ولأول مرة.. نعم كانت أول مرة حينها نالت حمحمة خفيفة تخصها فقط.

بات يفهمها عشق!

ونال من القرب ما نال فأصبحت الحمحمة صهيل غاضب وعينان تضيق إعلاناً للحرب وفي تلك اللحظة تحديداً أنت لن تدرك الفرق بين الجواد وصاحبته

فهناك غبي.. ممازح.. عابث.. وقح.. ملتصق لكل تاء تأنيث على وجه الأرض.

والمؤنث تلك المرة كانت فتاة عشرينية يعلم الله وحده من أين ظهرت تلك المصيبة, جسد أنوثي غبي كما تنص قوانين الرجال وخصلات سوداء فحمية تخطت خصرها بإتقان نحو مؤخرة منحوتة توازي تقليعة عصر حالي

وبين القوسين "زمن مهبب"

- كيم كاردشتيان

والصوت لشبر ونصف ليس وقتها إطلاقاً.. استدارت بعينين مغتاظتين لتلمح الصغيرة التي على ما يبدو تغار عاقدة حاجبيها وذراعيها وتشير له بتوعد يستحقه:

- مخاصماه بيقولي امشي دلوقتي يا لانا..

وزادت وهي تضغط بنواجذها على كل حرف ممكن

- ماشي!

لم تشعر أنها أصبحت توازي الفتاة صوتاً وصورة.. شفتيها مزمومتين تراقب الهمسة والضحكة ويا حرام محاولة فاشلة لركوب الحصان والكف فوق الخصر أباح عملية إنقاذ ولا مانع لو انزلق تحت الخصر قليلاً

والشفتين مفتوحتين في صدمة

والترجمة

"سافل"

والغضب يبيح في الأنثى أشياء ومع تميمة كوارث.. غادرت موقع الملحمة ولم تكن تعمل أنه يُراقب, أعادت عشق لحجرته فهو جواد لن يتحملها غاضبة وزعقت مجدداً بنور وجذبت حصان إنجليزي مهجن "ثوربريد" لتمتطيه في لحظة دون مساعدة أو خوف مثير للشفقة من سقوط قبل أن ترفع رأسها في شموخ لتركض

ستركض.. ستركض دون أن يوقفها رجل!

حتى إن اعترض طريقها والحصان..

كان يهرس آخر ما تبقى من لفافة تبغه بعد أن ترك المغناج وصديقاتها, وعيناه ترتفعان نحوها في تحدٍ ساخر.. يخبرها أنها تغار وهي سترفض الإعتراف.

عيناها تضيق ويديها ببطء تسحب اللجام.. قدمها اليمنى تتأرجح فوق الركاب وكلامحها أخبرته أنها ستنطلق بجوادها سواء تزحزح عن طريقها أم لا.

- نور

والزعقة لم تكن منها تلك المرة.. زعقته تتخطاها شراسة حتى أن السائس تجمد للحظة قبل أن ينفذ الأمر مذعناً دون تأخير

- فرسة عربي

وأكد على توقعها وعيناها ضاقت في مشاكسة متحدية ونبرته تجيبها قبل أن تسأل..

- سبق

- حاغلبك!

- مغرورة

- من بعض ما عندكم يا فندم..

وشفتيها انحنتا بانتصار.. استقر على فرسه جوارها ومحيط نظره يدقق بالمضمار وأكملت هي بثقة ما توقعه تماماً

- مفتوح

سباق مفتوح نحو الصحراء الشاسعة في الجوار والمنتصر لن يعلمه أحد..

كزائر في مزرعة رضوان حين تحيد عيناك نحو مضمار الخيل ستجد منهما اثنان, صغير للترويض وكبير لتدريب الخيل وتريض الزوار. بعدهما بمسافة ليست كبيرة مقدمة مفتوحة نحو أرض خالية لها شق واسع مع الصحراء يأخذ فيها السواس بعض المحترفين لسباقات صغيرة عادة ما تتم مراقباتها بسيارات الدفع الرباعي المخصصة لهذا.

لم تكن هناك سيارة دفع تقرر ولا سباق معدّ تم تحديد أفراده.. هي لحظة جنون وحتى الآن هي المنتصرة. تصاعدت همهمات الجمهور القليل الذي التف حول بداية تحمل احترافية بطلة قفز حواجز ومعاند لا يقل عنها خبرة, تجاورا في معاندة فاز بها في البداية جسدها الرشيق المتناغم بليونة راقية مع حركة جوادها الآكل للأرض تحت حافريه في قسوة أما هو فاختار

فرسة عربية مثابرة مع حرارة الشمس اقتربت لتجاور قوة الثوربريد من جديد وتكاد أن تقترب.. تنتصر وبقوة بأس ترسم فوز على ابنة مروض الخيول

تحت الحوافر انصهرت الرمال المحترقة من حرارة الشمس وفوقها تسلل التعرق لجبهة كلاهما في تحدٍ واضح

لن تنتصر ولن يُهزم

لن تتوقف ولن يستسلم

لن تنزلق قدميها بعشق وهو لا يبحث في عيناها عن وطن

والثوربيد سرعته تناضل والفرسة العربية تحفظ الصحراء بفطرة حيوان مقاتل.. كاد يفوز.. نعم كاد يفعلها ولكن..

عيناها انتصرت!

****

شرد للحظة ففقد بطولة العالم

مقولة عن بطل مهزوم

سلم نفسه لأمرأة ففقد نفسه

شمشون الذي كان جباراً

نظرت وببريق عيناها بدأت مآساة

بيت شعر لم يكتمل!

وكان الفتى جالساً على طاولة هو لم يستخدمها قط.. الفتى ملتصق به, كلما شعر بفراغ بات يلاحقه. يأتي بأوراق مكومة ويعد لنفسه كوباً من الشاي الخفيف بثلاث ملاعق سكر

ويكتب. ونظر له محمود بشرود وهو يرسم ملامحه بشكل مختلف من خلف دخان تبغه:

- اكتب شعر

توترت ملامح أحمد فشعر بالتيه ومحمود يلاحق نبرته بسيطرة

- مش أنت شاعر

- عرفت منين؟

- قلب الأم.. هه

والسخرية ملتصقة بالساخر وبهرس اللفافة الثالثة.. وأشعل الرابعة واستقام ليقترب من النافذة وحدقتيه تلعن لحظة انهزام:

- عن عينيها

وابتسم ولم يلمح الفتى الابتسامة, هل يجوز أن تملك هكذا عينان وتلك استدارة.. أن تحل الجديلة وتعقد سيطرتها على

الصحراء والنسمات وأرض الجياد تحت قدميها. أن تتوسع شفتيها بابتسامة سُنت قوانينها خصيصاً من أجل هذا الثغر

ابتسامتها لا تشبه باقي النساء

عيناها تعكس ضوء شمس مخلوطاً بركض جواد ثائر, تعكس النار والهواء والماء وجنون اللحظة

عيناها كل شيء على وجه الدنيا

عيناها النظرة

وكارثته أن تنظر وكفى..

وتوترت ملامحه.. انقبضت كما حاجبيه اللذان غادرا خيالاته ليعودا ويرسما لوحة آخرى بفعل سحابته الخاصة

يرسم نفسه مجدداً ويغوص بحوض مائه والتعداد اقترب من ثلاث دقائق

هو لا يعشقها لا

هو سقط سهواً بعينيها!

****

عن تلك اللحظة التي ينزلق بها جسدك في ارتياح ضمني فوق فراش

والتتمة كان يوماً طويلاً

وهي وقتما دخلت منزلها وأسندت رأسها بتعب فوق الباب الخشبي بينما عيناها تزوغ مع الجدران والتوازي تنهيدة تحمل تعقيباً صامتاً..

كان يوماً غريباً

تتذكر جملته التي أخذتها بهدوء غامض

انزلي يا ندى

نظرته الحارقة التي رفضت أن تفهمها وسيارة الأجرة التي توقفت بعدها بدقائق خصيصاً وعلى ما يبدو كان هو الآمر.

الحزن تلك المرة لم يحمل رفاهية البحث عن ملعقة آيس كريم أو ابتلاع شرائح البيتزا، الحزن كان يحمل شروداً لا تود أن تفسره.. مواجهة مؤجلة ونضج غير محتمل لطفلة

- ندى

والنبرة لرؤى ولم تكن نبرة مكترثة أو متزنة، كانت زعقة مستحقة

- ندى إنتِ بتستهبلي

ورؤى تصفع الباب خلفها.. رؤى جاءت بزيارة غير قابلة للمفاوضة ورؤى لا تنوي بصديقتها رفقا..

- ردي عليا.. لِسَّه فاهمة إن كل ده عادي!

وتلك المرة كانت تمسك بذراعها.. نفس الذراع الذي قابل أنامله منذ ساعة بحنو غامض!

ابتعدت ندى وتلك المرة تحولت العبرة لارتجاف شامل، همس طفيف عبّر عن رفض النبرة وهي تجيب:

- أيوة عادي!

تجادل.. بل ترفض كل ما تنوي التلميح به رؤى.. اشتعلت شياطين الآخرى فباتت في لحظة الأم والأخت والحبيب الغائب:

- لا يا ندى.. إنه يجيلك لغاية الكلية مش عادي.. اهتمامه مش عادي ومتضحكيش على نفسك

بات رفضها زاعق كالصديقة فاستدارت بشراسة قطة مسكينة

- مصطفى مش وحش على فكرة

والصديقة هنا سيصيبها الجنون بالفعل:

- مهتم بيكي ليه انطقي.. وبلاش هبل المساعدة ودعم صوتك وأخو طنط ايناس،

ونبرتها الاخيرة كانت ساخرة.. مثل الاخر تماماً، الاخر الذي بات اسهل شيء عنده أن يهجرها.. يعاقب لا يهتم ويقسو غير مبالي

تقافزت العبرات بعينيها من جديد فهمست بمعاندة:

- ليه لا..

- غبية

وآلمتها رؤى.. آلمتها كما فعل هو تماماً ومنذ وقت ليس بشيء..

والكذبة المتاحة والمريحة والقابلة للتصديق أن اهتمامه عادي، أنه ليس بطامع ولا بعاشق.. والتوكيد نجدة!

وبعدها بساعات

- الو

كان مسترخيا بجسده على مقعده الجلدي الواسع، عيناه تراقب الباب بتردد وصوت نغمة تنبيه الجرس باتت مزعجة.. زائرة ثلاثينية تعرف عليها منذ أيام بزفاف صديق

همسة فلمسة فمواعدة فلقاء

المتفق عليه كان التاسعة والآن الوقت تعدى العاشرة وهي متأخرة ككل النساء وتلك ليست معضلة، الأمر أن مع قدومها أنار الهاتف بذاك الاسم الذي أصر على تسجيله بالعربية.

ندى

الاسم مضاء لأكثر من ثلاثون ثانية وتجاهل وانقطع الخط ولكنه عاد للظهور من جديد

بحة صوتها المترددة، والنبرة التي ما زالت تعاني آثار بكاء.. التخبط المصاحب لأول همسة وكأنها طفل مُعاقب وكل أمنياته أن يتخطى وقت العقاب

أو يرفض أسبابه!

عضت فوق شفتيها والهاتف يوقن أنه ملتصق بشفتيها.. هي متوترة حد الإغواء!

- ممكن نتكلم؟

وتصلبت حدقتيه بلمعة بات تكرارها مع أنثى آخرى أمر مستحيل قبل أن يخرج صوته بهمس خشن:

- أكيد!

وأغلق كل ضوء ممكن وتجاهل إلحاح الباب.

****

الحب قصيدة نثرها رجل مهزوم!

والحيرة تصاحب نظرة عين ثاقبة عن هذا الشيء المسمى الحب

عشق.. صبابة.. هوى

أياً كان الحرف وتفاصيله

سيبقى السؤال

هل هو فعل أم وسيلة!

تناولت القهوة الباردة وهي ليست بصاحبة مزاجية خاصة فيما يخص الموسيقى والمشروبات ولا هي ناعمة الأفكار مثل أمها فتنال نصف ساعة من التأمل مع شروق الشمس, هي رشيقة الأفكار متسارعة الخطوة كما وقت الصبيحة بين خيول أبيها..

هي حينما تغضب تنثر لوحة رغم أنها لا تجيد الرسم ولكنها أبداً لا تترك نفسها فريسة لشرود..

أو له

المهزوم الضاحك!

ولوت شفتيها مع باقي القهوة وعيناها تمر بغباء امرأة مهتمة فوق صورة, حساب تواصل اجتماعي صادف أن وجدته بعد نصف ساعة من البحث الدقيق!

صادف أن قررت تأمل تفاصيله

وصادف أيضاً أن خانها أُنملها فمر بمناورة غير متقنة فوق زر إضافة صديق لتُرسل رغماً عنها دعوة وقبل أن تستدرك الخطأ الغير قابل لإصلاحه جاء الرد

"تم القبول"

التيمة مكررة ولها صادمة

الأن أنت أصبحت صديقاً لمحمود حسن!

وتميمة التي قلما ما ترتبك أو تندم أغلقت الهاتف وبتوضيح أكثر دقة قذفته مع جفنيها الذي انكمشا جوار شفتين تلعن غباء اللحظة

"أووبس"

- تميمة!

حينما استدارت وجدت أمها التي ارتسمت فوق ملامحها صدمة لا تقل عنها تماماً, فغرفتها كارثية إن صح التعبير.. لوحة حمقاء غير مكتملة وهاتفها ملقى على الفراش بجانب ملابسها التي لم تبدل نصفها بعد, تجلس على حافة المقعد بخصلات مشعثة وترتدي القميص دون السروال في لوحة بوهيمية لا تليق بفتاة.

امتعض وجه إيناس وهي تأخذ قدح القهوة النصف مكتمل وترمقها بنظرة محذرة قبل أن تترك لها الهاتف

- خالد على التليفون

أنقذها خالد..

ليس من لوم أمها بل من الأفكار, زفرت وهي تُلقي برأسها على الوسادة:

- فينك

- في الدنيا

وكان وهو منعزلاً بغرفته.. مبتعداً عن الجميع وعن عراك لم يهتم بتفاصيله بين أمه وأبيه ولكنه استنبط حروف اسم محمود, زفر وهو يرتكز برأسه على الحائط:

- تميمة ظبطيلي محاضرات الأسبوع اللي فات أنا مش مركز

- إنت بتاع مصلحتك على فكرة وأنا اللي قولت بتسأل عليا

- اتلهي

- اتلهي إنتَ

وكانت تناوشه ولولا أن أفكارها متمكنة منها للاحظت نبرته الواجمة.. بعد فترة صمت لا بأس بها عاد هو للحديث:

- أخبار عشق إيه؟

- متسألش

وكانت سريعة الردّ.. مباشرة والرنة بالصوت غاضبة ثم زادت وكأنه توكيد:

- متسألنيش إلا لما أكون نجحت

- هو إيه أصله ده

- هو كده

وكانت زعقة.. ابتسم وكأن مشاكستها تعيد شحن طاقته:

- ربنا يكون في عونه

توترت نبرتها كما المتهمة التي يعرف العالم بأجمعه أنها أضافت محمود على "الفيسبوك"

- هو مين ده!

أما هو فكان شارداً.. تائهاً.. أفكاره تموج بمن سن عقابه عليها وتستحق, كلما يمر بخياله وجودها بين جدران ذاك العابث يستعر بصدره حريق.. توحشت عيناه فخرجت نبرته ديناميكية باردة:

- تميمة فاكرة التجمع اللي بتعمليه لصحابك كل شهر ده

- نالت منها الدهشة ليس فقط لذكره ليلة فتيات تقضيها مع أصدقاءها كل فترة بل نبرته:

- اه بس بتسأل ليه

- حتعملي واحد قريب

- تصدق محتاجة

وقاطعها بدلوه الذي اتصل بأجله من الأساس:

- عايزك تعزمي ندى

وتسائلت ولم يكن الأمر بشأن طلبه الغريب بل بقدر توجسها من غرابة صوته:

- خالد إنت كويس؟ صوتك مش تمام.. إنت شديت مع ندى ولا حاجة

وخيُّل إليها أنها استمعت لصوت زفرة.. هُوَّة حارة سحيقة هو نفسه لا يُدرك من فيها يسقط!

تابع بنبرة متهدجة:

- ندى مالهاش صحاب يا تميمة.. أنا ورؤى بس ولو احنا انشغلنا فعلياً بتكون لوحدها مالهاش حد ورؤى مسافرة الأسبوع الجاي وأنا مشغول شوية فهاتيها تتسلى معاكم.

رفعت حاجبيها في عدم اقتناع:

- ماشي.. حعديها بمزاجي وحصدق إنه كورس المسؤولية اللي إنت حافظه مش لإنك عايز تجيبها في أرضك هنا وتبستفها على حوار أنا مش فاهماه

- مش بقولك ربنا يكون في عونه

وباتت نبرته هادئة ومعها عادت الضحكة, لتتابع هي في معاندة طفولية:

- ربنا يكون في عونها هي

وبشكل ما تبدلت ملامحه لراحة.. تسامر.. ضحك.. حقق مبتغاه.. أم بدأ فعلياً يرتب أفكاره, أياً كان فهذا ما يعلمه وهناك مالا يعلمه

لا يعلم تصنت أمه على آخر الحديث وفهمها ما تودّ من مجرياته.. عن ابتسامتها لحسن الذي كانت قد اشتعلت معركتها

معه منذ ساعة واحدة وهدوءها الظاهري وهي تقرر بشكل ما الحل والوسيلة

- حسن أنا موافقة إننا نغير المبايعة

ومع استدارته المُستغربة لتبديل رأيها أفندت بمفاوضة مُستحقة السبب

- بس بشرط.. حنطلب إيد تميمة لخالد

****

اشتقت إليك فعلمني ألا أشتاق

علمني كيف أقص جسور هواك من الأعماق

هي فتاة هادئة, من تلك النوعية التي اذا ما مرت في جوارك لا تشعر بها.. لا عطر مميز ولا خصلات جامحة ولا حتى انحناءات مصقولة, هي سكرتيرة البيج بوص وهذا يكفي!

أحلام تبدأ يومها باستيقاظ مبكر قبل شروق الشمس تقريباً.. تخرج من حيها المتواضع القريب من جامعة القاهرة وتقذف نفسها في أول عربة أجرة مسرعة نحو الطريق الصحراوي. حين وفر لها أحد أصدقاء أبيها العمل كان رفض أمها واضحاً وقاطعاً بأن يصاحب العمل المبيت حتى لو كان بديل الأمر رحلة يومية تستغرق فوق الساعة ونصف أو ترك الوظيفة تماماً. وهي لم تكن تمتلك رفاهية الرفض فتقبلت رحلتها اليومية برحابة.

كانت الساعة ما زالت لم تتخطى الثامنة, المكان هاديء والمهندس خالد لم يحضر بعد كما نص حديثها بلباقة لعميل على الهاتف ونظرتها منتبهة دون عويناتها الضخمة نحو سخان الماء الكهربائي وكوب الشاي المهيئ تماماً لاستقبال الحليب.

- نيدو!!

والصوت بدا ترجمة لكارثة هي لا تفهمها, المهندس حمزة الذي لم تلمحه منذ تعيينها سوى مرات معدودة يقف بباب

غرفة المكتب وعيناه جاحظتان نحو كوبها الأحمق والملعقة التي ارتجفت بيدها فأسقطت النيدو على حد تعبيره..

خطوة آخرى شمر فيها عن ذراعيه وهو يقترب من الطاولة خاصتها وعيناه تبحثان عن شيء لا تفهمه وحديثه رغم محتواه فنبرته جديّةٍ:

- الشاي باللبن ده ليه أصوله.. يا تعملوه صح يا تقعدوا على جنب

ابتلعت ريقها والتوتر قد تمكن من ملامحها من هذا الرجل الذي على ما يبدو قرر المزاح معها لسبب لا تفهمه أو التذمر جدياً بشأن نوع الحليب..

- بشمهندس.. هو حضرتك؟

أجاب بلامبالاة وهو يجذب علبة حليب عادية من خزانة مجاورة:

- مستني باشمهندس خالد

أومأت بطاعة تائهة وهي ما زالت تراقبه.. أحضر كوب آخر وبدأ يعيد تسخين المياة من جديد

هذا ما يفعله!

بل زاد واستدار:

- بصي يا بنتي.. تغلي المية كويس كده وبعدين تسخني ربع كوباية لبن.. ربع بس وتحطي على الشاي اعمليلي واحد بقه وأنا حاستنى الباشمهندس في مكتبه

وتركها ببساطة.. كانت تعلم أن مهندس النباتات مجنون ولكن تلك كانت مرتها الأولى في اختبار جنونه

ومرت فوق شفتيها ابتسامة.. ابتسامة حتى لم يدركها حمزة نفسه حين أخذ منها القدح الساخن وعاد مهتماً بأوراقه في انتظار خالد.. ابتسامة ربما لأنها لأول مرة تنال هذا القدر من الاهتمام اللطيف من رجل حتى ولو كان بشأن كوب شاي!

ابتسامة لم تكن تعلم أنه على بعد أمتار ليس أكثر ومن إطار نافذة غير مغلقة كانت وسط حدقتين هي لم تعيرهما انتباهاً يوماً ولم تنتبه لذاك الرضا التام الذي طلّ منهما مع ابتسامة قاسية طلَّت من صُفرة أسنانه

ما ينتويه قريباً سيكون له!

الفصل الثاني عشر

عيناها سبحان المعبود..

هل سامحت

هل غفرت يوماً؟!

هناك مقولة أن المرأة لا تغفر أبداً, هي فقط تُبقي زلّاتك في خزانة خاصة ووقتما تتعثر ستساومك بشأنهم

أو تنقلب حياتك جحيم!

وهي لم تكن من نوعية النساء التي قد تنتصر على رجل, هي تنزوي.. تبكي.. تقبل بالحياة في كنفك والتتمة أنها يجب أن تقبل ظهر كفها وباطنه لأنه أبقاها وطلق سهام!

يال السعادة..

كان صباحاً عاديا.. مجرد صباح الفارق أنه عُطلة ورغم أن المزرعة بأعمالها لا تحوي رفاهية العطلات إلا أن رُقية وإيناس دوماً ما كانتا تحرصان كل فترة على كسر الروتين بتفاصيله بهذا التجمع العائلي المميز..

إفطار متأخر.. غداء مبكر

التسمية لم تنل من شفتيه فارق جمّ, هو مع بدايات تبغه استيقظ مع نقرات مترددة فوق باب غرفته.. ابتسامة أخيه الغير واضحة ودعوة شفوية بتوقيع ماما رقية!

- مش فاضي

وكان سخيفاً كما المعتاد وكما السَّليقة ودخانه بات سحابة صباحية ابتلعت الشقيقان, وسعل خالد سعلة خفيفة في اعتراض باسم:

- ولا أنا بس التزامات عائلية خنيقة تقول ايه

ثم جذب منه لفافة التبغ في حركة أولية تستحق القتل قبل أن يقترض منه سخريته:

- اعصر على نفسك لمونة.. صدقني أنا كمان عاصر مش إنت لوحدك

رائع

علاقة أخوية مُبهِجة!

والأكبر ترك تبغه وأفكاره ورغبته في رد الصفعة واختار قميصاً مقلماً فاتحاً.. عيناه جالتا فوق صفحة عبثه الألكترونية وابتسامته وازت حروفه العابثة وهو ينثر النار فوق رماد تلصصها عليها

"سأراها"

أما الأصغر استيقظ مع ابتسامة غامضة لأمه وأمر واجب النفاذ من أبيه

"اعزم أخوك على الفطار"

رقية تُبارك وحسن سعيد بقرب قادم والعبث يحمل ترجمة أكثر قسوة

هل من المنطقي أن تدعو أحد لزيارة بيته أم أن المنطق تمزق مع كم الابتسامات الكاذبة التي ستتوزع هذا الصباح.

والتوت شفتيه بلامبالاة هي ليست من شيمه وعاد ليجاور ليلى في حديث جاد بشأن أحمد أما أحمد نفسه فالتصق بالعابث متخذاً جواره ركناً منزوياً في نهاية المائدة, هي كانت بعيناها تبحث عنه وتحاشته تماماً حينما ظهر..

يبتسم وبحاجبيها غضب

يُوميء بأدب فيلقنها طقوس الهرب

ويغمض عينيه رافعاً قدميه على مقعد مقابل متجاهلاً كم الابتسامات العائلية اللطيفة بين داعي وضيف. ورغم أن النسيم

رائع هو له خانق حتى سحابته لن تُجدي.. وسأله الفتى ببراءة تشبثت بعبثه:

- أجيبلك عصير

- هات قهوة يا بني

ولم يفتح عينيه, مجرد رد فظ يليق به إن صح التعبير

وبعد سكون لم يدم أكثر من دقيقة تبدّل صوت الفتى, بات أنثوياً ناعماً قرر أخيراً الاقتراب وقطع الهرب بالسخرية!

- بالراحة على الولد ده أنا حتى شايفاه واخدك مثل أعلى!

- ودي مشكلة؟

ولم يفتح عينيه.. يجيب صوتها لأنه ببساطة يحفظه فلا احتياج لميزة النظر

وكتفت ذراعها والغرض أن تهديه قصف جبهة فهذا ما سيريح قلبها بعد كارثة أمس:

- لا مش مشكلة.. دي كارثة بشرية

وضحك والآن هو يستحق رفاهية النظر.. بمعنى آخر التأمل وبنهج محمود التمعّن, وجهها كان صافياً دون أي مستحضرات تجميل واضحة ولكن خبرته تُجزم أن الملمس سيحمل عبق مستحضر صباحي لطيف مستخلص من زهور الليلك أما الشفتين فهي تستخدم مرطب هاديء قريب من غروب الشمس بصبغة وردية ناعمة ومع كل هذا السلام العادي في الملامح خصلاتها منفجرة.. وكأنها الفوضى المنظمة على كتفي امرأة. وحين ارتفع لعيناها وليته ما ارتفع لم تمهله اللحظة ليشرد في تأمله.. كانت جاحظة رافضة تود قتله دون تردد

أيتأملها على مرأى عائلتها وعائلته!

هذا ال "محمود" مجنون أو....

"بيستهبل"

والحروف نثرتها دون صوت من شفتيها وهي تستدير لترحل قبل أن يوقفها تملك معصم.. قبضته قوية استحوذت على قرارها بالهروب والهمسة آمرة ولكن دون أن تتخلى عن الرجاء:

- عايزة أتكلم معاكي

وتجمد الجسد ولكنّ النظر يجول.. أمها لا تلاحظ وزفرة راحة, أبيها لا يُلاحظ وزفرة أشهد أن لا إله إلا الله وخالد لا يلاحظ ونجت هي من تقديم تفسير

مر الأمر على خير

"لا أحد يُلاحظ"

مر الأمر على غضب.. تبدل ملامح وأنفاس استدعت ماضي كانت تظن أنها تجاوزته وطيف السقطة لم يندثر ولم يصبح كأن لم يكن..

رُقَيَّة تُلاحظ!

****

حين كانت رقية تُعدِّ الشاي التركي المخمَّر وتتولى بنفسها توزيع الشطائر وتزيد من عدد الأطباق لمحت نظرة.. همسة.. لمسة

لمحت ما لا يحمد عقباه..

لمحت تاريخها معه يمر أمام عينيها ثم يستدير وينظر نحوها بعين ساخرة ممسكاً ورقة وحبر وواضعاً درجة هي الأخيرة في سلم التطور للزوجات الناجحات بمنطق جداً!

كانت صغيرة لا تفهم ولا تدرك من الواقع سوى الجدران ببيت أمها وزيارة السيدة حفيظة والخطبة المنتظرة لنجلها المهندس حسن.. سعادة فزواج فعشق فسَقطة!

فتكفير ذنب قدم هو به أكثر مما ينبغي وهي لم تغفر أبداً

- محمود

وكان الزوج مبتهجاً كالعادة, ما قالته في الليل وافق هواه ففي النهاية حسن مثلها يتمنى تميمة زوجة لخالد. في منطقه هي لم تضف جديد هي فقط تنازلت عن حق ظنته يخص ابنها, أما هي فكانت تدرك تماماً أن ابن سهام عاد ليثبت قدمه في أرضها.. عاد ليأخذ كل شيء وتميمة ما هي إلا مجرد بداية.

- حسن

وبابتسامة متخابثة لم تكن يوماً من خُلُقها جذبت الزوج وقطعت حواراً قبل أن يبدأ ومررت الطعام والتحية والفكرة للضيوف وبعدها الهدية وتجمعت كل عائلة في جلسة تصوير احترافية نظمتها هي بنفسها.. اتفقت مع الفتاة التي عرفت أعمالها من خلال حفل زفاف لأحد أقاربها وجهزت الحديقة بما يليق وكانت تنوي ضمّ محمود للبرواز كي تستميل حسن

كانت تنوي...

لقطة رقم واحد..

خالد جاور إيناس مخرجاً بجدية باسمة تميمة وعبد الله من إطار الصورة مستحوذاً على الإطار ولو لمرة مع بندقيته

لقطة رقم اثنان

حمزة احتضن جميع عائلته أما ليلى فالإطار حمل عيناها القلوقة نحو أحمد

لقطة رقم ثلاثة

رقية تجذب خالد وتنادي حسن وتقطع الصوت قبل أن يكتمل

- محموو...

- المرة الجاية عايزة صورة الأول لينا لوحدنا

لقطة رقم أربعة!

وتشبث بسخريته وهو يراقب الجنة المزعومة من خلف سحابة تبغه.. رقية تنفرد بإيناس وتسحب نحو الكادر تميمة, أحمد ومحمد وعبد الله وابتسامة تليق بمراهقة ناعمة وتميمية تناوش خالد بحركة إصبع مكررة فوق رأسه

لقطة رقم خمسة

لقطة رقم ستة

لقطة رقم عشرة

هو لا يتذكر متى غادر المسرح فالنص مضجر سخيف وتكراره يشوش الزمن..

تلك الجنة لا تناسبه ولكن القادم حِقبة جحيمه

****

- نعم!

أياً كان التعبير الذي كانت تنتويه حينما غادرت التجمع العائلي مبكراً وعيناها تبحث عنه لم يكن تلك التقطيبة التي استولت على كل ملامحها وذراعيها المضمومان بتحفز جوار حروف هي بداية معركة

ولمَ لا..

ألم يتجرأ ويقيد معصمها.. يطيل النظر ويهمس بقرار

ألم يخطفها برحيله العاصف فتركت الجمع بتفاصيله بحثاً عنه

ألم تشعر بالغضب لأجله ومن رقية التي قذفته بقصد من صورة جماعية سخيفة

ألم تكترث!

والنبرة كانت عالية.. وهي كأنثى تمتلك حق صفعه بالثلاث حروف وتحطيم كل إطارات الصور السخيفة فوق رأسه ومحو

ابتسامته الماكرة تلك مع الفتاة التي لم يمضي على وجودها في المزرعة أقل من ساعة والآن باتت صديقة مقربة:

- لا حقيقي يعني بفكر أعملك فوتو سيشن هنا مع الخيل وأنزلها على البيج بتاعتي

والناعمة الصوت ترمش.. كانت تصرخ بهم منذ دقائق من أجل إضاءة مناسبة والآن انقلبت لحواء آدم

أما آدم فجاوب وهو يعرف تلصصها

عذراً محمود!

- لا إحنا كده نجيب حد يصورنا بقة

والردّ الطبيعي كان يجب أن يكون سافل! ولكن بعد زفرة هدوء مزيفة انقلبت ل..

- نعم!

ابتسامته العابثة لم تفهمها الرفيقة ولم تفهم أيضاً سر غضب صاحبة الخصلات المجدولة ولا صراخها المفاجيء بشخص ضئيل الجسد يُسمَّى نور:

- حضرلي عشق

وانسحب السائس المسكين وتلاه وداع حميمي قصير من قصيرة ضئيلة غائمة في سحابة تبغ لا تخصها, دلك رقبته بتعب ثم رفع نظره نحوها فجأة فما كان منها إلا أن رفعت ذقنها بشموخ:

- كنت عايز إيه؟

ظل على وضعه لأكثر من دقيقة.. نظرته ثابتة تحمل بين تفاصيلها خشونة رغم كل ثبات وغضب أربكتها فاستدارت منشغلة بحمحمة جواد أليف..

- مردتش كنت عاوز إيه؟

وصوتها ارتجف فشددت على كل حرف جوار النبرة, أما حروفه هو فكانت مُتهكِّمةِ:

- نسيت

والبؤبؤين هنا ورثا جمال أمها.. ولكن سقطت نيران الشمس في قدح العسل والإنفعال تترجمه حدقتيها:

- والله!

- اه والله

ويسخر بابتسامة ناعمة.. ابتسامة أنستها السخرية والهروب ومجاورة الفتاة له منذ قليل فتركت الجواد لتنظر نحوه ولأول مرة باكتراث دافيء:

- ماتصورتش معانا ليه

ضاقت عيناه فتحاشى النظر.. ما يستعر بداخله لا يجوز لها رؤيته, اقترب من الجواد الهاديء مثبتاً لجامه بقسوة:

- مليش في التجمعات العائلية اللطيفة دي.. مش متعود عليها

ولمعة عيناه كانت تضغط على كل حرف, تؤكده وتثوي معجم تفاصيله.. ثم استدار وشراسة نبرته تطوقها بفحيح حارق:

- الصورة مش على مقاسي يا تميمة

ابتلعت ريقها متشبثة بحالمية تشبه يقين أمها:

- بس طنط رقية مش وحشة قوي كده

الآن هي تخوض بتفاصيل.. تفاوض.. تُجمِّل.. وربما تود أن تتخذ دور حكيم ابتعد عنها مستهزئاً عن قصد بكل ملامحه:

- ماما رقية!

ثم غارت عينيه في شرود مكملاً:

- الطيبة دي مسألة نسبية.. مفيش حد طيب مع كل الناس

- دي فلسفة ولا تبرير

وتحول استهزاءه لضحكة عالية:

- أنا حبرر لرقية!

ثم شرد من جديد ولكن تلك المرة عادت الخشونة لتحتل ملامحه:

- أنا بحترم الشر المطلق

شدهت ملامحها, هي بصدد مواجهة جانب لا تفهمه:

- شر؟!

- مستغربة ليه؟ الخيروالشر جمالهم إنهم يكونوا مصطلحات ثابتة دون تقسيم.. تقدري كده تقولي مبدأ

- مبدأ سوداوي قوي يا محمود

والتوت شفتيه جوار كفيه اللذان ارتفعا ببراءة ماكرة:

- أنا مش مثالي

ورفعت كتفيها هي باستهانة:

- مفيش حد مثالي

ويخيل لها أنه قاطعها.. مقاطعة حازمة وواضحة ومريرة:

- خالد مثالي

كان قد جلس.. ترك الجواد وعاد لتبغه وصديقته البيضاء الطويلة.. اسطوانية بحزام ذهبي أنيق تترك نفسها ملك شفتيه محترقة بكل طاقتها لأجله!

هذا عشق من نوع مختلف..

جاورته تزيح بأناملها الرفيعة الدخان الخانق وتابع هو بمكنون خرج رغماً عنه:

- ماما رقية لازم تربي شخصية مثالية.. شخصية مش شبهي

لم تلحظ عيناه حين ضاقتا بذكرى تعثره من فوق فرسة العم شامل كم كان يناديه, صرخت أمه وضحك أخوه الأصغر أم هو فأخبرها بنبرة خشنة من بين أسنانه الغير متناسقة:

"قولتلك يا سهام ده فاشل!"

قاطعت أفكاره بعفوية:

- خالد مش مثالي على فكرة

ولم يستدر.. اختار لفافة آخرى ونفخها باحتراق ساخر:

- المثالية لايقة عليه

- هو مش بيكرهك يا محمود

ونالت استدارة.. لا هي نالت جحيم.. استعار ولفافة تبغ مهروسة وأنامل طوقت ذراعها رغماً عنه:

- بلاش تاخدي دور حمامة السلام يا تميمة

تخضبت وجنتيها بحمرة منفعلة:

- محمود!

والتنبيه أنه تجاوز.. اقترب وقرر وسن حدود لا يجب له تخطيها, ولكنه لم يتزحزح:

- بلاش تدخلي خالد ما بينا

وتحجر عيناه بات صريحاً.. واضحاً ولا يُفاوض ورغماً عنها ابتعدت وأنوثتها تتشبث بالبداية

"عايز أتكلم معاكي"

وتمردها سن قانون مضاد, ولم يدرك أن أنامله قاسية إلا حينما خلصت ذراعها منه بعنف.. ولكن القول كان هو الأعنف:

- مفيش حاجة بينا علشان خالد يدخل فيها

كان مخطئاً.. هي ليست حمامة سلام

هي غبية إنفعالية سريعة الغضب منفجرة مثله تماماً, وهذا ما يروقه.. تلك العلاقة تفاصيلها كارثة!

****

قُلْ لي – ولو كذباً – كلاماً ناعماً

قد كادً يقتُلُني بك التمثالُ

مازلتِ في فن المحبة .. طفلةً

بيني وبينك أبحر وجبالُ

لم تستطيعي ، بَعْدُ ، أن تَتَفهَّمي

أن الرجال جميعهم أطفالُ

إنِّي لأرفضُ أن أكونَ مهرجاً

قزماً .. على كلماته يحتالُ

فإذا وقفت أمام حسنك صامتاً

فالصمتُ في حرَم الجمال جمالُ

كَلِماتُنا في الحُبِّ .. تقتلُ حُبَّنَا

..إن الحروف تموت حين تقال

قصص الهوى قد أفسدتك .. فكلها

غيبوبةُ .. وخُرافةٌ .. وخَيَالُ

الحب ليس روايةً شرقيةً

بختامها يتزوَّجُ الأبطالُ

لكنه الإبحار دون سفينةٍ

وشعورنا ان الوصول محال

- صوتك غريب!

كانت تقولها بعفوية هادئة.. تلصق بأذنها اليُمنى الهاتف وتترك عينيها فريسة للظلام, لم تغادر المنزل منذ الصباح.. سافرت رؤى سفرة سياحية مخططة مع عائلتها وخالد غائب بقرار

عقابي ودونهم ببساطة هي وحدها.. ويبدو أنها قالتها,
خرجت من بين شفتيها وسط الحروف

- مالكيش صحاب يا ندى؟

تجاهل تلميحها بشأن صوته وبالأحرى تجاهل نفسه.. هو معها
ينسى مصطفى, يغوص في تفاصيلها الصغيرة فيترك لها نفسه
والخلاصة أنه غارق.

هو غارق حتى النخاع في عشق طفلة

- رؤى وخال...

ولم تكتمل فصوته بات قسوة قاطعتها:

- ومين كمان

- مفيش!

كان ردّها يحوي براءة.. صريحة هي لا تُخفي شيء وأكملت تضيف وتزيد وهو يستمع.. لكل حرف يستمع, لكل همسة ونبرة وتذمر وحتى الشرود

هل سترفض أنثى رجلٌ يُنصت..

- أنا طولت عليك

وكررتها باعتذار, يخيل إليه أنها كررتها في المحادثة أكثر من مائة مرة.. تلك الصغيرة تستحق وضوح:

- مش جايز أنا عايزك تطولي..

- بس..

- متخافيش

ولم تدرك أنه قالها بلهفة, هو لم يقصد إخافتها.. هو لا يريدها أن تهرب

تابع بنبرة مُتعَبة:

- جايز أنا مجهد ومحتاج أسمع حاجة مختلفة

سألته ببراءة:

- مجهد من الشغل؟

وضحكة ساكنة مريرة مرت بصدره دون أن تصل لشفتيه:

- مجهد من الدنيا يا ندى

- أقولك على حاجة

ولأول مرة تلاحق كلماته, يتخلل صوتها حماس دون تردد.. تابعت بذات النبرة المكترثة:

- جرب ماتفكرش

ضم حاجبيه في اهتمام:

- مافكرش؟!

- اه.. سيب نفسك للتيار.. للدنيا مش جايز ده الحل

غبية!

وعقله يرددها وهي تُكمل دون أن تعي نيرانه:

- أنا كمان حاعمل كده.. حاسيب نفسي للتيار

- تيار إيه يا ندى؟

وجدية نبرته أخافتها.. بل أرعبتها فبدت وكأنها تعود بأفكارها للوراء:

- مش عارفة

وكانت مرتعشة.. تمر بأناملها بين شفتيها وتودّ ان تهرب من اللحظة ومن جوابه, زفر بعمق أسقط رأسه على حافة المقعد وعيناه مغمضتان في رفض:

- تصبحي على خير يا ندى

وأغلق مع صوتها الرقيق في لحظة ما قبل البكاء

- وإنت من أهله

هي ستبكي وهي قذف الهاتف.. مرر أنامله بعنف في خصلاته وأغمض عينيه في لتندلع في ظلامهما حرب.

تلك الفتاة لا تدرك تأثيرها على عالمه فهي دون أن تقصد اصابته بارتجاج..

ندى أنت لن تتركين نفسك للتيار فإن ترك لنفسه العنان سيكون تسونامي!

****

أحلام!

هل دللتها أمنيات أحلامها من قبل باقتران اسمها بباقة ورد.. والورد في عرف المرأة يحمل عبق جاذبية مفقودة, جاذبية لا يراها سوى رجل واحد.. غامض.. وسيم.. مكترث بعبارات غزل لم تتكرر على مسامعها من قبل.

تلك ليست أمنيات الحلم..

بل أضغاثه

وبمصادفة ساخرة كانت ترتشف الشاي بالحليب.. تكور بين أناملها ورقة مُجعدَّة وترمق باقة الورود الملونة بفزع, الذوق لم يكن يحمل سحر خاص ولكن الكلمات أيقظت بقلبها نواقيس الخوف.

"أنت قاسية مثل عويناتك فعيناك منذ اللحظة ملكي!"

هي ليست فتاة باحثة عن الحب بين سطور قصة ولم تشغل بالها قبلاً بتفاصيله..

هي عادية!

ولا تبتغي أكثر من ذاك الإعتياد

- أحلام..

وقطع صوت مديرها مرحلة الحلم أو حتى التيه فيما نبشه الواقع



أحلام!

بجدية معتادة سحبت كل ما أمامها من أوراق, عدّلت عويناتها وهندمت قميصها العلوي وتحركت بخطوات هادئة نحو مكتب رئيسها لتفعل الشيء الوحيد الذي تجيده.. أما الورقة المُجعدّة فكان نصيبها تخبط بين أركان سلة المهملات, تخبط راقبته عيناه التي توحشت بنظرة فقدت تلك المرة الابتسامة والتعقيب أن تلك العنيدة ستأخذ منه بعض الوقت!

الفصل الثالث عشر

أنت ستظل دون أهمية في هذا الكون حتى تعطيك الخديعة دور البطولة!

أمانة عليك يا ليل طول وهات العمر من الأول

الهدوء في منزلها يبدأ من التاسعة مساءً, عادة ما يكون أخوتها الصغار قد دلفوا للفراش بعد معركة مكررة وأنهت أمها جلي جميع الصحون لينال المطبخ رفاهية المنزل من الهدوء ثم تجلس صبوحة الوجه كما كان أبيها يدللها دوماً فوق ماكينة الخياطة مُنهية ثوب جارة أو قميص ابن آخرى, وتعاركت معها أحلام مراراً والكلمة تحمل سخرية فيلم عربي قديم كهذا الذي يشاهدوه

" ماما أنا متكفلة بكل المصاريف"

والردّ ابتسامة صافية تعلم أنها لا تستطيع أن تُقدم المزيد وشرود مرة آخرى مع اللحن القديم وكوب القرفة باللبن اللذي أعدته لكلتاهما خاصة أن الشتاء بات على الأبواب والتدثر بشال صوفي ثقيل أصبح عادتها الصباحية في الأسبوع الأخير.. فعربة الأجرة تأكل الطريق وكأنه جري الوحوش والأغاني الهادئة من زمن ولّى غابت وبات مكانها تيمة شعبية مكررة وسائق يرقص إن أراد ولن يجادله أحد.

نظرت نظرة مُطَوَّلة لباقة الزهور هذا الصباح قبل أن تأخذها وتضعها جوار قدميها خلف المكتب, أسبوع مر وهو لا يكِّل ولا يمّل.. يضع باقته يومياً بهذا التوقيت وكأنه يعرف موعد وصولها ليسبقها بخطوة, عيناها تتجول في الفراغ حولها من خلف عويناتها الضخمة علّها تلمح منه ظل أو إشارة ولكن لا شيء

هو كما الفراغ حولها تماماً.. موجود وغير موجود

زفرت تلك المرة بضيق جعلها ترمي الباقة حتى دون أن تنظر لمحتوى الخطاب بين طياتها, هي فتاة روتينية حد الملل, وقنوعة جداً بهذا الاعتياد.. فرفاهية المشاعر لم تُكتب لجميع النساء.

ابتسامة جادة مرت فوق طرف شفتيها وأنامل قررت أن تتجاهل هذا الحلم الذي أرقها على مدار أسبوع كامل

ورد وكلمات وعاشق!

حتى أكثر الروايات الرومانسية حماقة لن تسرد تلك حبكة, هي ستتشبث بكوب الشاي بالحليب الدافيء وشريحة جبن رومي معتق من بقالة عم مرسي

دعي الزهور للمدللات يا أحلام..

وتوسعت الابتسامة تلك المرة بصبغة رضا, وذاب مذاق الجبن اللاذع مع لهيب الحليب الممتزج بالشاي الثقيل وتركت عيناها ملك عناوين الأخبار بجريدة واقعية تلائم فتات الحياة

حتى نقرات الباب واقعية مكررة وغالباً هو أحد السائقين يُسلِّمِ أوراق ما

يوم عادي

صباح بسيط

وباقة مُلقاة

وشفتيه انحنت بتعبير غاضب قبل أن ترمق عيناه باقته الثمينة بتنمر عاد به نحوها ليمضغ بقاياه بين حروفه:

- مفتحتيش الجواب ليه!

****

الدكتور فارس

لو أقسم لها نصف سكان الأرض قبل تلك اللحظة بيوم واحد أن معجبها الغامض سيكون هذا الرجل لقالت أن نصف الأرض كاذب.

طبيب شاب التحق بالعمل بالمزرعة منذ عامٍ واحد,
لم تصطدم عيناها به طوال الأشهر الماضية ومنذ وقَّع المهندس خالد قرار تعيينه سوى مرات معدودة.. هو يحضر لتوقيع أوراق أو لمقابلة ما بشأن أمر بيطري هام يخص الخيول ويرحل..
حتى أن مديرها لا يوكله مهام الخيل كثيراً فعمله الدائم يكون في الطرف الآخر من المرزعة حيث تنحصر مسؤوليته بمزرعة المواشي.

فارس الوسيم بصبغة قاسية بداية من بشرته المائلة للشحوب مع عينين رماديتين بتفاوت أزرق فاتح لهما نظرة حادة لا تنكر أنها ترهبها حتى تلك المرة حين اصطدم بها عن غير قصد وحين تحفزت حواسها كأنثى في دفاع غريزي يبيح اللوم والإعتراض لأي تلامس ولو غير مقصود لم تفعل شيء. تجمدت نبرتها مع تجاهله لها وكأنها شبح

أنثى غير مرئية له تماماً

والآن هذا الفارس عاشق!

حيرة عينيها التقطها هو بمهارة فتخطاها بثقة ليتوجه نحو باقته الممددة بإهمال على الأرض الخشبية القاسية قبل أن يسحب خطابه بزهو ماكر:

- عمرك ما حتعرفي اللي فيه أبداً

ثم عاد نحوها من جديد ليبيح لنفسه القرب تلك المرة على غفلة من تحفزها:

- إلا لو قبلتي دعوتي

والنبرة تلك المرة تهمس بحرارة قُرب أذنيها, تشبه غزل فاحش خطه هو بين باقته بالأمس فقط أراد فيه أن يختبر فيه مذاق شفتيها وبدفاع أنثوي حضر تلك المرة قطبت حاجبيها لتبتعد والصوت يدافع ويقوض ما لا يجب الخوض فيه:

- اطلع برة

ورغم هذا كانت مرتجفة.. حتى النبرة خانتها فخرجت مرتعشة ضعيفة جوار ثقته, ثقة أباحت له أن يحاصرها فعلياً بين ذراعيه وكأنه يروض الحائط خلفها فباتا حليفين ضد الفِرار.

- مش حاخرج إلا لما توافقي

همسته تلك المرة خرجت ناعمة, فحيح مطلوب.. فبقدر الإهتمام يجب أن تمرر الخوف وإلا لن تنال حنكتك فريسة ومنذ شهر واحد فقط أحلام كانت فريسة صعبة.. خيار بعيد المنال لأنثى خارج معادلات الغزل فالوجه لا يبيح استدارة والعينان تتجنبان ملاقاة ذكر أما الملابس فاحتشامها يكاد يخنق العنق تحت قميص رسمي الأزرار وتنورة انتهت حقبة ارتدائها منذ عشر سنوات.

ولكن.. كل هذا تبخر حينما رأى ابتسامتها الخجلة مع اهتمام حمزة, أو كما قالت أحلام مستغماني في كتبها التي لا يصبر على حروفها رجل

اهتمام جوار احتواء و....

توسعت شفتيه بابتسامة شيطانية بعد الهمس:

- على فكرة أنا ممكن أفضل كده طول العمر

والعبارة تلك المرة وازت نظرة واضحة نحو شفتيها, والمقصد خبيث الفهم مذبب والنتيجة بكل معطيا تها الغامضة تدور في حلقة مبهمة أفند هو تفاصيل حوافها بنعومة ساحقة!

ورحل..

ولكن ليس كما جاء

فالروتين اختلف...

****

أسبوع مر.. ولم تمرر له أكثر من نصف جملة, صباح الخير وكلٌ في ليلاه.. وبمنطق أنثى هي تُعاقب.

ألم يتجرأ ويصرح لها أن ما بينهما اهتمام! بل بات يُملي شروطه كذكر له حق الطاعة من أنثاه

"بلاش تدخلي خالد ما بينا"

اللعنة هي قررت أن تطيع, صرخت بوجهه متبجحة أنه لا شيء بينهما وداخلها ينبض ويبرر.. بل أنها ردّت السلام بجفاء منذ يومان على رقية وكأنه أصبح خطها الأحمر الذي يجب ألا يمسه أحد!

سحبت كوب قهوتها الصباحية لتتمتم حانقة وهي تراقب آخر صورة وضعها بزهو بحسابه الشخصي وبين شفتيه لفافلة تبغه:

- جننتني يا ابن حسن

- بتقولي حاجة يا تميمة؟!

تجمد حلقها مع رشفة قهوة لم تبتلعها بعد حينما أدركت أن الهمس الحانق قد مر بأُذُن أمها.. رفرفت أهدابها أربع مرات قبل أن تصل لحبكة ضرورية للكذبة:

- أبداً خالد مجنني مش فاهم المحاضرات اللي صورتهاله

ابتسمت إيناس بحنكة قبل أن تزيد السؤال بآخر وعيناها تتطلع إلى النافذة:

- هو بيكلمك دلوقتي

- اه

ونبرة "اه" عالية ولو وضعوها بين نبضتي اختبار بوليجراف لصرخت المنحنيات "كاذبة",

ابتسامة آخرى أكثر اتساعاً خرجت من شفتي إيناس وعيناها ما زالت متعلقة بالنافذة حتى اضطرت تميمة للنظر والنظرة وازت نبرة أمها المتهكمة وعن قصد:

- عبقري خالد بيكلمك وهو بيكلم باباه في نفس الوقت والغريب أنه حتى الموبايل مش في إيده.. عملها إزاي دي

ووقتما استدارت لها تستلذ بالمواجهة كانت قد اختفت

تميمة تهرب من مواجهة

تميمة تتمتم بشأنه

تميمة فقدت عقلها تماماً

وقذفت بحقيبتها داخل السيارة قبل أن تقذف بجسدها نفسه, والملامح كعبوس طفلة ظبطها أمها متلبسة بحروف ابن حسن!

و...

- صباح الخير

- صباح النور

تيمة صباحية اتخذت وضعها بينهما بجدارة, هي تتجاهل وهو لا يدلل.. عيناه تراقبها جوار عشق من حين لآخر ولكن بين الحين والحين مسافات.. فالباشا!

وجزَّت على نواجذها وهي تكررها ل "ليلى" في الهاتف

- مشغول

وليلى لم تكن على علم بانحناء شفتي التميمة المغتاظ وقت المحادثة ولا بعيناها التي تابعته بسخط وهو يساعد صاحبة المؤخرة السمينة في امتطاء الفرس ويبتسم ويدلل ويربت فوق الظهر باهتمام احترافي كاذب وزادت وفي الصوت لذوعة نهايتها ستكون قتله:

- تعبان والله بالراحة عليه شوية يا بوص حيدرب مين ولا مين.. صحته

و "صحته" خرجت عالية حتى أن عشق استدار نحوها وكأن جوادها البري نفسه بدأ يسخر.. رفعت ليلى حاجبها الأيسر بتفكر قبل أن تنهي المحادثة وعقلها يدور في فلك آخر:

- طيب تميمة لما يخلص شغله قوليله أني عايزاه

وأغلقت الهاتف وزفرتها غاضبة أكثر, الآن عليها أن تُحادثه وبفضل ليلى تفتح حوار.

ثم ضاقت عينيها بمكر أنثى وهي تقرر أن تتخذ النهج الذي يناسبها وهمستها لنفسها أهدتها لحناً مُريحاً:

- وليه آخر اليوم.. خير البر عاجله

وتوجهت نحوه ونحو شبيهة كيم..

....

كانت الفتاة تحاول أن توازن جسدها فوق فرس, ممازحته تودّ أن تتخذ سلوكاً عابثاً فصرَّح أن الجسد لا يصلح لامتطاء

الخيول وحين اصطنعت الفتاة الغضب مع لمحة مكر في نبرتها:

- يا سلام.. طيب ينفع لإيه

وحينها كان قد ساعدها على الترجل من الفرسة الناعمة وأطال اللمسة والتربيتة قبل أن يمرر بين شفتيه سيجارته:

- الرقص مثلاً

وتوردت الدُجنة في كذب أُنثوي محترف, سيرفع القبعة فمثيلاتها لا يجدن هذا تورُّد:

- عرفت منين؟

- لا أنا لسّه عايز أعرف

والضحكة عالية.. ضحكة أنثى كما يصور التلفاز تماماً.. ضحكة تجعل ضحكتها هي تبدو مثل الأطفال بل مثل لانا

التي تقف على جانب المضمار وتزجر محمود بطرف عينيها وكأن نهايته اقتربت.

وهي اقتربت.. بابتسامة صفراء واسعة وخصلاتها معقوصة في جديلة على جانب كتفها الأيمن.. الطقس كان قد بدأ يميل للبرودة وعلى ما يبدو جسدها الضعيف لا يحتمل فوضعت فوق قميصها سترة رمادية خفيفة وعلقت حقيبتها استعداداً للرحيل وبعد تفحص عيناه كان هو الباديء:

- مروحة بدري ليه؟

تجاهلت سؤاله بعد أن أعطت رفيقته نظرة تقييمية تبعتها بحديث رغم أنه موجه إليه إلا أنها لم تترك رفيقته ولا النظرة:

- ليلى عايزاك في مكتبها دلوقتي

ثم توسعت ابتسامتها الصفراء بشراسة:

- ممكن أكمل التدريب مكانك عادي

وعن نظرة عينيها في تلك اللحظة، يودّ أن يدونها في تاريخه معها.. خليقته المتلاعبة تود أن تترك لها العنان فعلى الأرجح هي ستضع الفتاة فوق حصان بوضع مقلوب وتطلقها في طريق اللاعودة. ولكن بفكر ذكوري خالص يستحق السيطرة هذا الجسد.. "خسارة"

قبل أن يتخذ قراره بمنع الكارثة تجاوبت الفتاة بتحفز أنثى قررت أن تجاري اللعبة:

- سوري بس محدش بيعرف يدربني غير محموووود

ومحموووود اتخذت بيه شفتيها وضعاً كارثياً، خليط من تعبير ال

duck mouth

كما يطلقون عليه مع نبرة مغناج تبيح كل محظور ممكن والتتمة كما قالتها ممثلة شهيرة

"شفايفها واخدة وضع البوس"

وهي أنثى لا تتغنج وفي عرفه لا تحتاج، كتفت ذراعيها بسخرية لتخرج نبرتها ساخرة لا تنبيء خيراً

- ومحموووووود بيعمل ايه أنا مبعرفش أعمله

- لا كتير

والهمسة لم تكن من الفتاة ولم يسمعها غيرها منه حين استحوذ على ذراعها ليتحرك بها بتملك مبتعداً عن الثانية وعيناه تناقض الوضع الساخر لتنبضان بجدية:

- وصليني في سكتك ل ليلى

وهي غاضبة.. بل منفجرة وسطور التفسير تحمل ضعف أنثى تغار وهذا نفسه يستدعي الغضب.. بل الهروب.

رفعت عيناها نحوه بعد أن خلصت ذراعها من قيده بعنف لتواجهه بمعاندة:

- وصل نفسك أنا مش فاضية

كانت لفافة تبغه قد احترقت لمنتصفها، هرس المتبقي منها تحت قدميه وعيناه مسلطتان عليها ثم أكل الخطوة الباقية بينهما بثبات:

- إنت زعلانة بقه

الآن يواجه.. يفند ما يريده بوضوح ويطلب منها ببساطة أن تُقَّر بتأثيره

لم تتزحزح من مكانها.. بل وازت نظرته بآخرى متحدية:

- وحازعل من إيه

- يعني مفيش حاجة تزعل؟

- لا

- متأكدة

- أيوة متأكدة

- براحتك!

هكذا.. بدأ حوار وانتهى وتركها ليستدير عائداً لموقعه، الصدمة لجمتها فخرج سؤالها غبياً:

- رايح فين

وجوابه هو كان لامكترثاً.. حتى الإستدارة غير متاحة:

- حروح ل ليلى بعد ما أخلص شغلي

وببساطة عاد لصاحبة الغنج، خطواته تبتعد وشفتيه تنتهجان سخرية جديدة من نوعها.. نصفها مكر وتفاصيلها الثقة فقريباً سيكون إنفجارها كارثي مثير وحينها سيحين دوره!

****

ما يحدث لم يكن له علاقة بأي من أنوع الفن

أفضل توصيف ممكن

اغتصاب لوحة!

كانت تنثر ألوانها بحماقة تشبهه, نعم هو يشبه تلك اللوحة بكل ألوانها الغبية وحتى لفافة تبغه المحترقة دوماً تشبه تلك النثرات الرمادية تحت الوهج الأصفر

غبي.. أحمق.. متذاكي.. مستفز

وكانت أفكارها تضغط على كل حرف, تتذكر انشغاله بتلك الصناعية ذات الأرداف.. بل أنه تجرأ و..

أغمضت عينيها في غيظ لا تود أن تتذكر المشهد وعادت لتلوث لوحة بيضاء لم تعد تمت للفن بصلة, ومع كل كشطة تقسم أنها ليست غاضبة!

- تميمة!

استدارت وقد أفزعها صوت أمها الذي ظهر من العدم, هي غارقة في الغضب من محمود ومناوشة محمود وابتسامة محمود والملتصقة بمحمود!

نظرت إيناس للوحة بتوجس ثم ابتسمت لابنتها بهدوء غامض:

- أول مرة أعرف إنك بترسمي

رفعت تميمة كتفيها لتنطق بلامبالاة كي تكتم توترها:

- هواية

ثم عادت بنظرها للوحة, تلك ليس هواية.. تلك جريمة يعاقب عليها القانون, عادت إيناس لتفحص اللوحة من جديد ثم كتمت ابتسامتها وهي تشير للفوضى:

- هواية!

حينها حركت تميمة رأسها لتتنهد بيأس:

- معاك حق

ثم جذبت سترتها لتهرب من عيني أمها التي على ما يبدو تفهم وشفتيها تترجمان تمتمة سريعة لوسيلة هروب ابنة أبيها

- حاجري

وتلك المرة كانت مصرة على امتطاء عشق!

والعشق ليس مناورة أو معركة تستدعي الفوز.. العشق علاقة طرفها اثنان, بدايتها همس وأوسطها صمت

وثالثهما عشق

وفي منتصف المضمار كان هناك, صهيله يكاد يكون حمحمة هادئة وحوافره تضرب الأرض بتشتت.. هو تائه وهي تعلم

والحيرة هنا تتملك منها عن أي مسلك تتخذ

رضوخ أم قُبول

والفرق في المعنى شاسع ويتوسطهما القرار, ألا يستحق عشق رفاهية القرار.. ألا تستحق روحه مساحة الموقف.

اقترب منه وعيناها تتأمل دكنته, تحت ضوء الشمس كان يلمع كـ ليل رافض للضياء.. عيناه كانتا تحتل الأرض بنظرة استكانة ولم يكن هذا ما تبحث عنه.. كانت تعلم بأن مجرد اقتراب قدميها منه سيثور

سيرفض وقد تعود أسابيع إلى الوراء.. أسابيع باتت هي فيهم نصفه الآخر بالمزرعة, هذا المكان الغريب الذي ألقوه بين حواجزه دون حرية.. اقتربت بأناملها من عنقه تهديه تربيتتها المعتادة, تُدلك جسده بحركة منظمة وتبتسم له مع وشوشة هادئة. هو يحفظ نبرتها.. ينتبه لها الآن بمجرد أن تدخل الأسطبل.

والزفرة هنا كانت لها.. تستدعي الثقة لتقترب بشكل مختلف

الآن حان وقت الإمتطاء يا عشق

بخطوات بطيئة توجهت لجانبه الأيمن.. وضعت قدمها على الركاب لتصعد نصف صعود فقط ثم تعود مجدداً للنزول,

فعلتها حوالي خمس مرات وفي كل مرة كانت تزيد زمن صعودها حوالي عشر ثوانٍ ولكن دون أن تمتطيه بشكل كامل. تربيتاتها المتوالية فوق ظهره وعنقه لم تتوقف وفي النهاية بدت لمراقبيها أنها تمرر إليه شعور خاص بالطمأنة.

هي تفهمه

هي تعلم أن ما به ليس مجرد رفض

عشق خائف

في المرة السادسة أنهت امتطائها له بشكل كامل, قدمها اليسرى كانت مستقرة فوق الركاب وقدمها اليمنى تتأرجح.. بعدها بفترة ليست طويلة مالت بجسدها تماماً فوقه لتتشكل منحنياتها بما يناسب انحناءاته, خصلاتها كانت منسدلة جوار عنقه وعيناها أغمضتها في سلام نفسي خطير

تميمة لا تروض

تميمة تعطي ثقتها كاملة لعشق

شفتيها كانتا قريبتين من أذنيه ولكنها لم تهمس بشيء في الحين, فقط أهدته أنفاسها الهادئة ثم مدّت ذراعيها لتحيط عنقه برقة أشبه بنصف عناق..

كان هو ثابتاً مكانه.. زمجرته غير حاضرة ولكن الحمحمة أيضاً لم تكن موجودة, هو هناك تحت سيطرتها بين نعم ولا والمجازفة منها لا مفر.

حركت ذراعها الأيمن وبدأت في توجيهه تارة نحو اليمين وتارة آخرى نحو اليسار مع جذب اللجام برقة وعيناه تتبعانها

عيناه ثم عنقه حتى قدميه وجسده ككل, بدا وكأنه يتحرك ببطء مع معزوفة تُقرَّها هي باحتراف أنيق لتهمس هي بعدها بشكل واضح قبل أن تتخذ فوق صهوته وضعاً احترافياً

"جه الوقت"

حين اتخذت أول شهيق تبعه زفير وتركت لركلتها الأولى الحضور لم يفعل شيء.. الركلة إما سيطرة أو طوفانه

وتشبثت حوافره بالرمال فسيطرتها رضوخ ورفضها الفطرة

ركلة ثانية ونالت منه ما توقعت

كانت أول زمجرة قاسية ومنذ وقت, حينها جذبت اللجام بقسوة موازية لتميل مرة آخرى جوار أذنيه مع تأنيب عالي النبرة

بين الرضوخ والقبول شعرة

وهي تحتاج الاثنان!

هي تريد أن تركض وهو سيركض لأنه اشتاق الركض, خياره سيكون ما بين التمسك بسجّيِته أو السباحة معها في نفس التيار.. ولأن سباحة الصحراء قاسية وأمواجها رمال فهي تحتاج جوار رضوخه إرادة

قرار

وبدأت تجذب لجامها بقوة أكثر..

ثم لين

ثم قوة

ثم لين

ثم شدة

فالعشق ليس مجرد طلب وقبول

هناك لحظات تستدعي السيطرة

وعلى بعد أمتار كانت لفافة تبغه تتراقص صعوداً وهبوطاً بين شفتيه, عيناه ضاقتا بتعبير غامض وهو يراقب صهيل الجواد الأخير

خبرته أيقنت أنه الصهيل الأخير إما سيرفضها ويوقعها تحت حوافره أو سيرضخ..

ومالت حينها هي مرةً أخيرة وملعون هو حتى يعرف ما أخبرته

رَكَض..

ركض الوحشي تحت سيطرتها متخطياً الحواجز ليمتلك كلاهما الصحراء معاً

وتوسعت ابتسامته لتسقط اللفافة مع فوضى خصلاتها الجامحة فوق عاصفة جواد

لقد روضته..

****

العشق بإيجاز دون استفاضة!

نسمة باردة مرت فوق صفحة وجهها ببطء, زفرتها رغماً عنها رسمت أمام أناملها سقيع وحينها تناست ببراءة طفلة كل شيء وظلت تعبث بكتلة هواءها الباردة.. حين فاجآتها تميمة بدعوة غامضة لحضور حفلة فتيات كما أطلقت عليها لم يتمكن منها التعجب كثيراً

ندى ربما تكون بريئة ساذجة ولكن ليس لتلك الدرجة

من داخلها كانت تعلم أن لخالد يد بالأمر ولكن كما العادة كبرياءه منعه من أن يُحادثها بنفسه, وفي النهاية بين حيرة وقرار عزمت أمرها لأبسط سبب ممكن..

أنها قد تمطر..

ورغم أنها حتى وصلت المزرعة لم تنل رفاهية الزخَّات إلا أن البرودة أنعشت وجنتيها فنالتا إنعكاس وردي هاديء لا ينكر أنه شكله بدا لذيذاً مع امتلاءهما.. لأول مرة يتأمل ملامحها بتلك الصورة

وبالأخص وجنتيها القابلتين في تلك اللحظة للأكل!

حين تدثرت بسترتها الثقيلة نوعاً ما وخطت خطوة أقرب لمنزل تميمة وجدته أمامها بعد أن أخيراً قرر الظهور, ورغم هالة الثقة التي أحاطت نفسها بها طوال الطريق مع عبارات مثل

"متزعقليش"

"متكلمنيش كده"

"أنا حرة!"

إلا أنه كان خيال التمرد لم يكتمل.. طار مع خصلاتها الأمامية التي عبثت بها الرياح فما كان منها إلا أن حاولت الهروب, بقدميها الصغيرتين وخطواتها البسيطة حاولت أن تتخطاه والخطوتين منها خطوة منها فتوقف كل شيء بإزاحة بسيطة من قدمه.. هكذا ببساطة يعترض طريقها ويقرر أن يُشاكس بعد أن ملّ الهجر.

رفعت ذقنها في شموخ كاذب لتبدأ هي الحديث في سابقة رغم عنتريتها كانت مرتجفة:

- على فكرة.. أنا عارفة إنه إنت اللي كلمت تميمة

كتم ابتسامته ثم وجه قدميه نحو حاجز حجري صلب ليجلس مرتكزاً برسغيه فوق ساقيه وعيناه عابثة ولكن ليس نحوها بل نحو الأرض!

تابعت والنبرة تلك المرة وازاها الغضب:

- عنئذنك

حينها رفع عيناه نحوها بشكل حاد

- أقعدي

كانت نبرته آمرة.. هي عادة خالد ولا اختلاف, أشاحت وجهها في رفض فزاد هو من حدة النبرة:

- حتستهبلي

وحينها استدارت في معاندة تاريخية:

- براحتي

ولم تصدق حالها حين ابتسم.. هو ببساطة ابتسم وتخلص من وجه الأخ السخيف الذي يمارسه معها ليسترخي بعضلات عنقه إلى الوراء وتخرج نبرته تلك المرة أجشة من بين أنفاسه:

- طيب اقعدي

وقطع التردد بحزم لطيف:

- اقعدي بقة متعمليش فيها مريم فخر الدين

أشاحت وجهها تلك المرة كل لا يلمح ابتسامتها ولكنها جلست, وازته لتبدو ساقيها قصيريتني جواره خاصة مع التنورة الرمادية التي كانت ترتديها.. رفع حاجبه الأيمن باستغراب جاد قبل أن يتأمل تنورتها بمكر:

- بس حلو الجيب يا مريم

ثم كتم ابتسامته بمشاكسة:

- قصدي يا ندى

مر بعدها وقت قرابة الخمس دقائق لم يقل شيئاً, فقط أبقاها محتجزة بجانبه وبعدها لا شيء..

لا حديث

لا حوار

ولا ملامة!

ولأنها ندى قاطعته, هي لا تطيق صبراً وبشكل لا يفهمه تحاول أن تكسر حاجز الرهبة معه.. وهذا يعجبه!

- خالد أنت عايز إيه

- ندى إنت غبية

وحاجز صمت آخر, وليتها ما سألت وليته ما انفعل.. عيناها اغرورقت رغماً عنها ببداية عبرة ولاحظها وجيد أنه فعل

وربما جيد أنه ندم..

أوقف حركة هروبها بذراع واحدة ليعيدها جالسة إلى جواره بقسوة قبل أن تلين نبرته بانفعال مضاد:

- أصعب حاجة في الدنيا إن الواحد يواجه نفسه بحاجة مش فاهمها

كان شارداً وكأنه لا يحادثها ثم استدار نحوها فجأة والنبرة على نفس الوتيرة:

- اللخبطة يا ندى.. عارفة اللخبطة

كانت عيناها ما زالتا ملك العبرة فلم يسعفها صوتها بردّ, كل ما ناله إيماءة ونظرة تتحاشاه ولا تفهمه

تابع بانفعال عالم رياضيات فذ يودّ أن يوصل فكرته لنفسه قبل تلاميذه:

- زي المسقعة يا ندى.. المسقعة فاهمة!

- المسقعة!

ونبرتها تردد ما يقوله بتيه, هو قرر ألا يعاقب.. انتقامه أن يصيبها بالجنون

قبل أن تفكر مرة آخرى جذب يدها على حين غرة وهي تلعثمت من الصدمة ولكنه لم يسمح لها بابتعاد, مرر سبابته فوق خطوط كفها ثم قال بنبرة بطيئة:

- عارفة إيه هو الحب؟!

حارت عيناها أكثر, أي لُعبة يمارسها مع تلك المرة.. معه الغرق سيكون دون فرصة.

شفتيه انثنتا بمكر قبل أن يلون نبرته بحزم:

- غمضي عينك

رد فعلها في تلك اللحظة كان محاولة يائسة لسحب كفها من تملكه.. ولكنه لم يعطيها تلك الرفاهية.. قبض فوق أناملها بقسوة منعتها من الهروب قبل أن يكرر أمره بثبات أكثر حدة:

- ندى غمضي عينيك

وفعلت..

زفرت واحتارت وارتبكت واستسلمت مغمضة علها تهرب.. علها تخفي ما قد تفضحه عيناها.. مع ارتجافها البيِّن تشبثت بسخرية لم تنتهجها معه يوماً:

- إيه علاقة الحب بخطوط الكف؟

ولم يجبها على الفور, كعادته حين يريد أن يعبث بأعصابها يجيد.. ووقتما كافئها بالحديث كانت نبرته الهمس

همس مقصده ماكر بل ماكر جداً:

- ملوش علاقة!

وإنفعالها ذاك الحين غاردته الكلمات, هي فغرت فاهها في يأس غاضب ووقتها مالت شفتيه في مشاكسة ليترك كفَّها ويستقيم راحلاً!

حتى النبرة الدافئة قالها وهو يبتعد:

- الحب هو إحساسك يا ندى.. إحساسك

وغضبت

وغضبها يبيح زعقتها باسمه.. العبرة التي عاودت الظهور والخيبة التي ارتسمت على ملامحها وكأنها في حروف خالد التي لم تنطق سواها كانت تريد أن تصرخ أنها ملَّت

ملَّت المناورات

ملَّت المشاكسة

وملّت الحيرة

وحينها فقط استدار, كان ينتظر اللهفة في حروف اسمه من بين شفتيها ليستدير أو ربما يُصرِّح لها ولحاله

- ندى.. أنا بحبِّك

وصوته يحمل عمق ألف ميل وكتفيه ارتفعتا بحيرة وازت تيه عيناه

حيرة.. صدمة.. خوف!

أمطار وجدت لنفسها طريق في ذات اللحظة

وصرخة..

ليس مجرد صراخ عادي بل هلع

وحروف من صوت تميمة الباكي استحقت بجدارة أن تقطع اللحظة

فـ

مصطفى.. متهم.. بجريمة.. قتل!

الفصل الرابع عشر

الحب سيبقى يا ولدي أحلى الأقدار..

العشق هو اللهفة!

"أنا بحبك يا ندى"

لحظات ينفرج فيها باب الحلم وينساب من تحت قدميك قرار الدخول.. فالتتمة غيمة ممطرة!

والحب في تفاصيله مع كل أنثى حالة

حتى وقع الكلمة حالة

حالة فرح

حالة خوف

حالة صمت

تردد

بوح

أو هروب

وكارثتها أنها هذا كله

كل ما تلا ذلك من حدث مر جوار عقلها كحلم سخيف, حتى اللحظات المسترقة بين عيناها ونظرته مرَّت

مرَّت دون أن تفهمها..

لا لشيء سوى لأن الصورة رغماً عنها تُقحِم آخر...

كانت تميمة تجلس بوجه شاحب متدثرة بشال صوفي خفيف وعيناها متحجرة بدموع لم تخرج, أمها تسحب حقيبتها على عُجالة ليجاورها خالد بالسيارة أما أبيها فهو أول من علم الخبر وانطلق وحيداً ونيته الكتمان حتى يفهم فيُعلمهم..

هي تجلس بشحوب لا يقل عن شحوب تميمة.. تراقب نظرة خالد نحوها قبل أن يأخذ بيد إيناس باهتمام ليُجلسها بالسيارة.. يهمس لتميمة أن كل شيء سيكون بخير ويترك لعيناه نحوها الاستفاضة

ولا يوجد أجمل من استفاضة نظرة

ولا يوجد أقسى من استفاضة نظرة!

فالسيد هُنا كان الموقف..

والبحَّة وصوتها الذي أراد بالآخرى طمأنة وهي مرعوبة.. حتى ليلة أمس كان معها على الهاتف, يهمس بنبرة ثقيلة ويرتشف بين ثنايا الحوار القهوة.. وهي كانت تثرثر بكل شيء ولا شيء

حتى خالد أقحمته بينهما في الثرثرة

وكان هو كما عهدته.. رجل يُنصت

- لا.. مستحيل

ولم تكن تعي أن نبرتها مسموعة.. بل صارخة ومن حظها أن الصراخ لم توقنه تميمة فهي مثلها في عالم آخر..

والدمعة التي تحرجت بمقلتي تميمة لم تدللها هي.. انقلبت في طريق العودة لطوفان, بكاء بات حدَّه نشيج وشهقة

هي لا تبكي

هي في انهيار لأجله..

****

مصطفى عبد الرحمن شاهين

أربع أيام على ذمة التحقيق

انتهي..

الحروف خرجت بسلاسة من لسان محقق شاب صرفه وبدأ بغيره

روتين..

امرأة تخون

امرأة تُقتَل

وحياة تفاصيلها عبث!

الجدران حوله كانت رمادية.. قذرة تفوح منها رائحة تبغ خانق وذَفَر, ساعته الثمينة أيقظت جشع الحارس فضمنت له مبيتاً في غرفة أقل وسخ ولكنه فقد امتياز الوقت.

وحين تفقد أنت الضوء والوقت ستترك العنان لأفكارك وتبيح الظُلمة لنفسها تَمَلُّك الخيال.. ترسم بين ممرات عقلك خرائط وتروض الزمن بقسوتها فيغدو رغماً عنك ويعود, هي ظُلمة تمتلك الشريط كله.

ترك لرأسه حرية الارتطام بالحائط.. ضربة خفيفة لا منها استسلام ولا استفاقة, هو مجرد استناد يائس..

زفرة أولى حملت خيانة امرأة لم تُحاسب

وزفرة ثانية حملت قتل امرأة بات في جعبته دون أن يفعلها

وصوت المحقق الشاب عاد ليقتحم ذاكرته

- إيه علاقتك بمدام رانيا فؤاد

وكان يفرك وقتها جبهته ليُجيب.. الحدث كله ألهب رأسه بصداع قاتل

- علاقة شغل

- وعلاقة الشغل تسمح إنها تبعتلك رسالة خاصة بتطلب فيها إنها تشوفك الساعة اتنين الفجر

وكان الشاب منفعلاً, حتى أنه لم يعطيه فرصة لجواب فبادر بسؤال ثاني:

- كنت فين امبارح من الساعة ثلاثة لخمسة الفجر

ويائس هو في أجوبته وبديهيته استفزت الشاب.. كان بمنزله بالطبع

- في حد كان معاك

- أنا عايش لوحدي

- تقدر تثبت إنك كنت في البيت وقتها

وجبهته الآن تؤلمه حد اللعنات.. هل بمنزله إثبات انصراف وحضور

ولم يثبت شيء

علّه لا يحتاج.. فهو في عبث عقابي ساخر

بين جريمة كان يجب أن يرتكبها فنال تيه وجريمة آخرى لم يفعلها قررت أن تكتب تتمة عبثه بأسوء خلاص.

والبداية والنهاية تبيح بعقله محظور كان يجب أن يحدث

عن تلك الأولى

كان يجب أن يقتلها!

****

- خالد

وبين حروفها استغاثة.. ضم قبضتيه بغضب وعيناه تشيط بملامة نحو الصغير الذي يحمل اسمه لتخرج نبرته مدموجة بزفرة يائسة:

- عرفتي منين

لم تجيبه, هل ستشكل معلومة أن حارس العقار هو من هاتفها فارق! تقدمت نحوه بخطوة واهنة قبل أن تتشبث أناملها بصدره هامسة برجاء:

- أنا عايزة أشوفه يا خالد.. لازم أشوفه

ربَّت فوق كتفها بحنان مطمئناً:

- حاضر.. بس النهاردة صعب بكرة الصبح بدري حتشوفيه

نبرتها هي خرجت متلبسة ببكاء بات على شفير الأنفجار:

- لا أنا لازم أطمن عليه مش حينفع

وباتت تكرر العبارة في هيستيريا غير واعية

- مش حينفع يا خالد.. مش حينفع

أحاط وجهها بكفيه ليوقفها بنبرة هادئة:

- إيناس اهدي أنا مش حسيبه

وارتخى الجفنين ولكن على دمعة.. بكاء حار لم يخرج إلا في حضوره.. عيناه عادت نحو خالد الأصغر من جديد وكأنه يعاتبه "لمَ أحضرتها" ولكنه أيقن أن الشاب لم يكن بيده حيلة.

مقهى قريب حمل لكلاهما تفاصيل كارثية.. محامي يفند أبعاد جريمة وشقراء وُجدَت مذبوحة في مخدعها, وأخيها المشتبه الأول والتفاصيل ما بينهما من علاقة غير مشروعة يعلم المقربين منها بشأنها.. علاقة أباحت لها مراسلته من أجل موعد بعد منتصف الليل لتحتل الصورة مُصادفة قتلها.

ورغم هذا كله أردف المحامي العجوز بحنكة:

- إحنا محتاجين إثبات إنه في البيت فعلاً وقتها.. الخبر الكويس إن مفيش دليل إدانة ليه في مسرح الجريمة يعني لا بصمات وآسف مفيش حاجة أثبتت حصول علاقة في ليلتها لكن الخبر الوحش إن مفيش مشتبه فيه غيره

قاطعه خالد باهتمام:

- مالهاش علاقات تانية

نظرة فاحصة أجاب جوارها المحامي بأسف:

- طليقها مهاجر كندا من سنتين ومالهاش أعداء وعلاقتها الأخيرة كانت بس مع مصطفى

كانت هي جوارهم في عالم آخر.. من هذا الذي يتحدثون عنه, ألتلك الدرجة غاب عنها أخيها أم هي من تجاهلت الكارثة.. اختزلت شفاءه من تلك الأزمة بودّ ظاهري وبحث أحمق له عن عروس, دعوة غذاء في يوم العطلة وسهرة عائلية مع كل مناسبة متاحة.

هي لم تحارب من أجله بما فيه الكفاية.. هي خذلته

والشهقة تلك المرة كانت موجعة.. إنهيار بات على صدره في السيارة ورفض قاطع بالعودة للمنزل

جاور العسل بمقلتيها البكاء والرفض قاطع:

- مش حاروح من غيره يا خالد.. مش حاقدر

ملس على رأسها بتفهم ورافقها كما قررت.. حين خطت نحو منزل أخيها تملك من صدرها الوجع, آخر مرة زارته كان منذ أشهر.. سردت فوق رأسه كم نصائح محفوظة وحروف خائبة عن بداية جديدة وكفى

زواج.. امرأة.. أسرة.. عائلة.. وأم في قبرها سترضى!

وكأن الأمور بتلك البساطة

فوق فراشه مالت برأسها تتأمل اللوحة.. امرأة بنصف علوي عاري جوار نظرة بغرض الفِتنة, لم تكن عذراء خجلة ولا غانية من زمن ولّى.. كانت امرأة خمرية اللون بخصلات سوداء فحمية, نهديها نافران بتملك فاحش للصورة ونظرتها تحمل إغواء كامل.

هي تعرض بضاعتها وتُجيد..

وتملك منها الغضب فصعدت فوق الفراش تبغي نحيها..
ليتها نحَّتها من قبل.. ليتها أجبرته.. صرخت به.. خاصمته
ووضعت حداً لا بعده رجوع

تجمد كلا ذراعيها مع محاصرته, سيطر على أنفاسها ليبعدها
عن الجدار ولكن بهدوء دون أن يفقد هيمنته على جسدها..
كان يحيطها بشكل كامل, ذراعيه تضمانها في احتواء ورأسه
جوار رأسها بينما شفتيه تهمسان بروِّيةِ:

- مش حينفع يا إيناس

استدارت نحوه وعيناها غائبة خلف دموعها, لم تكن تمتلك ما
يُقال.. هي حائرة.. تائهة

هي في دوامة فَقْد غايتها أخيها

أجلسها على الفراش ليُرخي رأسها فوق كتفه ثم تابع بصوت
رخيم:

- القرار ده حيكون بايد مصطفى

ظلت صامتة بعدها لأكثر من خمس دقائق.. أنفاسها باتت أهدأ منتظمة ولكن هو يعلم أن عيناها لن تغفو, بهمس مُتعب من كثرة البكاء تنهدت في ألم:

- أنا سيبته يا خالد.. سيبته في الدوامة.. سيبته يغرق

كان يعلم أنها ستؤنب نفسها.. لأنها هشة القلب ستضع على عاتقها اللوم, زفر وهو يديرها نحوه:

- مصطفى مش صغير يا إيناس

- كان محتاجني أكثر

- كان محتاج ختام

لم تفهمه.. عيناه لحظتها توشحت بدُكنة غامضة, دُكنة لم تلمحها منذ سنوات.. حتى النبرة كانت مُظلمة رغم حكمة الحروف:

- مصطفى في الدوامة دي لأنه مأخدش حقه .. ماعقبش الخاينة ولا داس عليها زي ما داست على رجولته.. وعلشان تبدأ حياة سوية بعد صدمة لازم تكتب كلمة ختام

لازم نهاية للقرف بشكل مُرضي

كانت ترفض.. لا هي لن تقبل ما يقوله خالد.. نفت بملامحها قبل صوتها:

- لا.. يعني إيه.. يعني كان الحل إنه يقتلها ولا يضيعها ويضيع معاها

- وهو كده مش ضايع؟

ونبرة زوجها الآن باتت محتدة.. هي حزينة ولكن هو غاضب.. فرغم كل ما حدث مصطفى لا يستحق تلك نهاية, تابع ونبرته تحكم كلماته:

- الحياة كده يا إيناس يا تاخد حقك بالقوة يا تسامح.. تدور على نقطة بيضاء تبدأ منها ومصطفى تايه يا إيناس وحيفضل تايه لغاية ما يلاقي النقطة دي

وتركت كل شيء لتتشبث بكلمة.. أمل لا يسعها الآن سوى تمنيه, تعلقت أناملها بكفه وعيناها ترجف برجاء:

- حيفضل تايه.. مش دي النهاية يا خالد صح.. مصطفى حيخرج

وبقسوة باطنها الحنو ضمّ رأسها نحوه.. أسند ذقنه فوق خصلاتها ثمّ قبّل رأسها لتقسم عيناه بحمايتها ولو من الوجع:

- حيخرج

****

الأفكار تتوالد مع الظُلمة..

لا بل الكوارث

كانت السيارة تأكل الطريق بسرعة فوق المسموح.. عقله يغلي وهواجسه تدور في فلك مُحرَّم.

قال لها أحبك ونال تيه ثم لهفة

والشيطان لا يعظ.. الشيطان ينفث.

هل كانت اللهفة له أم من أجل غيره, وككيان أنشأته رُقية على مثالية نادرة نال مصطفى منه شفقة.. فأياً كان ما ينتهكه هو لا يليق بخطيئة القتل, وكرجل نعومة عشقه الضوء وقسوة تملكه الدُكنة شعر بسعير يجتاح صدره.

كان يخاف عليها من مصطفى والآن بات يخاف منها أو من ما ينسجه الوسواس في صدره عن مشاعر

العشق هو اتزان اختَّل..

بنايتها مظلمة فالوقت تعدى الواحدة ليلاً وبداية الصقيع أجبرت الجميع على النوم.. حتى الحارس أغلق على نفسه بابه ومن خلفه تسلل الضوء الخافت لتلفاز خفيض الصوت, وبِطَيْش ليس من شيَّمه خطا.. أكل الدرج نحو منزلها و عاصفة هادرة تحتل همسه:

- ندى افتحي

وقتما أضاء هاتفها باسمه آخر ما توقعته أن يكون ببابها في ذاك وقت.. إن لم تكن تلك حقبتها من الجنون فحتماً اقتربت نهاية العالم!

رفعت بصرها نحوه في حيرة من خلف الباب النصف المفتوح وتتمة اللحظة أسوء حوار ممكن:

- حصل جديد

الشيطان لا ينفث الآن.. الشيطان يضحك

تصلبت حدقتيه لوهلة قبل أن يجيب بنبرة قاسية:

- اتحبس أربع أيام على ذمة التحقيق

واستدار.. أياً كان ما يستعر بداخله كان يجب أن يأخذه ويرحل.. جمدته بنبرة وحينها كانت قد فتحت الباب كله:

- خالد!

حين التفت حطمت ملامحها ثباته.. عيناها ترتجف بضعف وشفتيها تكتم نشيج لا يفهمه. تيبست نظرته نحوها ورغماً عن كبرياءه سأل:

- مجاوبتيش يا ندى

مالت نظرتها باشتياق وانحبست الحروف بحلقها وهو سينال فهماً خاطيء.. خالد سيغيب ولن يعود أبداً

وبلهفة بداية عشق أوقفت رحيله:

- خالد أنا بح..

ولم تكتمل الكلمة.. أخذ باقيها بين شفتيه بانفجار صادم تيبست معه كل خلية في جسدها, حتى قدميها الصغيرتين ارتفعتا بشبوب طفيف مع وجهها الغارق بين كفيه.. كانت لحظة مرت بتفاصيل عشر ثوانٍ قطعها هو في ندم مع همس هادر:

- آسف

ولم يترك وجهها عيناه كانت فوق عيناها جبهته فوق جبهتها أنفاسه تأكل زفيرها وشفتيه تترجم ملكية كانت له من البداية وستظل..

- حبيبتي لما أجيلك تاني متفتحيش

وتركها عالقة.. هائمة شاردة تائهة.. ببداية عشق

حتى وإن كان تحت ظل غيمة تشبثت بمصير آخر

****

هي لم تعتاد البكاء.. النحيب.. أو حتى الضعف

هي أنثى مُتعلقة برجولة

وكتمت الدمعات قبل أن تهرب واطمئنت على الوضع من أبيها وأعدت لعبد الله العشاء ولم تكن به شهية.. كان يبكي رغم جموده البيّن للجميع يسألها إن كان مصطفى سيكون بخير وهي لا تعلم

هي دفنت نفسها بين خصلات عشق وهناك كادت الدمعات أن تبوح..

تخرج فوق وسائد الحاجة وتنفجر دون مآل

- في إيه؟

ونبرته خائفة.. أياً كانت من أمامه فتلك ليست تميمة التي يعرفها, وجهها شاحب بشبه صُفرة وخصلاتها خاملة جوار تيه نظرتها

غربت بمقلتيها الشمس ولا تنوي شروق

استدارت تكتم نشيج كاد أن يبوح وضعف توحش في حضوره:

- مفيش

وتخطه لتخرج.. بل لتهرب. حتى أنها لم تعيد عشق لحجرته, أوقفها بتملك رقيق لذراعها بات يسن أنه من حقه وانحبس اعتراضها مع عزيمة عيناه

- محمود

والنبرة متحشرجة.. إن لم تكن باكية فهي ستفعل, اعترض طريقها فبات يواجهها واقتحمت عيناه تفاصيلها الهاربة.. عيناه تُجبر العبرة على الخروج وتنتزع رغماً عنها الضعف, أشاحت بوجهها مبتعدة عنه ولكنه أعاده نحوه من جديد بتملك يد.. أمر نافذ بالرضوخ لا لشيء سوى لأنها ملعون باللهفة

- تميمة؟!

كتمت جوار أنفاسها تنهيدة وظنت أن بصرها الهارب نحو السقيفة سيكتم العبرة:

- خالو في مشكلة كبيرة من امبارح ومش عارفة حيحصل إيه

ونبرته إن تاهت جوار عقله في كلماته إلا أنها تحمل عبء حزنها:

- احكيلي

أغمضت عيناها في وهن:

- أنا خايفة يا محمود

والمتابعة صوت يغيب بتأوه موجع:

- خايفة مشوفوش تاني

والتتمة انفجار.. تميمة تنفجر وتنتحب وتُسقط فوق مسامع نفسها الوجع:

- خايفة يضيع

وآخر حروفها ضعف.. بل ملعون هو بتلك النبرة

احتياج..

شهقة وصرخة ونواح انقلب لحشرجة مرتعشة ليغيب تفاصيل صوتها في خشونة تهذي

هي تبكي كما لم تفعل من قبل

هي تبكي وهو تجمدت أوصاله

تصلبت مقلتيه أمام حزنها واهتز قلبه مع نشيجها الذي ما عاد مكتوم

- أنا..

وكانت تحاول أن تزيد على الحرف.. توقف اللحظة وتزيح العبرة وتكتم الأنهار بظهر اليد ودون اكتمال وجدت نفسها معه

ذراعه امتد ليجذب رأسها نحو صدره وأنامله تخللت خصلاتها في خشونة رغماً عنه

اللعنة هي تبكي

هي تحتاجه

وهو ملعون بهذا الاحتياج

مفقود!

****

ضائع..

حياته باتت كأوراق لعب منثورة في أُحجية غير قابلة للنجاة

- أستاذ مصطفى السكوت مش في مصلحتك.. أنا محتاج دليل نفي وكلامك المرسل مش كفاية

- قولتلك معنديش

ونبرته كانت مُحتدة.. عيناه غائرة وفوق جفونه التعب, الجبهة ما زالت تنبض بصداع قاتل ورفاهية الطعام باتت له غير مطلوبة.

أحرق لفافة تبغ جوار كوب القهوة متجاهلاً نظرات خالد الذي صرف المحامي بحنكة وإشارة إصبع قبل أن يزفر بعمق حمل عبرات زوجته على مدار الليلة الفائتة:

- إيناس على وصول وغالباً وجودها حيكون انهيار عليكم إنتم الاتنين

دفن مصطفى وجهه بين كفيه:

- مش عايزها تشوفني كده يا خالد

وقاطعه هو بنبرة غاضبة:

- وضعنا صعب يا مصطفى..

وأشاح مصطفى بوجهه.. هو لا يغرق وحده بل أخته تغرق جواره

تابع خالد بنبرة لها مغزى:

- كان معاك ليلتها حد

- لا

والرفض من مصطفى قاطع.. ويعلم أنه صادق

وأعاد صياغة السؤال وبمواجهة نافذة:

- كان معاك مين على التليفون يا مصطفى

ونبضت ملامحه برفض حين استدار.. رفض لن يقبله خالد وهو لن يسمح أبداً بأن يورطها

لم أقرأ أبداً

فنجاناً يشبهُ فنجانك

..لم أعرف أبداً يا ولدي

أحزاناً تشبهُ أحزانك

مقدُورُكَ.. أن تمشي أبداً

في الحُبِّ .. على حدِّ الخنجر

وتَظلَّ وحيداً كالأصداف

وتظلَّ حزيناً كالصفصاف

..مقدوركَ أن تمضي أبداً

في بحرِ الحُبِّ بغيرِ قُلوع

وإن رفض هو الفرصة فهي لن تتركه

رحل خالد وبكت إيناس وتغاضى الحارس بحفنة مالية ليهديه آخر زيارة

"ندى"

الفصل الخامس عشر

قبل ما تشوفك عينيا!

عشرون عاماً فارق جلّ

يحمل اشتياق رجل وبراءة فتاة!

وفي بحر العشق هناك صنوف من النساء, فهناك الصديقة والرقيقة والقوية والأبيَّة وصاحبة الغنج, هناك المرأة وهناك الطفلة وهناك تلك القابعة في زاوية العقل لا تدرك كم تمتلك من التأثير..

هي الطفلة في كل تعبير ممكن وهي المرأة في كل شغفٍ ممكن!

ومع الباب الذي أغلقه الحارس واستدارته نحوها بكامل جسده انتصرت الرجفة وغابت القوة.

وعيناها ارتفعتا نحوه في توسُّل!

فارق المسافة بينهما مثالي.. يبيح له الميل كي يغرق بين الشفتين بقُبلة, والشغف هنا لم يكن برعونة عقل أو تفاصيل شهوة.. هو يحتاج

هو ببساطة يحتاج لدفء القرب منها في تلك اللحظات الحالكة

يحتاج عيناها..

همستها

طلَّتها

ويحتاج منها أن تبتعد!

وابتعد قبل أن يقترب

- ندى إيه اللي جابك؟

وصوته ضعيف.. ليس ذاك الصوت الدافيء الذي اعتادته, خصلاته مشعثة وزاد هو منها حين احتلتها أنامله بغضب.. زفيره خرج محترقاً فبدا وكأنه دون شهيق.

اقتربت هي والصوت يسبق الخطوة والنبرة رفيعة تكتم بكاء:

- إنت مقتلتهاش.. أنا سألت.. احنا كنا بنتكلم

جمل عفوية غير مرتبة.. أنف أحمر.. شفتين باهتتين..
خصلات سوداء مسترسلة بانتعاش ما بعد الندى.

ونال هو من الخصلات عطر!

حين التفت.. وغضب وباهت ودنا وقطع حروفها بضغطة أُنمل.
عيناه تحذرها وهمسه صارم ولم يتركها إلا حين أوضح حروفه:

- متجيبيش سيرة الموضوع ده تماماً

وعيناها تترجم الحرف قبل النبرة:

- ليه؟!

وتدنو هي تلك المرة وهو بكل انفعالاته يبتعد.. أيجوز؟

أيجوز أن تُلقي بنقطتك البيضاء في غياهب لغطٍ أسود, تلوث البراءة بقصة..

والحروف في ضمير البشر ثمن بخس, يحتمل الزيادة والنقصان.

- لا

والحدِّة جوار النبرة

- مينفعش

ويزيد ويهرب ويُصرّ ثم يعود

للخصلة والنظرة والوطن بين انفراجة شفاة

كفيه أحاطا بوجهها ولكن دون اللمسة:

- إنت صغيرة قوي.. صغيرة إنك تكوني في المكان ده

ودفء صوته طغا على اهتمامه وتاهت هي في الصوت فأجفلت الإشارة!

فالقول المكان والمقصد قلبه, وإن تاهت عن عينيها سبابته نحو شرايينه إلا أن أنوثتها باتت تفهم النبرة

تقتلها

تُربكها..

وتفسح لحيرتها الطريق

أنفاسها مضطربة, تغدو وتجيء وتنفجر وتنحسر وتكابد شبح التَعَلُّق, وبسنواتها الثمانية عشر والقرب من رقم تسعة توسمت في براءتها النجدة.. عفوية جاورت صوتها وهي تزعق ببعثرة:

- حاشهد والبوليس حيكلم شركة الاتصالات ويتأكدوا و..

جوار كتفيها مال.. على الجدار أسند جبهته وجوار شفتيه مر انحناء مرير, وتلك المرة كان همسه هادىء..

أي مقاومة يبتغي أمام طفولة به تتشبث.. تهتم.. تُبالي!

- مينفعش تروحي.. لازم المحامي يقدم طلب والنيابة تستدعيكي

والبراءة لم تفهم بأس النبرة..

- خلاص خليه يستدعيني

- ميـنـفـعـش

وحروفه حادة, تنهي الأمر قبل ابتداءه.. وتابع وتلك المرة بقسوة:

- إنتِ متخيلة مكالمتك الفجر مع شخص زيي حاتعرضك لأسئلة نوعها إيه؟

وانكمشت هي وخمد الوهج في مُقلتيها أمام خشونته ولكن هو لم يصمت.. بل تلك المرة أباح اللمس فتوحشت قبضته حول كتفيها الرخويين:

- مش حاسمح إنك تتعرضي لده.. أنا المسؤول يا ندى

أنا المسؤول

وخرجت الشهقة جوار عبرات متتالية فـ رقّت همسته وهو يميل نحوها بدفء:

- متخافيش

أومأت بضعف لتتساقط الخصلة جوار الأخرى فوق صفحة وجهها الباكي, أزاح إحداهما وعيناه تتأملانها بتشبث:

- إنتِ خايفة عليا يا ندى

والحشرجة هنا اختلطت بالأنفاس والإيماء مستمرة بكل صدق ممكن

براءة!

حواء دون رتوش

حواء كما يجب أن تكون

الفطرة قبل الفكرة

والشوق في مواجهة الاشتياق

هي حين تراه ترتوي أما هو فيظمأ أكثر

ومال أكثر لتحتل نظرته عينيها, صوته مروضاً لاشتياقه وقلبه لا يبغي لها سوى الاطمئنان:

- لو اتعقدت ابقي تعالي

ومالت الشفتين ببسمة هادئة وهو يزيد:

- ابقي قولي ده مظلوم يا سيادة القاضي

وكتمت هي الضحكة قبل أن تمر, أتبتسم وهو بين القضبان!

تتابع وتغني وتعشق وتغرق وجهها بالقُبلات وكأنه لم يكن, والآن الحيرة تطغى على المشاعر ونصف قلبها في السماء جوار كلمة أحبك أما النصف الآخر سجين..

سجين متعلق بقضبان الآخر وربما لن يتحرر إلا بنجاته..

وعيناها عادت للتوسل من جديد, وكأنها تبتغي حريته وحريتها من مشاعره لتنجو.. أنامله اقتربت فنسجت حول خصلاتها قصائد

والنظرة تبيح..

دون القول تبقى النظرة

تُبقيها عنده في منطقة خاصة وترسم تفاصيل ملامحها لتكافيء الخيال..

فـ هو..

هو يعشقها كما لم يعشق رجل امرأةٍ قط

****

تجديد!

كان يعلم أن نبرته ستكون ثقيلة على مسامعها, فقد تم تجديد الحبس أربعة أيام... نظرتها استقرت على ملامحه وهي تشعر أنه يُخفي عنها شيء:

- ليه.. إنت مش قولت إنه كان في تليفون

كانت نبرتها متقطعة.. تائهة بين معطيات وثوابت سردها لهما المحامي بالأيام السابقة, وضعه جيد.. وضعه سيكون عظيم!

وحُجة غياب ستنهي الأمر قبل أن يبدأ. ولكن..

خرجت نبرة خالد أجشة:

- مصطفى رافض

ارتعشت نبرتها هي وبات الرفض محمل الحوار:

- رافض! رافض إيه؟

زمّ شفتيه مُكملاً:

- رافض يا إيناس.. رافض إنه اللي كانت معاه على التليفون تشهد

- مش بمزاجه

وهنا خرجت الصرخة.. تركت مقعدها لتتوجه نحو النافذة الضخمة مُطلة ببصرها على الإرتفاع الشاهق الذي اختاره أخيها لينأى بنفسه.. يخلق شرنقته الخاصة مبتعداً عن الجميع ولا يعلم أحد أنه في مضى كان يخاف من المرتفعات

وخرجت همستها واجمة وكأنها تشرد في ماضي بعيد يحمل دفء أمها:

- مصطفى مش بيحب المرتفعات

ثم استدارت وعيناها غائمة بعبرات لم تغادرها على مدى الليالي السابقة:

- وبيتخنق من الأماكن الضيقة.. زيك يا خالد وزي تميمة

ولفظ تميمة اخطلت ببداية البكاء, حشرجتها رغم خفوتها إلا أنها موجعة.. حروفها تسللت من بين الأنين:

- لازم نشوف الست دي.. نخلي التحقيق سري أو نطمنها أو..

ضّها نحوه محتوياً وجهها بعبراته بإبهاميه ونبرته تحنو جوار ثبات:

- إيناس اللي كان بيكلمها مصطفى مش حينفع تشهد.. لا هو حيوافق ولا أنا حاقدر أجبرها على ده

وبترقب بات غير قادر على التكهُّن نظرت نحوه وقلبها وجل:

- مين!

ولم يجبها في حينها.. خرجت زفرته حارة وابتعد عنها خطوة ليرخي كفوفه بين جيوب بنطاله وعقله يركض.. يُفند حواراً تم

مع محاميه وتفاصيل قانونية قد تمنحه صك الخروج ولكن بعد وقت.

اقتربت منه وقد طاح مدى الصبر وعيناه تقول أنها تعرفها.. هي تعرف من كانت مع أخيها ليلتها على الهاتف

- مين يا خالد؟!

وقضي الأمر فلا مجال لكتمان.. وصرامة شفتيه كانت التعبير المناسب لحجم الصدمة:

- ندى..

****

هو يتغير.. يختلف.. يهرس لفافة تبغه ليُناولها مِحرمة ورقية, ويأخذ عملها ليومين كاملين عارضاً بنبرة دافئة عليها الراحة!

والآن هي مختفية

بخصلاتها وبعثرتها وشروقها وغروبها وحتى امتطاء عشق

هي غائبة ولا تجيب على الهاتف

ودخانه بات قاسياً كعيناه التي مرّت بحدة صقر على جميع من في المضمار.. وجواره وخلفه وبعده و..

- تميمة ماجاتش

والصوت لصاحبة المائة سنتيمتر إلا خمسة بنبرتها الرفيعة التي أصبحت مؤخراً ساخرة, استدار نحوها بملامح مقتضبة ليجيب وهو يتجاهل ثرثرتها المعتادة:

- وحد قالك إني بدور عليها

- اه!

وقالتها وهي ترفع كتفيها الصغيرين بثقة وسبابتها تشير لفتاة تحاول الترجل من على فرسة بيضاء ثم تابعت:

- كنت بتبص عليها فاكرها تميمة

ونبرتها عالية وتلك ال "لانا" سيعلقها من قدميها في تعذيب سيجعله مشروع. هو كان ينظر للفتاة بالفعل ولكن ليس لأن خصلاتها شبيهة بتميمة

هي تمتلك خصر مثير!

عاد لصوت بطلة العالم في الثرثرة:

- تيجي نروح لها

وترجمة الشعور الحالي

"اللهم طولك يا روح" وهرس لفافة ليبدأ آخرى لتغيب عيناها نحو ضوء السماء ونبرته تتندر من الصغيرة الساذجة:

- وحنروح لها فين

- البيت!

وجواب لانا غاضب.. الكبار لهم أسئلة غبية أحياناً

وتفاصيل أغبى!

وتبدلت نظرته لدُكنة لامعة لتصبح الثرثارة في لحظة مفيدة.. توسعت ابتسامته بمكر لتتبدل قسوته لحنّو كامل:

- عايزة تشوفيها

وتومأ لانا ببراءة ونبرتها تتابع وهو يمسك بيدها نحو السيارة:

- وإنت كمان..

كتم ضحكته قبل أن يثبت حزام الأمان خاصتها جوار غمزة جادة:

- خليه سر

وأطاعت لانا.. وانشغلت بحلوى المشمش خاصتها وهي تتابع ركض الأشجار جوار السيارة أما هو فظلمته تنقشع للحظة قبل أن تعود وكأنه يجاهد نفسه

ولكن..

هو يحتاج لأن يطمئن عليها

****

بيض ولحم وفتات خبز و..

بعد صراع ممل مع مكونات لزجة قررت في النهاية تجاهل الوصفة الصحية الخاصة بأمها لتفتح المبرد وتخرج بعض البرجر المجمد وشرائح الجبن وتناوله أخيها أمام الحاسب دون تعقيب. جلست فوق طاولة المطبخ بإنهاك تفرك جبهتها جوار كوب شاي ساخن ونيتها تجاهل إلحاح الباب, هي على قدميها منذ الصباح في محاولة إعداد غذاء مناسب والآن تدرك أن إمتطاء الخيول أسهل!

كانت بشرتها شاحبة وعيناها مرهقة من قلة النوم.. حاولت بالأمس الاطمئنان على خالها ولكن لا جديد وأمها منهارة أكثر مع تجديد المدة وتمكث هناك بين جدرانه رافضة العودة.
تنهدت بضيق أحكم قيوده فوق أنفاسها ولسانها لا يقول شيئاً سوى

"يا رب"

ومع إنقابضة جفنيها التالية عاد الباب للإلحاح من جديد, حتماً هي ماما "رقية" جاءت بنفسها بعد أن رفضت هي دعوة الغداء بحجة مرض كاذبة والآن على ما يبدو هي حضرت ببعض الحساء!

استقامت في كسل ومظهرها لا يحتاج لخديعة.. هي تبدو مريضة بالفعل, جديلتين مشعثتين على جانبي كتفيها وثوب قطني قصير بلون أخضر باهت مع رسمة "تينكر بيل" الكارتونية, جورب قطني مخطط وكل جهة لون مختلف لأن الغسالة أمس أكلت الباقي.

و....

تجمدت كلها حين لمحت انحناء شفتيه الذي كتم ابتسامة مقصودة قبل أن تتجول عيناه ببطء من أخمص قدميها حتى رأسها:

- فستان! كنت فاكر الأوبشن ده مش نازلك

زمّت شفتيها بغيظ قبل أن تعطي لنفسها مساحة النبرة ولكن كان هو المتقدم بهمس قاسي وازى توقف نظرته عند ساقيها:

- وإزاي تفتحي الباب بفستان قصير كده

خرجت نبرتها عفوية رافضة:

- كنت فاكراك ماما رقية..

ثم استدركت نفسها فعادت لإستشاطة هو يستحقها من البداية:

- وإنت مالك

توحشت نظرته للحظة قبل أن يعود لسخريته بدُكنة بدت لها قاسية:

- أهي ماما رقية دي بالذات متخرجيش قدامها كده

ثم عاد مجدداً لساقيها.. بوقاحة

أزاحت جسدها خلف الباب وشفتيها لا تنويان به خير ولكن حينها فقط لمحت لانا التي على ما يبدو نسيت نفسها خلفه لتجمع بعض الأزهار, توسعت ابتسامتها برقة مناقضة لغيظها منه لتهتف باسم الفتاة فاتحة ذراعيها لها فصرخت لانا ببراءة وهي تركض لأحضانها:

- وحشتيني

كانت تميمة قد ارتكزت فوق ركبتيها لتصبح في ارتفاع لانا وتخفي نفسها عن عيناه اللتان رمقاتنها بمشاكسة قبل أن تقطع لانا اللحظة

- ووحشتي محمود كمان

ومع تصلب حدقتيها مالت الصغيرة بهمس عاقل!

- بس ده سر..

وتخضبت الوِجنة.. وأياً كان السبب أو الغضب أو الخجل هي تبدو لذيذة بهذا الأحمرار الذي طغا ليوازي لون شفتيها, حتى مع جهتي الجورب المختلفتين!

استقامت من جديد لتعود نحو ركنها المنزوي من الباب متابعة.. لـ لانا فقط:

- وإنتِ كمان وحشتيني قوي

- مش حتيجي عند الحصان

- أنا تعبانة شوية.. أخف وأجي علطول ونركب أنا وإنتِ مع بعض

حينها ضم هو حاجبيه بضيق لتخشن نبرته وهو يرمقها بطرف بصره رافضاً غيمتها الحزينة:

- بطلي دلع!

رفعت عيناها نحوه بتيْه فتابع بذات الخشونة:

- افصلي.. حتى لو عندك مشاكل بلاش مود عبلة كامل ده إنزلي شوفي شغلك

- والله محدش طلب منك مساعدة

وهي غضبت وغادر الاحمرار الوجنة ليحتل الوجه كله, ذراعيها معقودان فوق صدرها وتركت الباب والتواري لتواجهه دون خجل.. وثوبها بات أقصر وترك هو غضبه لتميل عيناه نحوها من جديد فتمردت عيناها مُحذرة:

- محمود!

رفع بصره نحوها بثبات:

- نعم..

- امشي..

- حاضر

والتتمة انحناء شفتين ماكر جوار لفافة قذفها لنفسه..

استدارة بعد خطوتان وشرود في تفاصيل ملامحها لم تفهمه

مجرد همس أخير هرب من بين سحابته وكأنه رغماً عنه:

- تميمة..

وتوقف العالم حينها مع عيناه, ملامحه التي غامت وصوته الذي بات وكأنه غادر لتوه هُوة سحيقة ولأجلها فقط

- متختِفيش تاني..

وغادر.. ومعه لانا..

وقلبها..

****

- حاتجوزها..

والصوت هاديء متناسب مع ظُلمة قررها بنفسه.. حتى الجواب قاله قبل أن ينال السؤال.

- وبعدين..

وكان هذا وجه حكيم, ابتسامته متأنية وجفنيه مسترخيان تحت عويناته.. الحلم في نظرته كان مهيب ناقض مفاجآة ظهوره دون موعد ببابه, هكذا من عدم جاء محمود دخل نحو طاولة خاصة فأعد كوبي شاي واسترخى على مقعد خشبي متهالك حارقاً تبغه.

شفتيه تلونتا بسخرية قاسية وهو يتابع بنظرة ساهمة:

- حاعيش في المزرعة وأخلف ولدين وحاضرب الصغير بالحزام وبعدين حاطرده علشان أعيش مرتاح

والمزحة لم تكن مضحكة حتى ارتشاف الشاي الساخن وكأنه كوب عصير مثلج لم يقدم جديد

الماضي دوماً ينتصر

وهمسته تلك المرة باتت مُظلمة:

- حقي أني آخدها.. حقي إني أطردهم زي ما بعدوني زمان

رغم ثباته تحركت مقلتي حكيم باهتمام:

- هما مين؟

استرخى محمود على مقعده أكثر ليترك نفسه ملك سحابته تلك المرة:

- خالد.. حسن.. رقية

- وبعدين؟

ضاقت عيناه بقسوة ليستكمل حكيم برصانته المعتادة:

- وبعد ما تطردهم حتعمل إيه

ولم يجبه في حينها.. انتفض من فوق مقعده ليهرس نصف اللفافة دون أن يكملها وعيناه تمر على المشاة من خلف النافذة المُغَبَّشة:

- حارتاح

كان الوقت قد قارب من الثانية عشر ليلاً, منزل حكيم يقع في حي شعبي بسيط ومكتبته العتيقة بالتحديد تُطل على ناصية مزدحمة تحمل كل فوضى ممكنة في الحياة. بائع الكبدة.. وقهوة شعبية تم تطويرها لكافيه وشكوكو غاب واختفى ليحل محله صراخ يقولون عنه شعبي!

غير محمود الدفّة ليستدير نحو حكيمه بسخرية:

- مش مكان فيلسوف..

استقام حكيم وكان قصيراً.. يكاد يصل لمنتصف كتفه, قبعته الصوفية مثبتة فوق رأسه ومعطفه السميك بات لا يستغني عنه

مع أول الصقيع, جاوره وهو ينظر نحو مراهق قرر أن يزيد الفوضى بصخب موسيقي جديد:

- الفلسفة بتتولد من المعاناة

- القوة بتتولد من المعاناة

ونبرة محمود قاسية.. غاضبة نابضة بذكريات لن يواريها الثرى ولن يُجنّبِها في منطقة الغفران.

أغمض حكيم عيناه في سكينة:

- وإنت قوي يا محمود؟

وحكيم يغلف حروفه بالتهكم.. يُصرِّ ولا يفاوض ويعلم تماماً لم ظهر ببابه محمود.

محمود الذي كلما رق قلبه يعود لشيطان خيره كي يحيد عن الصراط, فحكيم سينصح.. سيعظ ويُرغم ويكمم الأفواه بالعبرة!

حكيم سيوقظ بداخله الجحيم قبل أن يخمد..

ضاقت عيناه بشراسة قبل أن يردف:

- وحابقى أقوى

وسحب سترته ليرحل.. خطوة أولى وثانية وحكيم فعل تماماً ما أراد.. أيقظ شيطانه ولكن ظلّ الوجع.

استدارة أخيرة أهداها له قبل أن يردف وهو جوار باب الخروج من الجنة!

- عارف أنا ليه اختفيت من ثلاث سنين

لانت نظرة حكيم بضعف فقد الحكمة ومحمود يعلم.. محمود يعرف أنه نقطة ضعف العجوز ومحمود يتابع.. يضرب فوق سذاجة الخير ودون رحمة:

- علشان سمعت كلامك.. سمعت كلامك يا حكيم وكلمته.. عارف إيه اللي حصل

ولم يحاور حكيم.. كان يعلم أنه يحتاج لتلك اللحظة.. أن يقذف كل ما في جعبته دون أن يحاكمه أحد كفاسد وسط النعيم

- معرفش صوتي

والنبرة جاءت جوار زفرة.. أنفاس ثائرة من بركان يجب أن ينفجر ليخمد

- معرفش صوت ابنه..

وتلك المرة حروفه زعقه.. هو يلوم حكيم

حكيم الذي لقنه مباديء العفو والغفران.. التسامح والسلام والآمان وحب العالم كله جوار الذات..

- وماقدرش ألومه.. عارف ليه معرفش صوتي لإني مش موجود يا حكيم.. غفرت أو اختفيت مش موجود.. مش مهم.. مش على الخريطة!

وأرخى العجوز جفنيه وهو يُدرك التتمة.. يعلم أن نجاة محمود لن تكون في الكلمات, يراقب أخر نبرة ساخرة منه قبل أن يرحل كما جاء

- علشان كده أيوة يا فيلسوفي العزيز حابقى قوي.. حاختار الشر لأنه الشر هو اللي بيرسم الخريطة.. فطرة الشر اللي حتكسب يا حكيم

وهنا.. لم يكن ساخراً.. كان منطقياً حد السعير

****

يُقال أن حظوظ النساء في الحب مُذبذبة, أما هي فلم تنل رفاهية تلك التذبب.. لم تختبر يوماً حروف أحبك فوق ورقة مُجعدة من مرحلة مراهقة جامحة ولا أهدتها الصدفة نظرات من مغروم صامت, ورضَت وارتضت واختزلت خطواتها جوار نصيبها على هامش الدنيا.. تعمل بكد وتختفي خلف عوينات

ضخمة وكل سلامها النفسي كوب القرفة الساخنة باللبن على فراشها كل مساء.

حتى اهتزت تلك الثوابت بظهوره..

باقات ورد يومية وحروف منتقاة بحرص عاشق والتتمة موعد غرام!

ويومها ندمت لأنها لم تضربه فوق رأسه.. تخاذلت وتركت له حرية الاقتراب وكان عزاءها الوحيد أنها لم تذهب.

تجاهلت موعده الحار وعادت لإخوتها مبكرة وابتاعت غداءً ساخناً من شطائرهم المفضلة من مطعم الوجبات السريعة خلف منزلها, شاهدت فيلماً فكاهياً وارتدت قميص نوم ثقيل وتناولت مشروب القرفة بالحليب لتطرده من ذاكرتها وكأنه لم يكن. وارتاحت في اليوم التالي لأن الورود اختفت.. حتى مع اختفاء رب عملها لظروفهم الخاصة لم يتجرأ ويظهر من جديد.

وإن حاول فستحرص على إفاقته بكلمات حادة

فأحلام ليست من هذا النوع

- أحـلام

والنبرة بطيئة من أمها.. والفرحة تطغى على عيني العجوز جوار علبة شوكولاة فاخرة وحلّة أنيقة يظهر جزء منها مع حذاء رجل!

- عريس

والأعراف تستدعي في تلك اللحظات الفرحة.. الحضور المهذب والفستان الرقيق من أجل الرؤية وكوب الشاي ثم القهوة وشربات وحلوى وضوء ملون اذا ما ابتسم النصيب ووصلت للكوشة

منزل زوجية وسند وحائط ورجل سيكون قدرها ضد تقلبات الحياة, جاء بالعشق أو خلافه..

تلك مسميات للبعض لا تمثل فارق!

والأم سعيدة والابنة التيه كان نصيبها حين لمحت ابتسامته الواثقة وفي منزلها وعنوان الزيارة بات واضح

"الدكتور فارس طلب إيدك"

****

الفصل السادس عشر

بكرة تعرف.. تعرف.. يا حبيـــبي

بعد ما يفوت الآوان.

براءة!

وهواء بارد يمر على صفحة وجهه.. ذكريات قريبة تتوغل في ضلوعه وآخرى بعيدة تعبر كطيف خافت دون تفاصيل.

براءة!

ولفظ يحمل في قاموسه ألف معنى.. هل هي النجاة من ذنب لم يرتكبه أم النقاء الذي غادر عالمه فوق تضاريس خائنة.

براءة!

نعم كان الذئب بريئاً من دم ابن يعقوب ولكن هل هذا ينفي كونه ذئب.

أسند رأسه على حافة المقعد وأذنه تتغاضى عن التفاصيل التي دأب على حفظها في الأيام السابقة, المباحث توصلت للجاني الحقيقي بعد أن أهدته إطمئناناً مزيفاً بوجود آخر في الشرنقة غيره وفي غضون ساعات بات هو حراً وشابٌ آخر كان له نصيبٌ من العبث والدماء.

عشق.. خيانة.. قتل

ثلاثية لا تمّل

زفرة حارة مرت على أطراف شفتيه وهو يلوك بينهما ظلمة الليالي السابقة.. تفاصيل العهر والفضيلة بشكل ما تلاقيا في عالمه فكادا أن يندمجا ليُخلفا مهزلة!

وتورد طفيف بوجنتيها اقتحم ذاكرته.. تبتعد بأنفاس مترددة وتمرر من بين جفونها سكينة ساحرة، صدرها يعلو ويهبط لأنه اقترب وأنوثتها هشة لن تحتمل ثقل رأسه فوق صدرها

ثقل تاريخه بأكمله..

الزفرة عادت لتحتل هواءة وحرقة صدره ناقضت برودة طفيفة فوق كفّه..

إيناس لم تنطق بحرف منذ غادروا بصك براءته، هي احتضنته وكفى وهو غرس نفسه بين ذراعيها

كان عناقاً جائعاً.. وكأنه اشتياق لمنزل الأم الذي بات ذكرى باهتة، لضحكة صافية ومناوشة راقية وعوينات أبيه في يوم شتوي دافيء. ظلت متشبثة بكفه حتى وصلا إلى المنزل وكأنه تخشى رحيله مجدداً

تخشى عليه من مصير كاد يمحيه من حاضرها بأسوء صورة.

- مصطفى أنت حتيجي معانا المزرعة

ونبرتها كانت حاسمة.. حتى أن خالد ابتسم بقلة حيلة وهو ينظر نحوه في تفهم ثم تابعها بعيناه وهي تفرغ ما في جعبتها:

- مش حاسيبك يا مصطفى.. فاهم مش حاسيبك

وكانت الشعرة التي فجَّرت انفجار مستحق، تبدلت الرؤوس فباتت هي باكية فوق كتفه، نبرتها متحشرجة وأنفها غاضب وعينيها غامت بعبرات مُتعبَة. أحاط خصلاتها بحنان ثم رفع كلا كفيها نحو فمه هامساً بحنو:

- أنا محتاج وقت

حركت رأسها في نفي حازم ولكنه تابع ويديها ما زالتا ملك قبضتيه:

- مصطفى محتاج يتكلم مع مصطفى شوية

وتلك المرة طوفان أنفاسه احتل النبرة، دفء صوته غاب وشرود عينيه كسا اللحظة ليلتقطها خالد بمهارة ساحباً زوجته بسيطرة مُنقِذة:

- حنسيبك يومين بس

وعيناها تتوعد في غضب وسيشكر مصطفى لاحقاً فمنذ سنوات لم ينل هكذا بريق.. وفي السيارة خفت البريق ليحتل الحزن مكانه بخبث:

- مكنتش ينفع نسيبه

ضاقت عيناه برفض ولكنه ترك لها مساحة اللحظة

هي كانت في عالم آخر.. بين مصطفى الذي كاد أن يفقد نفسه وفتاة وضعتها المصادفة في عالمه

فتاة تصغر تميمة..

فتاة كادت أن تكون نجاته ويكون هو جريمتها!

- إيناس

بنبرة الرحمة أعادها زوجها لواقعه من جديد

- مصطفى محتاج مساحة

وخشونة صوته جادة، حازمة ربما أكثر منها.. عيناها عادت إليه ليخفت شعاع العسل في احتياج فضمها نحو صدره في أُبوّة:

- وعارفة إيناس محتاجة إيه؟

رفعت بصرها نحوه في تشبث فرفع حاجبه الأيسر جوار نبرة ماكرة:

- جولة في الهواء الطلق في مزرعة رضوان

كتمت ضحكة شاردة قبل أن تضرب صدره بيأس:

- خالد!

أسند ذقنه فوق رأسها ليتركز بنظرته عليها والمتابعة تلك المرة أثيلة:

- أنا بتكلم جد.. إنَّت محتاجة تصفي ذهنك قبل ما تتكلمي معاه

واستدارتها نحوه وازت التكملة، باقي ما تحتاج سماعه قبل أن تُبيح..

- وقبل ما تتكلمي مع ندى

****

يا سنيني اللي راح ترجعيلي

رجعيلي شي مرة ارجعيلي

هل يجوز لنا ترويض الزمن

تطويع تفاصيله كـ لعبة أحجية سلسة فتجذب هذا وتزيح هاك, تمحو أوجاعاً مرت وتتشبث بقلمك لتسطر من جديد

تنال الفرصة التي لم يربحها أحد

قسوة كلمات فيروز تجاور دُكنته.. تبيح لأشباح الماضي العودة كي تحاسبه من جديد وتفتح آفاق بوابة ملونة نحو عالم آخر

تسترجع العبق البعيد وتمحو القريب كي تنقشع الظلمة ببهجة زهرة.. نداها.. بدايتها الناعمة.

وانسيني عا باب الطفولة

لأركض بشمس الطرقات

هل ستتحمل الزهرة عالم غاص في الظلمة حتى الثمالة أم ستطحن أوراقها كي تهديه العبق ليحيا علّها ترتق ما أجاد إفساده!

وفي خضم انفجاره تغيب.. يمتصها حتى الذبول

يعود مصطفى وتغيب ندى

ضم جفونه بقسوة عله يهرب من أفكاره.. من طلتها التي أتعبت عالمه ودللت الخيال, مال برأسه للوراء ساحباً الهواء لأنفاسه دون زفير. فالزفرة راحة وهو خصيم الراحة دونها ومعها..

وجوار موسيقاه ضوء الهاتف.. تحاول.. تطمئن.. تمد أناملها بتردد نحوه, وحروف اسمها تتكرر على مدار ثلاث مكالمات مفقودة

وبات شهيقه يلاحق زفيره جوار ماضي مؤلم وحاضر مشوش ومستقبل متعلق بخصلات هشة لو نالها سيمزقها..

محاولة رابعة وحاجبيه انقبضا بقسوة رافضة.. وأشاح بوجهه مبتعداً عن الهاتف وربما عن عبرة لم يلمحها.. وانقباض جفون هي نفسها لا تفهم أسبابه

وأغلقت منفذ راحتها

والغصة بالقلب ترجمتها "مصطفى"

وحين أضاء الهاتف..

ويخصها تلك المرة

انهمرت العبرة بوجع أكبر..

كان الآخر..

كان البداية التي تفهمها والمذاق التي تجيد استيعابه

وصوته تهدج مع نبرتها التي ارتعشت بفضل العبرة

بل طوفان..

بكاء رغم شوقها للجواب الذي سيغلق تلك الصفحة الموازية

"خالد"

****

العشق تفاصيله.. مُربِّكة

ومُقبضة ومُبهجة وناعمة وسلسلة وخشنة وكارثية

الحب هو كل شيء..

هو منطقة اللا اتزان في كوكب الحكمة

هو الفقد وهو المنال

- مصطفى!

والصوت لم يكن لشبح من ماضي أو حاضر.. كانت إيناس التي شحبت كالموتى حين رؤيته, ذقنه طالت بنعومة مشعثة وعيناه ذبلت في غابة وهن قاسية.

مررت أناملها فوق وجهه وهمستها ارتجفت رغماً عنها:

- ندى؟

لم يجيب.. استدار لها بطرف عينه وعاد لشروده ونافذته التي لم يتركها منذ يومين,

فقدها مؤلم.. حارق أكثر مما ينبغي.

تأملت إيناس حدقتيه وكانت منفجرة رغم خفوت النبرة:

- نتكلم عن مصطفى

جوار شفتيه مرت ابتسامة مريرة:

- مصطفى هو الماضي.. ندى المستقبل

حاجبيها انقبضا في ألم:

- مستقبل مين

والمرارة باتت ساخرة:

- أي حد غيري!

سبقت العبرة سؤالها:

- حبتها؟!

عاد مجدداً لمقعده الوثير.. يتوه بعينيه في غيمة الأفق بين صباح ومساء وتكرار هش بات دون معنى.. خمدت نبرته وكأنه ينص اليقين:

- لو الحب هرم المشاعر أنا في مرحلة السقوط من القمة..

السقوط إلى الهاوية!

استدار نحوها بضعف وعيناها هي كانت اغرورقت..
ضعفت.. سبقتها في الضمَّة كي تحتويه بين جفونها قبل العناق.

همست بضعف ناقض ثوابتها:

- اتجوزها

وهمسته هربت من راحته المؤقتة فوق كتفيها:

- إنتِ عارفة إنه مش حينفع

- خايف عليها؟

- تستاهل إني أخاف عليها

وأغمضت عيناها وقلبها يوافقه ولكن ليس لخوفها على ندى منه

هي تخاف عليه من ندى..

****

الكرَّة أرضية والمشاعر أيضاً

ظلام وضوء..

سعادة وفرح..

لقاء وفقد..

وأنثى تستحق ارتباك البداية!

أياً كان الوقت الذي مرّ عليها في سيارتها الرباعية المكشوفة فهو لا شيء بالنسبة لشرود أنثى.. وتفاصيل الشرود.. ونبرة لانا الطفولية بحروف شبه مكسورة

"وحشتي محمود"

وتلاها نطقه لاسمها بهمس..

وزمّت شفتيها..

اللعنة لمَ نطق اسمها بهمس, فلياشكسها.. يعاندها.. يعود عابثاً ولا يُربك نبضاتها هكذا..

ولكنه ارتباك لطيف

يرسم بسمة.. ويبيح نصف ساعة كاملة لتعديل خُصلة, ولون حمرة شفاة مناسب.. مراقبة نظرة ووظيفة آخرى لمرآة السيارة غير مراقبة الطريق.

كانت تحرك رأسها يميناً ويساراً وهي تراقب شكل خصلاتها في ضوء النهار.. تعيد ترتيب أطرافها المجدولة وتضم شفتيها بوضع عابث مع دندنة خافتة لأغنية غرامية.

صباح جميل

- بتعملي إيه؟

والصوت كادت أن تسبقه الشهقة عن هذا الذي ظهر من العدم ولفافته أعادت عبثه!

يرمقها بمكر ما يلبث أن يحوله لبراءة كاذبة:

- شعرك حلو والله بس شوفي شغلك بقة

ودون دعوة وثب بجسده في السيارة ليجاورها..

يهرس اللفافة القديمة ويبدأ في آخرى ويخفض من صوت المذياع

وبرود هامس:

- صداع

كتمت غيظها وكتفت خصلاتها إلى الوراء:

- مدام صداع يبقى تقعد ساكت

لم يُعَقِّب..

وهي تغلي:

- ومفيش تدخين في عربيتي

واستدارته وازت نفث دخانه بوجهها ولتريه ماذا هي فاعلة

والخصلات عادت للإنفجار وذراعها مرتكز على المقوِّدِ في طلّة ذكورية:

- محمود ارمي السيجارة

وتوحشت عيناه للحظة قلب أن يقذفها من فوق رأسها تماماً ويترجل من السيارة, يخطو مبتعداً عنها وهي باتت تلاحقه كمراهق يشاغل فتاة!

- محمود.. محمود اركب خلاص

وسيارتها أصبحت بطيئة جوار خطوته اللامكترثة, يشعل لفافة جديدة وينظر نحوها بطرف عينيه.. زادت من وقودها لثوانٍ معدودة قبل أن تقطع طريقة في سيطرة وتترجل واثبة بدورها من السيارة ومواجهتها غضب:

- إنت بتتقمص؟!

- أنا محدش يتشرط عليا

ونبرته قاسية توازي خشونة نظرته حتى وإن هرس من أجلها اللفافة!

ابتعلت ريقها بخضوع مؤقت ما لبث أن انقلب لمعاندة:

- بس أنت رميتها في الآخر

ومر المكر بتأني على شفتيه قبل أن تعود له ولها نبرة العابث:

- علشان أعمل كده

وقبل أن تدرك كان قد مد ذراعه اليمنى خلفها لتستند على السيارة مانعة عبورها وقبل أن تحاول جاورتها اليسرى تماماً

برقت عيناها في تحذير:

- محمود!

لم يتزحزح.. حتى ملامحه غادرها العبث في لحظة لتنقلب لصلادة صامتة, اقترب من عيناها بتأني فتجمدت ملامحها قبل أن تقاطعه بعنف مُحذِّر:

- محمووووود

عاد المكر ليلون ابتسامته من جديد قبل أن يقترب تلك المرة أكثر وبهمس مشاكس:

- عينيكي

وهل ستخضع.. ترتجف وتخجل وتثبت على نفسها تُهمة حبَّه..

ولوت شفتيها دون اهتمام وهو تابع بكل اهتمام ممكن:

- عينيكي رجعت تاني

وحل قيدها كما بدأ

بل غادر..

وأشعل لفافته

وهي ستجن

حتماً سيصيبها ابن حسن بجنون دائم

عينيكي!

عينيها..

ببساطة عادت لتُشرق من جديد!

كما أشرقت هي بعدها بدقائق معدودة لتكون كما لم تكن من قبل

فوق صهوة عشق.

****

ونحن نعشق وننسى

نتخبط ونحاول المرور بين جدران الحياة

"بحبك يا ندى"

وصوته عاد ليصبح رفيقها على مدار ليالٍ قريبة وليس بنبرة المكترث المتقمص لدور أخ غير موجود

خالد أصبح عاشق

وابتسامة ناعمة وإن كانت غير مكتملة مرت فوق شفتها السفلى مع ملعقة آيس كريم الفانيلا الضخمة

ودندنة خافتة لعزف جديد سيتدربون عليه سوياً وهو وعدها بضمير متيقّظِ ومشاكسة جاذبة:

- مش حجيلك تاني

- ولو جيت متفتحيش

- ولو فتحتي متزعليش

وهو عابث الآن وبات يُخجلها ونَهَرته بخجل فلم يقل سوى لفظ واحد:

- الحب هو ندى

وإن كانت لم تفهم التفاصيل ولكن ألا تكفيها الكلمة.. تُبقيها ساهرة.. تزيد جرعة السعادة بدماءها وتُجلسها شاردة فوق

الأرض بتيشيرت قطني باهت فوق سروال داخلي ملون بخطوط قوس قزح..

وسقطت الفانيلا فوق بلوزتها ورؤى على الباب لا تتوانى وهي الآن كما تُشبهها أمها تماماً

مجرد طفلة!

- أيوة يا رؤى حاضر

ورغم ان نصف جسدها السفلي كان فعلياً خلف الباب إلا أن ابتسامة إيناس الهادئة جمدت أوصالها لسبب آخر أكثر من مجرد سروال داخلي مُخجل

وإن كان السروال نال التقييم والنظرة بدوره

- إزيك يا ندى..

ظلت مكانها ثابتة خلف الباب حتى دون أن تغلقه رغم مرور ضيفتها.. واحتاجت حوالي أربع دقائق لتدرك أنها يجب أن تتحرك, تغلق الباب وترتدي سروال بيتي مناسب وتسقط في الغرفة وهي تحاول..

وقتما عادت لغرفة الإستقبال وجدتها فارغة ليقودها بحث عيناها نحو المطبخ, وإيناس تتجول ببطء بين فوضاها الكارثية مع ابتسامة هادئة:

- ممكن أشرب معاكي حاجة

- حاضر

وأدركت إيناس أن ندى تجيب بهلع, تبحث بيأس عن السكر وتضعه بخطأ كارثي في غلاية المياة.. قبل خطأ محتمل آخر أوقفت إيناس فوضى يداها لتُجلسها على أقرب طاولة وتسحب بأريحية كوب مياة بارد قبل أن تجاورها:

- المطبخ بشع يا ندى

- معلش يا طنط والله

- حبيبتي أن مش بلومك

وأناملها امتدت نحو خصلاتها في تلك اللحظة.. مررتها برفق وهي توازي النبرة بالحنوّ:

- الوحدة صعبة

أومأت ندى رأسها بطاعة وأدركت إيناس أن ندى تعلم.. ندى تعرف ما ستتحدث بشأنه

والطَّرْق هنا بات واجب

- مصطفى وحيد برده

وعينا ندى ارتفعت في جزع

وإيناس قررت ألا تصمت:

- بس مش بديل يا ندى.. مصطفى مش بديل لأب أو أخ..

والطفلة تنفي لأنهم أمسكوها بجرم حلوى:

- لا.. الموضوع مش كده والله

بتمعن اقتربت إيناس من ملامحها المضطربة:

- أمال إيه؟

وغاب الجواب

هل ستكذب بادعاء صداقة باتت هامش وهي تعلم أم تراوغ بمقولتها أنه أفضل رجل يُنصت

حتى أفضل من خالد!

- ندى

وحنو نبرة إيناس بات يشبه الأم ولكن بحزم واجب:

- مفيش حاجة تبرر مكالمة لوش الفجر يا ندى.. لو بنتي حعاقبك.. ححاسبك وأفرملك وأوقفك قبل ما تضيعي نفسك

وطغا الحزم على الرقة وباتت القسوة لازمة:

- دليل براءة أخويا كانت دليل ضياعك..

والوجنة باتت ملتهبة بتفاصيل بكاء وهي تنفي.. تحرك رأسها في اضطراب وتود أن تتشبث بالبراءة

بل الحقيقة

لم يؤذيها مصطفى..

وبات البكاء شهقة.. شهقات.. ندم وخيبة وحيرة وكل هذا مجتمع في جمجمة لم تتخطى العشرون!

هل أذنب مصطفى باقتحامه عالم طفلة

أم أن الطفلة من أذنبت لوجودها في مداره

أم أن الذنب هنا تعبير هلامي خاسر لأن السقوط لا يهدينا خيار..

وجذبتها إيناس في عناق أمومي صادق..

وتتمتها فرمان غليظ وغيره لا خيار:

- العلاقة دي انتهت يا ندى.. انتهت للأبد

****

الفطرة تبيح للرجل النظرة وللمرأة الهرب!

خاطب.. وعروس!

وهي في رحلة بحث بين تفاصيل مُربكة اقتحمت عالمها دون دعوة, وقتما جلست أمامه وجهاً لوجه اجتاحها خجل النساء.

هذا التوَّرد اللطيف السخيف الذي عادة ما يغزو الأنثى جوار تأمُّل رجل.. وهو لم يكن يتأمل فقط, هو كان يمر بتأني فوق تفاصيل كل نبض

عنقها.. صدرها.. والرجفة المختلجة جوار أذنيها

مرت ابتسامة فوق شفتيه كطيفٍ عابث ثم عادت لتتوحش بقسوة غابت عنها.. لأنها ببساطة امرأة!

عروس..

خجول..

تهدي نظرتها للأرض وتمرر الارتجاف على شكل سؤال:

- ليه؟

- هو إيه اللي ليه؟!

وتلك هي مرتها الأولى التي تسمع فيها صوته بشكل واضح,اجتياحه السابق كان هامساً بحرارة أربكتها أما الآن فهو ينتهج الكياسة جوار الدفء وهذا مُربك أكثر!

أزاحت خصلة ناعمة تجولت جوار جبهتها في رقة والمتابعة ما زالت تتغاضى عن النظر نحوه:

- ليه أنا؟ ليه عرض الجواز!

ولم يُجب في حينها, عيناه ضاقتا في عبث بلغ أوجه حين رفعت نظرها نحوه ليلتقط عيناها كما أراد تماماً ثم حرّك شفتيه بتأنٍ مدروس:

- بحبك!

ورمادية نظرته باتت جامحة تتوسطها أمواج وهذا التيار ليس بفرصة تستحق نبض

هي خائفة..

دارت حدقتيها في توجس, ليس لأن الكلمة لم تخطفها كحال النساء ولكن..

أي حبٍ هذا الذي يحدث بين يومٍ وليلة, يبدأ بكلمات جوار زهور وتكمل الأعين الحكاية

و... برافو

لدينا عاشق!

قطع أفكارها قبل أن تجنح أكثر:

- مش مصدقة؟!

وهمّت لترد ولكنه قاطعها بتملك:

- أنا جيت البيت

ثم أعقب بالسيطرة:

- وحاجيب عيلتي

وتتمة حواره طُغيان:

- عايزك!

قالوا..

أن المرأة تعشق بأذنيها أما الرجل فيعشق بعينيه.. هي عاطفتها الذروة وهو يروض العاطفة من أجل الغريزة, هي تتشبث بالكلمات وهو كلماته وسادة الواقع..

والواقع يقول أن فارس يريد أحلام!

وشفتاها تنتهجان جرم!

- أنا محتاجة وقت

وحينها هاجمتها أنفاسه في اقتحام لم تتوقعه, ارتكز على إحدى ركبتيه ليقترب منها موازياً حروفه بأنفاسٍ حارقة:

- أنا متابعك من أكثر من شهر.. وخلاص حفظت تفاصيلك

ووازى آخر حرف بتمرير بطيء لسبابته فوق شفتيها, انتفضت وعيناها متعلقة بباب الغرفة:

- أستاذ فارس ميصحش..

واستقام ليلحق بها جاذباً ذراعها للخلف لتعود إليه في لحظة وهمسه يختص بالنبض جوار أذنيها:

- فارس يا أحلام.. من اللحظة دي فارس وبس

ومرة آخرى لم تلحظ قسوة النظرة

فهي عروس خجول

كما تنص الفطرة!

الفصل السابع عشر

خايف مرة أحب وعارف ليه أنا قلبي خايف

عن الحب..

الحب هو تلك العاطفة التي جاورت الرغبة, هو نبض السعادة وهرمون الرضا..

هو كوب المياة المنعش الذي أجدت اختياره

هو البدايات اللطيفة

"هو ندى"

والغنوة تلك المرة قد تحمل تفاصيل خاصة بها, ابتسامته الجانبية كلما مرت الحروف على وصف يُشبهها وعيناه التي باتت تعلم متى تغيب ومتى تناوش.

"بحبك"

واللفظ لم يعد مجرد خيال جامح

بات واقع..

ونظرت حولها وأناملها تلك المرة تكتم كلماته, عيناها متوترة ترقب الكون كله وهمسها صارم ولأنها ندى فصرامتها لا شيء

- خالد!

- حبيب خالد..

واللكزة تلك المرة تحذيرية فلقد ظهرت رؤى وهو يحتجز كفها الأيمن بين يسراه وكلاهما في جيب سترته

وشاكسها بطرف عينه:

- الجو سقعة

وباتت الوجنة احمرار فاضح وأنقذتها رؤى وجلست تلتهم شريحة البيتزا خاصتها وتنظر لكلاهما بعين ثاقبة, ندى التي

أصبحت تشبه ثمار الطماطم في موسم الطرح وخالد الذي على ما يبدو فقد السيطرة على مشاعره تماماً

وكأنه انفجار

وجدها أم ربما وجد نفسه معها

عرفت عيناه طريق النظر نحوها وفهم قلبه معنى النبض وهي جواره.. أرادها فقرر بنهج العاشق أن يسيطر, يُحكم النظرة ويحبك تفاصيل الهواء حولها إن لزم الأمر..

وشاكست رؤى بنبرة جادة بعد رحيله:

- غيور؟

والبريئة تبتسم بوجنة وردية والإيماءة تحمل ترجمة خاصة.. فالأمر الآن تعدى تنبيه غلظ أو انفجار سابق

بات واضحاً حد قوانين اهتمامه

ورفعت كتفيها تتذكر غضبه حين جاورها زميل لهم على مقاعد المسرح.. أرسله ليحضر أشياء وهمية واحتل مكانه معلناً غير مبالي ملكية خاصة.

وهي استسلمت..

ليس فقط لأنها أرادت وحلمت وتشقق الصخر محققاً أمنية

هي تتشبث به كي لا يجنح قلبها نحو آخر, تفهم البداية وتجيد صعود الدرج بحرص إلى جواره..

فعلى الجانب الآخر سيكون صعوداً بمصعد قافز للمسافات

أما السقوط فسيكون مريعاً

عن العشق

العشق هو الشغف

هو فُقدان السيطرة

هو نقطة المياة المُنجدة التي وجدتك في صحراء قاحلة..

****

"اسبقني يا قلبي اسبقني.. على الجنة الحلوة اسبقني"

وجبة عشاء متأخرة

بهجة كل أنثى ولعنتها!

وشدد على اللعنة إذا ما كانت فوق الأربعين.

كانت تقف حافية باستمتاع غامض يوازي ملمس الأرض الباردة تحت قدميها.. أمامها شريحة من الخبز الأسمر تفرد فوقها الجبن الكريمي بتلذذ وصوتها يدندن بهمس مع حليم.. ولجسدها حرية ارتداء ليلية لما تريد.

وإن لم يكن الأمر يشبه غلالة حريرية أو ثوب ملتصق بالحنايا إلا أن السروال القصير مع البلوزة القطنية الناعمة كانا لهما على جسدها دلال خاص.

راحة!

هي بالفعل تحتاج للراحة والعقل قبل الجسد.

- يااااااااااااه راديو!

أجفلها صوته فاستدارت بشكل مفاجيء لتجد حمزة يقف مستنداً على حافة الباب وعلى وجهه ابتسامة هادئة, يشعر بالبرد على ما يبدو فيرتدي معطفاً منزلياً ثقيلاً ولتوه على ما يبدو أنهى مشروب الشاي بالحليب.

عادت لشريحتها لتردف ببطء لا مبالي:

- اه

اقترب منها حتى جاورها ممرراً نظره ببطء على ساقيها ليهمس بمشاكسة لا تتركه:

- إيه الهوت شورت عندنا مراهقين في البيت

استدارت نحوه وغيظها يحمل نبرة ممدودة:

- والله

وقبل أن تمر قطع هو طريقها ليهمس لها بعبث ممازح:

- ثلاثة

أزاحته بضغطة يد خفيفة لتأخذ صحنها وتتخطاه:

- عديني يا حمزة.. أنا زهقانة وحرانة

- وأنا بردان

وابتسامته في ذاك الحين باتت واسعة طفولية تشبه رضا ياسين بحلوى الشوكلاة المفضلة.. ضحكت بيأس لتشاكسه هي بأنوثة قاسية:

- واضح!

ضيق عيناه بتوعد جاذباً ذراعه نحوه:

- كده

ثم تبدلت ملامحه باهتمام ليزيح خصلة قصيرة مالت فوق وجهها متابعاً:

- زهقانة ليه بقة.. أحمد برده

لوت شفتيها ببطء:

- كده قصدك قلق؟

ثم تركته لتعيد الصحن للطاولة دون ان تمسه ساحبة كوب مياة مثلجاً:

- مانكرش إن لسه موجود.. بس أحمد في الطريق الصح

رفع حاجبيه بدهشة ثم أردف بمكنون يعلم أنه يجول بداخلها:

- حتى في قربه من محمود

استدارت له وقد التمتعت عيناها بحكمة:

- تفتكر أنا تفكيري سطحي كده يا حمزة؟

لا ينكر أن شفتيه توسعتا بإعجاب.. تلك المرأة التي اختارها في أكثر سنوات حياته فوضوية فتشبث بها كغريق وجد المرسى تُثبت له كل يوم أنها استثنائية.

ورغم أن شيطانه ينال منه في بعض الأحيان فيكاد كمالها يُزعجه إلا أن مجرد أنفاسها بجانبه تعيده ليكون حمزة, وهي ليلى..

بتفاصيلها المحببة, قامتها القصيرة نوعاً ما وخصلاتها الكستنائية الهادئة.. صباحها المزدحم وجدول أعمالها الممل, هوسها الأمومي المزعج ورأسها النائم على كتفه مع كوب الشاي بالحليب الدافيء وصوت التلفاز, هي التفاصيل التي لا يُمكن الإستغناء عنها.

عاد إليها ولتلك النبرة الناعمة التي تابعت بشرود:

- في الأول قلقت.. بس بعدها لما فكرت لقيت إنه محمود هو أكثر شخص مناسب ممكن يقربله أحمد, احمد مش محتاج حد ينصحه أو حد يهتم.. أحمد محتاج شوية لامبالاة تخش حياته.. محتاج يعرف إن مهما كانت المشاعر مهمة إلا إن الحياة مش حتقف عليها.. محتاج جمودية قلب محمود

ولا ينكر أن نبرتها ثقلت في حروفها الأخيرة.. حتى أنها توجس وكأنه يحاورها ويسأل نفسه:

- مش خايفة يبقى نسخة منه

نفت بثقة:

- صعب.. أحمد حياته فيها تفاصيل كتير غير محمود, محمود مرحلة هو محتاجها مش أكثر.. محتاج يخرج من اكستريم المراهقة ويمر على قسوة الدنيا ببساطة.

وعقله هو أخذه لمحمود.. ذاك الشاب الذي ينتمي إليه بصلة رحم رغماً عنهما غائبة, ببساطة ابن خاله ولم يجريا حواراً مطولاً من قبل.. وتشاء الظروف أن من يقترب يكون أحمد.

زفر ببطء:

- وتفتكري محمود بقة محتاج إيه؟

لم يكن يسألها, كان يتحاور مع نفسه داخلها.. ربما يعلم الجواب وربما يبحث عنه..

تنهدت هي بدورها ونظرتها تغيب ربما في تاريخ لم تحضر تفاصيله:

- محتاج زحمة

- زحمة!

- اه.. زحمة, محمود محتاج ناس تقتحم حياته.. تهتم بتفاصيله وتشاركه فرحه وحزنه.. ناس تفتكره يا حمزة

غامت نظرته وسريرته تميل نحو الأبوة:

- يعني مش محتاج حسن.. مش محتاج أبوه

أما هي فكانت عقلانية! ثابتة الحروف والطرح كأوراق عملها تماماً أم ربما هي حنكة من يقف على جانب الصورة, يمتلك حيادية النظرة وينأى بمشاعره عن تفاصيل ما خلف الكواليس.

- خلاص يا حمزة.. محمود تخطى المرحلة دي. آخر حاجة ممكن يحتاجها هو حسن

- طيب محتاج مين؟

- عارف الجملة اللي بتقول أحلى حاجة في الحب إنك تتحب

وكأن الحروف كانت التيه وكلماتها الهداية, نظر نحوها بتشبث طفل بحكايا أمه وقد فطن بفضلها لمعنى النهاية

- صح.. إنك تتحب..

****

والحب ليس مجرد أنثى.. ليس امرأة وميل وشهوة..

الحب هو احتياج نابض!

ووجه الداكن كان صلباً وكأن ابتعادها عنه في الأيام السابقة يستحق عقاب, ملست بأناملها فوق جبهته ثم رفعتها متخلخلة خصلاته السوداء قبل أن تكرمش أنفها بيأس حمل نبضات جبهتها فوق وجهه:

- أقولك على حاجة

وتوسعت عيناه الضخمة في انتباه.. وكأنه كان ينتظرها ويُعاند!

أما هي فطفولتها تشكلت فوق حاجبيه وهي تحتج:

- أنا مخطوفة

والكتفين ارتفعا في حيرة:

- أنا مخطوفة يا عشق!

وتركت الأنامل الخصلات لتنتقل للوجه مجدداً, تمر ببطء فوق الجبهة وتميل بنعومة على تفاصيل الوجه.. تشرد معه وتغيب عيناها رغماً عنها مع تفاصيل

تبرر..

تفكر..

وتهرب

- هو لذيذ

- بس مدخنة لازم يبطل

- أو يخفف

ولوت شفتيها تلك المرة في يأس, وهي متأنقة لا تنكر.. بل جعدت الخصلات بنسبة مطلوبة واختارت حُمرة الشفاة بعناية وأخرجت محرمة ورقية كي تمسحه..

والهمس متبرم وغاضب والتتمة عراك

مع حصان!

- على فكرة الإحساس ده بايخ قوي.. غلس

وامتعضت شفتيها اما عيناها فكانت تهرب.. ربما من نفسها..

ربما من اعتراف

أو حيرة لن يفهمها سوى نصفها الآخر الذي بات همسها بدوره نصفه

وبابتسامة غير مكتملة همست بها وهو الوحيد المباح له بهذا اعتراف:

- بحبه..

وتصلبت كل عضلات جسدها وجحظ البصر بتنبيه صارم فقط لأنه ظهر على بعد عشرة أمتار, جذبت اللجام ببطء لتمر شفتيها جوار أذنه الضخمة بتنبيه جاد:

- بس بقه علشان جه

والتتمة مشاكسة:

- إنت رغاي قوي على فكرة!

خطوة فثانية وجوادها خلفها في طاعة, وكأنه ليس مجرد ترويض عبقري

هي سحرته..

أسند رسغيه على السياج الخشبي وترك الحرية للفافة تبغه لتتراقص بين شفتيه, لم يُشعلها فتلك اللحظة لا تستحق سحابة..

هي لم تمتطي الجواد.. كانت تسحبه برقة وخصلاتها تتطاير جواره.. تتركه لتتزيد من سرعتها تدريجياً فيلاحقها ثم تبطء فيوازيها تماماً

لم تكن تتدرب

ولم تبحث فوق صهوته عن ركض

كانت تلاطفه.. ببساطة تهديه لحظة!

حين استدارت نحوه محتجزة بين عيناها ضوء الشمس أشعل اللفافة, هرب بسحابته ولكن جسده اقترب..

قفز..

وتخطى السياج

- بيحس بيكي؟

كان سؤاله جاداً.. وكأن عيناه تتوق بشكل ما نحو الجواب

أومأت برضى ترجمته عيناها فوق ظهر الموستانغ الذي كان ثائراً:

- بيحس بيا

انحنت شفتيه بمكر جاور حبس اللفافة بجاذبية لحروفه

- ودلوقتي هو حاسس بأيه

ضيقت عيناها وتركته.. سحبت عشق مجدداً وكانت تعلم أنه سيلحق بها.. ربما لا يقول شيء.. وربما يقول لا شيء!

ولكن وجوده يكفي

ورغم هذا قال.. فمحمود لا يتجمد عقله أمام كلمات.. هو يفهم الفرصة ويجيد استغلالها تماماً

- لازم تدربيه على إشاراتك

أجفلها واستدارت, هي كانت هائمة غبية وهو عملي دون قلب

- أدربه!

والنبرة غاضبة أما هو فخلف حروفه تكمن لذة:

- علشان السبق.. مش داخلة كمان كام شهر

- اه

والإيماءة بنعم والهواجس لا تفهم

والعقل يتبرم بهمسه الخاص

"حاضر يا أخويا"

وحين تركته مرة آخرى قطع الخطوة بثقة رجل يسيطر على مجريات أفكاره

- ممكن أساعدك على فكرة

ووقتها هو اقترب.. مرر الأنامل جوار اللجام وغير المسار بجرأة مقصودة قبل أن يلامس يدها, والنظرة تحمل تحذير صارم

أو ربما ذكرى جملة قالها لها في ظلام الليل وكانت جوار عشق

"لازم تخافي"

وهي لن تخاف

هي لا تخافه

هي تودّ أن تقترب

"موافقة"

أما هو

فهو عالق في مرحلة المنتصف

النقطة الرمادية في عتمة سحابة اختارها بنفسه.. قادها بنعومة نحو الفخ فأصبحت له كما أراد ورغماً عنه

رغماً عن صلابته وأنفاسه المحبوسة تحت صفحة ماء قاسية

هو يسقط معها..

هل تدركون الفرق بين الحب والعشق

الحب يشبه ارتشافك لقدح قهوة ساخن, يأخذك معه إلى منطقة خارج حدود الواقع لتغيب أنت بجوار اللحظة

أما العشق

العشق هو قدح القهوة البارد الذي لم تكترث أنت بتفاصيله حيث سقطت في بُعد آخر لم تترجمه المشاعر بعد!

****

عارفة يا ماما.. طويل قوي فستاني

ومهما فعلت ومهما بلغ جمودها كأنثى سيتبدل كل عالمها عند تلك اللحظة, وبإرادتها الحرة..

والأمر هنا لا يتعلق ببداية حب أو حتى محاولة

فالأنثى كائن تواق للرغبة وسريرتها تعلم أنها الجائزة..

وحين قال أحبك لم يكن الفيصل.. حتى حينما ظهر ببابها

وطلب القُرب واليد والزواج.

كانت متوجسة..

ولكنها الآن ترتدي فستاناً وردياً مطرزاً بعد أربع زيارات

متكررة, أهل وأقارب وتفاصيل وبشاشة وجه أمه وحلقة ذهبية

أصبحت تحمل حروفه..

وتصميم حازم بجعلها زوجته..

فهو لن يحضر ويغدو ويجيء ويوصلها يومياً للعمل دون رباط

شرعي واضح, والذريعة يغار

أفضل ذريعة ممكنة بين كل ذكر وأنثى

وتوترت أناملها.. وارتعشت بين يديه وسيطر هو على الحلقة..

وقُبلة الجبهة..

- مبروك يا أحلام

والنبرة منه هامسة ومن الأهل مبتهجة ومن أخواتها ضاحكة ومن أمها باكية بدموع الفرحة

فقد تم عقد القران

ولأنها شرعاً زوجة فله الحق في عشاء متأخر وله الحق في ملامسة الخصر والعنق وسرقة القُبلات..

وابتعدت عنه بشفتيها وعيناها تدور بخجل في المكان المُظلم..

- لا

- إنت مراتي

ونبرته كانت قاسية متطلبة كقبلاته, وابتعدت أكثر وتصلبت دمعتها وكأنه لهذا فقط طلب عقد القران.. وطلب هو حساب العشاء ليجاورها في السيارة معتذراً ومراوغة نبرته أخافتها:

- حاكمل كلامي

وكلماته كانت معروفة.. هو يتسلل نحو ثغرها بكل جرأة,
ويبرر ويمهد ويجزم ويقدم فروض الحق والشرع والمباح..

ومعهم إن أراد الحب

واستسلمت لشفتيه تلك المرة.. بل كل مرة!

فالحب ليس مجرد حروف ناعمة

الحب اشتهاء..

وكان قد مر شهر كامل, سحابة من الهوى والقبلات.. ورجلٌ
يرسم ألوانه فوق عالمها بمهارة محسوبة, يجذبها معه نحو الهوة
ويعلقها بها بكل سبيل ممكن

برغبتها أو رغماً عنها..

ابتعدت عنه بخجل وقد تطورت لمساته تلك المرة لتتخطى
براءة الرغبة.. وجهها كان منفجراً أم خصلاتها فحدث ولا

حرج وقميصها فقدت أحد أزراره ودرات تبحث عن مِشبك وعيناها تحذره:

- فارس!

وكان يبتسم باستمتاع انقطع فجأة.. تبدل لون وجهه وتصلبت عضلاته ليستقيم منشغلاً بالهاتف

- أحلام أنا لازم أمشي

نظرت نحوه بعدم فهم:

- ماما بتحضر العشا!

- المرة الجاية..

ولم يبرر انصرافه.. أخذ الدرج بسرعة صارمة وقست نظرته جوار حروفه التي نبشت خشونتها الهاتف

- قولتلك خلاص.. أنا قربت أتصرف

قابله صوت غليظ على الطرف الآخر:

- بقالك أكثر من شهر..

- معلش إديني عشر أيام كمان

- عشر أيام بس وبعدها مش حارحمك

وشراسة عيناه وازت انقطاع الخط.. الوقت يمر وهو لم يقترب من مراده بعد

وارتفعت عيناه بشراسة نحو نافذة غرفتها

فدورها قد اقترب..

****

الفصل الثامن عشر

"وبتسأل يا حبيبي بحبك قد إيه!"

أنت ستظل دون أهمية في هذا العالم حتى تعطيك الخديعة دور البطولة!

فوق وسادة قطنية جامدة مال برأسه وعيناه تمران ببطء فوق شقوق.. هل يجوز أن تُحضر فأراً من مستنقع بارد كي يحيا وسط عرين الذهب!

حين خطا للمزرعة لم يكن يعلم أن ذاك العمل الذي ناله بفضل اختيار مكتب التنسيق بالثانوية العامة ليصبح دون إرادة طبيب بيطري سيكون تذكرة سفر بلا عودة لأفضل مسار..

الجنة..

وليست تلك التي طُرد منها آدم لتصبح حلم ما بعد الموت

هو لا يريد الموت.. هو جائع للحياة!

- فارس!

والنبرة كانت لأمه وحتماً ستسأله عما إذا كان يحتاج لعشاء..
يحتاج فهذا قانون حياته الذي ترعرع فيه رغماً عن إرادته

الطعام احتياج

والمتعة احتياج

والأمان احتياج!

صوت فرقعة طفيفة آخرى طغى وتجاهلها هو مع نداء أمه..
حتماً هناك معركة ما في زقاق خلفي وأراد أحدهم أن يُثبت
سطوته, حين تحيا بمكان شعبي تحت مستوى النظر ستتعلم أن
تتجاهل أشياءً كثيرة

تتجاهل السباب الذي لاحقك أنت وأمك من ميكانيكي
السيارات لأنك دهست خطئاً قطعة قماش قذرة ينظف بها يده

وتتجاهل علامة السلاح التي زينت وجهك في أول معركة مع ابن موظف مصلحة البريد المنتهج لمثالية ميِّتة وتخفف عنك أمك بأن الجرح سيلتئم ولن يترك علامة! وتتجاهل رأسك المنكس أمام الجميع لأنك أضعف من أن تأخذ حقك..

وأنت حقاً ضعيف..

أنت لا تأخذ حقك.. أنت تسرقه وتبيح لنفسك رفاهية أنك المنتصر!

وسرق فارس مطواة عبده الذي جرحه بها ولكنه لم يجرؤ على رد الصفعة.

وكما استحق عبده السرقة يستحقها خالد.

والأمر لا يحمل حدوتة انتقام درامية أو ثأر سينال عليه إكرامية. هو ببساطة تعثر بفرصة عمره ويجيد استغلالها على أكمل وجه..

كان اسمه أكمل! رجل خمسيني يعمل كسمسار في بيع الخيول خاصة العربية.. تعارف كان أساسه وجوده كطبيب بيطري في مزرعة رضوان وتلا ذلك ما أراده من خدمة أو رشوة..

- مش محتاج أكثر من توقيع.. الورق خلصان وكمان شهادات النسب حبايبنا ظبطوها بس علشان المشتري يدفع بقلب جامد محتاجين ورقة واحدة بتوقيع الراجل الكبير إن الخيل خارج من مزرعته

أمر بغاية البساطة والصعوبة..

ولكنه كان يستحق المحاولة فتلك الورقة ثمنها تخطى مائة ألف جنيه وتداين هو من أكمل نصف المبلغ!

- خلص يا فارس

وكان أول تحذير ولم يظن فارس أن تخليص ورقة صغيرة من خالد المحنك ستكون بتلك الصعوبة, فالرجل يدقق في كل

حرف تمر عليه عينيه.. يثب كنمر شرس بين أخطاء موظفيه ويحاسب على الهفوة قبل القصد بأشد عقاب

لم يكن هناك سبيل سوى واحدة..

مجرد نكرة أوقعها الحظ لتكون في دائرة ثقة وقرر هو أن يضمها لدائرته

أحلام..

وأنامله مرت بتأني فوق اسمها على هاتفه

- مش زعلانة..

وهمست بها برقة بعد تودد نصف ليلي لمدة ساعة.. كانت غاضبة لهروبه المفاجيء دون مبرر واضح وقدم هو اعتذراته وصدقته, خديعة تتخذ تاج رمانة الميزان بين شعرتين

الهمس واللمس

وهو يجيد كلاهما!

وإن كانت نيته في البداية لم تتخطى فكرة ارتوائها بكلمات معسولة واهتمام رجل كي ينال منها مراده باللين أو الشدة إلا أن أخلاقها المحمودة الغبية لم تهديه خيار..

تزوجها وملعونة هي به حتى تحقق ما يريد

- أحلام

وهمسه كان تلك المرة مختلفاً.. بل جائعاً, وبين رغبة الرجل وخجل المرأة ينتشر بين شرايينها خوف لذيذ

- عايزة أشوفك

- بكرة في الشغل

- دلوقتي

- إنت مجنون

وعيناها تبرق لا تصدق أنه سيفعلها والوجنة تكذب وتخادع وأياً كان المنطق فجولييت جاء عند نافذتها روميو حتى وإن قتلهم في النهاية شكسبير..

وفارس لم يكن درامياً شكسبيرياً يقدس تفاصيل قبلة ناعمة ووهج العشق في عيني امرأة, هي امرأة تُشبه كل النساء وإن أخذها معه في النهاية أم لا فالتفاصيل لن تُشكل فارق.. فقط توقع ورقة نجاته وسيؤمن له أكمل تذكرة سفر بلا عودة لبلد أوربي فقير وحفنة أموال وتوصية ما تضمن له بداية أفضل.

وأبعدته عنها بهلع بعد أن نفذ قراره وصوت الشيخ أحمد مؤذن الفجر قارب على الوصول وهي فتحت الباب وأغلقته سريعاً حين صارت همسته مسموعة وخافت وقالت بتوسل فارس والفارس حرك قدميها بموازاة انتهاكه نحو غُرفتها..

كان يعلم أنها لن توافق

أو أنه كان متعجلاً فاختار العهر الأسهل

منال من قطرات دماء وتصبح خاتم في بنصره يوجهها كيفما يشاء!

وأبعدت شفتيه عن كتفيها في هلع خرج ببحة لا تجرؤ على الصراخ.. وضغطة جسده فوقها لم تعد تفهمها, ماذا يرفض وماذا يبيح أم أن عقده عليها يفوضه لامتلاك حتى آخر قطرة..

والشهقة باتت مرتعبة خارج نطاق التمنع أو المتعة وهو يهدهد.. يهمس وينفث ويطمئن ويتابع مجاعته المبررة باشتياق

- أحـــــلام

وانتفض من فوقها بعد أن خُيِّل إليه أن الصوت جوارهم في الغرفة

- يلا يا بنتي علشان تصلي الفجر

وغابت نبرة أمها من خلف الباب مع صوت خفها المنزلي المبتل بمياة الوضوء ولعنة طفيفة من شفتيه الباردتان كشحوب وجهه ولحظة انقطعت ولن تعود

هي كانت باكية بارتجاف مميت فوق فراش أوشك أن يتلوث ومرآة أهدتها صورة غير مجملة لأنثى كادت في لحظة أن تصبح امرأة

أنثى بلباس نوم شتوي عادي تماماً بات ممزقاً من نصفيه

علوي وسفلي!

****

المثاليات سهلة السرد.. مُشبعة.

لكن التطبيق لعنة!

وهو اختار وخياره لم يكن ليقبل مفاوضة.. عشق كان يجب أن يوأد من قبل أن ينفجر, فليموت عشق مصطفى وتحيا ندى..

حتى وإن بدأت حقبة آخرى مع سواه..

وإن كان الخيار لم يقبل مفاوضة هل تجوز الهُدنة؟!

واستسلم لجنونه نحو التفاصيل.. بل هو اشتياق, ومعه الاشتياق وزر والرؤية معصية كان يجب أن يرتكبها.. كانت قد خرجت لتوها من الجامعة بعد محاضرة صباحية, ثوبها وردي بانسياب هاديء وسترتها رمادية كغيمة أوشكت على الظهور.. خصلاتها نائمة على جانب كتفها الأيمن في جديلة قصيرة وتخفي عيناها تحت عوينات سماوية..

وزفرة حارة تسللت من بيت شفتيه.. هو اشتاق للتفاصيل.. ونالها برؤية متسللة من خلف زجاج سيارته وكأنها هي الثوب الوردي وهو الغيمة التي لا تجرؤ على الحضور..

وابتسامتها بددت جزء منه.. كانت تحادث صديقتها وتمر بعيناها فوق سطور ما في دفتر محاضرتها في لحظة وتشرد في

الآخرى.. عيناها تغيب في سلام نفسي غامض ما تلبث أن تتركه لتعود للأوراق وللصديقة.

وإن افتقدته ألا يحق له أن يتدخل..

أن ينشأ دوره الخاص ولا يُبالي

وتبددت الفكرة جوار اللحظة وبتر مخرج قاسي دوره لأنه أراد بطلاً آخر أصغر عمراً!

ذراع صلب امتد ليربت على يُمناها ويجاورها في سيارته بكل عفوية متاحة.. وكأنها الأخت والصديقة والحبيبة والمنطق الذي يجب أن يكون..

وعن عيناها..

عن التفاصيل..

هي واضحة كـ قسوة ضوء الشمس

كما الأمنيات الساذجة بالسعادة الأبدية مع آخر مناسب لبدايات الحب

وكما قيل

المثاليات سهلة السرد

أما التطبيق.. كريه

****

- حتمطر

قالتها بابتسامة ناعمة وهي تخرج ذراعها من نافذة السيارة كي تتحسس الزخات, الجو بارد لا يناسب سترتها الناعمة وانزعج هو فخلع سترته الثقيلة ليضعها فوق كتفيها ونبرته تؤنبها:

- حتاخدي برد

ملامحه كانت جادة, حتى أنه لم يبتسم.. بحركة سريعة ثابتة وضع السترة فوق كتفيها وعاد للقيادة وإن تخضبت وجنتيها هي

في البداية بخجل غاب الخجل وحل محله الغضب مع صمته التام وانقباضة حاجبيه التي احتلت وجهه..

- خالد في حاجة مضايقاك؟

وتساؤلها بسيط.. عفوي لا يستحق انفجار!

- اكبري بقة يا ندى..

وتصبلت الحدقة بدمعات غبية.. صراخه كتم بهجتها فأغلقت النافذة منكمشة لا تفهم وطفولتها خلعت الستره, ولم تجرؤ على فعل ما هو أكثر فطوتها على ساقيها ضامة كل ملامح وجهها إن جاز الوصف

حاجبيها.. عينيها.. شفتيها.. ووردية الأخيرتين أثارت عبثه المازح فمكر بابتسامته قبل أن يهمس بمحاولة مزاح دون أن تتبدل قسوة عيناه:

- ممكن تحضنيه على فكرة حيدفيكي برده

- مش عايزة منك حاجة

والتذمر صاحب قذف السترة نحوه وتكتيف ذراعيها مع الحقيبة لتشيح بوجهها عنه تماماً وتكتشف أن المطر توقف قبل أن يبدأ

كانت مجرد زخات..

غيمة لم تكتمل تشبه رؤيته لسيارة مصطفى هذا الصباح بجوار جامعتها لتتصلب حدقتيه بنظرة لم تتحرر سوى برحيله وتناثرت الأفكار في عاصفة واحدة محلها قلبه..

هوة عميقة حفرت طريقها بجدارة وحقيقة هو يعلمها وكبرياءه يود محوها من الصورة

فتلك التي يحبها يريدها رجل آخر..

****

- مالك يا نكدي

النبرة المازحة وإن أخرجته من شروده إلا أن حمزة ومزاحه وليلاه وتواءمه وثمار اليوسفي لم يقتربوا قيد أنملة من تبديد ثقل صدره.. عيناه مرت ببطء على لون السماء وكأنه تمشطها جوار ذكريات من ليلة سابقة..

بصلابة جافة لا تناسبه جاءت النبرة:

- اتخانقت مع رقية

صمت حمزة لوهلة قبل أن يمرر الأمر بتجاهل مقصود:

- وإيه الجديد؟ ما إنت علطول بتتخانق مع روكا وتروح تلاقي دكر البط المتين وكل يا حبيب ماما

استدار خالد نحوه بابتسامة مهزومة أمام مزحة لا يستطيع التندر عليها.. تلك المرة الأمر خانق حد رؤية عابثة تحمل ندى في الصورة جوار مصطفى, ربما ليست المرة الأولى التي

تفاتحه فيها رقية بأمر تزويجه من تميمة وربما مر الأمر بتقنية ساخرة بين المزاح والهروب ولكن هو حقاً لم يعد يحتمل..

والشهقة وازت تفسير متحشرج لم يطلبه حمزة:

- تعبت.. زهئت.. اتخنقت من الصورة اللي مصممين يرسموها على طريقتهم, جامعة شغل جواز تميمة عيلة نسب مستقبل

ثم فرك جبهته بزفرة حارة وعيناه تتابع جوار كلماته:

- أنا مستوعب كل حاجة وفعلاً مش برضى أزعلها.. حتى انفجارها فيا بعد كل مشكلة مع بابا وتيمة ابنها المتدلع الفاشل فاهمه ومتقبله تماماً. بس نجاحها كأم مش جوازي من تميمة

تنهد حمزة بتفهم قبل أن يقترب منه مربتاً على كتفيه بحنان:

- طيب ما تجيب من الآخر يا خالد.. ريح نفسك وواجهها

ابتسامة هازئة خرجت من جوفه وكأنه يلفظها كباقايا طعام فاسد:

- دي بتتكلم معايا كأنه أمر واقع والاختلاف على الوقت بس

ثم تابع بنبرة يائسة:

- أنسب وقت ممكن أقولها فيه إني بحب ندى!

والحروف تشبه عفوية عاشق.. يسرد ويسرد ويغيب دون أن يدرك تفاصيل كلماته.. يتأرجح بين جنون منفعل وعقلانية مسيطرة ليتوه في النهاية فلا يصبح هذا ولا ذاك

- مش حينفع أعرض ندى لسخافات الموقف ده.. ندى مش حتستحمل

- اللي بيحب بيستحمل

والنبرة قاسية لمهندس الزهور واليوسفي.. تشبه بداية الحب بين اللهو والقبلة والربكة و"شغل الجنان" وذيوله التي تحمل نكهة الواقع.

رفض خالد بتعنت:

- لا..

وغضب حمزة وربما لأنه لا يفهم:

- جرب تكون أناني.. إرضاء الجميع غاية لا تُدرك

ونظر له خالد دون تعقيب فتابع:

- مش حينفع ترضي رقية وتخاف على ندى وتفركش دون موقف حلم جوازك بتميمة.. مش حينفع

والتتمة جملة لا تحتمل جدال

حتى وإن أحزن كلتاهما

"خد موقف يا خالد"

****

وبمشهد رومانسي مكرر سأل الصديق البطلة

"ولما بيستهبل بتعملي إيه"

وأجابت بكل صراحة ممكنة

"بستهبل!"

وهذا هو الحب في بعض الأحيان

استهبال لذيذ

وابنة مروض الخيول تأخذ دروسها مِن مَن يضاهيها خبرة, وتميمة ليست مجرد هاوية تعشق الخيل وتحفظ قوانينه..

تميمة تتنفس الصهيل وتمسك بخيوط الوهوهة..

وشردت وكان هو جاد.. يديه تمسك باللجام ويوجه عيناها لنهجه الخاص في توجيه حصانه, عيناه جادة مرتكزة عليها تماماً وكأنه لا بشر سواها في الكون وله أكثر من ساعة لم يستنشق هواء التبغ!

وفجأة ترك اللجام ليشرد هو وعيناه تغيب عنها دون ترتيب ليكون مع عشق

- بس سيبيله مساحة الحرية يا تميمة.. من وقت للتاني فكي اللجام

جاورته لتقترب من جوادها وتردف بنبرة هادئة قلما تناسبها:

- عارف أنا أوقات بيكون نفسي أعاقب اللي خدوه

استدار نحوها باهتمام مختلف, وجه منها لا يعرفه وملامح تنبض برقة أنثى تعشق جوادها لا تروضه:

- بياخدوهم للمزارع عشلان الشغل..

وحل الغضب محل الرقة لتخرج الكلمات بعدها كسيل دون ترتيب:

- إنت متخيل بيخصوهم علشان يضمنوا منهم شغل أكثر وكأنه مش كائن حي لا مجرد آلة.. بابا فعلياً أنقذه لما جابه هنا

واستدارت مبتسمة ببراءة:

- عشق ده ابني

لم يستطع أن يكبح جماح مناوشتها في دمه.. ابتسامة متخابثة مرت على طرف شفتيه قبل أن يغمز لها بشكل خاطف:

- اللي جابلك يخليلك

وقبل أن تستعب مناوشته تابع بملامح بدت لها جادة:

- بس بيخصوه ازاي

- إنت قليل الأدب على فكرة

وهي لا تصرخ بصوت رقيق غبي رفيع متخاذل فقط.. هي كلها بلون أحمر وتستدير وتتركه وتنسى أن تأخذ عشق وهمسها يستشيط:

- سافل

وتتذكر وتعود لتأخذ عشق وهو يملس فوق رأس جوادها برقة.. يطبع قبلة قوية فوق خصلاته ويربت بعنف محبب على ظهره ويستجيب له الجواد.

- تميمة

وتوقفت مع نداءه ولكن دون أن تستدير.. ورغم هذا هو يستطيع أن يتكهن بابتسامتها مع بقية كلماته

- أوعي تزعلي مني..

وبعد توقف دام لدقيقة استدارة باشراقة أنثى على بداية العشق:

- بس أنا زعلانة

وهي من تناوش تلك المرة.. تشاكسه وتستمد قوتها من سيطرة حصان

اقترب خطوة والصوت خفيض كي يناسب المسافة:

- أصالحك

وتكتف هي ذراعيها بعناد لا يبالي:

- مش حتعرف

أما هو فعيناه تبالي.. تقترب.. تقرأ.. تتشبث بدواخل غير مفهومة وترسم جوار ملامحها لوحة تحوي ثلاثتهما

ونبرتها توترت.. خرجت أبحة بخجل أنثى آمانها بات في الهروب

- أنا...

وهمسه الآن قريب.. تقلصت المسافات في لحظة رغماً عنها.. وعنه

- أنا صالحتك خلاص..

وابتسامة ذكورية مفادها الغرور تشكلت فوق ثغره

وتبرم همسها يسبقها:

- مغرور

وهمسه هو جريء وواضح:

- لايق عليكي..

وهربت.. أيا كانت تفاصيل تلك اللحظة فهي فوق احتمالها

"وتلك سابقة يا تميمة"

****

في يوم صحيت شاعر براحة وصفا

الهم زال والحزن راح واختفى

خدني العجب وسألت روحي سؤال

أنا مت؟ ولا وصلت للفلسفة!

وحكيم في صباحه تدثر بمعطف صوفي ثقيل.. يوم بدايته باردة وانقباضة غير مفهومة تتمكن من صدره وتبيح له شيخوخته ذريعة أنه تأخر في ابتلاع حبوب الضغط..

بل تأخر في موعد استيقاظه.. فطرقات محروس عامل الفرن تكاد تكسر الباب الخشبي كضريبة لإحضار خبزه الطازج, لفظ حاضر بتر آخره حين وجد أن زائره لم يكن محروس ولا خبزه.. لوهلة غادرت الثقة الفيلسوف:

- محمود!

وابتسامة ناعمة أعادته ثلاث سنوات للوراء.. تقدم هادىء بين جدران الشقة التي افتقد جدرانها ورائحة قدوم المطر تنبيء بطقس يعيد الذاكرة سنوات, بطاطا ساخنة وكوب شاي ملتهب وصوت البرنامج الموسيقى وكل منهم يمسك بكتاب..

- في فطار..

وهمسته خرجت جوار أنفاسه مع عيناه التي تشبثت بتفاصيل وجه حكيم وكأنه افتقدها.. هل يجوز أن يسرق من طوفان غضبه ساعة

يعود محمود الذي كان ليوم واحد فقط

يشحذ طاقة انسانيته..

- جذبته يد حكيم بحنان وهو يقول بأبوة صادقة:

- تعال الجو ثلج..

تقدم محمود وتفاصيل المنزل تعود كما هي في ذاكرته..
الجدران الخضراء الباهتة ببروايز عدة تحمل صور عائلة حكيم, الكراسي المذهبة القديمة بأغطيتها المزركشة من أجل الحماية والطاولة الضخمة بثماني مقاعد مبطنة متهالكة مع سجادة إيرانية قاطمة بنقوش متداخلة متناهية الصغر.. على جانب غرفة الاستقبال يحتفظ حكيم بمذياع قديم لو فكر ببيعه لمحبي التحف النادرة لنال مبلغ وقدره خاصة أنه ما زال يعمل..
تشويشه وحده نوستاليجا وصوت فؤاد المهندس ما زال هناك ليقول كلمتيه وبس!

- حاعملك الفول بتاعي

- ياريت..

وكأنه يفهمه وهو يترجم بعيناه كل تفاصيل ملامحه التي لج بها الشوق نحو ماضي قريب.. حتى طبق الفول الذي يعده حكيم بتأني زمن اندثر كانت له بهجته الخاصة, الحبيبات التي إنتقاها بعوينات خبيرة من بين ماءه الذي يغلي والهرس المدروس جوار نصف ملعقة مختارة من طحينة منزلية الصنع مع نصف ليمونة ونثرة ملح وكمون بمقدار خاص جوار ماء وزيت لا يتجانسان سوى في صحنه..

- حضرت السفرة يا محمود

- ومحروس جاب العيش والطعمية السخنة

- ممتاز

وشهية حكيم انفتحت فمر الوقت بضحكات غابت عن كلاهما من وقت, ليس محمود فقط من يحتاج حكيم.. حكبم أيضاً يحتاجه, يتشبث بشعلة النقاوة داخل صدره وينفث فيها بحرص كي لا تنفجر فتسلمه لدهس البشر أو تنطفيء وتوقظ شيطانه..

ومحمود أنهي طعامه بشهية أنهت على معدته فنفث تبغه وختم بكوب الشاي الثقيل الذي لا يعده أحداً مثل حكيم

وسخر وكأن السخرية تأبى أن تغادره في نقاء اللحظة:

- أكلك أحلى من أكل رقية

تجاهل حكيم ثقل كلماته ليرخي جفنيه في استسلام هادئ قبل أن تخرج نبرته بحنكة رجل حفرت بعقله السنوات أكثر مما يجب:

- تفتكر لو طبقنا نظرية أريستوفان على حسن ورقية وسهام مين حتكون نصه

توسعت ابتسامة محمود حتى كادت تدمع عيناه منها ومن التبغ سواء لتخرج بحة صوته مجاورة لسعال:

- إنت حترجعني لأساطير ممنوعة يا فيلسوفي

أما حكيم لم يكن يبتسم.. كانت عيناه فاحصة لدواخل شاب يقل عن نصف عمره:

- فكر بس..

الهمسة تلك المرة خرجت جوار تنهيدة:

- رقية طبعاً

والتفسير لم يكن عاطفي حالم بل كان واقعياً حد القتامة:

- شبه بعض

وغابت عيناه بعدها عن حكيم.. عادت لذكرى يوم سابق نام في خضم أحلامه واستيقظ آخر يود أن يعود للحظة

"لايق عليكي"

وكأن العلاقة بينهما لا تحمل مجرد بداية انجذاب أو طموحات عشق.. هي ببساطة تشبهه, وكأنه على نحو غامض تُكمل تفاصيله..

خرجت من ضلعه كما يحب أن يصدق البشر

ونبرته باتت غاضبة بجواب عن سؤال لم يطرحه حكيم

- حواء بس اللي خرجت من ضلع آدم..

والأساطير تقول أن كل نصف سيبحث عن نصف!

واستهزأ عقله دون أن يسمع حكيم..

وحين يختفي النصف ستجد السلوى في نصف آخر

وحكيم يفهم أفكاره:

- مش شرط حتى لو اتجوزت ألف نصف حيفضل اكتمالك نصف واحد

واسترخى هو بجسده على مقعد قديم:

- وحاعرفه بقه إزاي

ولم يجب حكيم.. هو وقت لا يسمح بأن يطيل فسريرته تخبره أنه بالفعل قد قابل نصفه..

****

ليل مر وصباح جاء وهي بيلوجياً لم تختلف, ففي حكم الجسد ما زالت عذراء..

ولكن ماذا عن النفس!

ضمت جسدها لنفسها بارتجاف وعقلها ما زال يترجم لها عري من سويعات سابقة رغم أنها تدثرت الآن بأكثر من ثوب..
ودت أن تعطي لنفسها كما المدللين أجازة أو المحظوظين جداً هروب ولكن هي لا تمتلك تلك الرفاهية.. فاليوم لديها ساعات عمل طويلة ورئيسها سيتواجد من الصباح الباكر لإنهاء عدة معاملات هامة..

الرحيل من المنزل كان له ميزة آخرى أيقنتها وهي ترفع قدمها اليمنى في مجاهدة كي تنال مقعداً مميزاً بحافلة الركاب

المنطلقة بسرعة صاروخية وكأنهم سيلحقون الجنة. كان سيظهر مجدداً بمنزلها بصباح تلو ليل كانت معه ستختبر جحيم..

وبكت ولاحظت عبراتها عجوز تجاورها فدون وعي رددت معها استغفارها المكرر

"أستغفر الله العظيم"

وهو لم يكن يمتلك الوقت لمحايلة أو استكمال خطة.. عيناه كانتا غائرتين بسواد قاتم خلق فوق حدودهما هالة, وجهه شاحب وشفتيه باهتتين نطقتا باسمها فور ما رآها

- أحلام..

وتخطه.. تشبثت بمقدمة قميصها المُغلق واتخذت من عويناتها الضخمة ساتراً ضده

- أنا عندي شغل

وتجاهل هروبها ليُغلق باب غرفة المكتب على كليهما مما أصابها بهلع باكي:

- فارس المهندس خالد زمانه جاي

- أحلام لازم تسمعيني

وحدته ليست حدة عاشق يحارب كذباً من أجل جسد ولا حِدَّة نادم واجه نفسه في مرآة منزلهم القديم ليقرضها قدسية أخته..

كانت حِدَّة يائس..

ورغماً عنه سمعته.. تركت له حرية إرهاقها بتفاصيل باتت تعنيها, فالخاطب والزوج والعاشق على مشارف السجن بفضل دَيْن فاسد والدفع سبيله تزوير ورقة

بل خيانة..

وصرخت:

- لا.. إنت إزاي تطلب مني حاجة زي كده

استقامت وصورته التي رسمها أمامها بريشة كاذبة تهتز، يريدها أن تخون الأمانة.. تخدع الرجل الذي وثق بها مثل مقربيه..

والشيطان حين يزين لك المعصية لا يأمرك بها.. هو يفند ببراعة التبرير:

- في فرق بين الخديعة والضرر يا أحلام

وذرفت هي بيأس دموع:

- ومين المضرور

وهو يصرخ ويأسه هو مخادع:

- أنا..

والتتمة توسل بضعف مطلوب:

- أمي اللي ممكن تموت بحسرتها لو اتسجنت وإنت اللي حتكوني مطلقة في لمح البصر أو زوجة لرقم في عنبر

ثم همس بشر يود أن يرسم وضاعة الصورة:

- حتقبلي تيجي تديني حقي الشرعي في عنبر يا أحلام

- اخرس

وتبعده عن طريقها بضعف أما حروفها فتبكي..

وفحيحه عاد مجدداً بوسواس مُتقن:

- هو خالد شايفك أساساً.. حاسس بيا أو بيكي.. حتى الورقة اللي حيمضيها لا حتضره ولا حتفيده لكن حتنقذ روحنا يا أحلام

- دي سرقة.. ده مال حرام

وشراستها سبقت نبرتها, هل في الحق مناورة أو جدال.. أما هو فوداعة ملامحه كانت ترسم ببراعة الاحتياج:

- رحمة ربنا مش حتحاسب اللي سرق علشان يعيش

وذهول ملامحها لا يأخذ بلوثة صوته:

- إنت بتقول إيه!

- أنا في أزمة وإنت مش بتقفي جنبي.. بتتخلي عن جوزك

ورفضها بات هستيرياً يحرك رأسها في نفي مرتعش:

- إنت بتطلب شيء مستحيل

- مش حياخد باله

- مش حخونه

- الخيانة تقع بالضرر

- والضرر بشبهة الحرام

- حرام مش حيلمس إيدك

- بساعدك!

- بتنجديني..

- وأخذله

- أنا الأقرب لك..

- وهو وثق فيا

- وأنا كمان..

وقبضته تلمست ارتجاف أناملها بدعم.. تشبث بها في لحظة ووجها بمكر نحو قرار لو تكن تنوي أن تتخذه.. دس الورقة بين ملفاتها وتمم على خداع ضميرها ليصبح مضطراً دون إرادة..

- أحلام

وعبراتها كانت لم تجف بعد.. حتى القرار غاب وسط الورقة التي دسها فارس ببراعة سارق

تابع خالد بنبرة صارمة وتفاصيل يومه المزدحم خانت ملاحظته لعبرتها:

- هاتي الورق بسرعة يا أحلام ورايا شغل في المزرعة التانية

وتلكأت كلمة حاضر وظهر فارس بشكل غير مفهوم وكان يُشغله بأمر بدا هاماً عن مشكلة ما بمزرعة المواشي

- أحـلام

ونبرة خالد تزعق والملف بين يديها مرتعشاً لا يجرؤ على البوح.. أو الهروب

توقيع.. اثنان.. عشرة

تم الأمر..

وباتت مثله

مُذنبة في لحظة!

****

والليل كان ستاراً لصباحٍ طويل.. فارس المنتشي بانتصار اكتماله في حصوله على ورقة الكنز وأحلام الذي تبدل عالمها

كله بين ليلة وضحاها فانفردت بشيطانها تبكي وتحاول أن تبرر أركان جريمتها.. الساعة تعدت الثامنة مساءاً وهي معتكفة بين جدران المكتب دون رحيل, الورقة مفرودة على سطح مكتبها الخشبي تأبى أن تدخل حقيبتها وعقارب الساعة تركض متكالبة عليها كي تسرق منها رفاهية الوقت..

- أحـلام

وفحيح الشيطان ناعم.. هل قابلت من قبل شيطاناً يصرخ

- حبيبتي

وعيناه لا تصبر فبترت كلماته

- هي فين

كان المكتب الخشبي أمامها فارغاً.. كما حقيبتها التي جذبها عنوة فاستعرت عيناه بشرار:

- الورقة فين..

ارتجفت عضلة فكها الأيمن لتبرق عيناها في قوة واهية:

- لو كلمنا المهندس خالد حيدفعلك المبلغ..

- إنت مجنونة!

وفقد الفارس سيطرته.. صرخته هذرت لا تبالي:

- هو بعد ما وصلت لكل ده حتيجي غبية زيك تضيع كل حاجة

والزمان لم يكن ليتحمل دلال آخر.. ولا المكان

جذب خصلاتها عنوة لتسقط عويناتها دهساً تحت قدميه:

- الورقة وإلا حكمل اللي عملته امبارح هنا وحاقول معرفكيش

غامت عيناها بعبرات ثقة تهاوت في ساعات.. ومدت قبضتها بخضوع في جيب ثوبها لتلمع عيناه بجوع على كنزه الثمين

الشر ينال كل شيء

والخير في تلك الدنيا ساذج..

مهزوم..

"لا"

وإن سمعها فقد كان بعد فوات الآوان.. حين ارتخت يداه عنها كي ينال جائزته ابتعدت بها في لحظة والتوقيت لا يبيح باهتزاز قرار..

مزقتها نصفين

وإن كانت خيراً ضعيفاً أمام شرٌ مستطير فستنتصر..

- اه يا بنت ال....

وأياً كان ما فعلته فهي لم تستوعب انتقامه

****

وإن كان الليل ستاراً لصباح.. فالانتظار أسوء..

من يظن نفسه ليختفي هكذا يوماً بطوله.. يُغلق هاتفه ويترك المزرعة ويتبخر ليصبح ببساطة غير موجود

- ماشي يا محمود

وهمسها يتوعد ومتسللة هي من منزلها بحجة رؤيته.. أو تأنيبه.. والدماء المضخوخة من قلبها تحمل اشتياق.

كان قد وصل لتوه وبمكر مقصود اختار البوابة التي تمر بطريق أمام نافذة غرفتها.. سيبيح لها رؤيته ولنفسه انتظارها إن أرادت

وكان الجو بارداً وهو يدفيء نفسه بلفافة تبغ!

- كنت فين طول اليوم

- مبحبش التحكمات دي

وحاجبه يرتفع في استهجان مراوغ.. أما هي فكتمت غيظها بعد أن ضمت ذراعيها مستشعرة برودة الطقس الذي تجاهلته حين خرجت من منزلها بمجرد قميص سماوي خفيف وسروال واسع:

- مواعيد تدريب و....

وقطع كذبها صرخة..

أيا كان الصوت فهو دب في أوصال كلاهما الهلع فركضا دون وعي نحو المصدر الذي كان مكتب أبيها.. هناك لمحا وجهاً أنثوياً مخضباً بالدماء وخصلات متكورة داخل قبضة خسيسة والمعتدي ما زال يركل البطن والظهر بكل قسوة..

لحظة لم تكن تحتمل تردد

تميمة التي أمسكت بمقعد خشبي لتقذفه بكل قوتها على فارس ومحمود الذي قفز بينهما ليجذبه بعيداً عن أحلام مغرقاً وجهه بكدمات يستحقها..

قبضة فآخرى وآخرى وفارس يغيب

والأمر ينتهي ولكن ليس كما خطط

وأحلام تستقيم متشبثة بذراع تميمة وتميمة تُخرج هاتفها كي تطلب دعم..

رفع قبضته فجأة ليوقف سيل لكمات محمود ليميل بجسده كله فوق صدره قاذفاً كلاهما في الحائط في حيلة تعلمها قديماً, وكان يعلم أن قوة قبضات محمود ستعود إليه وهو في ضعفه لن يكون له من الحصار فكاك

لم يكن هناك بُداً من هروبٍ قاسي..

ولا ضرار أكبر من مضرة حالية

لحظة..

فكرة..

سرقة قديمة..

ونصل معدني اسمه مطواة عبده!

- محموووووووووود

وصرخة تميمة كانت بعد فوات الآون

كان صباحاً عادياً وليلاً طويلاً

ونهاية بدماء

الفصل التاسع عشر

ليه ياقلبى ليه .. بتحلفنى ليه

أخبى الحكايه .. وأدارى عليه

هناك لحظات تفتقد حدود الزمن, لا بداية ولا نهاية..

هو وجع وكفى..

- مـ حـ مـوووووو د

واللفظ تجمد مع برودة قاسية اكتسحت أطرافها ككل.. ركضت نعم ولكن هل لنا أن نتخيل شعور تمثال ثلج يركض.

توقف العالم..

ارتطم بها الجاني في رحلة هروبه, اصطدم بكتفها فترنحت دون أن تدركه.. وخطوة فآخرى فثالثة فراكضة فخائفة فسقطت فوق ركبتيها بتوقيت سقوطه, عيناها تعلقت بعيناه وقبل أن يغيب طوقت بكفيها رأسه.. فوق ساقيها ارتخت جفونه ويده تكتم دماء انبقثت من جانبه الأيسر وبشكل ما أنفاسه هادئة..

اللحظة عادة لا تحمل تفسير.. أو وعي, واللون الأحمر المتسلل بين ثنايا أصابعه مزعج.. بل حقير, وامتدت يدها جواره ولم تكن تعلم ما هي فاعلة.. هل ستكتم الدماء معه أم تزيح..

وباتت يدها ملونة بدماءه مثله.. وضم هو عينيه يكتم الألم وبشكل ما تحيط به أنفاسها من كل جانب.. عيناها نزفت العبرات كما نزف هو دماءه وحشرجتها باتت هستيرية بين صراخ وهمس..

- محمود

تهمس وينظر لها لوهلة ثم يغيب

- محمود رد عليا

وارتج العالم لأنه ذهب وهي لا تفهم.. وتصرخ مجدداً وكأنه تنهره ليعود فيبقى معها داخل الحلم ففجأة كل شيء أصبح شبيه بالرؤيا.. حتى وجهها كان مهتزاً بملامح مبهمة كتلك التي لا تتذكرها بعد وقت نوم طويل.

- محمود ماتروحش مني..

وهنا كانت قد بكت بشكل كامل.. رأسه بات ثقيلاً فوق ساقيها ويُمناها تكتم دماءه فوق يُسراه أما يدها الآخرى فتملس بحنان فوق جبهته.. تنمرت عيناها مع عودة طفيفة للواقع لتصرخ بشراسة بالآخرى المتجمدة منذ أول صرخة طالبة منها أن تُحضر نجدة فورية وتعود لعيناه مجدداً.. تجبره بشراسة طفلة ألا يغيب وبعشوائية جنونية تمرر أطراف أناملها فوق وجهه كي يبقى..

وجنتيه.. أطراف جبهته.. شفتيه

والهمس منتحب.. مؤلم ملعون لها معه

- محمود أنا بحبك

والنبرة أبحة متعلقه بباقي الوعي النابض حوله كطيف.. بل هامش رؤيا هو بداخلها غائب, سارح فوق أطراف الحلم والألم ودفء امرأة احتوت رأسه وقلبه ودماءه..

متشبث بنظرتها جوار جدران الوعي حتى غاب.. فقد إدراكه السيطرة فتركها مع توسل أخير مكتوم باسمه ووصول خطوات راكضة لمحت شبح قدومها من بين نهر عبرات وتشوش أخير بشبه كلمات

- الحق محمود يا بابا

****

حين انتفض خالد على صراخٍ مُستنجد من إحدى موظفاته لم يكن يعلم أن رؤياه ستضم محمود مضرجاً بدماءه برأس ممدد فوق ساقي ابنته..

مشهد لجّمه للحظة قبل أن ينتبه لنبرتها المتوسلة وطوفان البكاء بمقلتيها, إيناس كانت خلفه لاهثة وقد سبب لها صُراخ أحلام هلع غير مسبوق خاصةً أن تميمة لم تكن بغرفتها.. وفي إثرها رقية التي كانت تعتني بأوراق النعناع الطازج وانتبهت على حدّة الصوت.

وموجع شكل الدماء لأي إنسان كان.. ولكن تميمة... الباكية بانهيار غير مسبوق وتكاد تضمه لجسدها!

فغر فاهٍ وصدمة وعينان أيقنتا الشك..

غيمة الجمود لجميعهم تشتت في لحظة حين خطا خالد بجدية كادت تكون زاعقة يميل نحو ابنته وجسد محمود الممدد على الأرض وجواره إيناس تجس النبض وبحرص ترمق الجرح من تحت يد تميمة ورقية متصلبة مكانها تهاتف حسن.

- حصل إيه؟

قالها خالد بنفاذ صبر والتلعثم كان جواب ابنته عن طعنة وسكين وهارب.. أحلام تقف مرتجفة جوار الحائط وإيناس تعاين الجرح بثبات كان يجب أن ينتهجه أحد..

- الجرح مش عميق بس الأنسجة متضررة بشكل كبير.. لازم حالاً ننقله عيادة الفندق

- مستشفى؟!

قالها خالد باهتمام فتابعت وهي تستقيم مُحادثة الطبيب المناوب في عيادة الفندق:

- مفيش وقت.. حضروا عربية وحافظوا على جسمه مفرود واحنا بننقله

ثم تابعت بحرفية صارمة نحو ابنتها:

- تميمة متسيبيش الجرح

كان هو حينها بين وعي ولا وعي.. طيفها يجاوره لحظة وفي لحظة يتغلب عليه الألم فيغيب. وصل أحد حراس البوابة بأنفاس متقطعة وتلاه حسن الذي تجمدت أوصاله باصفرار وازى حُمرة دماء ابنه لتبتر أفكاره بعدها نظرة خالد الصارمة أنه لا وقت لاستفسار.

حمل خالد محمود من ذراعيه بينما رفع الحارس قدميه ليسند حسن جوارهما جسده وتميمة الضاغطة بعزمها فوق جرحه, وفي السيارة المساحة لم تكن تتطلب أكثر من ثلاثة معه..

خالد الذي جلس على مقعد القيادة وعقله غائم بكل فكرة ممكنة..

قلق.. توجس.. غضب!

وإيناس التي جاورته وما زال الطبيب معها على الهاتف تعطيه بشكل مسرع عدة تعليمات وتطلب استغاثة عاجلة من مشفى قريب أما قلبها فمغلق لأنها هي من يجب أن تتصرف..

وتميمة..

تميمة التي كانت في عالم آخر لا يحوي سواه..

مُرتعبة تخذل يدها جرحه وشاردة بين غيابه وحضوره وشفتيها تكتم القلق والسؤال والصراخ باسمه وقتما وضعوه فوق طاولة الكشف ممزقين قميصه..

- ماما هو بيغيب ليه.. شوية في وعيه وشوية بيتوه

استجمعت إيناس شتات أنفاسها وهي تستوعب حجم أن

جرحه, كان سطحياً نعم ولكن بشكل عرضي على يسار بطنه بأكمله:

- الجرح كبير يا تميمة..

وبعدها فهم زوجها النظرة والكلمة قبل أن تُقال:

- خرجها..

وإن مرت نصف ساعة فقد كانت أطول نصف ساعة في تاريخها القصير.. كانت مسترخية على الجدار ببكاء فقد رصيد عبراته وحسن جوارها يغوص برأسه بين كفيه وطبيب متمرس في النهاية ظهر يحمل تفسير, كلمات عملية انطلقت من بين شفتيه ولا اهتمام بالتفاصيل.

فهو بخير..

تابع الطبيب وهو يجمع أدواته:

- الجرح كبير والنزيف كان جامد بس قوة عضلات بطنه منعت الضرر. عندنا تهتك جزئي في الأنسجة. عملنا خمسة عشر غرزة حيفكهم كمان أسبوع إن شاء الله وحيحتاج حقن المضاد الحيوي دي مرتين في اليوم وتغيير يومي على الجرح.

- ننقله المستشفى يا دكتور

كان هذا حسن الذي انتفض جوار قلقه وعيناه تتسلل نحو الغرفة

ابتسم الطبيب بحرفية:

- لا مفيش داعي..

ثم أشار للطبيب الشاب المناوب بعيادة الفندق:

- دكتور محمد هنا حيتابع الجرح بس أهم حاجة الراحة.. مش عايز حركة لمدة ثلاث أيام.. تقدروا تدخلوا تطمنوا عليه دلوقتي

ورحل الطبيب وجواره خالد الذي همس له على ما يبدو بشيء ما أما هي فتجمدت وكأنها عادت لصقيعها السابق مع ظن فقدانه

هو عاد وخصره محاطاً بلفافاتٍ بيضاء تكتم آثار جرح موجع, والدتها جواره تريح ظهره فوق الوسادة بحنان وحسن يركض رغبة في اطمئنان وخلفه رقية شاردة تحارب مشاعر إنسانية انفجرت نحوه وتهرب نحو ملاذها في ثقب أسود.

بخطوة مترددة تقدمت وإطار عينيها اللهفة, حروفها ليس لها مكان فأحياناً يكون الصمت هو سيد العشق..

كان يتأملها.. وكأنها خرجت من حلم قرر أن يستدعي تفاصيله.. يكاد حتى اللحظة يشعر بحرارة ساقيها تحت رأسه وبرودة أطرافها فوق دماءه

شعور غريب..

وكأنه الموت والحياة في ذات اللحظة

" محمود أنا بحبك"

نعم..

الموت والحياة في ذات اللحظة

السقوط والجنّة!

ولهفة صوت حسن قطعت نظرة كان يجب أن تتوقف..

- حننقله البيت

وردّ قاطع آخر أعاد النظرة

والردّ منه والنظرة لها..

- لا

ثم ارتد عن جفاءه للحظة مع النظرة الصادقة من أبيه ولكن ستبقى "لا"

مع تعقيب موجع

- متتعبش نفسك يا بابا أنا متعود آخد بالي من نفسي

ومحاولة نصف اعتدال أجبرته على تأوه خافت خطف عيناها ليقطعه صوت خالد الأجش وهو يرمق توتر ابنته:

- سيبه على راحته يا حسن

ثم تابع بنبرة صارمة مجاوراً إيناس:

- غرفته في الفندق أفضل لأنها أقرب لدكتور محمد أنا لو مكانك حكون مطمئن أكثر

ثم عاد لمحمود بنظرة ثاقبة:

- إنت كويس دلوقتي

وأومأ محمود برأسه دون تعقيب زائد

اللحظة بتفاصيلها لم تكن تحتاج من أي منهم تعقيب زائد...

مرت وبقيت ذيولها ولا سيما أنها ستكون الأهم.

****

كانت لتوها قد بدأت تعيد أنفاسها من الاضطراب.. تستدعي نفسها بعد لحظة كادت أن تصبح النهاية

ومر على بدايتها شهر..

ورود.. شغف.. غزل.. وزواج!

والتوت شفتيها بمرارة مع إدراك لا يحمل رفاهية, فهي زوجته..

امتدت يدها بألم نحو حقيبتها وحينها لمحت بقايا الورقة التي شطرتها نصفين.. نجاتها الوحيدة كانت نصفي تلك الورقة

لو ضعفت للحظة

لو سلمتها إليه

لفقدت نفسها إلى الأبد

- اتفضل يا دكتور

انتفضت بهلع وصوت خالد يقتب عائداً بطبيب أربعيني.. نظرة متفحصة من الطبيب لوجهها المتورم والدماء التي جفت على جانب شفتيها, كدمة زرقاء أعلى كتفها لم تكن تدرك منها

سوى الألم وتحريك متأني لمعصمها ليقطب جبينه مخبراً خالد أن به كدمة تستدعي رباط ضاغط..

هل وجع النفس يقتل وجع الجسد أحياناً..

أنهى الطبيب عمله منهياً بتمرير مستحضر ناعم فوق كدمات وجهه ومنبهاً عليها ببعض العقاقير وهمس سمعته فأيقنت أن اضطراب قلبها يوازي البداية

- لازم نعمل محضر

لمح خالد شحوب وجهها بعد أن سمعت همس الطبيب فتابع وعيناه مرتكزتين عليها:

- بلاش محضر.. وبالنسبة لمحمود حاعرف أجيب حقه

وهي لا تعرف خالد رضوان.. فارس لم يقابله حقاً بعد, وأسوء أعداءه قُتل دهساً تحت قدمي حصان.

ارتدت للخلف تحتضن حقيبتها ونقاء فطرتها يقود عيناها نحو الورقة.. عبراتها تترقرق بذنب مجرمة ضعفت وخانت ما وكل إليها من ثقة وتراجعت في آخر لحظة

وهو لا يحتاج أن يوجه سؤال..

هو جذب المقعد وفي مواجهتها جلس وقسوة نظرته تبيح كل اعتراف ممكن

وتهاوت على المقعد المقابل

- ححكيلك على كل حاجة

****

ملعون متألم مفقود يا ولدي!

وضربة قاسية فوق الحائط مع لوي شفتين وألم حارق مع أول لفافة تبغ..

هو ليس مصاب لا..

هو في لعنة!

زفر بحرارة معيداً نفسه بتأني نحو الفراش أو كما يتوهم الطبيب الراحة.. أسند رأسه مجدداً وعقله يفكر جدياً مهاتفة الطبيب الشاب من أجل عقار مسكن حقاً يحتاجه.. طرقات الباب كادت أن تخرجه عن عقله وكأن به قدرة الآن على مغادرة فراشه ولكن ما لبث أن هدأت الطَرقات ثم شعر بمفتاح يدور في حلقة القفل لتخبره أن زائره لديه تصريح دخول!

ضم حاجبيه في ترقب لم يختلف نهجه حين لمح ضيفه!

- أنا أخدت نسخة مفتاح من الريسيبشن.. كوسة بقه

وأكمل خالد حديثه وهو يضع بعض الفاكهة التي جاء بها مع صحن حساء ساخن:

- الدكتور بيقول شوربة بس أول يوم وبعد كده أكل مسلوق.. وبعد كده حقنة بالليل عليا ومتقلقش أنا إيدي تقيلة

قالها وهو يلوي شفتيه بابتسامة ماكرة غامزاً له بمزاح بدا غير مفهوم..

أخيه.. واهتمام.. وشوربة رقية!

وكأن خالد يفهم ما يدور بعقله.. تابع وهو يسكب بعض الحساء في صحن صغير:

- إنت مش عايز تيجي عندنا ده حقك.. بس إحنا من حقنا ناخد بالنا منك

وفي نهاية جملته رفع بصره نحوه.. كان جاداً.. عطوفاً.. ربما مثالياً كما لا يجب أن يكون

كما يجب أن تُنجب رقية

وسخرت الجملة جوار عقله ولكنه لم يرفض منه الحساء..
ناوشه خالد بابتسامة:

- أشرَّبك

رفع محمود حاجبه باستنكار جاد ولكنه حمل لمحة من مزاح مقابل:

- مش للدرجة دي

ثم زفر مسنداً رأسه في يأس:

- أنا محتاج مسكن.. وسيجارة

راقب خالد ألمه لوهلة بمشاعر غير مفهومة قبل أن يتابع:

- حقنة بروفين حتظبطك حانزل أجيبلك من تحت بس سجاير لا يا معلم.. اصبر لبكرة

ولا يدرك أنه ظل بعدها يراقبه وهو يرتشف حساءه.. يتأمل ملامحه التي بشكل ما تشبه جزء منه رغم أن كلاهما ليس بنسخة من أبيهم.. تلك الإنقابضة المكررة من حاجبيه مع كل الم يحضره رافضاً بمعاندة أن يتأوه وجوارها القسوة المصطنعة التي تخفي على ما يبدو الكثير

ببساطة تحبس ضعفه..

واستقام فجأة بنبرة أبحة:

- حاجيبلك الحقنة

ليستدير بعد تردد وثلاث خطوات قبل الرحيل:

- محمود.. أنا حبات معاك النهاردة وبعد كده حاسيبك براحتك.. بس النهاردة مينفعش تبقى لوحدك

وربما لم تتبدل إنفعالات وجهه.. ربما تشبث بجموده وصلابة ملامحه..

ولكن...

شيء ما بداخله استجاب

شيء لا يعلم ماهيته

فربما هي الدماء وربما... الفطرة

****

متهمة هي والجريمة عيناها!

وعلى مائدة العشاء هادئة على غير العادة.. ترتشف حساءها ببطء ولم تقرب غيره, وتتعلل بنوم مبكر لأن لديها صُداع!

الحب... صُداع!

وتتجاهل إيناس مواجهة مشاعر ابنتها في وقتها الحالي وتعلم جيداً أي بركان اتقد بصدر خالد...

بركان في بداياته عادي.. منطقي.. مشروع جداً

لأي أب يغار

وبأعماقه سيحمل ألف هاجس وسؤال!

وهي انتفضت مع صوت هاتفها تحت غطاء, وكأن العالم بأجمعه سيسمع.. وهو هادئ الصوت.. هامس بمكر افتقدته!

- إيه ده مش تطمني عليا.. ولا هو دم الليل مدهون بزبدة

كتمت ضحكتها بعدما أغلقت بابها بمفتاح!

- إنت عامل دلوقتي؟

- زي البُمب طبعا..

وتتصوره الآن معتدلاً في فراشه بمعاندة رافعاً حاجبه الأيسر وكأن سؤالها جنون.. ونبرة الصوت ارتفعت رغماً عن حرصها:

- والله

لوى شفتيه بمشاكسة:

- بس الدكتور محمد ده ايديه تقيلة قوي.. المفروض كنتم تجيبوا دكتورة

جرعة مقننة من إثارة الغضب.. والغيرة!

وشراستها لم تكترث بالنبرة:

- محمود إنت محتاج جنبك التاني

انطلقت ضحكته بعفوية حتى تأوه فتركت شرودها مع الضحكة قلقاً عليه:

- محمود..

والهمسة تتجاهل الألم لتشاكس من جديد:

- تعالي اديهالي إنتِ

ضمت حاجبيها في اغتياظ"

- مبعرفش أدي حقن

- أعلمك

وهو يناوش جداً وعاد للتبغ ومتحمل آلامه شهيداً في سبيل دخانه:

- أنا مُصاب ميتخافش مني وأوعدك مش حاسيب السرير

وفهمت وقاحته فتوسعت عيناها وشفتيها تكاد تقولها....

"سافل"

كتم ابتسامته مكتفياً بصمت لنصف دقيقة محتجزها معه على الهاتف لتهمس هي أخيراً:

- روحت فين..

- حاروح فين.. محبوس في السرير وبشرب سجاير

ويستحق هو زعقتها:

- سجاير يا محمود إنت بتستهبل

وعاد هو لصمته.. فوق شفتيه تتشكل ابتسامة هي لا تلمحها وعيناه ترتخيان بسلام فقط لأن أنفاسها تتخلل ظلامه

بل عالمه ككل..

- لما تروحي الاسطبل سلميلي على عشق

- حاضر

وهو أبح النبرة أما هي فمطيعة

وكأنها تتعمد إغاظته وتهرب.. عاد المكر ليتلون فوق شفتيه:

- وبوسيلي لانا

وبيأس وكأنها تدلل طفل هي أكثر من سعيدة بمكالمته:

- حااااضر

وببراءة باطنها العبث أردف:

- تاخدي البوسة

أبعدت الهاتف بهلع قبل أن تزعق بتحذير حاول أن يكون صارم:

- حاقفل في وشك والله

وضحك هو مجدداً وتلك المرة تأوه حضر بشكل أوضح فانتفضت:

- محمود بطل استهبال وريح نفسك

- تنهد فخرجت حروفه جوار زفير أنفاسه:

- حاضر بس بشرط

- ايه بقة

- عايز أشوفك..

وتلك المرة لا يُمازح ولا يُشاكس.. جديته تنبض بين حروفه وكأن اعترافها التصق بين لاوعيه أو الأسوء..

كان واعياً

تجمدت شفتيها فخطفها من شرودها بمزاح جديد.. وكأنه بات يشبع رغبته فيها بمشاكسة:

- هاتي لانا محرم.. ودي فضيحة أساساً

ضحكت متشبثة بمزحته لتنجو:

- فعلياً لانا حتعمل مورستان بكرة علشان حضرتك بتحبك قوي

والصوت هنا بات أجش.. يقذف الحروف ويقصد باطنها الذي لن يفهمه سواها

- عارف

هكذا ببساطة..

محمود "عارف"!

****

أنهت جلي صحونها ببطء وتنهيدتها ترسم فوق الزجاج سحابة!

الوقت كان قد قارب على الحادية عشر مساءً والسقيع بالخارج لا يُحتمل.. تغضنت ملامحها هامسة لنفسها بتذمر:

- خالد مأخدش جاكيت ثقيل!

وهو حضر في وقته كما هي عادة حسن.. كان لتوه قد أنهى كوب شاي دافيء وعلى ما يبدو يود غيره..

أو كما توقعت تماماً.. يبحث عن نقاش

مشجب كي يعلق عليه سقطاته!

- خالد حيبات هناك؟

- معرفش..

وسؤاله جاف وردها مقتضب.. والبداية كانت ليلة أمس حين أخبر خالد بحادث محمود وصوته يستبقي لها ملامة..

هي السبب وكفى..

ولأنها تعلم تفاصيل النقاش وبدايات المعركة ونهايتها.. تعلم ما قيل وما سيُقال وما يجب عليها أن تتحمله لأنها نالت شرف اختياره..

ابتسمت وتركته لنوم مبكر..

وضعت له الشاي والحلوى والفاكهة ودواء الضغط حتى لا ينسى وأرخت رأسها وأفكارها تدور فقط بمن يستحق..

"خالد"

ملاكها الذي لا يعرف الخداع ولا الملامة ولا التخطيط المسبق..

يجاور أخيه كما تنص قوانين الطبيعة ولا يعلم أنه بات غريمه..

أن ابن سهام سينال مراده وبأسهل مما يتصور وأنت أول من ستنال النبذ يا حسن!

****

الوقت قارب على منتصف الليل والسقيع جمّد أنامله فعلياً فظل يفركها باضطراب لفت نظر القليل من المارة قبل أن يدسهما في جيب معطفه من جديد.. رفيق موعده ظهر اخيراً بعد سباب خافت توعده به أربع مرات وعيناه تدور كصقر في الوجوه.

عقله يطمئنه أن أكمل لم يعلم بالخبر بعد وهذا قد يعطيه فرصة ليهرب.. يقذف بنفسه مضطراً فوق أحد قوارب الهجرة ببضعة آلاف ادخرها لتلك معضلة ويلعن في سره غباء أحلام التي ستنال ما تستحق حين يتركها هكذا معلقة..

زوجته ولا...

فلتهنأ بالمثاليات وتأكل دمعاتها حتى التخمة.. وشفتيه التوتا بحقد وهو يسترجع تفاصيل خسارته.. خمسون ألف جنيهاً كانت كافية لبدأ ترتيبه الآخر وتوصية أكمل التي فقدها الآن لا محالة.. والأسوء أن بالأكيد لو مكث بمنزله يوماً آخر فلن يتركه خالد..

حسب الوقت بدقة ونجا حتى وإن كان خاسراً

غبية يا أحلام

الشر ينجو..

واستدار بحدة صقر يلمح اصطفاف السيارات كي يلحق برفيقه ولكن...

لم تكتمل الخطوة

توقفت مع صوت يعرفه جيداً وآخر ما يود سماعه!

الفصل العشرون

العالم هو الخطر! ليس بسبب وجود الشر بل بسبب هؤلاء.. من يتركون حالهم فريسة!

"ألبرت أينشتاين"

وهل اعتاد خالد رضوان أن يترك نفسه كـ فريسة!

حين ارتشفى آخر ما تبقى من قدح قهوته لا ينكر أن التواء ساخر بشفتيه مر ليعيده أكثر من عشرون عاماً إلى الوراء. فبتلك الغرفة نشب حريق بدأته خطة كارمن وعلى بعد أمتار قليلة قُتل كريم وهناك في تلك البقعة المظلمة كاد أن يفقد إيناس.

زفرة نارية لا يفهم تفاصيلها المُرتجف خلفه خرجت مع استدارة.. كان دسوقي أقدم عُماله وبئر ثقته يمسك به من

الخلف في تملك موجع وجواره سائسان سهرا لتلك المهمة خصيصاً.. أحلام تقف باهتة الملامح على جانب الأسطبل وعقلها يعيد كلمات خالد التي ابتلعتها صباحاً دون جدال فهي مرغمة ولا تملك حق الرفض حتى إن طُلب منها تقديم عذر كاذب لسهرة عمل ومبيت.

- قعدوه..

قالها خالد بنبرة صلبة الأحرف قبل أن يتابع بسخرية قاسية ورجاله يثبتون جسد فارس فوق مقعد خشبي قديم..

- ضيف بقه ولازم نكرمه

من أنفاس متهدجة تسلل صوت فارس بمذلة مُخزية:

- خالد باشا..

- اخرس

والنبرة هنا غادرت حيز القسوة لتنتقل لبعد آخر أرجف الجميع.. زعقة خالد رضوان التي لا يجرؤ في حضورها سوى الصمت.

خطوتان فثالثة ورابعة وقعهما كان بمثابة حكم الاعدام في رحلة هروب فاشلة.. عينان قسوتهما نشوة صقر قبل الانقضاض على الفريسة وحنكة سنوات جعلته أمامه مجرد طفل سيبكي جوار الاعتراف

- ارغي

- والله العظيم يا باشا أكمل هو اللي رتب كل حاجة.. أكمل..

قاطعته ضحكة عالية من خالد الذي ابتعد نحو نافذة جانبية لم تمرر سوى القليل من الضوء فوق انفعال عيناه:

- أكمل ده ولا حاجة.. ده مجرد ترس في منظومة إنت أحقر من إنك تعرفها

ثم استدار نحوه لتستطرد شفتيه بازدراء:

- طلَّق..

بشكل ما بدأت عينا فارس في استيعاب ما حوله.. الآن لمح أحلام تقف منكمشة في بقعة مظلمة مُحاطة بهالة مثيرة للشفقة, متشبثة بتنورتها السوداء الضخمة.. قميصها الخانق وخصلاتها المعقوصة في ترجمة ساذجة للعِفَّة.

سريرة الخير في مجتمع فاسد!

وعيناه ضاقتا بحقد التقطه خالد ليشير بطرفة آمرة لأحد رجاله ليحضر الضيف المنتظر خارجاً بأوراقه ونهاية لم يحسبها فهاهو يطلق أحلام بمأذون شرعي وفي اسطبل خيول مهجور بمزرعة خالد, وتلك مجرد بداية!

حين تركت يداه القلم أردف خالد بعينان لم تتركا وجهه:

- ده حق الغلبانة اللي ضحكت عليها.. فاضل حقي أنا

شحب وجهه لينتفض جسده بغريزة محاولاً التخلص من قيود حبل غليظ أحكمه دسوقي تلك المرة والنبرة تعود للخضوع مجدداً:

- أبوس إيدك.. أنا..

- إنت عارف أكمل حيعمل فيك إيه علشان الورقة

وباستهانة تأمل خالد ملامح وجهه قبل أن يستطرد بنبرة هادئة وهو ينظر لوجه أحلام موجهاً حديثه نحوها:

- الورقة اللي إنت قطعتيها دي أكمل واللي وراه دفعوا دم قلبهم علشان تخرج من محطة التسجيل.. البيه ده كان ممكن يسيح دمك فعلاً لولا ظهور محمود

ثم عاد مستديراً لفارس من جديد والقسوة تعود من أجله:

- محمود.. ليه حق هو كمان الراجل دمه ساح

- خالد با..

وبطء نبرة فارس كان يوقن أنها لن تكتمل.. إشارة يد من خالد وهو يستدير مجدداً نحو أحلام أعطت لرجاله إذن البداية.. لكمة فقبضة فوجع فتوسل فدماء انبثقت من فمه وهو يسقط من فوق المقعد بعد أن فككوا قيوده.. زحف لم يعد يوقن شكل النهاية وهروب أصبحت رفاهيته معدومة.

حين ارتفعت عيناه نحو خالد لمح جسده مهيباً وكأنه عالياً بقدر لا يمكن بلوغه, يديه مستقرتان بهدوء في جيوب بنطاله ونبرته تزدريه ببطء لاذع:

- أنا مش حسلمك للبوليس.. حاسيبك لأكمل ورجالته هما حيتصرفوا معاك

ثم استدار نحوه بشفتين ماكرتين:

- اللهم اهلك الظالمين بالظالمين

والتتمة نصيحة قاسية وازت نظرة خالد رضوان التي لا يهرب منها أحد:

- أفضل حلولك زنزانة!

وفي مكتب معاون المباحث بقسم 6 أكتوبر ظهر شاب بوجه أزرق الكدمات وبين يديه ورقة ممزقة بختم حكومي صحيح وكاذب!

قضية تزوير شبه مُكتملة والبداية حشرة والنهاية قد تكون عش دبابير..

****

- تعالي يا أحلام

قالتها لها أمها وهي تجذبها بابتساماتها الحانية نحو الموقد.. فوق طنجرة قديمة وضعت مقدار السمن المناسب قبل أن تضع فيها قطع الثوم المهروسة بتأني وتحرك المزيج بملعقة خشبية كبيرة وتفرك بيدها حبوب الكزبرة المطحونة.

- بصي بقه لونها بقة حلو ازاي

وشهقة!

ومطبخ قديم ربما تآكلت جدرانه ولكنه بشكل ما بات يحمل أصالة العبق, تعرق أمها وتمسكها بتفاصيل غير مفهومة كي تعد لهم ملوخية شهية.. الدجاجة المقطعة لثمان قطع كي تكفيهم جميعاً وقطع الباذنجان المقلية بحشوها المعتاد من الفلفل الحار..

أفضل مقبلات شعبية على مر التاريخ.

ومع انحناء شفتيها بابتسامة مكتومة تأملت أمها هذا الجرح البائن الذي لم يندمل بعد.. آخر ما تبقى من كدمات جاءت بها أحلام منذ أيام والتفسير حادث سير!

والزوج اختفى...

- فارس لسه مسافر؟!

قالتها الأم بشكل مفاجيء.. حتى ملامحها المندمجة بشدة مع آخرحشوٍ من الهريس الحار لم تتبدل, ازدرت أحلام ريقها لتدفن كذبتها داخل صحن وزعت فيه قطع الدجاج بتوتر بلغ أوجه:

- اه

والقاعدة تقول لا كلام على طعام.. ولا طعام!

عيناها شردت في لاشيء وظلت تحرك محتويات طعامها دون أن تقربها.. خصلات شعرها مكبوتة ليلاً ونهار تحت ربطة قطنية بيضاء وأناملها لا تجيد تحريك شيء دون ارتجاف.

قلب الأم ينبض عن بعد فماذا عن القرب..

وجذبتها حتى قبل أن يلملموا بقايا المائدة.. صرفت إخوتها الصغار للعب خارج المنزل وجاورتها على الأريكة القديمة لا تبغي سوى اعتراف

ليطمئن قلبها..

أو يصرخ!

وإن كان صوت الأم لم يرتفع لوهلة إلا أن أحلام كانت من تهاوى.. فوق الصدر ومع دفء الأنفاس ابتغت خلاص من حمل ثقيل تمكن منها حد الاختناق, تنازلت نعم.. ضعفت ربما.. خسرت لا تعلم. وشهقتها وازت دمعة من طوفان عبرات:

- آنا أسفة يا أمي.. سامحيني

وليلتها لم تنطق أم أحلام بشيء.. تركتها بعد أن أنهت نوبة بكاء حتى النهاية ثم دخلت غرفتها ولم تظهر حتى صباح اليوم التالي, ابنتها كانت ستموت من القلق

الخوف والندم وربما الجنون..

هل حقاً الصدق منجاة!

أم أن الكذب نجاة أفضل..

والشيطان هو أفضل رفيق لديك في أحلك الأوقات.. لا يذهب.. لا يمل.. لا ينشغل بشيء عن سقوطك!

يجيد اللعب على أوتار ضعفك ويزرع بتأني بذرة الشك في ثوابتك إن وُجدت..

وللحظة نادمة أحلام.. تبكي فوق سجادة صلاة وتناجي ربها ثم تطرق باب أمها من جديد وشيطانها يثور, يجلدها على آخر اعتراف..

وتلك بداية لتندم على خيرها كله..

وفي الصباح وفوق فراشها الذي نعست عليه باكية استشعرت شفتين رطبتين فوق كفها وهمس أمها يبكي:

- سامحيني يا بنتي.. سامحيني كنت حضيعك

وإن بكت أحلام يومها آكثر وإن أغدقت كف أمها بآلاف القبلات لا تبغي منها سوى العافية والوجود إلا أنها لم تدرك بعد وجع أمها..

لم تفهم حجم الملامة التي عاشت بها المرأة ليلة كاملة وستدوم.. التاريخ الذي يحمل توتر امرأة اذا ما شهق رضيعها أو فزعها مع سقوط طفلها من دراجته الجديدة وأذكار النوم التي تحرص على ذكرها فوق رأسهم كل مساء.

أم أحلام حملت نفسها ذنب التقصير في السؤال عن ما جاء يبغي ابنتها وأم آخرى لا ترى بالكون سواه

التقصير غير وارد بعالمها من الأساس فعالم رقية بهجته خالد.

حين وافقت على العودة لحسن كان من أجل خالد.. حين حولت منزلها لمستعمرة آمنة فقط لتناسب خالد.

أفرطت في حمايته نعم

حاصرته ربما

ولكن عالم رقية هو خالد..

هو العدسة التي أصبحت ترى من خلالها الحياة

وزفرة غير مفهومة وازت إعدادها لمعجنات التوت الصغيرة كي يأخذها مع العشاء لـ محمود, لطالما شعرت بالضيق من وجوده.. أو ربما الخوف

حتى في طفولته وأجازته القصيرة كان كثير الحوادث مع صغيرها الرقيق, وزفرة آخرى مرت بمرارة وهي تتذكر محاسبة زوجها العظيم على عدم العدل

هو اختارها زوجة وحيدة وبات عليها هي العدل بين ابنه وابنها

يالها من أنانية!

وزفرة أخيرة كانت نهاية تغليف الوجبة الخاصة من أجل الشقيقان.. وبالطبع تحمُّل ملامة رفض الابن الأكبر المكوث معهم

ملامة رحيله ورفضه وحقد سهام المطل من عينيه وفي منزلها..

وارتفعت عيناها لتلمح تميمة من النافذة وهي تتوجه لسيارتها وعلى ما يبدو ستذهب لاسطبل الخيول.. أو ربما المرور للاطمئنان على صحته..

عفواً حسن

فلتتآكل بملامتك فلا شيء يرضيك من الأساس

والشياطين لا تُنجب الملائكة!

****

من قال أن الحب لذَّة كاذب

الحب حيرة.. تشوش.. دغدغة مزعجة في القلب لا تزول سوى برؤيته.

وضعفت وكانت حُجتها بالية, تقف في بقعة مرئية من باب غرفته وعيناها تتلكأ فوق ظل على النافذة.. تحادث صديقة لها

من العاملات بالفندق وتركتها الحمقاء وحيدة لتجيب مديرها وإن خرج من غرفته الآن سيضبطها متلبسة بالاشتياق.

ومن قال أن الحب لذة صادق

فلا شيء يعادل الآن لذة النظر إلى حيرة بحثها عنه..

عيناه تركتا حكيم الذي حضر في الصباح المبكر في قلق حين علم منه بتفاصيل الحادث.. تناولا الإفطار سوياً وقرر محمود أن يريض قدميه قليلاً وآخر ما توقعه رؤيتها, وكأن عنادها من أجله يذوب..

حين أخفضت عيناها يأساً من رؤيته جمدتها الاستدارة, كان يقف على بُعد أمتاراً قليلة منها وعلى ما يبدو لم يتخلص من ضمادته بعد, ابتسم لها بتحية وقحة تناسبه..

يغمز لها بشكل واضح وابتسامته تقرأ الغيب ما شاء الله

"هي حضرت من أجله"

قطبت حاجبيها لتهرب من محيطه ولكن نبرته أوقفتها حين تقدم منها ليبدأ سلام

- تميمة

وهو يبتسم بوضوح

- محمود

وهي تصطنع الاندهاش

كبح جماح سخريته حين استدار لها رفيقه ليتأملها ملياً قبل أن يتولى هو التعارف

- حكيم

وإن تأملته هي بدورها كان عقلها يتسائل أهذا اسم أم صفة, وجه مستدير مشرئب بحمرة هادئة وخطوطه تبدو وكأنها خرائط سنوات.. ابتسامة هادئة تهديك راحة قلب غير مسبوقة وصوت رخيم يليق ببداية قصة من كلاسكيات مندثرة.

وإن بادلته التحية في اقتضاب إلا أن هذا الرجل هناك شيءٌ غامض متعلق به.. شيء يبقيه في الذاكرة..

بعدما ابتعد حكيم هامساً لمحمود بما لم تفطنه رغم أنها استرقت السمع اقترب منها هو مجدداً بمشاكسة:

- كان بيقولي إنك حلوة

- والله

وكتمت ابتسامتها تتخطاه ولن تسأل عن صحته فهو يمتلك الكافي منها لإغاظتها كما العادة.. ولكنها توقفت فجأة لتلتفت نحوه والسؤال بشكل ما يكترث به:

- محمود.. مين ده؟

وانحنت شفتيه بابتسامة لم تلمحها بوجهه من قبل, وكأنها ابتسامة طفل عرف أن لوحدته ونيس:

- أبويا

وعيناه تمرر تشبث خاص بوجود هذا الرجل وكأنه ناله مجدداً بعد رحيل.. عيناه تترجم انفعالات غير مفهومة وكأن بـ دُكنتهما ما يفوق مشاعر عشق هي لها بداية,

هي عاشقة نعم.. ولكن لرجل لم تفهم تفاصيله بعد..

****

غرفته تحولت لذكريات اعتماد!

وإن لم ينتبه جوارهم لتفاصيل القصة من بدايتها إلا أن صوت خالد الذي ضحك حتى أدمعت عيناه بالتأكيد أثار انتباهه.. ومن قال أن الضحك مرضٌ معدي مُحق فهو شاركهم اللحظة حتى وإن في البداية لم يكترث بالتفاصيل.

كان أحمد هو من ظهر في البداية.. مشروع الشاعر الذي كان يتبعه كظله, وللمرة الأولى يرى توأمه محمد عن قرب ورغم أن كلاهما يميل أكثر لـ ليلى في الملامح إلا أن هذا الأخير ذكره بالأب حمزة.

علاقة خالد متوطدة بالاثنان وإن كانت الكيمياء بينه وبين محمد مثيرة للانتباه خاصة حين يتطرق الأمر للمزاح. ورغم أن بداية الحديث كانت عن كراهية محمد للحقن والدواء بشكل عام إلا أن الأمر الآن هو انفجار ضاحك عن امرأة ما تُسمى اعتماد ورواية كان بطلها حمزة..

- بس يا سيدي.. وفجأة ليلى بتفتح الباب لقت حمزة قاعد في مطبخ مدام اعتماد مستني القميص ينشف وهي حطته في غسالة الأطباق علشان استخسرت تشغل الغسالة على قميص واحد

وكان هذا خالد دامع العينين ولاحقه محمد في الضحك وكان على ما يبدو داهية يسبق سنه بسنوات:

- بس طلعت مشهورة يا خالد كل ما شاليه جديد يتأجر في المنطقة تروح تعمل الشويتين على صاحبه علشان تصعب عليه ويساعدها في ماسورة المية اللي انفجرت وبعدين توقعه في المحظور

تابع خالد شاهقاً من بين ضحكاته:

- لولّا منعت مصيف مرسى مطروح

وتابع محمد بمكر يتذكر معركة أمه مع أبيه المظلوم ليلتها:

- أصلاً عايزة تبيع الشاليه

ثم فرك محمد جبهته مكملاً وكان يبدو جاداً رغم نبرته المازحة:

- بعد كده نروح بس من غير كبار

وتابع خالد وهو ما زال منفجراً بعبثه:

- اه أنا وإنت وأحمد ومحمود وعبد الله وحمزة

وتهاوى جميعهم من الضحك مجدداً حتى محمود الذي شرد منهم في المنتصف هاجمته رغماً عنه البهجة.

هو لا يحمل ذكريات كتلك التي يتحدثون عنها.. لا يملك مشاهد متفرقة عن رحلة عائلية جوار شاطيء بحر ولا الحياة مع أمه وزوجها كانت تستحق انتباه.

كانت باردة كتخطيط العم شامل لسفرة روتينة دون مذاق, حتى حين تغير مقر عمله وتركوا الكويت متوجهين إلى قطر لم يحدث فارق سوى رغبته التي جاءت بعد ذلك في امتطاء الخيل.

علاقته بأخوته كانت جامدة وكأن فطرة أخوتهم كانت بينهم فقط وظل هو الاختلاف, سهام كانت تسترضيه بهدية من حين لآخر وتخبره سراً أنها من نقودها هي فنقود أبيه المرسلة بالكاد تكفي لمصاريف دراسته وأكله وملبسه ومستحضرات التجميل التي تدلل بها نفسها من حين لآخر لأن شامل بخيل!

كان يعلم المسكوت عنه ولم يكن يبالي

وعرف حسن أنها تخدعه فقلل نقوده!

- محمود..

نداء خالد أخرجه من شروده ليستفيق على ابتسامة أحمد الهادئة وصوت خالد يُتابع بتأكيد:

- حتيجي معانا مطروح

وفرصة الرفض في المزاح غير متاحة رغم أن الغرض جاد..

ربما مرت ذكريات الماضي دونه ولكن بيدنا أن نرسم في الحاضر ما نشاء لنتذكره في مستقبل قادم.

****

رجعت الشتوية..

وتدندن هي.. وتعشق فيروز

الجو بارد ولهذا هي ترتدي مئزر رمادي من القطيفة الناعمة برسمة لطيفة لميمي زوجة ميكي والمجد للطفولة..

بيجامتها قصيرة بشورت ملون ظريف وعوضت برودتها بجورب صوفي طويل حتى منتصف فخديها..

وفخديها منتفخين ليسا رقيقين كالمغنية الشقراء في الفيلم الرومانسي الأحمق الذي شاهدته منذ قليل وغضبت فاتخذت قرار الحمية الغذائية التي لم تكتمل أسبوعاً من قبل وها هي تقطع ثمار الفراولة والموز في عشاء صحي راقي..

ومعلقة نوتيلا..

حسناً اثنان هي لا تأكل خبز!

والهاتف في توقيته لتقتحم نبرته خلوتها وخطة عشاءه الغير مكتملة:

- بتعملي إيه

- باكل ستروبري

- نعم ياختي

- فراولة يا خالد..

وهي متذمرة لا لشيء سوى أن الفاكهة دون مذاق وجرعة النوتيلا ستتضاعف

ولوت شفتيها وكأنها تحادث نفسها:

- أكل صحي

- ليه يعني

وقالها هو دون اكتراث وهو يتوجه لسيارته, كان لتوه قد خرج من عند محمود وأراد أن يطمئن عليها في حديث مطول بعيداً عن تركيز والدته..

رقية تحاصره مؤخراً ويدرك هو أحلامها ويهرب..

تابع بعد أن استقر في السيارة دون أن يديرها:

- قوليلي ليه بقه

أجابت بخجل:

- دايت

- بس إنت عاجباني كده

وكان سريع الردّ.. ووجنتيها تتورد بسرعة ندى ويعلم والمثير للضحك تحاول أن تتمسك بتمرد النساء:

- ده شيء يخصني على فكرة

- لا طبعاً يخصني أنا

وهو ماكر يناوشها ويعلم أنها لن تحتمل المزيد, بل هي حمقاء تماماً:

- يخصك إزاي يعني

- لما تكبري حابقى أقولك

وأدار سيارته لتتنتهج نبرته تلوها جدية خادعة:

- ها حتسمعي الكلام ولا أقولك دلوقتي

ولم تنطق ولكن هو يتصور شكلها تماماً.. تزيح طبق الفواكه ووجهها يومأ بطاعة جوار ملعقة نوتيلا.

هي.. هي ليست مجرد حب عابر أو اشتهاء يجاوره

هي ندى..

ندى وفقط..

وهمس بها قبل أن يُغلق:

- إنت وحشتيني.. بقالي يومين مش عارف أشوفك

وتركت النوتيلا لتحبس سبابتها بين شفتيها والكلمات هربت.. هي اشتاقته أكثر وهو بسبب حادث أخيه غائب

- هو عامل إيه؟

وأغبى رد ممكن لتُبَّدل الموضوع وعذراً محمود

- سيبك منه دلوقتي

وأعاد تكرار كلماته ببطء مقصود:

- بقولك و حـ شـ تيـ نـي

ويكفيه أن تسمعها.. يكفيه أن تكون معه لوقت على الهاتف

يكفيه أنها.. ندى

- إنت كمان

قالتها بخفوت أهدى صوتها بحّة متفردة, لا هي أنثوية مغوية ولا هي طفولية متطلبة..

هي بحّة ندى وكأنهم سيستحدثون وصفاً باسمها

- ندى أنا ممكن أجي وإنت متفتحيش عادي

والنبرة قد تشاكس ولكن القلب قد يهشم المباديء

وهي عاندته بنهجها وحتى إن كانت تشاكس:

- حاضر مش حافتح

وهمسه وصلها بصدق مكترث:

- تصبحي على خير يا حبيبي

وأطاعت..

وابتسمت..

وأوقفت بأناملها قطار قلبها النابض, وتحسست طقوس وجنتيها الخاصة بالحرارة..

ربما تعشق فيروز.. ربما يبهجها الشتاء بطريقة خاصة

والآن باتت البهجة خالد

وجوده بهجة وعشقه سعادة

****

تنهدت بضيق وهي ترتب آخر محتويات حقيبة سفره:

- يعني ده وقته يا خالد

ستظل إيناس دوماً.. إيناس!

يصيبها الضجر كلما ابتعد وتتمكن من ملامحها الحزن مع تحضير الحقيبة, استدار نحو عيناها لتميل شفتيه بابتسامة متفهمة وازتها يمناه التي مسدت خصلاتها برقة:

- إنت عارفة إنه مش بمزاجي أنا وعدت عبد الله

نعم وعد عبد الله ومنذ وقت.. المعسكر الصيفي الذي كان سلوكاً إنفرادياً ومع ذلك خالد غير مقتنع برفضه, هو فقط قرر السيطرة بنهجه الخاص فرتب له أحد أصدقاءه موعد لزيارة المكان كي يطمئن قلبه.

تابع وهو يقرب وجهه نحو التي زمت شفتيها في تذمر طفلة رغم مرور السنوات:

- المشوار ده ضروري علشان أطمن.. مش حابعته في الصيف غير لما أكون مطمن يا إيناس

- أنا مش عايزاه يروح خالص

وقلب الأم لا أمل فيه.. هز رأسه بيأس قبل أن يقبل رأسها ويمرر هو بقسوة قلقه المشروع كأب ويعلم أنها تتجنب الحديث:

- خودي بالك من تميمة

ورفعت هي عيناها بانفعال غاضب:

- واخدة بالي يا خالد

والوقت لا يحتمل حوار.. ورأسه هو مُثقل بألف تساؤل واتجاه, ربما تلك السفرة ترتب أفكاره.. ربما يتحاشى جموده مع تميمة كي لا تخاف مصارحته وربما هو يحتاج لبعض المحادثة المباشرة مع محمود..

وتميمة راقبت رحيل أبيها من خلف النافذة, ودعته بقبلة فوق وجنته وتوتر أخفته بطلب هدية مبتكرة من أجل بندقيته الصغيرة كما تدلل نفسها وهربت..

مواجهة البيج بوص تثير في نفسها الرعب.. والخجل!

ومع ذكر الخجل هي مترددة للمرة الخمسون في محادثته تلك الليلة.. خصلاتها تكومت بشكل أحمق حول سبابتها والوقت قارب على العاشرة وهي تود أن تطمئن فقط

"إيه المشكلة يعني!"

وكأن كيوبيد تنكر في صورتها مع ضفيرتين وجعبة أسهم وردية لقلبها فقط

وحاولت وأغلقت وجربت وتراجعت وجلست فوق الفراش ثم جواره ثم تحته وفي النهاية..

سبقتها أنفاسها على الهاتف..

تبدأ..

تُغلق..

تصمت..

تهرب!

وإن لم تدرك إنحناء شفتيه على الطرف الآخر إلا أن صوته بات قائد فوضى حواسها نحو الاذعان!

- قابليني عند عشق

****

يحترق قلبي إن عشقتك..

أحترق!

يقال أن العشق له قوانين سرية, ولكل عاشق دفتر ملاحظاته الخاص الذي لا يشبه أحد!

كان يقف جوار غرفة عشق وسحابة تبغه تحوم حول رأسه, تجمدت خطواتها في لحظة مع الظلام الدامس وشعر هو بها فاستدار قبل أن تهرب محتجزاً ضوء القمر فوق عيناه:

- خايفة؟!

وفي معاندتها هروب..

- حتقولي برده لازم تخافي

وذقنها ارتفع في شموخ كاذب واقترب هو ليخفضه في لحظة.. يقترب.. يبيح لسبابته فوق ذقنها مرور..

وابتعدت في اضطراب فتناثرت خصلات كانت تحجزها بعشوائية بين طرفي قلم..

- ممكن؟

وسؤاله بدا غير مفهوم ولكن اقترابه واضح.. سحب القلم الخشبي من بين خصلاتها لتتناثر بفوضى مربكة.. كانت غير مسترسلة كالمعتاد بل ربما مشعثة أكثر مما ينبغي ولكن.. جميلة

كل تفاصيلها تأخذه وكأنها تخصه وحده..

شفتيها الحاضر

وعيناها المستقبل

وملامحها ذكرياته التي يود أن يرسمها..

اقترب أكثر فتصلبت في استعداد لهروب قافز إن لزم الأمر... أو الأسوء التجمد تماماً, ولكنه لم يفعل ما تخافه

هو ببساطة كان يتأمل عشقه..

فالعشق يشبه قوس الألوان الذي اكتشفت أنت بسببه أن حياتك كانت باهتة قبل اللقاء.

وعن ألوانه..

هو سقط في سحر البندق...

الفصل الحادي والعشرون

سيخبرونك أن دخان التبغ قاتل..

ولكنهم لا يدركون متعة النظر من خلف سحابته.. فالعالم بشكل ما يبدو أجمل وهو غير واضح!!

تتحرك نحوه على استحياء وبين كل خطوة وثلاثة تعيد ضبط عويناتها من جديد.. وجهها كان صافياً كبراءة طفل وليد ولكن في جسد أنثى قررت أن تختار لنفسها بداية.

- أنا مش عايز أعرف حاجة!

ونبرته إن بدت قاسية من خلف سحابة تبغه إلا أنها عادلة تماماً.. فلتحترق ذرات الهواء خلفها إن أرادت.

لمَ يضطر الإنسان من الأساس أن يبرر نفسه لأحد؟!

وسريرة أحلام خاوية من فلسفته البائسة.. هي من تلك النوعية التي ربما لو امتلكت فرصة حواء لما انتابها الفضول بشأن الثمرة. وابتسامتها بدت وكأنها امتدت للأفق وكأنها رؤيا صافية وسط غيوم تبغ مفتعلة

- أنا محتاجة أحكي..

وقصت كل شيء.. تغاضى خجل أنوثتها عن ذكر تفاصيل ولكن بين حروفها كانت رسالة شكره, ليست تقليدية بديباجة رد الجميل ولا مترددة بحيرة ما لا تستطيع قوله.. هي أفندت ضعفها وقوتها وامتنانها لوجوده في اللحظة الفاصلة

ولم تتوقع أن يكون تعقيبه سؤال!

- موافقتيش ليه؟

وخلف السؤال مر قطار تناقضاته

- اخترتي الصعب.. جازفتي.. ودلوقتي حتسيبي شغلك

وأتتمها بشد أطراف شفتيه كابحاً هواء حار يستنكر فطرة النجاة فوق لهيب بركان

- إنت خسرتي

ولم يكن حكماً ولا سؤال.. كانت فضفضة عقله تهذي جوارها وهي ابتسمت بحكمة غريبة..

خَسرت؟

نعم..

بل تعرت أمام أغراب بتفاصيل حكاية كان من الممكن أن تنطوي, أن يمر الأمر دون أن يلحظ أحد ويموت الذنب مع الوقت وتزيح مع الهوامش فارس!

- لكن...

وإن توقف لسانها ليشرد العقل قليلاً باحثاً عن إستكمال إلا أن التفسير مر بخياله.. بل هاجمه بوجه شيطان خير ماكر

- فطرة الخير عند أحلام انتصرت يا محمود

- بس خسرت يا حكيم.. حتى شغلها مش قادرة تكمل فيه

- وإيه هي الخسارة وإيه هو المكسب..

- خير وشر برده؟!

- متغيرات مش ثوابت

- الظلم ثابت

- والحق مش سلاح ظالم

- والخسارة؟

- اختيار القوي وحرب الضعيف

- أنا مش حاخسر يا حكيم.. مش حاخسر

ويبتسم حكيم ويغيب من حلمه مع صوت أحلام المتسلل لشروده

- بشمهندس محمود... بشمهندس

ونظرته نحوها بدت كتشبث طفل بقرار هو أضعف من اتخاذه وصاحبة فوضى حياته ترمقه من بعيد تمرر دون وعي حيرته وتدهس فوقها بخطوات ناعمة فلا هو ألم خالص ولا متعة.

هو عالق في منتصف الخطوة

- شكراً يا بشمهندس..

ورحلت أحلام بسريرتها وخيرها الخاسر وتبددت غيمة قسوته مع لون مغيب الشمس في عيني امرأة تخطت كل سبل الوصف في مملكة رجولته.

والوقت كان في ضحاه والباقي على تلاحم الغروب مع عينيها ساعات طويلة وابتسمت هي ابتسامة واضحة يفهمها.. تكتم غيرة حمقاء لوجود أنثى في مداره وهذا... يعجبه

- صباح الخير

وعملية هي في تحيتها معه وشموخ ذقنها الرقيق يسبقها وكأنه لم يبيح لأنامله منذ أيام فقط المرور فوق نعومته

يا الله

وهي لم تستوعب همس أنفاسه ففحواها ملامة نفسه

ما به يغرق..

يغيب

ينهزم في تفاصيلها ويتوه بين ملامحها متخطياً الغزل بعثراته..

هي تخصه وانتهى الأمر

وقُربه أربكها.. عيناه.. صوته.. انحناء شفتيه المناوش وهو يطبع حروفه باقتراب طاغي قرب أذنيها:

- وحشتيني

وهي باتت ترتبك في حضوره.. ترفع خصلة وتعيدها وتهرب وتبتلع ريقها وتنظر حولها كمن أمسكوه متلبساً بجريمة عشقه..

ترفع عيناها لتهرب وتعاند ويرفع هو حاجبيه والتفسير جوار أفكاره يناوش

"حتستعبطي"

وأفكارها تدرك وتجيب

"مغرور"

- صباح الخير!

استدار كلاهما فجأة مع قدوم خالد.. هو ثابت الملامح بانفعال غامض وهي مُرتبكة. وإن أيقن خالد أنه قطع بينهما لحظة إلا أنه سريعاً استعاد ابتسامته ليسبق كلاهما نحو السيارة

- يلا

نظرت نحوه لا تعي وأخذ الوقت من عقلها خمس دقائق لتدرك أن محمود بدوره ذاهب للقاهرة وسيوصله خالد

هذا العشق بات خطراً على الصحة والقلب ومستوى الذكاء!

وابتسم لها في المرآة فتجاهلته وإن لم يمنع هذا السؤال:

- إنتِ ما بتسوقيش على الصحرواي

أجاب خالد متعمداً إغاظتها:

- تميمة رخصتها مسحوبة

وضيقت عينيها تحذره من المتابعة ولكن هيهات.. الآن اتفق أبناء حسن

- خبطت الأمين

ومع استدارة محمود في صدمة تابع خالد منفجراً من الضحك:

- في اللجنة

- على فكرة كان واقف في وسط الطريق

وتذمرها يشبه طفولة لانا, بل تكاد تقفز في المقعد الخلفي حتى أنه كاد يدمع من الضحك وخالد يستدير لها قبل أن يحرك المقود:

- حبيبتي هي اللجنة بتقف في وسط الطريق احمدي ربنا إنه ماتحبستيش

وإن قبضت هي حاجبيها ولم تبتسم.. هو توقف بدوره

يناديها حبيبتي ورغم عفويتها بشكل أخوي إلا أنها أغضبته ولم تفهم هي قسوة النظرة, وإن وضعت نظارتها الشمسية بقية الطريق كي تتأمله بحرية حينما تريد..

وهمس في النهاية لها وهو ينظر

"جبانة"

وهمس مرة آخرى حين وصلا.. كانت هي قد ترجلت من السيارة ليبدلا المقاعد وهو وصل إلى وجهته, وحين مر جوارها..

- عايز أشوفك لوحدنا

ولم يزد.. وكأنه يحتاج!

هو احتلها وانتهى الأمر. وبعد ساعة واحدة في محاضرة لم تكتمل وبغضب كان يسبقها هاتفته.

****

في معركة العشق المرأة دوماً خاسرة.. فهي تمتلك أسوء ثبات انفعالي ممكن!

وإن هاتفته ونيتها ثورة فتبغه أخمدها والحمد لله

وحولها تلفتت.. تتأمل المكان بانبهار وترمقه بعدم تصديق:

- مجنون

الحي شعبي فقير.. فوضوي بشكل مبالغ فيه, بائعة جرجير تصرخ بصوت مبحوح على بضاعتها وصوت محمد قنديل يصدح من قهوة شعبية مقابلة

"يا حلو صبح يا حلو طُل"

كانا يقفان أمام منزل قديم بدا أنه يعرفه ولكنه تجاهل الأمر ليتجه بعده بأمتار قليلة نحو عربة مزركشة بألوان غير متناسقة و....

- اتنين مخ وأربعة كبدة

- أنا مش حاكل مخ

ومتذمرة هي فوق مقعد خشبي ولكنها سحبت الصحن قبله!

- إنت حتاكلي؟! ده كنت حابعت أجيب هابي ميل من ماكدونلدز

وابتسامته رغم سخريتها ناعمة.. وهي تاهت لوهلة في مراقبته.. ذقنه حين يتركها نامية بعض الشيء تصقل وسامته بسوء نية, عيناه تغيب وسط تبغ كثيف وشفتيه تنحنيان بمكر محسوب قبل كل كلمة

وفجأة

يكون عفوياً كطفل وكأنه صفحتها البيضاء لتكتب بها ما تشاء

قضمت شريحتها بتلذذ قبل أن تجيبه باستنكار ساخر:

- إنت فاكرني فافي ولا إيه.. أنا بنت خالد رضوان يابني

- ابنك!

وتوسعت ابتسامته بضحكة صادقة قبل أن يشير للبائع ليحضر له المزيد من الشرائح الحارة دون أن يحيد نظره عنها, الوقت مر بسرعة البرق.. كانت تتأمل المكان حولها بشغف وتتجرع مشروبها الغازي مع الشرائح بشهية مثيرة للانتباه, تتحدث بانطلاق وهي تخفي مضغها الرقيق بأناملها كطفلة ملتزمة

بتعاليم أمها عن الكياسة وشردت لخمس ثواني لتؤنب نفسها على نسيان تعقيم يدها قبل الأكل..

ضحك يائساً:

- تميمة إحنا واكلين صراصير أساساً

زجرته بعينيها بشقاوة فاتنة قبل أن تمر بعينيها على التفاصيل حولها من جديد:

- بس المكان حلو قوي

أرجع رأسه إلى الخلف ليسترخي بجسده مادداً ساقيه للأمام وتاركاً بصره بين السماء والهواء لتخرج زفرته ممتلئة بأكثر مما تفهمه:

- مريح رغم الضجة

في تلك اللحظة تأملته.. بل مالت برأسها تتشبع من تفاصيله, كان هادئاً بلا تبغه.. نظرته متعلقة بصفحة السماء وكأنه يستدعي تاريخاً مَر.. بل يبحث عن تاريخٍ مَر

أشارت للمنزل ونظرتها تترجم السؤال قبل نطقه:

- ده بيت مين؟

وصمت هو لدقيقة كاملة وإن تأمل عينيها بمكر إلا أنها لن تتنازل عن الجواب, ابتسم بدفء صادق:

- حكيم

عادت لها ذكرى ملامحه وهو يلفظها بصدق

"أبويا"

وتوترت شفتاها بلمحة حزن وإن كانت لا تفهم أو تدرك تفاصيل التاريخ إلا أنها تعلم أن هناك شرخاً ما بينه وبين أبيه.

والحزن مرره هو دون قصد فاستقام.. جذب أناملها بتملك أربكها وأوقفها جواره أمام بوابة المنزل وبين حروفه لم يكن يحكي لا..

كان يستريح..

- أحلى أوقات حياتي قضتها في البيت ده

وتعلقت عيناه بها ليحتجزها بنظرة.. يبيح لفطرته حيازتها في خياله, ربما هُنا بهذا المنزل أو بالمزرعة أو بالجحيم نفسه لا يبالي

هي تعيد له أوقاتاً ظن أنها ماتت, وفطرة..

- الفطرة خير

- الفطرة شر!

وحكيم يحضر في أكثر أوقات عقله اضطراباً

وهي رغم توترها لم تحل قيد أناملها من قبضته.. ابتعلت هواءها وشهيقها وزفيرها مع اقترابه وتعلقت عيناها ببوابة المبنى الحديدية كي تنجو

رغم أن كلاهما غرق..

ونبرته ستصاحبها الدهر

- بحبِّك..

العشق عند الرجل غزوة.. خرج منها مهزوماً!

****

فوق صحيفة الخَبز الملتهبة كان قول النهاية لمبشور الجبن المعتق.. هي احترافية في تقديم شغفها, قطعة بسكويت بالجبن على شكل قلب وتجاروها آخرى برسمة زهرة أما الثالثة فنجمة بحر.. صف تلو آخر.. تلو آخر.. وآخر..

- إيه ده

نبرته كانت أجشة فهو عابس منذ أيام وهي لا تبالي.. تنفست ببطء قبل أن تبدأ في توزيع القطع داخل حاوية أنيقة:

- حاسهر مع إيناس النهاردة شوية إنت عارف خالد مسافر

ولم يعقب وهي لم تكن في انتظار, حينها ظهر خالد قادماً لتوه أوقف هو تعجله من أجل وجبة غداء ساخنة بنبرة جافة:

- أخوك جه معاك

بنية صافية جذب خالد قطعة دجاج مقلية قبل أن يجيب بتعجُّل:

- لا.. قال وراه مشاوير وحيرجع متأخر

قطب حسن جبينه قبل أن يستأنف في خشونة:

- كنت استنيته

صمت لوهله كاظماً ضيقه, يستشعر بين نبرة أبيه ملامة لا يفهمها وكأنه هو من يجب عليه تحمل وزر الخطأ تلك المرة.. وردّه إن بدا هادئاً إلا أن الغضب مكتوم:

- عرضت عليه أسيبله العربية ورفض.. حاجة تاني

- لا يا سيدي

وخطوة فثانية لقيلولة بات جسده يحتاجها ولكنه توقف مجدداً وتلك المرة السؤال ينوي المعركة

- إنت رايح فين

- عندي حفلة في نادي الصيد

سؤال غاضب وجواب محتد.. والنقاش بدايته ونهايته محفوظة وأب لم يرضى وابن لن يتنازل

- مش تشوف حاجة مفيدة في حياتك تعملها أحسن

والطعام لن يكتمل.. ترك باقيه بعد أن غابت الشهية ليجذب سترته شاكراً أمّهِ بابتسامة صامتة

- أنا اتأخرت لازم أمشي

- استنى عندك

وزعقة حسن كانت لها صادمة.. نعم تعارك كثيراً بشأن هواية خالد تلك من قبل ولكن هذه المرة قلبها يحدثها بانفجار

تسمر خالد مكانه دون أن يستدير ومعزوفة أبيه الشجية تتواصل..

فشل.. خيبة.. ودلال!

والتتمة دوماً نحو الأم

- بوظتيه

استدار وإن كانت نبرته خافتة إلا أنها أرعبتها:

- كفاية بقه

سخط مكتوم ولا يجوز له إنفجار واستكمال بنبرة مهتزة:

- انا مش فاشل.. وهوايتي اللي مش عاجباك دي شغلي.. حلمي اللي ححققه وبحققه لوحدي..

ووحدي هنا موجعه.. عن أب لم يهتم يوماً بفهم تفاصيل كلماته, أو حتى الإيمان بموهبته.. وأنه مهما فعل..

مهما نجح

مهما حاول..

سيظل في نظره.. فاشل

وصفعة الباب أرجفت جسدها هي وإن تصلبت العبرة مع الاتهامات المعتادة:

- شايفة تربيتك يا هانم

- أحسن تربية

وأسنانها اصطكت مع الحروف.. صوتها خرج خشناً جوار الغضب المكتوم وعيناها عادت للقوة بعد أن حبست العبرة

- ابن رقية تربيته أحسن تربية

****

صورة لها وهي طفلة.. خصلاتها مكومة تحت قلنوسة شتوية سميكة وأطرافها مخبأة بقفازان وليس واحد, وابتسمت وهي تتذكر فزعها في ليلة شتوية منكمشة فوق ساقي أبيها

- بلو!

وكانت تقصد أظافرها التي اقتربت من اللون الأزرق بفضل البرودة وإيناس تدفئها لها وتضع في فمها الشوكولاة المنكهة بالبندق وخالد لا يأكل الشوكولاة..

- يا ترى بتحب الشوكليت

شردت وصورته تعود لإقتحام عينيها في ذكرى لم يمر عليها سوى ساعات

ذكرى حفرت نفسها بسطوة ولن تذهب

"بحبِّك"

وهي تبتسم لنفسها في المرآة وتلمح وجهها في أجمل حالاته.. هي أجمل أنثى في العالم

هي البحر والنهر

الرمل والماء

الظل والشمس

هو قال أُحبك واختلف العالم

- تميمة!

والنبرة المتعجبة كانت لـ عبد الله.. أخيها الأصغر الذي لا يمر بغرفتها سوى نادراً وملامحه الجادة التي تحولت لدهشة ليس فقط لأنه لمح محادثتها لنفسها بالمرآة فهذا معتاد.. هي ترتدي ثوباً أنثوي وتتأمل بغنج نفسها في المرآة

اعتدلت وقد تخضبت وجنتها ولأنها عاشقة فتلك سقطة معتادة:

- خبَّط يا عبد الله

- الباب كان مفتوح

ونبرته لا مكترثة رغم نظرته المتفحصة لاختلاف هي به متهمة.

وأخفت توترها بزعقة:

- امشي يا عبد الله

- ماشي بس انزلي هاتي بسكوت من ماما وطنط رقية تحت

ثم استدار ليتركها وهو يبتر اعتراضها قبل أن يبدأ:

- وقبل ما تقولي هات لنفسك مليش مزاج أسلم على حد ولا أرغي

وهي ستنفذ له طلبه فقط ليتركها وليرحل, أو ليتجاوز تلك اللمحة الرومانسية الغبية البادية من عينيها..

هذا الحب بات خطراً على المعاندة والمشاكسة وال "سبع رجالة في بعض"

وخطواتها على الدرج كانت مسرعة لتتوقف في منتصفه وتدرك أنها نسيت أن تبدل ملابسها.. هذا ما ينقصها الآن أن تظهر أمام أمها ورقية بثوب ضيق الثنايا بصبغة بندقية داكنة وحذاء شاهق الأرتفاع ممدداً بجلد طبيعي منقوش حتى منتصف ركبتها.

ضحكت وهي تعدّل من خصلاتها المموجة وتجمدت بعد الإستدارة

الصوت الخافت.. والصمت المشابه لقبول.. والكواليس التي لا تفهمها

- إيناس أنا بطلب منك تميمة لخالد

****

في لحظة الخطيئة.. فقدنا الجنة

"قابلني عند عشق"

هو قرأ حروف عاطفية وهي كانت في انهيار..

هو في عينيها دُكنة مشوشة وهي في عيناه ضوء تسلل..

فطرة خير أعادت سيطرة حكيم

فطرة من أجلها قرر أن يتنازل

واقترب وإن سبقت الأنامل النبرة.. عبرة تمر فوق خريطة وجهها رغماً عنها وثورة كانت مكتومة!

- فيه إيه؟

- باركلي..

وصبغة شفتيها كانت مُرجانية والانحناء مرير.. ثم غاضب.. مشتعل..

جهنم فوق شفتي أنثى

- طنط روكا بتخطبني لخالد يا محمود

وإنفعالها مُرتجّ.. قال أحبك وأرادها أخيه في نفس الليلة وكأنه اقترب خطوة ليبتعد ألف ميل!

وإن استدارت توجع بأناملها خصلاتها وعقلها على السواء رقص بعينيه شيطان:

- بتقولي إيه؟!

وأنفاسه قاسية كفحيح مضطرم.. يقترب الخطوة ضاغطاً حتى بياض القبضة وتزعق هي بانفجار يستحقه.

هي تملك خيار الرفض ولكن أيجوز الآن أن يحفر جوارها مكان

- اللي سمعته يا بشمهندس.. إيه رأيك حابقى مرات أخوك!

- اخرسي

وحولهما كانت هناك سحابة.. دون تبغ.. دون حريق

الجحيم ينبض بقلبه

- حادبحك وأدبحه

والخديعة موجعة ولـ ذاك من ظن أن في العشق السلام..

أفكارك رخيصة يا حكيم.. ساذجة

- حتى لو جحيم فشرير مُنتصر أفضل من ملاك مهزوم

- الشرير مش حيلاقي السعادة!

وتجمد انفعالها مع اقترابه.. فكها الذي صلّبه الألم حين استحوذت عليه أنامله ورأسها الذي ارتطم بجدار خشبي قاسي والتفسير يشبه خطوات لعبة أحجية فاشلة, خطوة منها تُجاهد لتبتعد وخطوة منه تُقاطع..

- يبقى قاصد..

ولم تفهم الهمس والهمس تبعه صمت وما يحدث.. ليس بعشق

القدم تقابل القدم

الساق والساق

طرواة النهد وصلابة الصدر

واهتياج عينين قابلتهما صدمة

وغابت صبغة الشفتين في شيء يقولون أنه قُبلة..

وهربت صرخة أولى باسمه

- محمود!

ومحاولة هروب لم تكن تأمل في أكثر من فكاك وجهها من بين يديه,, مر اجتياحه على طول شفتيها حتى النهاية وهربت من اعتصاره دون نجاة

ضربت فوق صدره وغابت أنفاسها مع مروره فوق وجهها بعشوائية موجعة ليعود فيلثمها من جديد

يبثُها ما فوق استطاعتها

واختنقت وبات جسده وكأنه جثوم رغم أنها ما زالت فوق قدميها.. رفعت ساقها اليُمنى تضرب بعشوائية فاشلة وثوبها المثير للشفقة لن يمنحها نجاة واجتياحه أفقدها أول أزراره ليقبض فوق خصلاتها بقسوة يُمناه ويقيد معصميها باليد الآخرى

هو سيقضم تفاحته المحرمة دون رحمة!

وإن سقط بالفعل من الجنة فليكن لأنه اختار المعصية فالفضيلة لم تُنجد أحداً.

الفضيلة ترسم لوحة بائسة لأخيه جوار امرأته وعند تلك النقطة..

سيأخذها غلابا!

والقادم في عينيها بات ضبابياً.. مذاق تتجرعه رغماً عنها وأصابع فوق ترقوتها تحترق

وهمست تستجدي أنفاسها.. ترفضه.. تسبه.. تلعنه وتلعن نفسها

"تلك العلاقة تفاصيلها كارثة"

الفطرة خير

الفطرة شيطان!

الحق..

العطاء..

القوة..

الضوء..

تميمة..

حكيم..

الفضيلة

السقوط.. والجنة!

"شرير مُنتقم أفضل من ملاك مهزوم.."

وغادرت شفتيه عنقها وارتخت رأسها بين يديه ظناً منها أن ما مركان الإنفجار.

انتهى..

جذب سحَّاب بِنطاله

انتصر الشيطان

****

الرغبة دوماً تغير مسار الحكاية..

والعشق رغبة

والجسد رغبة

والثأر رغبة

حتى القوة.. رغبة

والمشهد في عينيها دراما عاطفية رخيصة

صرخت والهلع في فطرتها نجاة, دفعته بكل ما تملك من قوة وكان هروبها واجباً فلم تلمح ذهوله..

جموده..

تلك اللحظة المشوشة في عيناه..

والشر الذي لم يكتمل..

هو فقد نفسه وكاد أن يُفقدها نفسها.

والخطوات ابتعدت بمعجزة وتسللت في وجع نحو باب خلفي لمنزلها.. تسحب سترة من حجرة جانبية وتُخفي ما مزقه هو فوق الجسد وإن كان القلب سيبقى.

تستوعب وجع القُبلة والقبضة وانتهاك كاد أن يكتمل

- تميمة!

وتسمرت مع نبرة أمها التي ظهرت من خلفها تماماً وكانت على وشك توديع ضيفتها..

لم تملك الجرأة على استدارة

هي تبكي دون أن يتسلل نفس ولا تملك الجرأة على استدارة

حتى الطلب الذي كررته رقية بعدما حيتها بحميمية زوجة ابن مستقبلية..

- باطلب إيد تميمة لخالد!

السبب..

البداية..

والنهاية المرسومة بشفتيها قبل أن تهرب

- أنا موافقة

الفصل الثاني والعشرون

لما بتسمع ها الغنية

فكر فيا يا حبيبي..

هل يجوز أن يجاور الحب خوف؟

أن تعشقه وتخافه في ذات الحين

حين انفردت بنفسها خلف باب مغلق تهاوت.. وكأنها تعود مجدداً لتفاصيل هاوية انجرفت فيها قسراً في تيار رجل, الملامحة غائمة في ثبوت والعبرة جبل حمله فوق الطاقة.. العبرة تسقط رغماً عنها.. تنهمر لا إرادياً سابقةٍ ولاحقة وتمر

في كل درب ممكن نحو ذاكرتها القصيرة معه لتقف عند نقطة واحدة لتحتل الصورة ومن ثم تمزقها تماماً.

هي انتهت معه قبل أن تبدأ, وحرقة انسكاب العبرة تلك المرة وازت شهقة مؤلمة.. والسبب مبعثر كما سحابة تبغه التي أمطرت فوقهما الوجع

....

وكان هو مثلها تماماً..

ربما بذات التوقيت.. ذات اللحظة.. ذات السقوط جوار باب غرفته المظلمة, عيناه متحجرتين تختزلان الظلام بنقطة.

بؤرة لامرئية تحويها معه وبفضله في أسوء صورة.. وكأنه خلع عنها تفاصيل عشقه حرفاً حرفاً لينصبها عارية فوق هرم حقيقته المُرَّة.

هو أبداً لن يغفر..

وبشهقة آخرى وازت قضم أظافرها في هيستيريا مشاعر مشتتة.. هل يجوز أن ينتهي الحب قبل البداية.. يموت.. يُنحر بنصل قُبلة

هل باتت هي جريمته وأصبح هو العقاب؟!

ليتوه كلاهما في خضم لا شيء.. لا وعي.. لا سيطرة..

....

ملعون..

واللفظ بأحرفه الخمسة نزاري ساخر..

عيناها سبحان المعبود

فمها مرسوم كالعنقود

ضحكتها..

وشفتاه انحنتا بتعبير مرير, وكأنها خسائر ما بعد الحرب ولكن هنا التفاصيل كارثية.. معتدي وغنيمة ولا عزاء لجنون اللحظة.

....

شيطان

والتبرير هنا تلعثم فوق شفتيها قبل استدراك تبعاته, هي واجهت شيطان غضبٍ فوق قدرة استيعابها. لحظة غيام ممطر بسحابة رمادية مغبَّرة, عاصفة كانت بدايتها أنفاسه وخضمها أنوثة ملك سيطرته..

ميزان لقاء غير عادل فهو امتلك القوة وهي أيقنت الضعف في أسوء صورة..

وبعقلها تقفز "ماذا لو"

ماذا لو تابع للنهاية

ماذا لو سقطت

ماذا لو...

وهنا انبترت الأفكار وبقي الوجع

حينها كانت ستكرهه للأبد

انبترت الأفكار وبقي الذنب

هي لم تكرهه بعد...

....

مفقود..

في جنة حكيم!

وللأول مرة.. لأول مرة في تاريخه الموجع تهرب عبرة!

تمر ببطء بين ثنايا الجفن لتسقط قرب إثمه وحيرته

شرير منهزم وخيِّر فاشل..

ضاع الزاهد وسقط الجاحد وبقي هو المنتصف عالقاً دون معنى..

وذكريات تمر من طور بداية حتى رحيل..

اتفضل.. دي فطائر زوجتك اديتهالي!.

هاشيلك.. هارفعك فوق شوية تأكليها السكر بسرعة.

قسوة حزام لامع

ورقة ملونة وعلبة سكاكر..

وعبارة..

"آسف!!"

وقصاصات ورق لشخصياته الكرتونية المفضلة ولعبة وردية محشوة!

أهدتها له طفلة تشبه قطعة الحلوى وهي الوحيدة التي كرهت توديعه.

وتألمت عيناه من وسط بكاء..

وكأن القدر يخبأ لهما دوماً رحيلاً دون وداع!

- مش خايفة

- يبقى لازم تخافي..

****

- تميمة افتحي!

- تـــميـــــــــــــــــــــــــــــمة..

وهي منفجرة بأسوء طقوس غضب لم تمر بها من قبل, خبطاتان أخيرتان فوق باب الغرفة قبل أن يثار جنونها وتضربه بقدمها في خلل أمومي مُستحق!

كانت لتوها تغلق موضوع رقية بكياسة مطلوبة.. تتذرع بغياب خالد وتضع الأمر كله قيد الإنتظار.. يطلبها رجل وهي عاشقة لأخيه.

عبث!

والثلاث حروف باتا مجرد هوامش على كارثة جوابها

"موافقة"

حين خطت للغرفة وجدتها قد استقرت بهدوء ظاهري في الفراش.. ملامحها صفراء كلوحة سيريالية دون معنى وخصلاتها معقوصة خلف أذنيها بتذمت, بين يديها كتاب لا تقرأه وأتقنت تجفيف عبراتها بحماقة.

صلبة.. عنيدة.. وغبية

- ممكن أفهم؟!

وسؤالها مبتور.. ألا كان من الأجدر أن تقولها بكل بساطة مباشرة

"أنت تحبين محمود"

تعلقت عيناهما لوهلة قبل أن تنهي تميمة الأمر:

- إنتِ بتحبي خالد؟!

أو تبدأه..

كتمت إيناس غضبها قبل أن تكتف ذراعيها وجوابها مباشر يبغي أكثر مما يقول:

- أنا بحب خالد واحد بس.. خالد رضوان. إنتِ بقة بتحبي؟!

تحركت شفتيها بسخرية لاذعة:

- بحب خالد رضوان

فركت إيناس جبهتها بشكل دائري قبل أن تجاورها على الفراش ولكن تميمة ابتعدت.. تميمة لا تبغي مصارحة.. لن تقول

لن تقحمه ولن..

ودقات قلبها تسارعت فقط من احتمالية علم أبيها بالأمر.. أو أمها

تسارع من أجله وخوفاً عليه..

- أنا عايزة أنام

وانهارت برأسها فوق الوسادة.. تخفي الحشرجة كي لا تسمعها أمها وتكتم العبرة فلا يجوز معها اعتراف

حتى دفء أنامل إيناس فوق جبهتها لن يُجدي..

سواه لا شيء يُجدي ووجوده مُحال..

****

في مسرحية فكاهية قديمة قال ممثل شهير

"ارميه البحر يطلع لك ناشف"

وفي رواية آخرى قالوا..

"صحي لقى نفسه خاطب!"

وكان مستغرقاً في نومه لحد التعب وحد حلم ناعم كانت هي بطلته جوار قطع الفراولة بالنوتيلا. وساذجة هي أحلام الحب ولكنه يستطيع بمكر واقعي مباح أن يختار نهاية مخالفة..

وضاعت الابتسامة المرتسمة في نصف نومه مع رنين الهاتف

وصوت وإن كان يعرفه جيداً بات مدمراً لكل منطقية واقعية يعرفها:

- إنت بتستهبل بروح أمك

كان الوقت قد قارب على الظهيرة و أمه على ما يبدو أعدت كعكاً صباحياً مميزاً اخترقت رائحته أنفه ولكن في النهاية صوت رؤى انتصر لإيقاظه!

- في ايه يا رؤى على الصبح

ونبرته خشنة تجاور فركه لعيناه في محاولة لاستيعاب بداية يوم أما رؤى فهي منفجرة وإن تركت للسانها العنان فربما السُباب لا يكفي فهي بدورها استيقظت على صوت أمها محادثة أمه على الهاتف

(ثرثرة صديقات!)

و....

من بين أسنانها لفظتها وكأنه تتوعد خائن كاذب مخادع سليم الذي أوجع أمينة في مسلسلها المفضل..

- مبروك يا عريس

وبعد خمس دقائق كاملة من محاولة استدراك هذرها ومهاتفتها ثلاث مرات لتجيب في الثالثة ونبرته الزاعقة باسمها التي قطعتها هي بما ألجم لسانه:

- لما تنوي تخطب ياريتك تبقى راجل وتقول مش تضحك على الغلبانة وإنت مظبط نفسك الناحية التانية..

وأتمتها بالفاصلة:

- قول لتميمة مبروك..

وإن أنهت المكالمة وأغلقت الهاتف الذي ما زال ملتصقاً بأذنه لأكثر من خمس دقائق جوار جحوظ عينيه بالحائط, أياً كان ما يحدث فهو ليس أكثر من مزاح على الأغلب ساذج..

ليس مزاح

وانفجر بها عقله وهو يتوجه بنبرة إن بدت هادئة إلا أن تفاصيلها طوفان

- ماما؟

- صباح الخير يا حبيبي

هو نضج وهي متشبثة بطفل اعتادت أن تحكم أزرار سترته

هو اختلف وهي تعيش في حلم مراهقة كشفته مع عمر ستة عشر عاماً

هو انتهى وهي تشعر أنه لتوه بدأ

و...

- مبروك يا حبيبي

والقبلة دافئة كحرارة فرنها فوق الوجنة والخصلات الناعمة منها انسابت بتعب فهي لم تهنأ بأكثر من ثلاث ساعات نوم حيث بقيت ساهرة في انتظاره وحين تأخر أجلت بُشراها للصباح. وأعدت كعك فطوره المفضل وهاتفت صديقتان وأخبرت ليلى وحمزة وتفكر مع أجازة نصف العام أن ترتب لهما احتفال خطبة بسيطة!

"مبروك يا حبيبي"

وذكرى مراهق شاب في عامه السادس عشر تمر بذهنها.. فتنته بتميمة حينها لم تقلقها إلا أنها آثرت بحكمه مراقبته من بعيد دون تدخل لنبتة حب تنشأ

أغانيه تصدح في احتفال مولدها وهي تناوشه بمحاولة غناء..

جامعته التي بدلها ليكون جوارها بعد عام واحد..

وعيناه التي اعتادت بريقهما في وجودها..

"مبروك يا حبيبي"

وداخل إطار الصورة نحن لا نرى سوى ما نودّ رؤيته.. حتى النظرة المبهمة بعيناه هي الآن تتجاهل تصديقها أو تهرب!

استدارت بارتباك ترتب فوضاها وتصب له بعضاً من عصير الخوخ الطازج..

- افطر خفيف علشان أنا قربت أخلص الغدا

حين نظرت نحوه مجدداً وما لمحته بيعناه.. تجمدت نظرتها تماماً, شعرت أنها فقدته..

- ليه!

والنبرة مخنوقة والتفاصيل لا يفهمها

- ازاي؟!

وبات السؤال حيرة وهي تنتفض.. تفكر وتقص وتبرر وتدافع وتهاجم انفجاره قبل أن يبدأ:

- هو إيه اللي ليه؟! هو مش ده اتفاقنا مش إنت طول عمرك

وقاطعها بصرخة لأول مرة تعلو فوق صوتها:

- طول عمري إيـــــــه.. إنتِ إزاي تعملي كده من غير ما تقوليلي

وتوقد عيناه ليس انفعالياً ناعماً ببداية تنتظرها.. هو مستعر ككل والانفجار فوق رأسه أمه, وضرب المائدة بكلتا يديه واستدراته تمحي ما يحدث بمنطق قابل للحدوث:

- رغيك مع طنط إيناس ينتهي فوراً وتميمة نفسها مش..

وقاطعته وهو المتأخر لا غيره.. فالعرض ترتبت أوراقه والتفاصيل فاتته ليحضر ما بعد النهاية

- تميمة وافقت!

****

هو اعتاد أن يبدأ صباحه بمكالمة عمل مطولة.. فوق مائدة إفطاره المبكر بتوقيت يوازي الظهيرة في القاهرة تكون البداية مع ليلى وتقرير مفصل وبعدها يأتي دور حسن بما يخص مزراع الموالح وخلافه..

مجرد روتين واختلف!

ونظرته حينها أخافت النادلة فقدمت له قهوته مسرعة قبل أن تختفي تماماً

"الولاد يا سيدي متفقين وإحنا آخر من يعلم"

بهجة تناسب حسن تماماً ولكن بالنسبة إليه كارثية

وهي توقعت انفجاره.. انتظرته وحضرت نفسها لتبعاته وإن خانتها البداية فسبقها حسن

- وحنلبس الشبكة ولا أنا مش معزوم

- خالد ممكن تهدى

- مش حاهدى يا أيناس

وزعقته بدت وكأنها اخترقت النافذة الزجاجية أمامه.. عيناه دارتا في الأفق الممتد بطول الشارع المزدحم تحت ناظره وأنفاسه تكتم سعيراً لن يهدأ

- أنا حححكيلك على كل حاجة..

ونبرتها تائهة تقص عليه الحدث من وقت زيارة رقية حتى مواجهتها الغير مجدية مع تميمة

بدا وكأنه صمت دهراً فأقلقها أكثر مما تحتمل..

- ماشي

ونبرته غير مفهومة وسألته هي بتوجس:

- ماشي ايه!

والوهج بعيناه يحمل إعصار.. رياح خضعت تحت صهوة جواد أعمى وسعير تأجج مع كلمة بات تخمينه الأسوء بشأن دوافعها.

تحركت شفتيه بثبات خشن الإيقاع:

- يلبسها الدبل النهاردة

****

ابتعد عنها.. تراجعت خطواته باختناق حتى وصل نحو صنبور بارد فوضع رأسه تحته.. ترك كل شيء وخرج لا يبغي سوى الهواء البارد وأفكار علها تنجو. رمق هاتفه بيأس وقلبه يفاوض كي يحادثها

يبرر.. أو يقطع كل سبل علمها بالخبر

واستدار لأمه التي جاهدت لتلحق به..

- أنا مش فاهم حاجة

اقتربت منه تملس بأناملها فوق برودة وجهه..

- خالد تميمة موافقة لأنها بتحبك

وتحنو هي بالحروف, تقدم أفكارها بانحياز قاسي وتمرر ما يحدث ببساطة لامتناهية..

ابتعد عنها وعيناه تقسو:

- أنا مش حتجوز تميمة

وصرامته تتجاوز مجرد رفضه للفكرة أو عدم شعوره بها من الأساس.. صرامته تجاور الحرف والنية وتمرر قرار العصيان رغم أنف الجميع

صرامته.. تُحاول!

وإن توقف كل شيء مع مكالمة هاتف, لم تكن ندى ولم تكن الآخرى التي باتت كارثته الصباحية

كان خالد رضوان بنفسه..

واستدار واختناق أنفاسه يعود.. تلعثمه مع بداية حوار وهروب الكلمات المناسبة في الموقف الغير مناسب

ونبرة البيج بوص كما يطلقون عليه لم تكن بلطيفة أو متساهلة بل كانت العقاب كما يجب أن يكون.

- كنت أفضل يا خالد في موقف زي ده إنك تقدم طلبك بنفسك

وأخلاقه لا تحتم عليه سوى الاعتذار عن أخطاء غيره

- آسف

أولى وكانت مبهمة بشرود يود الهروب

ولم يكترث بها خالد رضوان قدر اهتمامه بسن قوانينه كما يجب أن تكون:

- عامة اللي حصل حصل لكن بعد كده الكلام معايا

- آسف

وكانت ثانية وخرجت دون معنى لامناسبة للحدث وحواشيه..

وضاقت عيني خالد قبل أن يضيف بصلابة نبرته عبارته الأخيرة.. التتمة المناسبة للثلاثة!

- أنا بلغت إيناس.. حتلبسوا الدبل النهاردة, أنطوان الجواهرجي حيكون في مكتب باباك في خلال ساعة

وقطع كلماته بصمت مطبق قبل أن ينهي المكالمة ببرود

- مبروك

وظل متصلباً مكانه لمدة خمس دقائق كاملة دون تعبير حركي واضح.. تجاهل أسئلة أمه وبدّل ملابسه وجاور أبيه لاختيار خاتم العروس

العروس التي ابتدأ الآن حسابها العسير!

وظن أبيه أن انزواءه بالهاتف هو فقرة رومانسية ناعمة ونظرت هي لمحتوى الرسالة بعينان تجاهدان للرؤية بعد ليلة سهاد

قاسية.. الصداع كان قاتلاً وابتعلت هي بالخطأ ثلاث حبات من المسكن وكان المفترض أن تأخذ اثنان والتوت شفتيها بسخرية مع احتمالية زيادتهما لأربعة أو خمسة لتنال محاولة درامية فاشلة تناسب الحدث. ومع حركة الشفتين ورسالة هذا الذي يود مقابلة ضرورية توجهت للمرآة تمرر أناملها فوق ذكراها المؤلمة.. بعدما تركتها أمها بساعات زحف التورم نحوهما ببرهان قاسي وقضت باقي ليلتها أمام المرآة تمرر فوقهما الثلج وتبكي.. تمر العبرة جوارهما على ذات الخرائط التي دنسها هو بالأمس ويبيح الدمع ضعف أنوثتها ليصفعاها كلاهما بقلة الحيلة.

نعم.. ببساطة هي كانت قليلة الحيلة تحت سطوته

كانت لاشيء..

وهربت كالجرذ بثوب ممزق!

- ليه..

وردها على رسالة الخطيب المستقبلي بارداً.. أسقطت الهاتف وفركت خصلاتها بتعب وثارت عيناها مع رده

- انزلي بدل ما أطلع أجيبك من شعرك

كتفت ذراعها واقترابها منه جحيمي الخطوة.. وكأن هذا ما ينقصها الآن عراك غبي مع خالد..

- نعم..

لم يكترث بنبرتها الجافة كما لم يهتم أيضاً بغيوم عينيها وانتفاخ جفنيها الواضح للعيان.. حتى شفتيها شاحبتين باقتراب أزرق.

سبقته أنفاسه قبل خطوة كادت تخلع ذراعها:

- مش أتعزم على الفيلم من أوله يا هانم أو آخد خبر

أفلتت نفسها منه لتنظر نحوه بنفور:

- إنت بتستهبل.. يعني مكنتش عارف

وانفجر هو في لحظة باتت صراخ:

- أيوة معرفش إنتِ غبية.. مابتفهميش

استدارت نحوه بانفعال والنبرة تحشرجت ببكاء مكتوم:

- إنت مش فاهم حاجة.. مش عارف حاجة

- مش عارف إنك بتحبي أخويا!

وألجمتها الزعقة.. والنبرة.. والحروف.. وأنفاسه التي تخللت نبرته فبدت رغم وحشيتها ضعيفة وجوار هذا كله ذكر الآخر ولو بالإشارة

هربت بعيناها منه وبكفين مرتعشين سحبت خصلاتها بعنف قبل أن تخطو بهروب:

- الخطوبة دي مش حتتم

ضرب كفوفه بيأس وتعبيره إن كان مجرد حرفان دون معنى بدا مُهين.. في تلك اللحظة شعر أنه يكرهها.. يكره نفسه وربما يكره محمود.

وانفجرت مُكملة بصراخ مرتجف:

- أنا لا عايزة أعرفك ولا أعرف أخوك ولا عيلتكم كلها ارتحت

وعبراتها تنهمر رغماً عن إرادتها.. تضعف بمهانة باتت ملتصقة بها وتلمح كفها الأيمن وهو يرتفع بين قبضته في قسوة

قسوة عيناه.. نبرته.. وأنامله التي اتلفت فوق حلقة ذهبية قيد بيها بنصرها دون رأفة:

- too late يا عروسة

****

وإن كانت طقوس صباح الجمعة بدأت بمكالمة مطولة مع مديرها ومكالمة مختصرة بمفاجآة رقية إلا أن الزيارة ببابها كانت كافية ليوم مختلف..

فتحت الباب على مصراعيه وكانت ما زالت تجفف يديها من جلي الصحون

- تميمة!

ملامحها بدت وكأنها من دهر باكية.. خصلاتها منسدلة دون بريق ويسراها تفرك بُنصرها الأيمن باضطراب. أدخلتها ليلى قبل أن تشير لحمزة بعيناها أن يترك لهما غرفة المعيشة والتحية من تميمة مذبذبة بابتسامة باهتة وستار عينيها واضح

هي عروس باكية

تجهمت ملامح ليلى وهي تلمح إصبعها المنتفخ باحمرار قاسي قبل أن تسألها في هلع:

- في إيه؟!

ضغطت تميمة فوق بنصرها لتنقلب شفتيها بطفولة باكية قبل أن توضح بقلة حيلة:

- ضيق وبيوجعني و...

- استني..

أخذت ليلى يدها برقة قبل أن تمرر محلول لزج فوقها برقة وتحرك الخاتم باحترافية متأنية ولكن دون فائدة.. زفرت مع مقاطعة تميمة اليائسة:

- حاولت ببلسم منفعش

وجهها كان مرتعب.. ليس بفضل خاتم أو وجع لا.. تلك الفتاة تدعي القوة ويبدو أنها تمر بما فوق طاقتها, ربتت ليلى فوق وجهها بطمأنة:

- ليلى حتتصرف

بعد حوالي خمس دقائق كانت الحلقة الذهبية انقسمت نصفان بفضل مقص معدني مخصص من أدوات حمزة, ملست تميمة فوق إصبعها بحرص لتأخذ ليلى بيدها من جديد وتمرر فوق الالتهاب مستحضر تجميلي مخصص.. تحركت شفتيها بسخرية تبغي استنباط الأمر:

- فال وحش ده

ولكن تميمة لم تجيب.. كانت في عالم آخر وتلك الحلقة لم تكن جزءاً منه, تابعت ليلى بنبرة مُكترثة:

- تميمة أنا مستغربة

وتميمة تبتسم.. تحييها بإيماءة ضعيفة وترحل وإن كانت تظن أنها معها ستكون قادرة على اعتراف..

غادرت ولم تكترث بأخذ الحلقة!

****

كانوا يا حبيبي

تلج وصهيل وخيل

مارق ع باب الليل

كانت أصواتن

تاخدنا مشوار

صوب المدى والنار

حلفتك يا حبيبي

لا تنسى يا حبيبي

لما بتسمع هالغنية

فكر فيّ يا حبيبي

دخلها في ظلام وغادرها في ظلام..

الشر بيفشل يا حكيم

والخير كمان!

وسخريته ألقت نظرة أخيرة نحو نافذتها وهي كانت تحتها تماماً تستشعر فوق ضلوعها احتراق وتخشى المحاولة..

ومن طرفها رمقته

يخطو..

يبتعد..

يترك خلفه فراغ..

والحزن ياتي مع الشتاء كما أوراق رواية كلاسيكية مكررة

هو لن يعود وهي لن تبحث عنه!

الفصل الثالث والعشرون

يُقال..

أن هناك فاصلة بين الفرح والحزن.. ولن ننال أحدهما إلا اذا اختبرنا الآخر.

ونصف الحزن سعادة ونصف السعادة حزن وكلاهما يسخران منها في وجه رجل. اقتربت منه بأنامل مترددة وتفاصيله بين عيناها تتوه.. تتبخر كذاكرة تبغي الفقد وهي تحارب كي لا تخسرها.

بيأس تحاول ابتسامتها أن تتسلل نحو شفتيها ولو بذريعة المرارة وهي تقاوم بكل فيها تلك اللحظة
تقاوم الفرح.. السعادة.. الحزن.. والذكرى.

هي ضائعة في منطقة المشاعر

- تميمة!

بنظرة باهتة استدارت, سقطت أناملها من فوق جوادها الساكن وتجمدت خصلاتها جوار ملامحها بلا حياة.. هي تستحضر ملامح محمود بعشق ومن نصفها لم تعد قادرة على اقتراب!

وأومأت وتخطت محدثها لتجذب مُهرة بيضاء وفتاة صغيرة تبدأ تدريبها الأول.

مر يوم..

اثنان..

أسبوع!

هل سيصدقها أحدهم لو قالت أنها فقدت الإحساس بالوقت.. أن نبضها يتوقف كلما مرت جوار المضمار تلعن غيابه.. أنها اتخذت بالأمس قرار رؤيته!

البحث عنه..

الصراخ بوجهه ثم الانهيار فوق صدره ثم الهروب تماماً.

أسبوع..

جذبتها أمها في ثالث ليلة فوق صدرها وكادت أن تُصارح..
تعترف.. تضعف وتشكي وتبكي ولن تستطيع

وكتبتها في خطاب.. ومزقته كي لا يقرأه أحد, بل أحرقته
وجلست لأكثر من نصف ساعة تراقب أناملها.. وفوق كل عقلة
إصبع تمر لها معه ذكرى..

غيرة لانا..

نظرته نحو ساقيها..

السبق الذي فازت به بإرادته
والنصل الذي أوجعها جوار دماءه

و... "بحبِّك"

- تميمة!

والكلمة تلك المرة من خالد الذي يجاورها لأكثر من عشر دقائق في السيارة دون أن تشعر به..

مر أسبوع..

بأوله كان يكرهها وأوسطه نسي بشأنها تماماً والآن أيقن أن من بجانبه ليست تميمة.. تميمة غابت.. سافرت لوِجهةٍ لا يعلمها وتلك.... تلك باهتة كزهرة فقدت الألوان في لحظة وجع. ظل يتأملها لأكثر من نصف الدقيقة والآخرى الواقفة على بُعد أمتار من كلاهما تعلم أنه ليس تأمُّل عاشق.

مر أسبوع..

ورُقيَّة مهجورة من ابنها الوحيد, بات يأتي المنزل كشبح.. يأكل.. ينام.. ويغيب نصف نهاره وكل ليله, اقتربت منه في

اليوم الثالث ولم يكن بغية اعتذار. همست وابتسمت وذكرته بليال مرّت وانفجر هو فيها لأول مرة!

- أنا تعيس يا أمي.. تعيس!

ونبرته تهدجت قبل أن يشيح بوجهه عنها حارقاً خصلاته تحت ثُقل أنامله. زفرة مُنهكة مرت جوار عينيه التي باتت متعلقة بهاتفه أربع وعشرين ساعة وندى التي اختفت من عالمه بلمح البصر!

وهمسها التالي باسمه كان بداية العاصفة..

- أنا طول عمري بخاف على زعلك.. بخاف أعارضك بكلمة تضايقك أو أفتح موضوع يرجع وجع, بس في الآخر أنا اللي خسرت يا أمي.. خسرت ووجعتها فراحت مني.

مر أسبوع..

وأخبرتها رؤى أنها قوية.. أجبرتها رؤى ألا تبكي وتركتها رؤى في نهاية اليوم بمقلتين فقدتا الحياة!

نظرة ميتة ألقتها على الهاتف الذي ظل لاكثر من نصف ساعة ينير باسمه حتى أظلم تماماً. قبل أن تقوم في ظلام دامس لتوضِّبَ حقيبتها وترحل.. استقرت كصنم في المقعد الخلفي لسيارة أجرة, وأعطت العنوان للسائق في ورقة مجعدّة وحبست دمعاتها جوار الحزن بكرة بلورية صلدة ثم خبأتها دون وعي في ذاكرة منسية قبل أن تنفجر..

تنفجر وتنسف روحها تماماً!

وعلى فراش مُترَّب بحجرتها القديمة بمنزلهم السابق تدثرت وهي ترتعش وتضحك..

"ندى أوعي تعيطي إنت فاهمة.. مياستهلش.. بطل تبقي غبية.. بطلي تبقي ضعيفة"

وصوت رؤى يهاجم يقظتها دون رحمة.. والدمعة تحارب.. تجاهد كي تهرب قبل كارثة التصدّع وصورته تهتز داخل

البلورة المظلمة وقُبلة كاذبة تركت نفسها لها في خضم لحظة عاطفية مثيرة للشفقة.

ومرحلة!

هي لم تكن بعالمه أكثر من مجرد خطوة..

مر أسبوع...

هي فقدت عشرة كيلو جرامات في أسبوع واحد!

احتضنت حقيبتها بارتجاف وصدمها أحدهم دون قصد فكادت تسقط, عيناها متآكلتين من التعب وهالات مظلمة تتجول حولهما دون سيطرة.. وهذا الصباح هو أول يوم باختبارات مطلوبة وكرتها البلورية صلبة.. صامدة.. تحوي الحزن والدمع والحسرات وصوته ونصائح رؤى وحروف اسم تميمة.

"لا"

ولفظ صديقتها جعلها ترفع عيناها, ورؤى مظلمة النبرة والملامح وتسحبها لكي يبتعدها وهو في محيط نظرها تماماً.. يجاور فتاته ويصِّف السيارة وتلمحها عيناه.

فـــ

تجمد تماماً!

- نـــــــــــدى

والأمر كله بدأ بلحظة. وهي كانت تمسك بكرتها البلورية وتركض.. تبتعد عنه في عشوائية ممزقة وتتخبط رغماً عنها بألف جسد ونظرة..

- ندى

ونبرته الثانية رغم زعقتها مختنقة.. رؤيتها أفقدته السيطرة فقفز من السيارة دون وعي ليتركها بتميمة التي تصلبت مشاعرها في منطقة خاوية ولسانها يبتر وجعاً لم تتصور أنه ممكن

الطريق بدأ يضيق وعلى الجانبين كانت هناك محلات متناثرة وزحام ومقهى ترك مقاعده حواجز لكلاهما وعجوز بمصادفة مُربكة اعترضت طريقها وكاحل التوى فكادت بين ذراعيه تسقط..

- ندى

ونبرته الثالثة مجروحة.. امتدت يده بعفوية كي تزيح خصلة تعلقت بشفتيها وأبعدته هي بعنف رافض

و"لا"..

لن تسقط أمامه الدمعة

انكمشت تلملم حقيبتها وتبتعد دون وعي خلف رجل أراد بفتاة حماية.. وآخر وتلاه آخر واجتمع حشد لا بأس به وعراك بدأ وغضبه يزيح الجميع كي يصل إليها ووجهها يهرب

عيناها تهرب

ووجعها يهرب

وآخر ما لمحه منها شفتين منحنيتين بمرارة الوجع والألم والحسرة لتغيب هي ويسقط..

ترك جسده في النهاية للكمة غادرة وشاب أراد يخبر العالم أن الدنيا بخير والرجال تمتلك النخوة وعاد بقميص ممزق ودماء قرب شفتيه أزاحها بظهر يده ونظرة جامدة نحو الآخرى التي تراجعت خطواتها في إنكماش والصورة تتضح أكثر مما يجب

بل أكثر مما يجوز أو تحتمل

"خالد.. وندى!"

****

والحكاية كانت عن مخلوق بحري يغوي الإناث من صفحة مياة, حين ينال منها بنظرة زائغة يسحبها معه في دوامة تخصه واحدة

لتقبع معه للأبد في قاع المحيط..

ويوماً ما أمسك بفتاة جميلة, كان تسمى آنييس فاستسلمت بين ذراعيه روحاً وجسداً وبينما هي معه على شفا عاطفة ومصير مظلم ارتبك..

توقف بفعل نظرة عاطفية تموج بالسذاجة والثقة

وتجمد وتجمدت معه الأمواج

تركها لينتفض جوار مشاعر مجهولة وأعادها إلى عالمها ليمددها فوق الرمال جوار عشقه ويأسه, ثم عاد وحيداً لمحيطه لعنته..

وتضحيته!

تركها.. نعم تركها كي لا يُغرقها ظلامه, كي لا تذبل وتنتهي أمام عينيه وفي النهاية وجدها ذابلة دونه.

حين أتاه صوتها على الهاتف هدرت بدواخله عواصف.. ضرب موج البحر صدره وسقطت هي جواره ببشرة شاحبة وانفعال حزين تسلل من بين حروفها والفحوى كانت أحتاجك!

ترك كل شيء ليكون أمامها في لا وقت. ولا مسافة كان يجوز لها أن تحيدها عنه في تلك اللحظة.

متشبثة بحقيبة رمادية وعيناها تغرق رويداً رويداً في عبرة.. بل عبرات! استدارت له بحروف مخنوقة وانفجار وشيك وحسرتها تود أن تسأله.. أو ربما تشكو.. تبكي وكفى ولن يفهم أنينها شخص دونه.

تحشرجت نبرتها وهي تمسح ما تسلل من دمع بكف يدها وحروفها تختنق فبترها هو بكلمة كانت كل ما تحتاج

كلمة كانت البداية لتَهَشُّم بلورتها المزعومة

"أنا عرفت"

وكفى..

انفجرت ندى.. سقطت جسداً وروحاً وإن تصلبت ذراعيه..
توقف كفه فوق كتفيها المرتعشين دون تلامس وتهاوت عيناه سقوطاً مع كل عبرة منها.

بعدها بدأ الهذي الملتاع بلاشيء.. الشراع الممزق فوق سطح سفينة غارقة في رمال العاطفة المتحركة والمعادلة التي توسعت مفاهيمها فوق كل إدراك متاح.

استدارت نحوه بمقلتين هاربتين من كل وعي ممكن والجدار المتهدِّمِ بينهما تتمة عادلة في جوف اللامنطق.

سقطت برأسها فوق كتفه..

****

وضعت مشروبها جانباً قبل أن تدور عيناها في اضطراب متحاشية النظر نحوه, وقتما ارتخى رأسها فقدت الوعي تماماً.. لم يتوقف عقله لتفكير ثانٍ, حملها في لحظة ليسند رأسها برفق فوق مقعد السيارة ويخرج من التابلوه الأمامي عطره الخاص ليمرر عبقه بيأس أمام أنفها.. استفاقت بنصف وعي لتتوه ابتسامة مشوشة في قلق عينيه ثم وقعت غافية من جديد ولكن باطمئنان خالص!

وهما الآن على طاولة جانبية في مطعم قريب.. طلب لها وجبة خفيفة وعصير فواكه طازج وبصعوبة ارتشفت نصف العصير ثم أحاطت ذراعيها بانكماش واضح.. شاحبة هي كثمرة سقطت قبل النضوج, ذبول عيناها موجع وكأنه قرر السيطرة فنصب نفسه ملكاً فوق وسائد سوداء كثيرة.. كثيرة هي على طفلة مثلها. شفتيها ضائعتان في نصف حياة وأميرها الوسيم تركها ففقدت القُبلة

قُبلة الحياة!

غادر أفكاره ليتأملها بصلابة مقصودة:

- مش حينفع يا ندى

ارتفعت نظرتها في ضعف.. تشابكت أناملها وبات عقلها يبحث عن حطام بلورتها المفقودة, تاهت وهي تستقيم لتهرب وأجلسها هو مرة آخرى بنظرة واحدة:

- فين ندى؟

وحنو حروفه جذب من بين شفتيها ابتسامة وإن بكت.. وإن مجدداً فرَّت الدمعات.. وإن عادت لأحزانها دفعة واحدة وإن تاهت..

تاهت دون جواب

تابع وهو يجذب أناملها برفق بين كفه الضخم:

- كل حاجة حواليكي حتتغير.. الدنيا مفيش فيها ثوابت

التوت شفتيها بحزن:

- مكنتش أعرف إني حتوجع كده

وشردت لتتوه نظرتها في صور مركبة باتت لا تفهمها, خالد وعشقه واعترافه ووجعه وظهوره وتميمة و..

بترت اللحظة الأخيرة لتعود له مجدداً والتيه يبحث عن نجاة:

- هو احنا ينفع نرجع نتكلم

تعلقت عيناها به, أمست في ليلة حالمة بعشق هاديء واستيقظت على ارتباك عابث. هي كطفلة صغيرة نامت فوق أرجوحة ولتتحاشى السقطة تبحث عن رجل يُسندها..

لا يجاورها في الهَوَس ثم يتركها تسقط!

يزلزل عالمها بجملة كان هو فاعلها وآخرى مفعول وهي خارج نطاق النص.

وكادت أن تقفز العبرات لعيناها مجدداً ولكنها ألجمتها.. قست.. تشبثت بندى.. وحينها ضم قبضته فوق أناملها بتملك دافيء:

- بشرط..

وطفولتها سقطت من فوق الأرجوحة, توسدت الحيرة وتقافز القلب بدقات غير مفهومة والأمر تلك المرة لا يجوز أن يبدأ بمحادثات عاطفية ساذجة عن أحلام فتاة من طرف واحد.. تعلقت نظرتها بحركة شفتيه والسؤال براءته ممتدة إلى آخر دهرها معه:

- إيه الشرط؟

وابتسم وكانت ابتسامة رمادية.. نصفها كان يحمل كل الألوان وفقدها من زمن ونصفها الآخر خربشته هي بأقلام رفيعة على قدر طاقتها دون أن تستوعب تفاصيله.

مرر الطعام بحركة يد واحدة نحوها وعيناه تمنحها كل آمان ممكن, ترفعها برفق من تحت الأرجوحة المحطمة لتأخذها نحو آخرى, أنيقة.. هادئة..

وربما ثابتة دون أعاصير مفاجآة أو هروب ماسخ

****

مر أسبوع..

عشرة.. خمسة عشر

ثلاثون..

أربعون..

خمسون!

ابتعدت شهقته رغماً عنه عن حوض المياه البارد

والتعداد

ثلاث دقائق!

قطرات المياة لم تكن تتساقط حول وجهه, كانت تتلوى.. ترقص بتفاصيل شياطين صغيرة لا تبيح له سوى أفكار متحجرة.

نهاية تعيسة وهو البطل باقتدار.

خرج من دورة المياة ومياة خصلاته تجف بقسوة أنامله وتلو ذلك سحابة لفافة, تمر فوق تفاصيل سقف مظلم وترسم هروبها خطوة تلو آخرى بتأني لا ينوي بكلاهما رحمة

الهاتف ينير والرقم غير مسجل والباحث أبيه والتوقيع مُهتم!

هرس اللفافة في الهاتف وسقط فوق الأريكة دون نوم, عيناه متصلبتان بجحوظ رجل ميّت ولكن دون تابوت رحمة وجد له خلاص

جنة... جحيم!

نجاة.. سقوط.

أي شيء سوى تلك المرحلة التي تقع خارج نطاق المنطق, وكأنه تخطى بُعد أينشتاين الرابع ليصل بعقله نحو فراغ تام حيث تختفي المشاعر تماماً فتحيله لمسخ دون معنى.

مسخ أوجع نقطة الضوء الوحيدة بظلامه فكاد أن يطفئها!

توقف إلحاح الهاتف بتزامن مع طرقات الباب, وسخرية شفتيه حضرت ولكن دون الابتسامة.. وتجاهله أربع طرقات وفي الخامسة هدر صوت لم يكن ينتظره.. ارتفعت عيناه في سعير وشياطينه الصغيرة تهدأ لتستقر بجوف ملعون واحد.

شرير مُنتصر لأن الملاك لم يحارب ليخرج مهزوماً

بل شرير خاسر

ومرارة الكلمة وازت الباب الذي فُتح على مصراعيه ليمسك كلاهما بتلابيب الآخر.

محمود و.. خالد

....

- حصل إيه؟

ونبرة الصغير مرتفعة.. مترددة ولكن قاسية الوقع متشبثة بجريمة ارتكبها غيره, أما الأكبر فكان شيطانه يقظ والرؤية معدومة سوى من تفاصيل خديعة ابن ابيه كان بطلها..

توحشت نظرة محمود بقسوة قبل أن يضغط على جسد خالد فترتخي قبضتيه لثوانٍ قبل أن يتيقظ مجدداً وهروب ندى بطل اللحظة

وجع تميمة..

صمتها..

ذبولها..

عشقها لأخيه الذي لم تنكره ومع هذا وضعت صك موافقتها على هذر أمه. وتلك المرة انتفض بغضب جامح وقبضتيه تمتلكان السيطرة فوق قميص أخيه:

- انطق حصل إيه بينك وبين تميمة؟!

وكان اسمها هو النقطة الفاصلة في سكون شيطان خاسر.. دفعه بضربة واحدة ليقع خالد متأوهاً فوق دولاب فضيات متهالك ثم جذبه مجدداً رغماً عنه وفحيحه يحذر:

- اللي بيني وبين تميمة إنت ملكش دعوة بيه

والتكملة قبل محاولة ردع أو فهم:

- مش من حقك فاهم.. تميمة مش من حقك

- وأنا مش عايزها

والصرخة جمدت كلاهما.. محمود الذي تصلبت قبضته فوق طرف قميص أيقن أنه ممزق وخالد الذي تاهت ملامحه في دُكنة أخٍ غاضب.

أبعده بقسوة وقبضته تهشم رف زجاجي كان ما تبقى من الخزانة المهشمَّة, دماء قليلة تناثرت حول أصابعه المجروحة ونظرة قاسية مرت على طرف عينيه

تحكم خالد في أنفاسه ثم دار ببصره في المكان بغضب مكتوم قبل أن يستقر عليه بثبات:

- تميمة مش صراع يا محمود

- مش دورك علشان تقرر

- ولا حقك علشان تحارب

وسعيره في تلك اللحظة غير قابل للمفاوضة.. استدارته كان حاسمة وإن كانت نظرته دون القسوة وبتوقيع المرارة:

- بلاش نتكلم عن الحق

ثم استدار..

باختناق فوق قدراته هرب..

بلفافة تبغ جديدة تشبث بها وود أن يحرقها على آخرها من أول اشتعال وإن قضى في غضون ثوانٍ على نصفها.

- اطلع برة

وضعفه بيّن

ووجعه بيّن

وعري احتياجه ينتفض والامتلاك ليس أكثر من زعقة وقبضة وكلمة النهاية على حبكة هو بها كوبارس فقير دون حضور ناطق.

سينتهي الأمر مثلما بدأ, وإن مرت شهور أو أعوام.. سيمر الكادر على العائلة بسلام نفسي أنيق وشاب مبهر دون تعقيدات مزعجة وأبٍ لا يكرتث سوى بحروف سيخلدها في البطاقة وأمٍ وجدت طريقها بعد خطأ حسابي بسيط وما المعضلة من وجود طفل زائد!

- اطلع برة

وكررها بكتمان مُحترق..

بفلسفة سوداء لا خيالية عن هابيل وخطيئة قتل زرعها الشيطان بعقل قابيل لأن الدنيا ليست الجنة..

واستدار مع صفعة الباب ورحيله.. وسخرية الوجع تعود لتمر من جديد, تلملم بعثرة شظايا زجاج كان يجب أن يسقط ونفوس لا تستحق سوى جحيمه.

حتى وأن تنازل قبل أن يُكمل دهسه عليها!

****

أسقطت رأسها في تعب والوقت تخطى الثانية عشر.. زوجها أخذ حبة دواءه وغفا بنوم مبكر بعد أن هاج وماج وصرخ بها لرحيل ابنه الأكبر وابنها الذي أغلق هاتفه منذ الصباح ليتم اليوم باختفاء كامل.

انتبهت أخيراً على صوت سيارته فاستقامت بشبه ركض خلف خطواته التي تسارعت في لحظة نحو غرفة نومه, يتحرك بخطوات ثابته بين خزانة ملابسه وحقيبة!

تجمد لسانها للحظة قبل أن تنطق باستيعاب مشوش:

- خالد.. إنت بتعمل إيه!

لم يجبها.. كتم زفرة غاضبة قبل أن يغلق الحقيبة ويتجاهل النظر نحوها, ثار جنون مستحق.. اقتربت منه.. جذبت الذراعين وتأملت الوجه واستحوذت على رصيدها الوحيد في الحياة بوجع:

- خالد رد عليا

وهنا استوعبت تفاصيله.. وجه وكدمات وجرح حديث جوار شفتيه, قميص ممزق وقبضة زرقاء العظام وشهقة لا تنوي التخلي عنه:

- حصل إيه انطق؟!

وهنا انفجرت الشرارة.. أنزل يديها عنه وعيناه تنتفض بزعيق يائس:

- كفاية بقه كفاية

ثم خلع قميصه دفعه واحدة ليستبدله بآخر ويجذب سترة دون تفكير قبل أن يزيحها ببطء ليرحل, ركضت خلفه بتشبث مبحوح:

- مرفضتش ليه؟!

تصلب.. استدار لها دون تصديق ودموعها تسبقها في آخر جولة.. تدافع أو تحارب لا فارق, هي في متاهة بحثها عنه تُخفِق.

ترك حقيبته تسقط لتهاجمها نبرته بيأس:

- علشان خالد اللي ربتيه مش حيرفض..

تشبثت بذراعه وقنوطها خارج نطاق الوعي:

- أنا عملت كل ده علشانك

وتجمدت ملامحه بقسوة قبل أن يمر فوق وجهه النفي:

- مش علشاني

ثم تابع بنبرة رافضة:

- علشانك إنتِ

ولم يعطيها فرصة لمفاوضة فرحل.. أوجعه نحيبها فخلص ذراعيه من تملكها برفق وعيناه تترجم اعتذار صامت.

هو يحتاج أن يرحل..

****

طرقات.. باب خشبي قديم وخزانة ما زال باقيها مبعثر,
كان راقداً فوق الأريكة الصلبة بشبه نوم والآن أيقن أنه لم
يُشذِّب لحيته لأسبوع كامل.. طالت تحت وطأة عينان غائرتان
ومواجهة خاسرة مع ابن أبيه!

رائعة تلك المسميات في اللحظة الحالية

أبناء أمه.. ابن أبيه

عادلة!

وانثنت شفتيه بسخرية جامحة قبل أن يحرك قفل الباب ببطء
لامكترث بتره ظهور زائره المفاجيء.

وانحنى ثغر خالد جوار جرحه وعيناه تتشبث بجمود ملامحه
الضائعة

- ليا مكان عندك!

الفصل الرابع والعشرون

أنا سأنتظرك في محطة الألم

وأنت ستستقل قطار النسيان!

الموسيقى فوق أذنيها عشوائية لفنان غامض اختارته تبع أُحجية أناملها دون وعي. أي شيء.. أي فوضى.. أي ضوضاء تهرب بها من تلك الأصوات الصارخة حد جمجمتها.

برأسها تدور معركة!

هل يختفي الجرح مع السنوات أن حُفر بنصل مهما فعلنا سيترك أثرا

وتخطفها ذاكرتها نحو نقطة.

عيد مولدها السابق.. بداية دون أن تدرك رسمت قصة..
فتاة رقيقة جوار حماس شاب وسعادة شبه راقصة منها وسحابة تبغ طغت على أربعتهم فتهشمت الصورة!

"أنا آسفة يا ندى"

وكانت بداية عاشر رسالة نصية لم تصل نحو وجهتها.

فالهاتف مغلق والصوت أصبح معلق بمسار آخر..

- ندى..

ونبرته دفء صباحي, رزانة الحرف التي تمرر السكون لأنفاسها المتوترة في خضم تيه هي لا تملك به خيار.

- ناوية على إيه؟

وسألها.. ببطء جذبها لمنطقة حوار هي تهرب من كل ما يخصها, استيقظت في الخامسة فجراً وتناولت الحليب البارد

وقطعة بسكويت بالشوفان وتجرعت الكثير من المياة مع زعقات أمها.

وتهربت من السؤال بمصارحة خصته بها:

- ماما اتخانقت معايا الصبح علشان روحت بيتنا القديم من غير ما أقولها.. انفجرت فيا بشكل يخوف

وصمتت.. بدت أنفاسها شروداً في شيء يؤلمها قبل أن تسطرد بنبرة هشة:

- نسيت تسألني أنا أصلاً سيبت البيت ليه.. زعقت بس

وبترت الحروف فجأة.. قطعتها وكأنها حمل ثقيل ألقته في عمق المحيط وانتهى, وانطلقت في محادثة مُرتبكة عن فطورها الصباحي الخفيف وشعورها المنفجر بجوع على استعداد أن يأكل وليمة.

وترددت بالحروف فأخذها هو مع زمام المبادرة بعرض أنيق:

- يبقى نفطر سوا

....

اعتدل في جلسته محيياً ماجدة التي رصت أمامهما صنوف الطعام في بشاشة ظاهرة وصوت مبتهج حوى تحيتها العفوية بلكنة قريتها البعيد:

- أحلى فطور للأستاذ مصطفى

حياها بابتسامة رصينة ثم جذب برَّاد الشاي الصغير الحجم ليسكب لنفسه البعض في كوب زجاجي منقوش ويسألها وهو يسكب لها البعض:

- بتحبي الشاي مع الأكل زيي

أومأت بنعم وارتشفت القليل وهي تراقب أريحيته في بدأ تناول الطعام, كان يرتدي كنزة كشميرية بلون رمادي فاتح فوق قميص مقلم بخطوط زرقاء ناعمة.. شفتيه تمضغان الطعام باعتدال

أنيق وإشارة صامتة منه لماجدة بعد لقيمات بسيطة كي تُحضر له القهوة.

لأول مرة تراقبه هكذا عن كثب.. تتأمل ملامحه.. خصلاته القصيرة المشذبة بأناقة خاصة تناسب عمره.. لون عينيه المتذبذب بين بريق بني فاتح جوار سحابة رمادية قاتمة, شعرت أنها غرقت في تفاصيلهما لوهلة قبل أن تنتقل لانحناء شفتيه الصامت بابتسامة لم تفهمها, وربما هو أيضاً لم يفهمهما.. في تلك اللحظة لم يفهم ابتسامته بل كل إنفعاله.

كانت تراقبه.. تتأمله.. تجتاز دون وعي مسافات هي أصغر من أن تفطنها.

ومرر نحوها طبق الفول الصغير ليهرب

مصطفى يهرب!

- ما بتاكليش ليه

وأومأت بلاشيء وجذبت بضع اللقيمات في اضطراب وحين مضغت الأولى شردت نبرته في ماضي..

- أحسن اثنين بيعملوا فول في العالم أمي الله يرحمها وماجدة

وراقبته بعينين ملتمعتين في صمت وكانت تسحب لقيمة ثانية فثالثة وكتمت ضحكة حين قال أن أسوء طبق فول تذوقه في حياته كان من يد إيناس وانتبه هو للغيمة التي طغت على الضحكة

إيناس.. فـ تميمة... فـ خالد!

وشرود متبادل بين كلاهما, هل باغتها باللفظ.. هل أقحمه ليقفز خالد مجدداً للصورة.. هل غرقت هي في دوامة هروب غير مكتمل.

صمتت وبدى صمتها دهراً حتى خرجت الكلمة قاتمة من بين حروفها:

- مبروك!

وضاقت عيناه بتعبير قاسي, لو استحق الأمر لفظ مباركة عقيم فمن الأفضل أن يكون له وليتشبث بأنانية مشاعره وينالها وهو قادر على أن يجذبها لمنحناه بكل يُسر.

ولكن يبدو أنه كُتب على هذا العشق أن يكون مآساة سواء كانت له أو لغيره.

حشرجة طفيفة طغت على النبرة وصوت لم يكتمل خرجت منه حروف "آسفة" وتحركت أناملها لتسحب كوب الشاي ببطء مبتغية من حرارته دفء لترتجف رغماً عنها حين نالت دفء آخر. أنامله القوية التي أحاطت بكفها والكوب سوياً وتلعثم منها وازى نظرة جانبية من ماجدة نصفها استنكار ونصفها شفقة.

هذا الرجل لا يعبث

هو غارق..

مالت رأسه مقابلاً ارتباكها قبل أن يهمس بنبرة غامضة:

- أنا حاطلب منك طلب

رفعت رأسها بعد أن سحبت يدها وتركت الكوب لتقضم سبابتها اليُمنى دون وعي ورفرفت أهدابها بإيجاب متشبثة باللفظ أيا كان..

- حاضر

وتبدل إنحناء ثغره بتعبير مختلف لا يجدي معه حدس.. اعتدل الجسد بثقة كالنبرة وتبختر الحرف فوق لسانه بحنكة معلم فوق مسامع تلميذة.

- حتجاوبي قبل السؤال يا ندى

وتلجمت كلماتها كما المشاعر التي وقفت في منتصف الحيرة, وأمام تصلب بؤبؤيها أتم عبارته:

- حاستنى ردّك بنعم أو لا!

وياله من اختبار قاسي.. غريب..

أن ترفض أو تقبل ما أنت غير قادر على حُسبانه

****

في الخيال يتعثر البطل مصادفة بعباءة التخفي, يرتديها ويلفها حول جسده ويكتشف بها السحر الخاص الذي لا يبحث عنه الشرير.

الحقيقة!

وهذا الذي قضى ليلته في منزله منذ الأمس لا يحتاج لعباءة كي تقرأ دواخله, هو نقي كوضوح ورقة بيضاء بين رماد الحياة.

ربما الأمر هكذا بحق..

خالد الورقة وهو الرماد!

تأثرت عينيه بضوء طفيف وحين مالت نظرته نحو الوقت وجدها التاسعة, صوت طقطقة مكررة بالخارج لفت انتباهه

وعندما غادر الغرفة وجده يرتكز على ركبيته جوار الخزانة المهشمة يلملم برفق بقايا الزجاج المبعثر ويدندن بلحن قديم.

كان يبدو عليه النشاط وكأنه استيقظ منذ ساعة أو أكثر وحوله بدا المكان مبهجاً وكأنه تخلص من عباءة ظلامه, النوافذ كلها مفتوحة فاخترق ضوء الشمس جدران تآكلت بفضل الزمن.. وصوت مذياع عالي من شقة مقابلة جاور سكونهم.

حين أنهى لملمة الفوضى مسح تعرقه ببساطة لم تلمح مراقبة أخيه الأكبر ثم توجه لفتح باب المنزل والتخلص من كيس المهملات المتوسط الحجم الذي لملم به.. "بلاوي" على حد تعبيره

- الستات بتتعب برده

وهمس بها من بين أنفاسه التي توقفت مع صوت مذياع الجيران مرافقاً لـ جسد أنثوي ممتليء الأرداف مع ميل طفيف مجاور لكل نغمة بحرفية مدروسة

يا بتاع التفاح لون تفاحك راح فى خدود ست الكل

يا بتاع الياسمين مين يندهلك مين؟ واحنا معانا الفل

كانت تنحني بزاوية خمس وخمسون درجة في ليونة مبهرة ثم تستقيم من جديد محركة خصرها بدلال لتعود جاذبة دلو المياة مجدداً ساكبة نصفه ومستديرة بانفعال تام مع الموسيقى لتنهي معزوفة مسح الدرج!

ولم يستطع أن يكبح جماح تعبيره المشاكس:

- أنا شكلي وقعت في فيلم لمحمد السبكي

- نـــعــــم

وتلك كانت أول "نعم" بتقنية "وصلات الردح" يسمعها في تاريخه. أغلق الباب بضحة ملأت شدقيه ما لبثت أن توقفت لوهلة حين لمحه يقف قباله.. ملامحه كانت غامضة لا تستطيع أن تستنبط منها شيء وكأنه وجه لا يُقرأ..

عادت ابتسامته بتردد قبل أن يحك خصلاته بخجل وهو يشير نحو الباب:

- أصل...

وقاطعه محمود وهو يجذب منشفة متوجهاً نحو دورة المياة بملامح رسمها جادة:

- دي شوق مرات البواب

فتح فاهه وهو يعود بنظره للباب غير مصدقاً حتى قاطعته نبرة محمود مرة آخرى وتلك المرة بمشاكسة غامزة:

- فيلم السبكي

وعلى مائدة الإفطار جلس كلاهما في منطقة نسيان مؤقت, مرحلة مرور اللحظة كما هي دون إقحام ذكرى قد تفسدها.. خالد جينات أمه سيطرت عليه فأعد الوليمة وإن كانت مجرد بيض مقلي برائحة سمن طبيعي نادرة وجبن أبيض طازج.

- إنت جبت السمنة دي منين

قالها محمود وهو يمضغ طعامه في اهتمام.. ليجيب خالد الذي لم ينظر نحوه "فالجوع كافر!"

- أم محروس تحت أنا جبت اللي لقيته بس شكلها هي الشيف بتاع المنطقة.

وتابع خالد التهام طعامه ولم يدرك أن محمود في تلك اللحظة كان يراقبه.. يتشبع من تفاصيله.. يرى جزءً من نفسه في ملامحه ويدرك ببساطة لا تحتمل رتوش أنه أخيه الأصغر.

بكل ما يحمله اللفظ من معنى.

وبعدما شربا أحدهم القهوة والآخر شاي بثلاث ملاعق سكر قرر خالد ترتيب اليوم على هواه ولا اعتراض ممكن..

- يلا نخرج..

****

لا تلعن أزماتك..

فربما تكون بداية!

ارتخى برأسه بعد يوم طويل يراقب حديثه المُطوِّل مع بائع الذرة عن أزمة الوطن الاقتصادية الأخيرة, يمرر له مزحة سياسية مشاكسة ثم يفند أسباباً عن قوانين الفئة العاملة وأن الوضع لن يخرج عن معاناة بروليتاريا كادحة.

- شيوعي!

وقالها محمود بابتسامة يائسة وهو يرتشف الشاي الساخن تاركاً له الإستحواذ على كل مخزون الذرة الملتهبة. ضحك خالد وهو يأخذ قضمة متلذذة من الحبوب المشوية ويتابع وهو يشير بتحية لصديقه العجوز:

- وإمبريالي وإشتراكي وشيخ وثورجي وكل اللي تطلبيه يا حلوة

- اتلم

وقسوة محمود تتشبث دوماً في انفعال عينيه, دكناه تطغى على اللحظة فتشعرك وكأنك سقطت في هوة لم يتجرأ أحد لنبش دواخلها. ولكن.. القسوة رغم هذا اليوم مختلفة.

تراقب..

تمازح..

تشرد قليلاً ويفهم هو سر الشرود فيُجاهد لاختطافه منه, تناولا الغذاء في مطعم مأكولات بحرية صغير واكتشف محمود أن خالد يتأفف من شكل الاستاكوزا ولكنه استساغ طعمها فقد اضطر في النهاية في تقشيرها من أجله!

والحساء يا لطيف لم يقترب خالد منه فكيف بالله عليكم سآكل حشرات.. وقد قد قالها بصوت عالي وزجره صاحب المطعم المنتفخ الهيئة بنظرة قاتلة لهذا الشاب الذي لا يفقه أهمية الصحن السحري للرجال. غادرا المكان منفجرين من

الضحك وأجزم خالد لمحمود أن الرجل لن يدخله مجدداً وضاعت يا ولداه الخلطة السحرية.

واسترخى بدوره جوار أخيه على مقعد خشبي صلب أمام مياة النيل المظلمة رغم أن الليلة ما زالت في بدايتها, ولكنه الشتاء..

وقالها بنبرة قاتمة وعيناه تراقب انعكاس ضوء القمر فوق صفحة المياة بظلامها الأزرق:

- الشتاء ده كئيب يا أخي..

- ليه؟

وسؤال محمود حروفه قصيرة, بدا وكأنه متشبثاً بحوار أو ربما قراءة آخرى لهذا الذي غاب عنه لسنوات ليكتشفه في يوم واحد..

زفر خالد ببطء قبل أن يتابع بجفنين ارتخا في شبه إنهاك:

- أنا مخلوق صيفي.. ليل.. بهجة.. غُنا.. شراب فيليه مشبك في الثلج ده!

حين حادت الكلمات عن مسارها بشكل مفاجيء استدار محمود لأخيه ليجده استقام بجسده بشكل مفاجيء ليراقب فتاة بدا عليها من الطلّة الأولى أنها لعوب.

ثوب أسود قصير ملتصق بانحناءتها تحت سترة لامعة بتصميم فج وخصلات مصبوغة رفعتها فوق رأس وظلال سوداء مربكة لشكل عيناها مع أحمر شفاة نبيذي لامع. جذبه محمود باستنكار غير مصدقاً:

- بتبص على إيه..

دفعه خالد والمزاح ما زال مسيطراً على ملامحه:

- استنى بس تعال نخوض التجربة

- تجربة إيه الله يخرب بيتك تعال هنا

وانقلب العالم في يوم..

العابث أصبح زاهد والمثالي يفاوض فتاة ليل!

نظرت له باستخفاف قبل أن تجيب وعلكتها تتأرجح بين طواحنها:

- خمسمائة جنيه

ضم حاجبيه برفض صارم ليترفع صوته بعدها وكأن كلاهما لا يرتكب فضيحة:

- نــعـــم

وكانت قريبة لخاصة شوق, اقتبسها منها كما استدعت اللحظة

وتابع بزعيق لا يبالي بالعدد القليل من المرة:

- هما أربعة وعشرين جنيه كفاية عليكي قوي

ومحمود لا يصدق منه.. استقام ليجذبه من تلك المهزلة والفتاة قررت على ما يبدو أن تتخلى عن السجن بفضل المهنة وستدخله بعد أن تشج رأسه.

- أربعة وعشرين إيه يا عينيا.. الحقني يا معلم ده جاي يهرج

والنبرة المستكينة الأخيرة وازت ظهور كائن ضخم الجثة من العدم فوق رأسه.. البداية كانت مشاكسة وفضول ومعرفة سعر نشاط الدعارة في ظل أزمة اقتصادية طاحنة والنهاية..

همس بحروف سريعة وعيناه تحث أخيه على قراءة الموقف:

- محمود... تعرف تجري!

****

لا تحاول أن تكون لحكاياتك بطل.. فليس بالضرورة أن تنجح.

ولكن...

البطولة في عالم غيرك عظيمة!

قتلهم الضحك حتى وصلا إلى المنزل وهو التقط أنفاسه أمام الباب ليدرك أنه لم يضحك هكذا من سنوات.. بل لم يضحك هكذا أبداً.

هل مرت تلك التفاصيل العائلية المحببة فوق عالمه بزيارة غير مكتملة.. هل كان هو لعائلتيه مجرد عابر ويجذبه خالد الآن من مفترق الطرق. لمَ يرغب في الجلوس فوق مقعد أو أريكة, مدّ ساقيه فوق السجادة الخشنة واستند برأسه على الجدار في صمت وبدت عيناه غارقة في ذكرى.. وربما حاضر

مستقبل لا يعلمه!

نبرة خالد اقتحمت ظلامه كما فعلت طوال الساعات السابقة:

- حنعمل إيه بقة دلوقتي..

نظر له محمود غير مصدقاً وقد ظن أنه هو من يمتلك طاقة زائدة:

وتابع خالد الذي استقام بنشاط ليتوجه نحو المبرد مخرجاً زجاجات مياة غازية وبضعة مسليات:

- حسهرك سهرة إيه بقة.. عالمية!

والعالمية كانت متمثلة في فيلم كلاسيكي قديم لشادية وكمال الشناوي وقصة حب تنتهي بقُبلة غير مفهومة, ما المتعة في إطباق شفتيه فوق شفتيها في تصنُّم سعيد!!

وأغلق خالد التلفاز بزفرة غاضبة:

- أنا آخر مرة شوفت فيها القناة الأولى كان عندي تسع سنين

- وأنا مش بتفرج على التليفزيون أساساً

وقذفه محمود بباقي المسليات ليتفادها الثاني قاذفاً باقي المياة الغازية في دفاع بريء قبل أن يهمس بمكر:

- كده شوق بكرة حتضطر تيجيلنا تنضف

رفع محمود حاجبه الأيسر بقسوة وقذف جبهة مقصود:

- طيب أنا حجيبهالك بكرة ووريني آخرك إيه

وبموازاة ورفع نفس الحاجب أجاب خالد بثقة:

- أي حاجة حاعملها حتكون أفضل من بوسة كمال

ورغم المناورة والمشاكسة إلا أن ذكرى القُبلات تمرر ملامحها رغماً عن عقله.. خجلها البدائي منه حين فعلها لأول مرة.. إنفعال عينيها مع لفظ أحبك

واختفاءها من عالمه كتسرب المياة من كف ممزق بعد أن وجدها..

هي ستقتحم الصورة مهما ادعى الهروب

أو ربما كما يقول حمزة

الحب هو... ندى.

****

الحب قطار متأخر أردت أن لا ألحق به.

شريحتان من الخبز المحمص وجبن أبيض دون ملح. تجرع عصير البرتقال ببطء بعد أن استرخى بجسده فوق مقعده الجلدي مراقباً لون السماء من خلف نافذته.. زرقاء صافية ببضع سحب متناثرة ولكن دون مطر, هذا يوم لا يحتمل برودة..

وسخريته تمر على ملامحه.. تفاصيله..

دنياه التي أيقن رماديتها فترك نفسه للتيار لتوقفه طفلة!

بابتسامة تبتر الوجع وبآخرى تحييه

واستقام تاركاً طعامه والعصير المثلج وتشبث بقهوته القاتمة وضلال أفكاره نحو رواية لا يود أن يقرأها

بل يطمع في استحقاق البطولة.

وطرقاتها كانت حيرة تلميذة فوق باب معلم أعطاها أول اختباراته, وسؤاله يمر بعقله..

هل ستنجح..

هل ستفشل..

هل ستخطو مجدداً لعالمه بذات البراءة والبكاء والحبيب الذي لا يشعر بها والسيناريو المكرر حد العبث.

- ندى

ونبرته مطمئنة رغماً عنه.. مرحبة وجاذبة وتتولى سحب المقعد لأجل ارتباكها وترددها بشأن اللقاء والزيارة, وجهها صافي

برتوش وردية مبعثرة بين الوجنتين والشفاة وخصلاتها ملساء أرجعتها خلف أذنيها وتخلت فيما يبدو عن طفولة العطر.

أناملها المرتجفة سحبت بأريحية كاذبة شريحة جبن لتأخذ منها قضمة صغيرة وتستدير بحيرتها التي تتوسم في عينيه مرسى:

- أنا موافقة!

وضاقت عيناه بآمال رجل فقد نفسه ومعها يعود.. ضاقت بتأمل.. بقسوة..

بغضب..

وإنفجار..

وجذب ذراعها عنوة والخشونة هنا مُلامسة.. مرور غاضب فوق الذراع ورمادية العينان تطغى..

- موافقة على إيه يا ندى!

****

ويوم جديد.. ثاني صباح دونه.. بقايا الوجع

هي حاولت أن تواظب على روتينها وفشلت.. تزلزل عالمها مع اللحظة التي خرج فيها من المنزل, حاولت أن تحادثه ووجدت منه رسالة مُعتذرة تُخبرها أنه سيغلق الهاتف...

وكانت تعلم أنه لن يغلقه ولكن ابنها ليس له طاقة بحوار, وودت أن تقسم له أنها لن تحاور.. لن تقحم بأذنيه حديث ولن تثرثر بحروف تؤرقه.

ودموع هربت مع نبرة زوجها المتسائلة بعد ثاني صباح

- خالد فين؟!

- ساب البيت

وقبل أن يبادر بسؤال آخر أجابت

- أنا السبب!

وتركته متحاملة على ثقل جسدها نحو غرفتها من جديد..

اليوم مر ببطء قاتل والابتسامة رسمتها مع محادثة صديقة على الهاتف, تحية صباحية صامتة لإيناس.. وطبق حلوى وعدت به فتاة صغيرة لعيد مولدها.

تلك الأحزان القاسية فوق قلوبنا لا نحتمل الحديث عنها..

نحيدها وكأنها ستختفي.. ندفنها بالرمال جوار رأس نعامة

وهو يثرر.. يلوم.. يتحرك خلفها بانفعاله المعتاد ويبعثر حروف لا تسمعها, صمتها بات مطبق كشفتاها اللتان زهدا الحديث ثم أغلقت الباب بوجهه ونامت.

وكانت أول صدمة..

زلزلة بعالمه الثابت الذي ضحة بالغالي والنفيس ليحافظ على استقراره

- إنت فين؟!

- أنا عند محمود يا بابا..

وكانت تاني صدمة!

ابنه الأكبر غادر وهو اكتفى بمحادثة هاتف.. والأصغر هو من بحث عنه.

حين أغلق الهاتف لمح وجهه بالمرآة فشعر وكأنه لا يعرف نفسه.. لا يترك لعقله مساحة على الخوض في تفاصيل ولا حتى المحاولة

عاد من جديد ليرمق غرفة رقية.. حزنها البادي في عينيها وبكاءها المكتوم وانقلاب البهجة في ليلة وضحاها..

وكأن دواخل عائلته تمر دونه, هو معهم ضيف شرف..

هو اختار أن يكون ضيف شرف!

****

وهو صباح بدا مميز.. سماءه حقاً صافية.. والنشاط في مزرعة أبيها بأوجه, كل شيء رائع.. كل شيء مرتب.. كل شيء مثالي سواها.

وهناك من يندب حاله لأنه وجد الحب متأخراً ففاته القطار, أما هي فتعجلت اللحاق به حتى سقطت.

- محمود!

وصغيرة تقرأ أفكارها.. بل ترجَّها لتتبعثر حروفه فوق العقل رغماً عنها, وشفتيها تجيبان بصلابة قاسية:

- مش موجود النهاردة يا لانا

وكرمشت الطفلة ملامحها وعيناها ما زالت تبحث عنه, بل صرخت بها في رفض غاضب:

- إنتِ بتدربي وحش.. عايزة محمود

ولم تتصور لانا أن تميمة ستبكي! تجلس فوق الرمال ممررة أناملها بعشوائية فوق خصلاتها وتنظر نحوها بعيون تائهة:

- أعمل إيه!

وإنفجار أنثوي يشبه خاصة أمها حين كان تتعارك مع أبيها, حشجة بكلمات غير مفهومة وانحناءات قوسية مُهلكة وقلة حيلة..

هي مشتتة فوق أطراف المشاعر..

وبشموخ استقامت.. مسحت عبراتها وحملت الطفلة ووضعتها فوق مهرتها من جديد, حبست الدمع ولملمت خصلاتها لتنتقل بخطوات باهتة نحو يوم آخر

عقارب زمنية تمر ولا فارق..

دائرة بمحيط كرة الأرض ومركزها هي أما هو فيدور.. ومداره ليس له نحوها طريق.

- تميمة!

ونبرة مرتبكة على الهاتف من أمها.. ومجرد رسالة..

بلاغ..

توضيح

- بابا جه من السفر..

الفصل الخامس والعشرون

هو كان خبيراً بصنوف النساء.. يجيد النظرة.. ويُتقن اللمسة.. ويُعانق بالكلمة.

رجل رسَّخ قوانينه فوق مفاتن الأنثى وعصف بكل عبثها أمام تيه طفلة!

وعيناها تجمدت قبل انفجار

وبداية النظرة غيمة والنهاية سحابة ممطرة!

والمشهد فوق شفتين رُسم في توقيت واحد..

- موافقة على إيه يا ندى؟!

وتلعثُم بحرف واحد.. ثم اعتذار لجَّم قساوة اللحظة

- آسفة!

وهي تركت عيناها للأرض فلم تلمح انفعاله, سقطت كلماتها كما سقطت خصلاتها فوق تشوش الرؤية.. سقطت دون ترتيب حاذق ولا حتى محاولة نجاة

سقطت فوق رأسه!

- أرجوك متزعلش مني.. متسيبنيش

وتهاوى جدار القسوة, بل تهدم قبل وضع أول حجر!

ارتخت أنامله لتبتعد, وتحاشت عيناه المرور فوق الملامح فأطبق جفنيه في هروب.. واللحظة قارب ورقي ممزق في خضم موج عات.

انتهى الموج.. وانتهى القارب.. وانتهى مصطفى..

وعانقها بعينيه دون اللمسة.. مر فوق هواءها بكفه ورسم بسبابته حول كلاهما خيوط, رقيقة.. وناعمة.. وواهية كما بيت العنكبوت تماماً

وتذكروا ليست جميع العناكب سامة..

وقريب هو من ملامحها بوجهه ومن وسط نشيجها الخافت تسللت سحب أنفاسه وهي ليست حارة وليست باردة, هي طيبة المرور كهواء صباح ربيعي دافيء..

ورغماً عنه.. اللمسة رغماً عنه والمرور رغماً عنه ومحو العبرة بطرف أنمله الصلب رغماً عنه..

وابتعد في نصف لحظة من اقترابه وربما تبددت السحب بل تكسرت خيوط العنكبوت وتهدم المنزل في ثوان

- حاجيبلك مية

وقذف هو في جوفه قبلها أمواج باردة.. هرب وهو لم يكن برجل هروب..

اه من تلك الطفلة

هو في عالمها احتواء وهي في دنياه ارتواء

وهي من شلال كان منهمراً خطفت نظرة, تأملته وهروبها يخطو نحوه من جديد..

أهي لوثة حب؟!

أم بداياته..

وهمست وهي تأخذ منه الكوب وبراءتها تُحكم رغماً عن كلاهما السيطرة:

- والله ما حاتكلم عن خالد تاني..

وأفزعتها استدارته فأسقطت الكوب وتناثر زجاجه الجارح تحت قدميها, وقبل أن يفكر مالت على رُكبتيها تلملم الفوضى.. ولا تعلم أنها لا تجيد سوى البعثرة

- استـــ

وبُتر تحذيره وتلون زجاج كوبه المُهشَّم بالدماء. أمسكت سبابتها تضغط الجرح وجذبها هو ليضمد ويحنو..

يهتم..

ويعتني بها كما لن يفعل رجل!

أحكم الضمادة برفق ولون الجرح بات مع نقاوتها وردي..

يا أنا يا أنا أنا وياك

صرنا القصص الغريبة

يا أنا يا أنا وياك

وانسرقت مكاتيبي

وعرفوا إنك حبيبي

وانبلج صوت فيروز من مذياع هاديء, أطل دون مقدمات كهجوم الشمس فوق قمة جبل بارد.

والحب عند الفتيات ناعم.. وردي.. متشبث

وحين الجرح الحب نجاة

منطقة آمان لا متزنة تظن أنها الأفضل

الحب هو تلك العاطفة التي جاورت الرغبة, هو نبض السعادة وهرمون الرضا..

هو كوب المياة المنعش الذي أجدت اختياره

هو البدايات اللطيفة

أما العشق

فهو الشغف

هو نقطة المياة المُنجدة التي وجدتك في صحراء قاحلة..

هو فقدان السيطرة!

وتعلقت نظرتها به فلم يتسنى له هروب.. تاه كلاهما عن نهاية اللحن

نسيوا بعضن وارتاحوا

نسيوا بعضن وارتاحوا

****

يدعي الفرحة وعيناه غارقتان في الحزن..

وخالد ليس بشخص صعب الفهم ولا دواخله بأعماق المحيط, وكان يدندن بوقت فطوره ثم يغيب جوار اللحن لأن صاحبته مفقودة. وسأله وهو يستند ببساطة داكنة على حافة الباب وبداية الصباح هنا كانت دون تبغه ودون قدحه المكسور الذي كان قد عاد مواظباً على استعماله.

- هي فين؟

وتصلبت ملامحه إلا من ارتعاشة طفيفة على جانب خده الأيسر, محمود يعلم..

محمود لا يسأله عن تميمة

وببطء سكب فوق أوراق الشاي المياة الساخنة.. فذابت حتى فقدت هويتها, وببساطة هرب نبرته نحو فلك آخر:

- إنت عارف إننا بنشرب الشاي غلط

واستدار بابتسامة ناعمة ليسرد حكاية.. عن قواعد شُرب الشاي تبع جزيرة سيلان.. عن الشجر واللون والهيئة والطعم وغلي الماء برفق قبل دهس أوراقه.

شردت نظرته وهو يرتشف قدحه ببطء ويشير لأخيه بـ حُلم. رغم بساطة كلماته بدا... جنة

- في يوم حسافر وآخد فنجان الشاي بتاعي هناك أو زي ما أنيس منصور بيقول.. الشاي هناك له وطن.

والوطن قد يكون أرضاً غرزت بها كدَّك بتعب سنين.. قد يكون شقيقاً بت تقرأه بنظرة عين وقد يكون امرأة لا تأتي سوى مرة واحدة في العمر.

وهربا كلاهما من الكلمات.. قضيا الوقت في التندر على انحناءات شوق وصراخها في مراهق مسكين لمحته يسرق النظرة وتحاشيا النظر نحو التلفاز وخرج محمود ليبتاع عشاءً جاهزاً وهرب من مروره أمام منزل حكيم. بقدر رغبته في رؤيته.. في البكاء فوق كتفه.. في بعثرة التيه والحيرة بين يديه إلا أنه هرب.

وجع المصارحة فوق احتماله..

وتشبث بالابتسامة.. بخالد, باللحظات المسروقة مع شقيقه.. بالذكريات التي يرسمها..

- جبتلك عكاوي ايه بقه عارف إنك مش حتاكلها

ولأول مرة.. نعم لأول مرة تنير ضحكته وجهه بهذا القدر

رغم أنها توترت للحظة.. فقط لحظة حين لمح الزائر..

****

- يابني شاي إيه ومية إيه اللي تغليها مرة واحدة.. الكتب لحست دماغك

وحمزة انطلاقه يشبه قطار ليلى.. هذا الرجل يتحرك جوار قوة زوجته, ويود أن يشاكسه خالد ولكنه صمت.. كتف ذراعيه وواقف يراقب مهندس النباتات وهو يبوتق كل تركيزه في كوب الشاي باللبن.

- العظماء يابني.. وارتشف حمزة مشروبه بتلذذ وهو يتخطاه نحو غرفة المعيشة ليمر بعينيه في نظرة سريعة قبل أن يسحب سجادة خفيفة قرب الجدار ويجذب مذياعاً قديماً لم يلبث أن اكتشف أنه لا يعمل فزفر باختناق وهو يجلس على السجادة مستنداً على الجدار:

- قلة مزاج بقه

- مزاج ايه يا حمزاوي إنت ناوي على بيات ولا إيه

ابتلع حمزة ريقه قبل أن يضيق عيناه بغضب مصطنع:

- اتلم.. أبوك باعتلكم معايا فلوس

ضحك خالد بيأس قبل أن يجلس مقابلاً له ثم مد يمناه:

- حقك عليا يا قلبي.. هات بقه

وضع حمزة النقود في يده بمزاحه المعهود:

- مادي حقير..

ليجيب خالد ببديهية وهو يحصي الأوراق:

- الزعل ملوش علاقة على فكرة

صاح حمزة وابتسامته تتسع:

- منطقي يا واد

وتوقف الحوار مع قدوم الزائر.. وبُهت وجه محمود للحظة قبل أن يشير له خالد بمرح ويتولى تعارف ربما لم يكن الأول

ولكن تلك المرة يختلف..

حمزة.. ابن اخت أبيه والنسخة الأكبر من خالد!
وهو الآن يُدرك أن شقيقه لم يأخذ شيئاً من حسن, هي فقط سحابة ملامح مرت على كلاهما.. تناولا العشاء معاً وهو أحضر عكاوي وكفتة مشوية من أجل خالد الذي لن يقترب منها كما توقع, تذوق حمزة اللحم بتلذذ قبل أن يمرر قطعة لخالد بزعقة أخ أكبر:

- كل فضحتنا

تجاهله خالد متابعاً مضغ طعامه برزانة:

- مش حاكل أنا الشيء ده.. إيه ده أصلاً

ضم حمزة حاجبيه بتركيز ليقول بنبرة متلذذة بكل قضمة:

- ذيل البقرة

وملامح خالد كان تعبيرها لا يوصف في تلك اللحظة وهذا شيء لن يجوز تقشيره من أخيه الأكبر, ضحك جميعها وأنهى حمزة على نصف الطعام قبل أن يطلب جرعة آخرى من

الشاي بالحليب وتجاهله خالد ليحضر زجاجات مياه باردة وجيتاره..

- لا بتفهم..

وغمز حمزة وإن لم يفعل أي منهما شيء, كانت وجبة طعام ثقيلة.. غامت عيني حمزة في شبه نوم كاد يتطور لشخير وشرد محمود مع التبغ واللفافة.. هدّأ من أضواء المكان فهو بطبعه يُفضل الدُكنة وترك صدره في مواجهة هواء نافذة مفتوحة ورسم فوق وجه القمر ملامحها..

هل تليق به الآن الرومانسية الناعمة!

وسخريته من نفسه مرسومة في عيناه, بل دخان تبغه يرسم أفكاره.. يبيح.. ويمنع.. ويعاقب.

وكأن الحزن يجب أن يطل بظله الثقيل على اللحظة.. تلك هي وظيفته.. يذهب ليعود..

- داني

وهمس خالد مر فجأة بنعومة لحن ثمانيني مرح لم يلتقطه محمود إلا حين رد حمزة دون أن يفتح جفنيه:

- بالفرح داني

ويجيد خالد اختطاف اللحظة ببهجة لم تمر على عالمه من قبل:

- لما

وحمزة هو توأمه الذي يكبره بفارق تسعة وعشرون عاماً:

- قلبك نداني

وتأرجح اللحن بين كلاهما بتناغم ساحر

- نورك

- هل ونداني

- طيفك

- بحر وسقاني

ليأخذ بعدها خالد التتمة ويتم البهجة بإيقاع جيتاره وإن لم يكن فوق الأوتار بل بإيقاع أنامله بتطبيل مرح

وادى من بدرى وادى عاشق ومغنواتى

ماشى ليلك ليلاتى بحبك يا اسمرانى

"بحبك يا أسمراني"

اختطف الأصغر الأكبر لعالمه.. لصوته.. وبعفوية حفر لحنه بذكرياته.

ربما مرت ذكريات الماضي دونه ولكن بيدنا أن نرسم في الحاضر ما نشاء لنتذكره في مستقبل قادم.

****

قالت لها عاد..

وهي لم تعد..

قضت نهارها بين الخيول وقتلت نفسها في العمل لتهرب لغرفتها دون عشاء بحُجة استذكار ضروري لاختبار بعد غد.

وراقبت باب غرفتها بخوف.. بهجوم أبوي مستحق سينتزع منها حقيقة لا يجب أن تسردها وعقاب هي غير قادره على احتماله

فيكفي غضبه..

وبغرفتها قدح قهوة دون مذاق وعشاء وضعته أمها للهاربة.. وتذوقت القليل كي لا تفقد وعيها وتثير الانتباه, ثم جمعت خصلاتها في جديلة قاسية وراقبت ملامحها في المرآة دونه.. راقبت شحوبها دونه.. راقبت الحزن..

راقبت لون القهوة الغير مفهوم وغاصت في مذاقها فقط لتهرب دون جدوى, وانحنت شفتيها بتعبير بنفس النكهة, ليس بغضب وليس باشتياق

هو تائه كقهوتها تماماً..

هل تذكرون الفرق بين الحب والعشق!

الحب يشبه ارتشافك لقدح قهوة ساخن, يأخذك معه إلى منطقة خارج حدود الواقع لتغيب أنت بجوار اللحظة

أما العشق

العشق هو قدح القهوة البارد الذي لم تكترث أنت بتفاصيله حيث سقطت في بُعد آخر لم تترجمه المشاعر بعد!

وتركت الأم غرفة الابنة دون أن تقترب ورمقته من بعيد وهو يغيب فوق وسادة نومه, لم يغمض عينيه.. تركهما لأفكار تموج فوق رأسه وقسوة التعبير مُخيفة.

- خالد؟

وهمست بها والقلق يمر مع كل حرف.. أمومتها تود الدفاع ومسؤوليتها تود المواجهة أم غريزتها فكما ابنتها تماماً تهرب

مرت نبرته ببطء أجش:

- نامت؟

ونفت هي بملامحها دون جواب..

وأظلم هو المحيط حوله بالتقاء جفنيه.. لم يكن نائماً وهي تعلم ولكنه..

صامت

والصمت يخيفها منه.. وعليه

واحتوت قبضته بين أناملها الضعيفة وسألته وأمومتها تسيطر رغماً عنها:

- حتعمل إيه مع تميمة؟

قطع ظلامه في قسوة نظرة وإن تشبثت هي بأمومتها فالأبوة سقطته..

- وهي كانت خدت رأيي

والزعقة أرعبتها.. شرارة عينيه لن تمر مرور الكرام وعقابه إن بدأ لن يرحم أحد

هو لا يحتاج لأن يسرد, اللغة بينهما تخطت هذا الأمر.. وهي كما تفهمه تعرف تميمة.. تميمة تذبل ولو رآها.. لو اقتحم عزلتها الآن.. لو لمح الدمع..

خالد سيبيد الأخضر واليابس.

وابتعدت.. تنوي الكذب فواجهت المرآة والكارثة أنها تعلم أنه رجل لا يجوز معه كذب, ولكن هل تمتلك بديل؟!

ستسرد أي شيء.. ستبدل الحكاية.. ربما تميمة لم توافق.. ربما هي المذنبة.. أو رقية كانت صاحبة الضغط

فلنقل كانت رقية تقصد خالد وتميمة فهمت أنه محمود..

تعبير ساذج وتدعو الله أن يمر ومن رحمة الله بها أن قاطعها هو قبل أن تُحاول.. هو يعلم أن امرأته فاشلة في الكذب

- محمود فين؟

والسؤال انتقل لحلقها مباشرة, توقف به ليمنع الجواب ولكنها دفعته في النهاية بصلابة وصراحة هي ضعفها وقوتها

- ساب المزرعة

وكان قد استقام.. ترك الفراش وواجه النافذة ومحيط بصره مزرعته

- وخالد؟

وهي ليلة طويلة.. وغداً صباح أطول

وذات الجواب بذات النبرة:

- ساب المزرعة..

وامتزجت السخرية بالقسوة في تعبير واحد.. وبعدها الصمت التام, مرت عشر دقائق كاملة دون أن يمرر تعبير واحد..

وعلى بعد أمتار ليس أكثر تميمة ما زالت في غرفتها

تميمة لا تبكي

تميمة تحبس البكاء..

تدعي القوة..

وتحضر حالها بكذبات متعددة ربما داخلها تتوه الكذبة, هي تورطت..

تورطت في عشقه.. ووجعه

- خالد؟

وخائفة إيناس.. ضعيفة بفطرة أم

وقاسي هو بقلق أب

أما الفعل وتفاصيله فتوقيعهم كان

لخالد رضوان

- عايزهم بكرة الثلاثة في مكتبي

تميمة.. محمود.. وخالد.

****

- جاهزة؟

وأناملها باردة.. مرتجفة.. وأباح هو لنفسه ملامستهما بدعم..
أو عشق.. ثلاث حروف عن تبديلهما سيتغاضى القلب.

اللحظة تستحق ندى..

وأمام مكبر الصوت تركت نفسها لـ لحن.. لحروف ترقص بين
شفتيها وعينان غابتا عن الكون, ندى تجد نفسها حينما تغني..

ندى تحتاج لأن تجد نفسها..

وجاوره الملحن الشهير وحنكته تراقبها باهتمام:

- ممتازة

وعيناه لم تتركها.. حتى الردّ بدا وكأنه ليس لصديقه بل لنفسه:

- أنا عارف

وأنشودتها احتلت أركان المسرح.. ترك المتسابقون ثرثرتهم وانتبهت مطربة عجوز لفيتارة مختلفة. بدأ معها خمسة وتجمهر مائتان مع التي ستدهس الجميع كما عبَّر صديقه..

وأناملها تمرر اللحن على الهواء جوار شدو سيكون علامتها المسجلة, تضحك مع المعنى وتحزن وتمر شفتيها بحرفية وُلدت بها فوق جميع المشاعر.

وعيناها.. كانت معه

لحنها معه

وكل حواسها معه..

قبل ساعات

- موافقة يا ندى؟

ولثاني مرة أومأت وجاوبت وأكدتها بكل تعبير ممكن

- نعم...

وأخذها نحو نفسها.. أخذ بيدها نحو ندى.

****

الفصل السادس والعشرون

تُنسى، كأنَّكَ لم تَكُنْ

تُنْسَى كمصرع طائرٍ

ككنيسةٍ مهجورةٍ تُنْسَى،

كحبّ عابرٍ

وكوردةٍ في الليل .... تُنْسَى

محمود درويش

في مسار الحياة أنت ملك العثرات والنتيجة تذبذبها آمان أو عبث!

والمطعم نيلي الواجهة.. هاديء بمنطق الصباح وفطور الثامنة في يوم عطلة وقدح القهوة السوداء أمامه مع قطعة مخبوزات هشة, كان قد اختار لنفسه طاولة جانبية متطرفة مع جريدة

ووقت يقتله. أفكار تتجول بخبث في محيط رأسه وتبريرات واهية سيندم عليها لاحقاً.

عشقه مفروغ منه وهو اعتاد. أمّا تشبثها سيدمّرِ مسار الحكاية.

- ماما.. ماما

والنبرة رفيعة صارخة لطفلة لم تتجاوز من سنوات العمر خمسة, جميلة بخصلات سوداء منسدلة وشقاوة انتشرت بأركان المكان.. تركض هنا وتضحك هناك واقتربت منه بابتسامة خجلة ومع استدارته وانتباه عيناه ونظرتها نحو الأم التي لحقت بها توقف الزمن قليلاً.

أو لنقل عاد..

عاد لسنوات نحو الوراء, للحظة حاسمة تحديداً.. وصوت غنج امرأة على الهاتف مع رجل وهي تتحرر من ملابسها لتبدأ خيانة!

نظرتها تصلبت فوق وجهه ونظرته هو كانت بين نطاق الزمن, رأى الماضي.. ورأى الحاضر.. ولعن المستقبل. وجذبت هي الفتاة في انفعال غاضب سريع وتحركت في شبه تعثُّر حتى جاورت رجل ما وطفلان آخران.

أسرة هانئة سعيدة!

والرجل وقور الهيئة بمنظار طبي رفيع وملابس كلاسيكية منتقاة, منشغل جداً بأطفاله على ما يبدو فهو الذي قطع المعجنات للفتاة ووضع السكر في حليب الولد. إشاراته للنادل بسيطة مهذبة وحركة أنامله توحي بأنه رجل بمهنة روتينية.. ربما طبيب ما أو موظف بنك, زواج تقليدي كـ لاشيء ومطلقة جميلة أجادت الحبكة المظلومة هي وأهلها وصمت هو لأن عائلته ليسوا بمروجين فضيحة ينعم بها الآن رجل آخر.

تابت!

مستمرة؟!

عبثية الموقف طغت على ملامحه وعلى إزاحته للقهوة التي لم يُكملها وعلى صوت أطفالها المتذمرين وعلى نظرتها الحاقدة نحوه.

رُبّما

أُعطي الحكايةَ سيرةً شخصيَّةً. فالمفرداتُ

تسُوسُني وأسُوسُها. أنا شكلها

وهي التجلِّي الحُرُّ. لكنْ قيل ما سأقول.

يسبقني غدٌ ماضٍ. أَنا مَلِكُ الصدى.

لا عَرْشَ لي إلاَّ الهوامش. و الطريقُ

هو الطريقةُ. رُبَّما نَسِيَ الأوائلُ وَصْفَ

شيء ما، أُحرِّكُ فيه ذاكرةً وحسّا

عاهرة تائبة أو مستمرة.. بدا له الأمر مشوشاً لا يُشكل فارق, بدا التفسير كروي الشكل بقطبين متنافران أحدهما منتصر بالتخلص من امرأة مثلها والآخر خاسر توقف عند نقطة واحدة من الزمن وبعدها تاه, أصبح رجل اللحظة العابرة تمُّر ويُنسى هو في خضم حياة ليقبع في ظل الهوامش.

أنامله وجدت مستقرها في خصلات رأسه جوار صُداع مزعج. لم يتحرك بالسيارة على الفور ظل يراقب الطريق.. مرور السيارات وزعيق أحد المارة وحركة طاولة خشبية لمحل خضروات يبدأ رزقه.

هكذا هي الدنيا.. بدايات ونهايات.

وهو تعثر في بدايته ويخاف أن يُفسد شكل النهاية.

ندى..

قد تمثل لنهايته ترضية مناسبة.. دواء حلو النكهة ومرحلة لا منتهية من الشفاء. ومالت عينيه بفكرة داوم على الهرب منها في الليالي الفائتة.

ما المعضلة لو كانت هي دواءه؟

ما المعضلة في أن يتخذها زوجة؟؟!

****

يا أهل المحبة ادوني حبة.. من سعدكم

أسعد فؤادي وأبلغ مرادي يوم زيكم

بملابس بسيطة من الجينز الهاديء اللون وسترة بيضاء ناعمة كانت تتوسط الجمع, جالسين على أرضية المسرح في نشاط مبتهج يرددون كلمات زين العابدين مع استدعاء صوت عبد المطلب ولكن تلك المرة بنكهتها هي.. لحن أوتارها وبراءة

صباحها ومرور الحروف بسلاسة بين شفتيها. أعطى لنفسه الحق لكي يراقب.. يستعيد بها ومعها مشاعر متدفقة بين مرور عاطفي هاديء وفيضان مرتبك جوار التفاصيل, العينان بانفعالهما العفوي خارج مدار الكذب, والخصلات التي تناثرت حول الوجه في تعبير فوضوي أوَّل ومذاق السكر المتوقع من شفتيها.

ولمحته واستقامت بلهفة من وجد نفسه, ثرثرت.. ثرثرت كثيراً وهي تتحرك جواره وتقص عن وجودها هنا منذ السادسة صباحاً. عن خطة الفريق في احتفال ضخم سيكون بعد أشهر ومسابقة ستغني فيها لحن خاص.

واستدارت له بنعومة:

- أنا مبسوطة قوي.. لولاك مكنتش حققت كل ده

و"لولاك" هنا لم تكن مجرد كلمة ولا حروف مرتبة بكياسة مجاملة, كانت له بكل إحساس ممكن. حين خرجا من المسرح

كان الوقت قد قارب على الظهيرة وارتدت جاكيت شتوي ضخم لصعوبة الطقس ووضعت فوق رأسها قلنسوة ملونة وطارت وضحك كلاهما ولحق بها هو ليضعها لها بحرص تلك المرة ويُثبتها. يتأكد من دفء يديها كطفلته ويسألها باهتمام أب إن كانت قد تناولت إفطارها.

يسبح جوارها وسط هذا الارتباك مستمتعاً بالغرق ومتجاهلاً طُغيانه. مسترخياً كراحة مريض مع قارورة علاجه ثقة في وصفة طبيب دون أن يكترث بالنشرة.

- أنا حاخد شوربة الجو تلج..

وقالتها وهي تحيط جسدها بارتعاش طفيف ورغم أنه اختار مطعماً عربياً دافيء النكهات إلا أن يديها ما زالت مثلجة كما وصفت ووجنتيها صبغة حمراء فوق سحاب أبيض وضمها لشفتيها بات يعبث بأفكاره فأشار للنادل متعجلاً بتحضير حساء ساخن مع بعض المقبلات وحين عاد لها بنظره مجدداً وجدها ما زالت منكمشة بدندنة خافتة وكأنها ستُذهب بصوتها السقيع.

ضحك يائساً فرفعت كتفيها في عفوية وأنفاسها الباردة تمر جوار الحروف:

- أعمل إيه؟

ودوماً عفويتها تقابل تحفظاته.. ربما هذا الفرق بين كلاهما هي تسبق كلماتها بخطوة وهو معها ودونها يفكر.. يضع آلاف القوانين ويحطمها ويشيد المنزل وجدرانه ويحتفظ بها لنفسه لحظة قبل أن يطردها.

العلاقات مع النساء دوماً في بدايتها هادئة.. مترددة.. تدريجية.. ولكن معها اختطاف.

مرور واثق وإن كان في بدايته متردد على محيط الطاولة حتى وصل كفه لأناملها مبيحاً لنفسه احتضان أنيق.. إجفالة منها وسيطرة منه وعفوية فتاة في محيط سيطرة رجل وملمس شفتيه فوق باطن الأنامل لن يُنسى.

كما الدواء..

كما الآثار الجانبية..

ستظل عالقة في الجسد والذاكرة.

****

بمنزل حمزة وليلى صباح العطلة مزدحم.. باتت تشعر أنها تتحول في تلك الساعات لمرأة خارقة أو بالأحرى تقتبس أمها. بداية من الفطور التقليدي الدسم.. صوت التلفاز المرتفع على برنامج حواري لا تُشاهده والتفرغ لإعداد غذاء عامر سيلتهب برائحته الفرن وقت الظهيرة.

كانت تقف أمام الموقد لإعداد الطعمية المنزلية الساخنة بينما حمزة منشغل بإعداد سبع أكواب من الشاي بالحليب وجواره عصام. الأخ الأصغر لزوجته المصون من التوأم الشارد.

فـ ليلى منذ رحيل أمها وهي تواظب على دعوة أخويها لقضاء عطلة الأسبوع سوياً ولكن حسان الذي استلم تكليف وظيفته

منذ شهور قليلة بات مؤخراً بعيداً عن الصورة خاصة مع انشغاله بخطيبته في أوقات فراغه.

وشاكس عصام بهمس سؤال أخته من قبل أن تنطق به:

- قالوا لجحا بلدك فين؟!

ليجيب حمزة المنشغل بشايه وحليبه:

- اللي فيها مراتي يا معلم

لوت شفتيها بتذمر وهي ترمق كلاهما:

- و حيحن عليا امتى ويوريني طلعته البهية؟

ابتسم عصام بيأس ولكن هي عقلها كان في مكان آخر, عصام بشكل ما يذكرها بمحمد.. نفس الجنون والانطلاقة والأهم الثقة أما حسام فيحمل نفس انطوائية أحمد من طفولته وإن كان الأخير عاطفياً بدرجة أكبر. اختار حسام كلية الطب في قرار رأته هي تقليدي دون شغف واختار لنفسه العروس مبكراً وإن

تشك في وجود انفعال عاطفي بينهما من الأساس, أما عصام فالجنون نفسه.. التحق بكلية السياحة والفنادق لا لشيء سوى أنها تساعده في مساره وخلع عن رأسه قبعة الطموحات الاعتيادية وارتدى قبعة آخرى بلون أبيض تبيح له فن من نوع خاص.

- أنا سايبك تعكي بمزاجك بس الغدا بقة ممكن أعلمك

ابتسمت له وهي تخرج القطع الساخنة من الزيت الغزير مع نبرة تغلف احتراماً مشاكس:

- ماشي يا سيادة الشيف

ثم رمقته بنظرة جانبية غير يسيرة لأخت كبرى قررت أن تتخذ دور الأم:

- وإنت ناوي تفاجئني بالعروسة قريب

استند بجسده على مقعد خشبي قريب ثم كتف ذراعيه بمنطقية بشكل ما ناسبت ملامحه العابثة:

- لا متقلقيش أنا مش ناوي أتجوز

وليلى ما زالت متشبثة بدور الأم حتى أنها استدارت والمقلاة الساخنة ما زالت بيدها.. ضحك وهو يبتعد عنها عائداً لمجاورة حمزة

- اهدي يا منار السلاح يطول

زجرته بجدية:

- مش حتتجوز ليه بقة إن شاء الله

رفع كتفيه باستهانة مشاغبة:

- ليه أفضل آكل ملوخية طول عمري وأنا ممكن أشتاق للرز المعمر.. طاجن بامية.. تارت فروالة.. ستروجونوف

حمداً لله أنها أنهت التعامل بالزيت الساخن.. تصلب فمها غير مصدقة وهي تردد عبارته بغيظ:

- ستروجو.. ايه..

وكان ما ينقصها حمزة الذي استدار لحديثهم بابتسامة تملأ وجهه وملامح "بتفهم يابني" تقفز من تعبيراته فجذبت أحد الصحون بحدة وهي تتخاطاهم:

- إيه الأفق الضيق ده

تبعها عصام بصحون آخرى وخلفه حمزة لتخرج كلمات الأول ببساطة وهو يمضغ طعامه:

- إحنا كده يا ليلى أفقنا ضيق

كان يقولها ويديه تتمتد بطول المائدة لينال الباذنجان المخلل التي تجيد ليلى صنعه بوصفة أمه.. اللعنة ما زالت ترفض اعطاءه تفاصيل تلك الوصفة. لم يدرك أن أخته الكبرى لحظتها كانت تتأمله, عصام يمتاز بطول فارع يذكرها بأبيها الراحل وأمها كانت تقول دوماً أن كلاهما ورثا ملامح منصور في شبابه وإن امتاز عصام عن أخيه بخصلات سوداء ناعمة كثيفة ضمنت

له اهتمام الكثير من الفتيات خاصة مع حاجبيه الثقيلين فوق عينان ضيقتان ببريق أسود صريح.

وضيَّقت عيناها في غيظ منه ومن عبثه الغير منتهي عازمة أن تظل على موقفها ولا تعطيه الوصفة فوصفة الباذنجان المخلل تستحقها فتاة وهي لا تمتلك أي منهن!

ولوت شفتيها بيأس مدركة أنها تتناول طعامها مع ست ذكور:

- أنا فعلاً محتاجة عنصر أنثوي في العصابة دي

وقبل أن تتمها قاطعها حمزة بهلع زاعق:

- ليلى أنا مش حاجيب عيال تاني

وطلت ضحكات الجميع على المائدة وجوارها طلت طرقات الباب كضيف آخر.. أو لنقل ضيفة

تميمة

****

بتردد دخلت لتعبر عيناها بارتباك أنها لم تكن تتوقع هذا الزحام, كانت هاربة وإن هربت من المنزل وتجمع الفطور وشعرت أمها من أجلها بالشفقة فبررت تسللها, كان عليها أن تهرب أيضاً من الاسطبل ومضمار الخيول وكل ما يشبه تميمة.

كانت تحتاج للابتعاد عن نفسها ثم أيقنت أنها تريد رؤية ليلى, فبعد ساعات لا أكثر سيكون هناك.. جوارها.. قريب لحد قد لا تحتمله وفي مواجهة أبيها.

ضمت أناملها على الطاولة مومئة بابتسامة صامتة لتحية حمزة واكتفت بالمشروب الساخن دون طعام ولكن ليلى أصرت عليها فأعدت لها شريحة جبن مملح, كانت تتباع حديثهم بعينيها خاصة مزاح حمزة وأبناءه ومشاكسة عصام معهم وإن شردت في أغلبها ولاحظت ليلى.. قررت أن تجذبها لغرفة جانبية علها تفلح معها بحديث أو تقتحم هذا الصندوق الحديدي الصلب الذي أغلقته على نفسها.

هذا التغيير الموجع

البُهُوت

تميمة باتت لوحة باهتة

- للدرجة دي؟

والنبرة كانت انفلاتة من ثغر عصام حتى أن الجميع نظر نحوه, ولا يعرف لمَ! لمَ نصر على تعقيد الأمور لتلك الدرجة

اذا ما رأيت أحدهم مستاءً فالتسأله ما به حتى وإن كنت لا تعرفه!

ونظرتها نحوه كانت مشوشة فتابع ببساطة وازت اهتمامه بطعام ياسين الذي جلس فوق ساقيه:

- مفيش مشكلة مالهاش حل

وكأنه ضغط على زناد الشجن, اغرورقت عيناها بعبرات مكتومة لتهرب منها نبرة شاحبة تماماً كلون بشرتها الذي فقد حرارة الدماء:

- بس أنا مشكلتي مالهاش حل

وحركة جسدها استنفرت لهروب, وكأن القدر يخبأ لها مواجهات متعجلة شاءت أم أبت.. قاطعها وكأنه لا يكترث بمحاولة نهوضها المترددة:

- إنت عارفة أنه أنا شيف!

الجملة بدت في غير موقعها, أومأت بلاشيء مع ابتسامة طفيفة وكأنها مهنئة بمهنة يبدو عليه أنه بها فخور. متابعته تلو ذلك كانت سريعة كشخص غاص بعقله ونبرة صوته نحو ذاكرة قريبة تبدو للبعض غير ذات أهمية ولكنها الفارق الذي يستحق في مسيرته.

- من سنتين جالي شغل ممتاز في مطعم خمس نجوم.. وقتها كان فرصة, شاب صغير لسه بيبدأ معروض ليه يمسك مطبخ كامل بالمساعدين بتوعه.. وافقت من غير تفكير واشتغلت شهر واتنين وثلاثة والأمور كانت ممتازة زيادة عن اللزوم

أوقف حديثه ليجذب قطعة مخلل من تلك التي ترفض ليلى أن تخبره سرها ليرمقها شذراً ثم يستكمل بنفس النبرة الهادئة نحو تميمة:

- وفي يوم بعد سهرة عشاء محترمة الزباين جالهم تسمم.. جماعي! طبعاً بالنسبة لي وقتها كانت كارثة ومحدش كان عارف المشكلة فين وصاحب المطعم قرر أنه اكون أنا كبش الفدا وانتهت مسيرتي المهنية من قبل ما تبدأ.

هنا بدأ يجذب انتباهها للقصة أو كما يقولون..

هي فترات من الراحة المؤقتة حين تنشغل بمشاكل الغير من وسط معضلتك. بتفسير آخر ضمادة.

صوته بدا مسترخياً وهو يشرح أزمته تلو ذلك:

- قعدت في بيتنا واكتئبت وربيت دقني وبقيت أسمع محمد محيي.. كل تفاصيل الكآبة الممكنة. وقتها المشكلة دي حسيت إن مالهاش حل. انتهيت والموضوع خلص لغاية ما بعد

أربع شهور بالضبط حصل جرد وتحقيق فساد في المكان وشهد مساعد المدير أن يومها اتقدم عصير هدية من الإدارة للزباين وكان صلاحيته منتهية.. بالبلدي كان عايز يخلص منه يعني ولما حصل موضوع التسمم ومحدش حقق كنت أنا كبش الفدا. وبرده المشكلة ماتحلتش لأنه محدش كان عايز يوظف الشيف اللي الناس اتسممته في عهدته..

- وعملت إيه؟

وسؤالها كان خافتاً من بين حروف تشبثت بأزمة.. عالمه الذي مال حد الغرق ولم تكن فرصته سوى نصف نجاة.

ابتسم لها بأريحية صافية لتتوالى حروفه بسلاسة هادئة:

- في يوم زارني راجل عجوز كان من ضحايا التسمم..
اكتشفت بعد كده إنه الوجبة اللي أكلها من إيدي كانت أفضل وجبة أكلها في حياته, فكرته بأكل مراته اللي ماتت وتخيلي دي كانت مجاملة. المهم كان زعلان جداً إن وجبته المفضلة

طلعت مسممة لغاية ما اكتشف الحقيقة وعرض عليا يشاركني في المطعم بتاعه هو بالتمويل وأنا إدارة ومجهود.. وببساطة جاتلي فرصة عمري.

صمتت وشرودها ذهب نحوه.. هل تلك الدوامة التي سقط كلاهما بها تحمل مخرج, ورغماً عنها تملكتها الخيبة..

ليته كان مجرد وظيفة.. مجرد مرحلة.. أو حتى شغف مهني ستفقده وتحيا دونه

ولكن هو الرجل الذي لن تعشق سواه وكل خطواتها تمحيها من مساره.

- الغرض يا تميمة إن فعلاً في مشاكل مالهاش حل.. بس ده لأننا مش عارفينه.

والحروف صاحبتها في رحلة الشرود حتى باب الرحيل وألحت عليها ليلى بالمكوث.. بالمصارحة.. أو حتى بقذف المخاوف

وكفى ولكنها ظلت صامتة كل ما قالته أن أبيها ينتظرها بمكتبه هو وخالد ثم أضافت بوهن اسمه

حروفه المبعثرة بعقلها لتصبح بشكل ما تحمل كل شيء. الذنب.. الغفران.. العشق.. والهروب.

تصلبت ليلى وقد مرت بقلبها غصة.. هاجس يخبرها أن تلك الفتاة ما زالت في بداية الحزن.

- تميمة ممكن أطلب منك طلب؟

ولأول مرة تلمح بها هاك ضعف,, تميمة المشاكسة.. المعاندة.. الشعلة.. تبدو كورقة خريفية متكسرة تتشبث بفرع شجرة لأنها تعلم أن سقوطها تهشُّم.

- تميمة بلاش ردود إنفعالية.. قبل ما تجاوبي أي حد عدي لغاية عشرة

وإن كان الكيان أمامها بدا غير قادراً على إجابة إلا أنها تخاف.. خالد رضوان لن يطلب ثلاثتهم في هذا موقف إلا لبداية عقاب وإن فعله سيكون عسير.

****

واللقاء مرتَّب في غرفة مكتب أبيها, هل لتلك الغرفة دوماً مصادفة درامية الحدث! فبها فقد دمه وبها سردت أول اعتراف وبها...

وسيطرت بعنف على أفكارها بل أحاطت رأسها بكلتا يديها كي تحبس الخوف, تشبثت بحماقة بإيجابية عصام.. نُصح ليلى.. وطيف أمها الذي ظهر ليصيبها بالجنون!

ولم يكن طيف.. كانت أمومة يسبقها القلق وجوار القلق تخبط ومع التخبط تدور النصائح في فلك مُبهم..

- تميمة

ونبرة إيناس جدية تحتضنها.. ربما تخاف.. بل سيطر عليها نفس الهاجس الذي مر بـ ليلى ولكن معها كان عاصفة

- متدخليش.. بلاش مواجهة.. تعالي البيت وأنا حاتصرف

- ماما..

ومقاطعتها حائرة.. مقاطعتها ضياع طفلة كانت تمني نفسها بنجاة.

ولكن أين النجاة!

الكذب أم الصدق

أم الحضور كضيفة شرف وكأن الأمر لا يخصها

ليته لم يكن يخصها

هو أكثر ما تريده في الكون وتكترث بشأنه.

- تميمة محمود آذاكي في حاجة؟!

والسؤال اضطراري ملزم للجواب.. هاجس هاجمها من لحظة المواجهة وهروب قتل الحب بأسوء خيار.

والطرح يحمل أسوء تفسير للهروب

والهلع كتمته لأن عشقها أقوى.. دفنته بجيب سحري وسط مشاعرها وأتقنت كذبة حد الوجع.

- لا طبعاً

- طب إيه؟

والاحتداد من إيناس بين.. إن كانت هي متهاوية فأمها فقدت ثباتها من الأمس.

- أنا لازم أدخل اتأخرت

- تميمة!

ونبرة ايناس تشبُّث.. وتحذي وملعون الأخضر ولا اهتمام باليابس

تميمتها وفقط..

وابتسمت الصغيرة بتردد قبل أ تغيب داخل الغرفة, تغيب ولا تعلم هي ستخرج كما كانت أم ستختلف للأبد..

****

اللحظات الأكثر أهمية في حياتك هي تلك التي تستدعي كل ما سبقها من لحظات.

خطواتها مرت وكأنها تنتمي لآخرى

نظرتها تعلقت وغادرت نحو كل تفصيلة جمعتهما معاً

مشاعرها تصلبت ثم غابت وغامت وانفجرت واحتجزت ملامحه في بؤرة. هناك على أريكة ما يجلس في مواجهة أبيها منكّس الرأس!

لا ينظر لأحد وعنها.. يخشى أن يبحث

دُكنة عيناه بعيدة.. فقدت سخريتها.. وفقدت قوتها وبات آخر

هل سحبت اللوحة الألوان من كلاهما فحبستهما في أصباغ رمادية.

رفع وجهه وتلاقيا وتلك لحظة كانت تستدعي هروب

لا أن تجبرهم على الغوص في ماضيهم القريب

البداية.. والتخبط.. والمشاكسة

- تعرفي إن عينيكي حلوة قوي

- إنت بتستهبل

- إيه ده إنتِ مش حتعالجيني

- help yourself يا جميل

- ممكن تيجي تدروي عليه في أوضتي على فكرة؟

- أنا بحترم الشر المطلق

- محمود أنا بحبك

- حادبحك وأدبحه

وشيطان كاد أن ينتصر ولكنه إن خسر فمرر الألم ونصبه ملكاً وكأنه يجب أن يطل باستفاقة على ذاكرة اللقاء

كي لا نجنح.. كي لا نركع مقابل مشاعرنا، كي لا نفاوض

تميمةً

ومقاطعة أبيها كانت صارمة لكلاهما

ها هو أول اختبار وفشلا بجدارة!

أخفضت نظرتها لتهرب نحو مقعد.. ضمَّت ساقيها ولمحت بنظرة خالد انفعال موجع لا يبغى سوى أن يساعدها..

يحاول أن ينطق.. يبدأ.. يكسر هالة التجاهل المربكة والمقصودة التي أجادها خالد رضوان ليراقب انفعالاتهم عّن كثب بعد أن حبسهم في صندوقه الخاص.

محاولة نطق توقفت من قبل أن تبدأ فالفارس الأكبر هو المتحكم بسيطرة البداية

- طيب تميمة كسرت دبلتها.. إنت فين دبلتك يا خالد؟!

والنبرة تحمل سخرية لاذعة.. سؤال يلتصق به جوابه وشجاعة قد تكون النجاة في فقدانها

ولكن..

بحق الصداقة هو يتحمل المسؤولية

وبحق الأخوة يتحمل المسؤولية

وبحق الذنب المدفوع لتصرفات أمه سيتحمل المسؤولية

ملامحه حافظت بقدر الإمكان على الصلابة، تحفظت على كل انفعال ممكن ليخرج خاصته من جيب بنطاله ونبرته مشوشة باعتذار:

- أنا حقول لحضرتك على كل حاجة

والنبرة الآخرى لا تفاوض، ترك للجميع وقتهم والآن حان دوره:

- بس أنا مش عايز أسمعك إنت.. أنا حاسمع محمود

هل يجوز لجملة كتلك أن تسبب أزمة قلبية مبكرة تفاصيلها نحر عشق.. أن تسحب كل الألوان وردي كان أو رمادي وتُغرق اللوحة في ظلام كامل

أن توجعها استقامته.. عيناه التي اعتذرت في لحظة وهي تتعمد أن تتجاهلها.. رجولته التي لن ترضى سوى باعتراف سيفقدها إياه للأبد

سيسقط أمامهم جميعاً ولن تفلح المعجزات في ترتيب الصورة.. هو تمزق دون عودة والذنب سيتجرعه وحده

ولم تمتلك رفاهية نُصح ليلى

فالوقت لا يبيح بعداد العَشرة

ولو الخيار بين محمود ونجاة تميمة..

نظرة أخيرة خطفها نحوها قبل أن يتخطاها ويواجه

مجرد نظرة أراد فيها أن يشبع منها

ولم يعلم أن عيناه انتصرت!

- لأني بحبه!

وان اختطفت الحروف الجميع بين مصدوم وغاضب وتلك الرعشة المطلة من جوفها والعبرة التي لا مجال لها للظهور..

القوة الواهية لتنقذ نصف قلبها أمام نصف آخر

والمواجهة مع أبيها

- لأنه كان المفروض هو اللي يظهر ويتقدم.. كان المفروض ياخد الخطوة.. افتكرتها لعبة.. افتكرته بيخدعني..

وتحشرجت الكذبة.. ربما لحماقتها.. ربما لغباء لا تمتلك غيره ولارتجاف آخر أتم العبارة وحطم الثوابت وأحرز الهدف في نفسه كي يخرج الفريق ناجياً

- وافقت لأنه بحب...

وتوقف كل شيء.. تجمدت الصورة وطل العجز من عينيه بعدما مرت الصدمة، طل العقاب بعبثه وصدمته وتضحية الجميلة كي ينجو الوحش ولو بعيداً عنها.

حتى وإن أيقظت وحشاً آخر

- بتحبي واحد وبتتخطبي لأخوه!

وهو نفسه لم يعلم متى سبق الحرف الصفعة، أو أن تلك من تقف أمامه صغيرته وقسوة كفه لأول مرة تذبح ملامحها.. وأنها صلبة.. صامدة رغم ترنح وجهها مع هجومه وتناثر خصلاتها لتخفيها عنه

لفقدان نفسه الثابتة في لحظة أيقظت شيطان بِغابة بندق طال سُباته.

صفعة لم تكن لكلاهما فقط كانت انتفاضة ثالث وجد نفسه يقف بينها وبين أبيها في حماية كانت متأخرة ولكنها ستبقى حماية

يُخفيها عنه.. يواجه ولا ينوي تراجع.. يتألم لتضحيتها ويسقط في هوة نفسه لأن الخيار بات عذابه.

يتحدى أبيها بنظرة كي لا يقترب غضبه منها مجدداً وقدره أن يتحمل اللعنة

- اطلع برة

ورغم صرامة الصوت إلا أن تفاصيله تحمل ضعف.. خالد رضوان يفقد ابنته والحكاية سردها عشق

ولكنه أسود.

وانتفض قلبها مع مواجهتهما.. ارتفعت عيناها في هلع لا يبالي بالصفعة ورأت في نظرة أبيها غفران غير موجود.

لكلاهما..

- أنا معنديش بنات للجواز

وفِي عرض سينيمائي لطيف قد يكون المخرج رحيماً بأبطاله. سينهي المشهد وسيسمح للجميلة باستعادة رونقها ليصورها تلو ذلك في غرفتها مع بضعة محارم ورقية وموسيقى مؤثرة وفِي حبكة رخيصة سيتجرع البطل الخمر ويتناساها فوق جسد آخرى.

ولكن تلك اللحظات السوداوية مشكلتها أنها تطول.. تمر ببطء سخيف فوق المشاعر لتضرب دون رحمة، تفتح الباب لرياح ثلجية توجع القلب في مرور صادم وترسم منحوتة ثلجية في عيناه قبل أن يتخطاها معتذراً بانهيار نظرة ويرحل..

يصمت رغماً عنه من أجلها ويحيا ملعوناً بذنبها دون رحمة..

يرحل لأنها هذا كثير.. عليها كثير وحبيبته دلالها لم يكن يستحق

يرحل مشيراً لأخيه الذي حاول اللحاق به لأنه يحتاج الوحدة

يستحق الوحدة

ويسحق نفسه وقلبه مع كل خطوة ويال العبث يظهر رجل قالوا أنه أبيه!

ينادي ويسأل حسن.. يرفع النبرة رغم الاستحياء ويبحث عنه بحرف متأخر

- محمود

ولم يتوقف.. زاد خطواته ليبتعد.. اختنقت أنفاسه وفقد رفاهية الاختباء في سحابة تبغه

- رد علّيا يابني

وكان عبث الجملة يستحق الاستدارة.. التأمل لهذا الرجل التي اعتاد أن تطل ملامحه عليه كزائر.. أب.. ابن

مجرد معضلة بيلوجية

- معاك حق.. أنا ابنك فعلاً

وصوته منهك.. مُتعب لحد لم يعد يحتمله.. ودارت عيناه في الأفق الذي بدا رغم ضوء النهار مظلم لتخرج التكملة ساخرة بوجع:

- بس إنت مش أبويا

- محمود!

وصرخة حسن رغم صدمتها تود أن تؤنب.. توقف المواجهة من قبل أن تحدث.. أو تهرب كما العادة لمربع راحة ينال فيه نفسه وكفى

وانفجر صوته دون أن يبالي:

- دلوقتي افتكرت محمود.. عايز مني إيه؟ طول عمرك راضي بدور ضيف الشرف إيه اللي فرق دلوقتي

ورفع بصره نحو السماء بزفرة حارة بدت وكأنها تخرج في طياتها كل السنوات.. كل لحظة انتقام فشل أن يحققها.. كل فطرة شر أيقن أنها وجع..

- مبروك يا باشمهندس حسن.. إنت اخترت صح أصل أنا طلعت وسخ قوي..

وتراقصت دمعة بين الجفن وصديقه لتهرب ضحكة.. لاذعة حد ظلمة اللحظة

- دوست على أجمل حاجة في حياتي وخسرتها للأبد.

الفطرة خير

الفطرة شر

شرير منتصر أفضل من ملاك مهزوم

لو في الحالتين تعيس اختار الخير

ورَحَل...

****

ورَحَل...

سقطت فوق ركبيتيها قبل أن تصل للفراش, لحقت بها أمها لا تفهم والزوج لم يعد والفرحة غابت عن بريق ابنتها

والهلع مشروع ولو بصرخة

- فيه إيه!

وبكت.. انزوت بين صدرها بانهيار باكي ورسمت بحشرجتها وداعه ويقينها يعلم أنها لا تمتلك خيار.

ولكنها تمتلك الوجع..

....

ورَحَل..

خطا بتخبط حتى الظلام لا يدرك وجهته.. خطا للاشيء..

لمجهول لا يود أن يقلق بشأنه ولسراب رسمه وخطاه دون وعي

رحل ووجد نفسه يتجه إليه.. يسقط برأسه فوق كتفه ويتخلص من آثامه في اعتراف مؤقت لن ينال به راحة

رحل لأبيه الذي يعرفه

"حكيم"

....

ورَحَل...

رحل خياله وتضائل تدريجياً وبدت الدنيا له حينها صغيرة, أبيه الذي تصلب قبل أن يجر قدمه نحو المنزل وتميمة التي اختفت مع الهواء بخطوات تكاد تسقط وهو..

هو.. يقف في المنتصف عاجزاً عن حماية أحد.

حتى أنه عجز عن إيجاد حبيبته وتركها داخل عقله في منطقة مؤقتة دون أن يواجه.. أن يجبر خطواته على رؤية غريم!

أن يصارح نفسه بأنها ستختبيء في اهتمام رجلٌ آخر.

ومرت أول دقيقة وكلاهما يرمق الآخر بنظرة دون معنى..

خالد الذي على ما يبدو ظهر له في وقته

ومصطفى الحائر بين طريقين كلاهما راحته وعذابه

ونبرة مريرة ابتدئت الحوار..

- أسوء حاجة في الدنيا إنك تدخل منافسة على قلب اللي بتحبها

- بس ندى مبتحبنيش

- والمفروض كده إنه أرتاح

- ماقولتلكش علشان ترتاح



ومواجهتهما تتمة

هذا المثلث لا يحمل رفاهية الراحة

الفصل السابع والعشرون

العشق ليس همس.. العشق هو صمتٌ يتبعه يقين..

ومرت ثلاثة أشهر

وفي صفحات كتاب قد تحمل ثلاثة أشهر الكثير, قد تنتهي الرواية دون أن يُدرك البطل الخاتمة!

وقد تكون مجرد أوراق بيضاء لا تستحق أن نبدد عليها حبر الحدث.

مرت ثلاثة أشهر..

وهي تتأمل ملامحها يومياً في المرآة, كل صباح تنال من الوقت خمس دقائق, تُقيِّد خصلاتها بمشبك معدني وتقيس معدل شحوبها يوماً تلو آخر..

هل حقاً يظنون أن اكتساب العمر بالسنوات, نمسك بمسطرة الزمن لنحدد دفء المشاعر!

في العشق.. اكتساب العمر باللحظات, لحظات تيهها به..

وهي في ذلك بلغت من العمر قرون.

وأغمضت عيناها.. ليميل رأسها بمقدار طفيف نحو صورة مثبتة في باطن خزانة. وكأنها أخدت على نفسها عهداً صباحياً لتحييه.. تتشبع من ملامحه وتضيف في قارورة عشقها قطرة.

تحصي خطواتها على الدرج.. واحد.. اثنان.. عشرة

وتراقب وجه أبيها المنشغل بالقهوة في لمحة ومع عشق تهرب.. هناك تسرد حزنها بصمت نظرة.. تخطو جواره لا تمتطيه وتحيط برودة جسدها بذراعيها لتخبره أن خصلاتها باتت في حداد.

ناعمة.. باردة.. باهتة..

دونه!

وبعدما تبتعد عن الناس.. تركض!

تميل بجسدها مع انحناءات جواد وتهرب من الدنيا نحو لا شيء..

وفي محيط عيناه تتضائل.. تبتعد

- تميمة جاهزة للسبق؟!

ونبرته خرجت خشنة تحادث مدربها الخاص, نبرته التي غابت عنها منذ تلك الظهيرة.. منذ مرت أنامله بقسوة على وجنتها..

عاقب؟!

لا!

هو الآن يُعاقب..

قسوة خالد رضوان التي تختبرها لأول مرة ابنته

وبلمحة ساخرة

نصف أبيها..

- جاهزة؟

وتلك المرة نبرته مخيفة.. واستدارته باتت كاملة نحو المدرب الأربعيني المقيم لمدة خمسة عشر يوماً في المزرعة خصيصاً

ومع نظرته الصارمة الجواب لن يحمل تنميق:

- لا..

****

مرت ثلاثة أشهر

ولقاء بين رجلان انتهى بنصف قرار, أول أيقن أن محبوبته تبدأ حكاية في قُطبٍ آخر وآخر بات يرسم ملامح النهاية!

ابتسمت له ببراءة مترددة.. وكانت تدندن بلحن مكرر, عقلها يموج في مستقبل قريب.. وهي ومسرح وجائزة قد تبدِّل بعالمها المسار. وفي أحلام يقظتها كان يقف هناك, يرتدي حلة سوداء راقية ويدعمها بابتسامة.. واختار معها الثوب وشاهدت هي بالأمس فيلماً رومانسياً لفتاة صغيرة تقع في غرام رجل يكبرها بأعوام يشبهه والفتاة سعيدة والرجل في عالمها كل شيء ونصف العقل الناعم يهرب من ذكرى آخرى وإن سألت عنه منذ عشر أيام رؤى

- مابشوفهوش!

وتعليق رؤى متحفظ وبعد مجاهدة مع نفسها نصَّت أهم التفاصيل:

- خطوبتهم اتفسخت

ولم تزيد..

وهي لم تُعقِّب, ظلت شاردة لثوانٍ في لاشيء قبل أن ترمق هاتفها القديم الذي أعادته للحياة منذ شهرين ولم ينل إنعاش الإفاقة.

لم يتصل...

وعادت ابتسامتها المرتبكة من جديد وهي صغيرة لتدرك أنه يفهم شرودها.. حيرتها.. ومدار خيالاته جسيم على فتاة مثلها وتتمة الحكاية الدرامية بعاشق يائس يشتري السعادة لمحبوبته باتت قريبة بمرور لاذع.

وأسند رأسه فوق مقعد سيارته يترك لمحطة الإذاعة اختيار الموسيقى المناسبة.. كانت إحدى مقطوعات خورشيد وهذا الرجل رغم سنوات عمره القليلة كان عبقرياً, نص وجوده

بكلاسيكية ناعمة نمت فوق أوتار حلمه ولم يجرؤ على استنساخه آخر.

- بتحبه؟

وسؤالها لطيف.. مبتسم التعبير وكأن شيئاً لا يحدث هنا, وكأنه لا يعشقها والكارثة أنها تُحاول.. تمرر من بين جفونها بدايات غرام وترسم فوق صفحة حياتها البيضاء فاكهة مُحرَّمة مُتاحة!

حتى وإن تزوجها ستظل فاكهته المُحرَّمة التي بها عاد إلى الجنة ليسقط..

- تعالي!

وجوابه لا يناسب السؤال وسرعة السيارة لا تشبه ثباته ولكنها ضحكت وتشبثت بذراعه في لحظة استداره وأعادته عشرون عاماً إلى الوراء

حين كان مصطفى آخر..

وكانت تنتظر منه البداية التي ستجبرها, يقول أحبك وانتهى يتزوجها..

ينقذها رغماً عنها لينتشلها من الضياع.

- أنا...

وقولها كان متردد, في خلال ساعات أصبحت هي وخصلاتها والهواء أمام شاطيء بحر وجوارها هو بكلاسيكيته العائدة لتوها من العمل يعلق سترته على ذراعه الأيمن ويترك صدره للهواء.

جوابه على ترددها خرج ناعماً مستقراً رغم صخب الأمواج:

- إنت حتفوزي بالمسابقة يا ندى

واستدارت نحوه والأمل يتراقص على أطراف شفتيها وهذا المشهد تحديداً في عالمه لحظة محيِّرة.. شبابه كان سيقترب منها ببطء محسوب دون أن يلمسها, يُخرج من جيب سترته حلقة ذهبية ويعيش لحظة أفلاطونية ناعمة. أما ماضيه القريب

فله خرائط مختلفة والوعي ونصفه كان سيمر بدفئه فوق جسدها ليغوص بماضيه وذنوبه معها يرتوي ليظمأ في دراماتيكية مثيرة للشفقة.

والحاضر..

كلاهما!

هو يحتاج منها الجسد والعاطفة

البراءة والأنثى

البداية وشغف ما قبل النهايات

الهذيان.. واليقين!

وابتسامة محبوسة خرجت مع حرارة صوته وهو يقترب ليبتعد.. يربت فوق كفيها, يحتويهما لمرة أجزم أنها ستكون أخيرة ويضعها على بداية طريق لا يناسبه:

- حتفوزي وحياتك حتتغير يا ندى..

ولم تفهم ما وراء كلامه.. ابتسمت بحماقة وتركت شفتيه تُقبِّل أناملها من جديد. وغروب الشمس فوق رأسيهما مناسب لمشهد رومانسي قديم ونزوحها عن كل منطق ممكن بات ملاذه أنه عاشق.

فـ الفتيات في العشق مُسيَّرات لا مُخيَّرات, والبدايات دوماً يقررها الرجل.. تلك هي الحبكة المتفق عليها

هو ينُّص البداية ويختطف النهاية!

****

مرت ثلاثة أشهر..

بدأت بوجوده التائه أمام بيت أبيه أو كما قال لها يوماً

"أبويا"

وانهياره فوق فراش بتنهيدة حملت حرارة الاعتراف

- أنا تعبان يا حكيم

وليلتها لم يسمح له حكيم بسرد حرف واحد, أعدّ له فراشاً دافئاً ووجبة منزلية ساخنة وتركه ينفرد بنوم.. ملس فوق خصلاته بحنان أب حقيقي وهمس بحنكة أن كل شيء سيكون بخير!

والاحتياج يومها لم يكن لسحابة ولا لنيل صك راحة, كان هروباً موجعاً يحبس بين تفاصيله يقين الفقدان.

فقدها في لحظة عشق.

- وبعدين؟!

والسؤال كان بعد ثلاثة أيام وقاله حكيم وهو يرتشف الشاي مع شريحة فول ممتلئة أعدها بنفسه وفرك كفيه يلتمس حرارة من برودة لا تغيب وعيناه تتوجهان بجدية كل حرف بشكل ما مدى بسيط!

وتصلبت ملامحه لوهلة قبل أن تغيب مجدداً لذات البهوت:

- الملاك خسر

وابتسامة موجعة تراقصت بين شفتيه, وكأنها بديل اللفافة

استقام حكيم فجأة وكأن جرعة نشاط زائدة ضخها طبيب ماكر بجسد عجوز:

- ممتاز

وعيناه رمقت معلمه بيأس.. حيرة باتت موجعها كغصة حبها في قلبه,

ممتاز! ولكن حزين..

- والشرير خسر

وعبارة حكيم بدت كتتمة ضرورية لحاشية كتاب, والفقرة الأولى كانت نصاً لفيلسوف في بداية حياته فقد أنثاه بإرادته الحرة لا لشيء سوى أنه أدرك أنه سيخرج خاسر

ملاك أو شيطان

فكان شيطاناً مع كل أنثى غيرها!

أما الفقرة الثانية كتبها شاعر وهذا وزع جنونه في أوراق والغزل لم يكن في امرأة يشتهيها أو قصيدة عشق مستوحاة من ميثولجيا يائسة.

هذا الشاعر قرر أن يحب نفسه وليحبها جيداً أطاح بكل صنوف المشاعر فمات تعيساً!

وتاهت عيناه أكثر وربما لأنه ليس بفيلسوف ولا بشاعر

هو أبسط من هذا كله

هو من ظن أن نجاته في الشر ليتعثر بالخير ويسقط ضحية كلاهما.

والكارثة أنه دهسها معه..

وختم حكيم فوق الأوراق بنهاية مؤقتة ونصيحة بدت له خلاص.....

- باشمهندس محمود!

والصوت أنثوي ناعم لأمرأة تخطت لتوها حاجز الثلاثين, تخطته لتتوجه نحو مكتب ضخم ثم أخرجت عدة أوراق فندتها بتركيز لتعود ابتسامتها مجدداً واسعة بترحيب ديناميكي:

- ده ورق جدول المحاضرات.. دكتور علي سابهولك معايا

وايماءة مهذبة منه حيتها باقتضاب قبل أن يسحب ورقة مهامه ويرحل.. في عينيها بدا شاباً لطيفاً

هادئاً.. مهذباً.. حتى أنه لم يرفع نظره نحوها.

وسخرت ملامحها بجنون الفتيات المنتظر بالمعيد الوسيم الذي على ما يبدو لا يكترث بأحد

"محمود حسن"

****

- فظيع يا سارة.. يخرب بيت كده

والمتحدثة كانت فتاة قمحية البشرة بطول لا يتخطة المائة وخمسة وخمسون سنتيمتر, نبرتها عالية تجبر أياً من يجاورها على الإنصات, كانت تتحدث بحماس يوازي حركة يديها وهي تصف على ما يبدو في عينيها أخيه!

كتم خالد ابتسامته وهو يستند بأريحية على مقدمة السيارة وحاجبيه يتقابلان بتعبير ممتع وهو يواكب حركة فم الفتاة المأخوذة إن صح التعبير

- عينيه شوفتي عينيه لما بصلي وهزأني!

ضحكت زميلتها في يأس

- إنتِ مجنونة يا آية

وزمت شفتيها في تذمر من هذا الذي على ما يبدو سقطت من قاموسه فتنة النساء فينظر لهن جميعاً كزوائد لا تستحق أن تعكر صفو تبغه

وزادت:

- مدخنة

وهو ضحك بصوت عالي.. الآن يثق أن المأسوف على شبابه أخيه, استدارت نحوه لا تفهم فحياها بثقة رافعاً أنامله جوار جبهته قبل أن يستدير وتستدير معه مصدومة وهاربة وموقنة أنه يعرف جيداً من كانت تتحدث عنه

بل يشبهه

بل...

"خسرت أعمال السنة يا سارة!"

واصطدمت المسكينة به في طريق هروبها فدام استغرابه لثانيتان قبل أن يسترخي بجسده جوار خالد في مقعد السيارة مع نبرة واحدة لا تتغير:

- الغدا على ذوقك

واعتادا أن يتناولا الغذاء معاً.. أحياناً يختار خالد مطعماً متطرفاً أنيقاً وأحياناً آخرى يأكلان بعض الشرائح الملوثة من أي عربة شاردة في الطريق وينقذهما حكيم أيام الأحد والأربعاء بغداء منزلي ساخن ووحيداً دون حوار مُجدي يشارك خالد أبويه وليمة الجمعة

والوليمة لم تعد وليمة ورقية بدت كامرأة فقدت طاقتها في الاهتمام بمن حولها وهو لم يغلق على نفسه باب جوار أمه

لم يخبرها أنه كان عاشقاً لندى

أن محمود هو مسكين الحبكة

وأن تميمة دفعت الثمن

لم يسألها عما أصاب أبيه ولمَ بات عن المنزل غائباً لا يُشارك حديثه مع أحد, منذ غادر محمود آخر مرة انزوى حسن في غرفته وحيداً حتى المساء.. توقع يومها أن يشتعل بالمنزل عراك

مضطرب وأن النهاية ستحمل كما العادة ملامة أمه وأنه سينتفض ويدافع عنها بغريزة ابن

ولكن..

لا شيء!

استيقظ حسن بعد نوم طويل فربت فوق كتفها ثم تناول عشاءاً خفيفاً وهمس في أذنها بشيء ما لتحضر له مشروب دافيء.

وأخفت هي عن خالد السبب وكان شرط حسن كي لا يكون لقاءه التالي بابنه شفقة!

- هي عاملة إيه؟

ونبرة محمود المتعبة أخرجته من شروده.. وعادا كلاهما لروتين بعد الظهيرة, محمود يسأل وهو ييجب

- عاملة إيه؟

- مش كويسة!

ولم يعد يعلم هل من الصواب أن يؤلمه كل يوم بشأنها..

الإطار طمأنة والتفاصيل وجع.

ويعود محمود لعزلته كي لا يسامح نفسه

ألا يستطيع ببساطة أن يفعل مثله, يتجاهل حبيبته ويترك لها مساحة منفردة من التيار كي تسبح جوار غيره!

يواجه نفسه بحقيقة أنها لم تحبه يوماً

لم تركض.. لم تبحث.. لم تفاوض

وحتماً لم تقم بتضحية.

واستدار نحو أخيه مجدداً الذي فقد ما يقارب العشرة كيلو جرامات من وزنه, دُكنة عيناه امتدت فباتت تحيط بها ككل وشفتيه محترقتان بتبغ سيء:

سحب منه اللفافة في غضب:

- كفاية!

ثم استعار للحظة مزحة:

- البنات بيقولوا عليك مدخنة

ومر اللفظ دون ابتسامة.. خاصته تجمدت وخاصة محمود لم تحضر, كان في جعبته شيء آخر

- خالد.. أنا قررت أسافر

****

نالت صغيرتها صفعة!

ويومها لعنت عدم تمسكها بحاستها كـأم, ألا توجب الأمومة الحماية وإن كانت منه!

ولم يتحادثا على العشاء ولم يكن هناك عشاءاً من الأساس, هو اختفى ولم يعد للمنزل إلا فجراً وتميمة بكت بحرقة جوار أطراف الفراش.

وتلمست وجنتها وضربت كفوفها ولامتها ولامته وسألت ولعنت وصرخت وأيقنت أن ابنتها تبكي فقط لأنها تحب لأنها فقدته بلا رجعة.

سألته بعد يومان.. كان يرتدي ملابسه في خروج مبكر دون أن ينبس ببنت شفة عن ابنتها, قست عيناها وهي تقترب منه دون تلامس:

- ليه

وارتعشت عضلة فكه الصلب لحظة قبل أن يستعيد ثباته:

- اسأليها

وحركت وجهها في نفي يائس وتابع هو بقسوة أشعلتها:

- شوفي بنتك بتهرب من إيه يا إيناس؟

قاطعته بهلع:

- خالد!

وزفرته حملت غضب لو خرج سيطيح بهم جميعاً.. عيناه اضطرمت بشعلة محترقة واقترابه حمل سعير أب:

- محمود مش حياخد بنتي ولو عرفت إنه قربلها.. إنه لمسها.. حانسفه

- ميقدرش

وصراخها نافياً بغريزة امرأة.. تخاف على تميمة وتخاف عليه, والمتابعة نسيت بشأن ما حدث وتجاهلت الصفعة:

- تميمة بنتك يا خالد.. بنت خالد رضوان

وقاطعها بانفجار زاعق:

- هربت منه ليه.. بنتك وافقت على خالد علشان تقطع كل طريق بينها وبين محمود

وتصلبت بكلمات فقدت أهلية الخروج

وقول إن خرج سيكون كارثة مبعثرة

وقالها هو:

- محمود راجع ينتقم في بنتي أنا!

أحاطت جبهتها بيأس وعبراتها فاقدة لبوصلة الاتجاه, شعرت أنه يعود بهما جميعاً لسنوات

تاريخ لن ينكره أحد

رقية

حسن

سهام

هي

هو

كارمن!

ونطقتها وهي في نطق الحقائق لا تُفاوض, كانت تحمي ابنتها ولو من عشق موجع

ولكنها تذرف الدمع لحبه

- بنتك مش كارمن..

وتاهت نظرته لوهلة وكأنها توقن أنه يعود لذاك الغاضب الذي ظن أنه دفنه منذ زمن, يستدعي رجلاً كان مِلك انتقامه

وخفتت نبرته قبل أن يرحل, مرت كلماته بمصارحة أسقطت قلبها بين قدميها ووجهة بوصلة عبراتها في وجهة واحدة

- أنا مش عايزها تكون إيناس

وِجهة خالد رضوان.

****

- جاهزة يا ندى

- أنا خايفة!

وتشبثت بيده.. الصالة كانت مظلمة وكأن الضوء صنعوه على المسارح لرهبة الطلَّة لا لمُغريات الظهور.. استدارت نحوه في يأس وتبرج عيناها مع العبرات سيغيب. لحقها بمرور طفيف حول الجفن ثم أشار لبقعة منزوية:

- حكون واقف هناك كل ما تخافي بصي ناحيتي

وأجابته بعفوية متشبثة:

- أنا عيني حتفضل عليك

ولم تلحظ إجفاله حين خرجت الجملة وضيق مفاجيء اجتاحه وكأنه اختار لعطاءه توقيتاً خاطئاً!

عن العشق

هو الدفء

هو اللهفة

هو العطاء.. رغم الاحتياج

وعلى بعد أمتار قليلة كان يقلب دعوته بين أنامله وتوتر مواجهتها ما زال ملك اللحظة

غلبه قلبه وبات وقت مواجهة عقله

وبطاقة أنيقة تزين موضع مقعده

"خالد حسن"

الفصل الثامن والعشرون

ما هو العشق؟!

هل منكم من يدرك معنى الحب بإيجاز

دون استفاضة ومقطع صارم بلا هوادة

العشق هو العاطفة

هو العطاء

الرغبة..

واللهفة

هو الدفء

وهو الاحتياج

إستمالة بعد هروب

وشغف فقد اتزانه

العشق هو..

عشق الجياد

الموسيقى انفعال خطير..

أو ربما لأننا اعتدنا معها إلهام البداية وكارثة النهاية!

سقط مغني ما من فوق المسرح وفي الصحراء هربت حبيبة وشاهد طفل أبيه يغيب خلف القضبان.

وفي النهاية هو العالم

نركض.. نسقط!

وبالميكرفون تشبثت فتاة.. بحثت عنه تنظر فلم تجده, ركض العازف خلفها ماكر وافتتاحية البداية قاربت على المرور

انتهى الصمت وحان وقت الصوت

ورأته..

وإن لم يكن هو من تبحث عنه!

يا حبيبي كل ما في الصمت نادى

يا حبيبي ومضى الموج وعاد

وأنا في موج عينيك شراع يتهادى

يا حبيبي سقط الليل عليا وتمادى

كاد أن يجعلني الليل سوادا

يا حبيبي كل ما في الصمت نادى

اهتدت نظرتها إليه وتشبث بها فلم يتركها, احتجزها لن تُنكر ومرا سوياً على مقامات اللحن حتى سقطا مع أول كلمة

فالحروف تُناسبه تماماً

وبمحاذاة اللحن ينمو الحب.. يرقص التاريخ القصير ليُزين فوق طاولة الغناء العاطفة وتأتي الدراما لتنتصر.

وأرادت أن تبكي.. تبيح للحظتها العبرات وبوقت غير مناسب, أرادت أن تجد سواه وعيناها بحثت وفوق الوجوه مرت حتى أنها تركت ملامحهم ليركض نظرها في الأركان.

وفي النهاية أدركت أنها يجب أن تُكمل وحدها

تُكمل أو تسقط

والمقطع الثاني استحق صدوح الصوت.. استحق الغياب جوار اللحن واستحق صفعات الكفوف حتى من قبل الإنتهاء..

أغمضت عينيها وحلّقت في سماء ندى

ندى وفقط

يا حبيبي إن أيامك عطر

وأنظاري لك خمر

ليس بالسكر ولكن فيه سكر

ليس بالنهر ولكن فيه نهر

لك في القلب هدير

في الهنيهات هدير

فتعال

قبل أن ينهزم الليل وتنهار الظلال

قبل أن يحرقني برد الرمال

قبل أن أغدو مُحال

قبل أن أهرب من عيني حبيبي

وحينها ظهر برمادية عيناه من خلف ستار مظلم.. راقب صعودها مع صيحات الجماهير ونغمة تلو آخرى ترسم بها صورة لن تُمحى من ذاكرته.

صورة معها كان يجب أن يرحل

مقطع صارم بلا هوادة

العشق هو العطاء

- أستاذة ندى

ورغم أنها امرأة تفوقها في العمر إلا أن لحظتها تستحق لقب أستاذة.. كانت بين جمع تتلقى التهاني وتُوَقِّع لشخص ما باسمها وخلفها باقات ورود, استادرت وحالميتها تنبئها أنه سيظهر أما واقعيتها فادخرتها لخالد.

استدارت وانقبض صوتها بحشرجة وكأن النداء مواجهة مُبكِّرِة.. مواجهة كانت تُبقيها لنهاية آخرى

وعنوان الخطاب بخط يده صارم وإن تملَّك ثقتها بحق فستصغي

"افتحيه في البيت"

مصطفى!

****

انتهى الحفل

والنهايات دوماً هي مسار بدايات, الفارق أنك ربما قد تملك به خيار.

وبمصادفة بدت مثالية أراد المطر أن يُثبت لنفسه وجود, مجرد غيمة شاردة قررت أن تستقر فوق رأسيهما.. غيمة مثالية لنهاية لم يُقدَّر لها أن تبدأ!

ربطة عنقه أباحت لسيطرة الإختناق, وهو يكره ربطات العنق.. يكره الرسمية بكل صورها, ووجد عقله يغادر المكان نحو مسرحه الخاص.. صوته وكلماته وجيتاره وأغنية وبدايات.

البدايات ممتعة.. والمنتصف مُجهد.. والنهاية قرار.

خلع ربطة عنقه بموازاة ظهورها.. كانت متأنقة بشكل لا يُشبهها, كانت جميلة نعم ولكن.. مختلفة

عيناها اللتان اعتاد غاباتا خلف ظلال وشفتيها بدتا مناسبتين لذاك اللون القرمزي الناعم. وهجها لاح كإشراقة نجمة وحيدة في ظلمة ليل.. تفاصيل تخطف عيناه معها لأول مرة!

أما ثوبها فكان أسوداً مناسباً للسماء والمطر القادم بزخات طفيفة غير مؤذية

كما البدايات!

غير مؤذية.. والنهايات عاصفة.

ابتسم لها بترحيب غامض ولم تفهم هي نظرته أو تجاهلت مشقة التفسير, نظرة حملت مراحل معرفته بها حتى سقط كلاهما في تلك اللحظة.

لحظة أيقن بها الفتنة والمعضلة وأنه غير راضٍ.. وكأنه مع فتنتها تلك فقد أريحية المشاعر.

مُتعَب!

مُتعَبٌ هو في تلك العلاقة..

بدا وكأنهما يناظران بعضهما منذ دهر

ليس نظر ولكن مناظرة

عقلها أمام قلبه!

وتشنجت ابتسامة جوار تحية

- خالد!

وكتفيها ارتفعا لا ضعف أو توتر.. هو استعجاب أرادته ساخر. أما هو فاستقام, تقدم نحوها بديناميكية حزينة ليقترب ويهمس بدفء مختلف

ليس دفء رجل قدم حبَّه وأراد تتمة

وليس بدفء شاب يبحث عن مقدمات اللحظة

كان دفءً راحل

- مبروووك

وتلك المرة خلع ربطة العنق.. ألقاها في الأرض وتخلص منها تماماً مع زفرة تسللت من مشاعر طبقت فوق صدره. والتفاصيل هنا ليست بعشق أو هروب

هي فوضى المنتصف

شبكت أصابعها مع تعرق طفيف وبعد دقيقة كاملة من التردد مرت النبرة بحروف تقطعت مع صوته

كلاهما نطقها في ذات الحين

- عرفت منين؟

- مصطفى!

وابتعلت ريقها مع الكلمة ولم تترك ملامحه التي استدارت نحوها في ثانية فبدا كأنه يفوق عمره بسنوات.

- بتحبيه؟

ورفاهية الكلمات بدت غائبة وإن كان هجوماً لا يستحق دفاع

هي تركته لتُفكر

تغيب وتصعد وتسقط مجدداً على وقع كلماته:

- إنتِ حبيتيني أصلاً يا ندى!

يُقال أن قرب النهاية أنت سترى الصورة كاملة, بحبها وحلوها ومُرِّها وتفاصيل لم تكن تنوي أن تنتهجها

هل يجوز أن تتضمن الصورة فيلم عاطفي رخيص عن فتاة هجرها حبيبها فردمت أحزانها برمال عشق آخر أم نمحيها بسرد رواية جديدة أو مقولة مررنا عليها في كتاب.

الحب ليس قطعة قماش نحيكها كما الأهواء, الحب ليس صفقة متاع نشتهيها وقتما رسم العقل الخطة

الحب حرية!

ومرت معها النبرة باختناق:

- الحب حاجة مختلفة صح؟

استدار ولمح ترقرق عيناها بعبرات مختلفة, ولو صنفنا العبرات ألوان فتلك أسوءها حضوراً

سوداء!

استدارت تُخفي عيناها فناولها محرمة ورقية وظل على يسارها يراقب والسخرية تضعه في اتجاه القلب وهي في عيناه أنثى مختلفة

أنثى تبتعد

أنثى لم تعد له

عاد ليجلس على المقعد الخشبي تاركاً لعنقه أريحية الإسترخاء وعيناه عادت لسواد السماء متجاهلاً النجمة الواحدة:

- هي ليه النهاية سخيفة كده

والتفت نحوها حين جاورته وتُراها كانت تبحث عن نفس النجمة!

- ليه فشلنا يا ندى؟!

- إحنا مبدأناش علشان نفشل يا خالد

- محبتكيش؟!

ونبرته زعقت بأحقية رجل في مداره آخر, وشبابه يبيح له عشق أهوج! وإن كان طرفه الآخر هدوء

سكينة غامضة جاورت شفتيها وصوتها الذي بات بفعل الوجع مبحوح:

- مش ده الحب اللي أنا بدور عليه!

وطفقت تسرد وجعاً حبسته لشهور.. تُخرج الكلمات بتفاصيل الفواصل والحواشي. حتى الهوامش سردتها

- أنا تعبت من الجري وراك يا خالد.. مفيش علاقة في الدنيا حتنجح بطرف دايماً موجوع من طرف, طرف محطوط على الرف مناسب جداً لكادر الهامش

وأنا مش عايزة أكون هامش يا خالد.. ماستحقش أكون هامش

وانفعالها الأخير مُستحق, وإن كان منطقه في الحب لا يحوي تقسيمات وهوامش..

حب وكفى

والطرف الأكثر عشقاً يحترق!

تأملها فلمح منها بداية ضعف طالما كان يخصها, نعومة وردية تبيح كل احتواء من رجل وأنثى كانت له صديقة

حتى أحبها ففقدها

بعكسها كان صوته أكثر هدوءاً.. خشونة صلبة مُدركة للفقدان:

- تميمة كانت الشعرة!

ثم استدار وسؤاله رغم غضبه صادق:

- تفتكري كنا حنكمل حتى لو دون تميمة

لمح بنظرتها لوم قاتل.. عتاب يبيح له التخلي عن كل نواياه ليحتضنها ويهرب, وصمت كي لا ينطق بحروف تبيح ندم وترك لها انفجار الأنثى:

- المشكلة مش تميمة.. المشكلة خالد!

وسخر فبات يتحدث كأخيه واستعار منه غيمة التبغ:

- المُشكلة حُب خالد.. في حب أحسن

استقامت لا تُصدق هجومه:

- إنت خطبت واحدة تانية

وظل على وضعه ثابت رغم انتفاضة قلبه لوجعها:

- وإنتِ دورتِ على راجل تاني

انتصر وجعه

****

كانت لنا سوياً حكاية.. وببساطة انتهت!

- بتحبها؟!

والسؤال كان لحمزة.. تسلل في ظلمة الليلة من جوار ليلى وقبل أنفها الذي تذمر من وسط غياب النوم وكأنها أنوثتها تستشعر رحيله ورحل مع إنارة هاتفه بهذا الذي ظهر بوجه آخر..

وبالركن العلوي من منزل حمزة ترك صدره للهواء.. كان قد تخلص من السُترة, وقذف بربطة العنق من نافذة السيارة وترك لسرعته تخطي الحد المسموح.

بدت لحظة تستحق الخطأ بل وتناسبه تماماً..

جاوره حمزة ليربت فوق كتفه بقلق:

- خالد إنت كويس؟!

هرس خصلاته تحت أنامله بمرور قاسي قبل أن يستدير بنظرة ميتة وكأنه تاه بحثاً عن إحساس مع كلمة واحدة حملت بداية سرد

- مش عارف

وما ناله حمزة تلو ذلك كان شيئاً غير منتظم, وتبقى النهاية واحدة

انتهت حكاية..

- بتحبها؟!

وسؤال واجب وجواب تسلل من بين شفتيه بعفوية ساخرة

-الحب هو ندى!

وكان بسيطاً بنبرة استدعت الشجن.. استدعت هروبه نحو مراقبة السماء وحيرة عيناه بين أعداد النجوم الهائلة.

ونجمته اللامعة غير موجودة.

أطبق شفتيه بقوة قبل أن يُخرج زفرة قصيرة.. مجرد هواء مر وانتهى ولا مجال لوجع غيره.

- خلصت الحكاية

- خالد..

ونبرة حمزة قلقة ونبرته هو حازمة:

- مش حاقدر أسامح يا حمزة

وبحث عن سترته فوجدها ملقاه أرضاً بإهمال.. رفعها فوق كتفه وأراح قبضته الآخرى في جيب بنطاله مستديراً بلااكتراث لاذع:

- ولا هي طلبت غفران!

ورغماً عنه وجد حمزة نفسه يدافع, أو ربما يمرر له فرصة كي ينال كلاهما ختام آخر:

- هي كمان مجروحة يا خالد.. هي..

ولم يتوقع حمزة تلك المقاطعة العنيفة, أو ربما تجاهلها فاصطدمت به:

- أنا محبتش غيرها.. وهي معايا محبتش غيرها

وتصلب حدقتيه كانتا لخالدٍ آخر.. أو ربما هو حقاً بات آخر.

وابتعدت خطواته بتحية مقتضبة وسلام فاتر:

- الحياة مش حتقف يا حمزة

أكل حمزة خطوتين كي يلحقه على الدرج ولهفة نبرته تسبقه:

- مش حتبطل تغني يا خالد يا حسن..

التوت شفتيه بسخرية مع صوت صوت صفير خافت أكل جواره ثلاث درجات دفعة واحدة مع انحناء مازح مثل نهاية العرض.

أما الغناء فسيتسمر.. ولكن بمسرح مختلف!

****

كانت لنا سوياً حكاية.. وببساطة بُترت!

ودوماً تحمل قصص الفراق نفس الخاتمة, رجل يبحر في صنوف النساء وامرأة تبكي.. صور ممزقة وأغنية عاطفية مثيرة للشفقة وأم كلثوم تُسقط الطاولة فوق رأسهم

"العيب فيكم يا في حبايبكم"

ومفارقة الكلمة مثيرة للسخرية أو ربما لواقع مرير يفوق عمرها.

هي بين رجلان أحبت الأول واحتاجت الآخر. وتوترت أناملها مع المظروف تفاوض عيناها كي تفتحه ثم تغمضها لتبيح سيل عبرة فـ تالية, لم تتصور أن فقدانه سيكون مؤلماً لهذا الحد.

فقدان نهائي تلك المرة..

"ندى..

اختيار البداية بقدر سلاسته بقدر ما بيكون مربك وفي حالتي أنا.. موجع!

حبيتك.. أيوة, حبيتك لدرجة أنتِ أصغر من أنك تفهميها.. أو تظلمي نفسك علشانها. حبيتك بكل معنى الحروف وتفاصيلها.. حبيتك وأنا عارف إن مشاعرك كانت في اتجاه تاني ومعاكِ حق.

إنتم تستحقوا البداية يا ندى

مش عارف صح توصلك راحتي في الوقت ده, بس حقيقي أنا مرتاح.. سعادتك بتريحني وأنا مكتفي بده جداً

شايف دموعك عل فكرة.. ممكن تبطلي عياط, مش حاقدر أشوفك بتبكي يا ندى ومقربش والقرب ليا بقة انهيار.. انهيار فوق طاقتي وفوق استيعابك

أنا حسافر.. حابعد شوية. محتاج أبعد ومحتاجك تنجحي.. تعيشي.. تفكري في ندى علشان أنا ضحيت بكل حاجة علشانها

ضحيت بيكي علشانك يا ندى

فـ متخذلنيش

مصطفى.."

فقدان موجع تلك المرة!

رحل كلاهما

ويخبرها أنها وجدت ندى..

وليست كل حكايات الفراق متشابهة.. فلا الأمر يحمل رفاهية صور ستمزقها وصوتها لن يُسعفها بعاطفية كلمات مكررة.

حكايتها هنا لا تشبه الخواتيم الأمر هنا كالبتر. انتهت قبل أن تُفكِّرِ! جعدت الخطاب قبل أن تضمه نحو قلبها ومرت بعيناها على الهاتف لوهلة أخيرة قبل أن تحذف رقماً اعتادت على طلته لسنوات.

شعرت.. شعرت أنها استنفذت طاقتها في البكاء حتى دون أن تبكي, أسقطت رأسها فوق الوسادة وغابت جوار عينيها في ظلام

نوم..

هروب وكف مضموم وورقة مجعدة ورفض!

حتى لو كانت الجائزة ندى.

****

الحب يأخذ كل شيء.. ويمنح كل شيء

فلنون

والقدر دوماً يحمل تدابيره وسخرية الأمر تكرر بحروف "رقية"

نقاش لم تدرك بدايته ولا تهتم بتفاصيله وخبطة باب تلكأت وهي ترتطم بحروف اسمه على لسان خالد

"محمود مسافر يا ماما!"

وغادرت قبل أن توصل ما أرسلته أمها في باقة مغلقة لم تهتم بشأنها.. ولم تكن تعلم أن الباقة تحوي عقاراً مهماً يحتاجه حسن ولم تعلم أن البداية كانت بسؤال غامض من رقية وإنقباضة قلب لرحيل الأكبر في توازي لمرض زوجها ولم تكن تعلم أن خالد مختنق

به ما يكفيه فرمى الكلمة وانسحب دون تفاصيل.

والتفاصيل عندها حملت عبرات تسللت من بين جفونها دون إرادة, واشتياق سيطر على نباضاتها لتدرك أنها أضعف من مواجهة غيابه.

يقولون أن الحب تضحية, لهفة.. طلّة.. هو!

ضحت بمصارحة أبيها لأجله وضحت به من أجل أبيها.

وزفرتها خرجت ساخنة أمام وجه عشق, تحمل ارتعاشة طفيفة لضعف أصبح يتمكن من جسدها يوماً تلو آخر, ابتسامة مشوشة

تباطأت فوق شفتيها وسبابتها تمر بحنو فوق تفاصيله..

حبست الكلمات ومن الصمت بات يفهمها, حين تركض يركض وحين تخاف.. تغيب وتُسقط المحاولات من ذاكرتها يتوقف..

- تميمة!

وزعقة مُعلمها باتت مكررة.. والسؤال ألا يملك الحق!

هي تمتطي عشق في ثوانٍ احترافية, تركض وتركض وتترك نفسها وكأنه جواره لا فوقه وفجأة..

تفقد السيطرة!

لا على الجواد.. بل نفسها!

وزعقة تالية وتوعد تلك المرة بإخبار خالد:

- تميمة كده مينفعش عندك ثلاث أيام تظبطي فيهم كده أو ننسحب

- لا

ونبرتها خرجت مبحوحة بشهقة يائسة, ولأول مرة من العنيدة دوماً معه يلمح منها توسل:

- أنا لازم أدخل السبق.. علشان البيج بوص لازم أفوز

ثم استدارت للمتمرد الأدهم متابعة:

- علشان عشق

وقاطعها مُعلمها بحديث إنساني لأول مرة:

- علشان تميمة

وتحاشت الردّ لتعود نحو عشق في تجربة ركض جديدة.. تهرب من كل شيء فوقه

تهرب من تميمة

وأكمل المعلم بإصرار وهو يسحب من يدها اللجام:

- اجري علشان تميمة.. لو تميمة مش عايزة تفوز حتخسروا

ولأول مرة تواجه كلمة الخسارة بشكل مباشر, توجعها ثم تربكها ثم تتمكن منها حتى تصل لمرحلة مشتتة ما بين فوز وخسران.

فكلاهما لا يملك مذاق.

وكما تفعل دوماً تجاهلت الأفكار.. امتطته وركضت.. ركضت وركضت حتى نسيت بشأن كل شيء بما فيه نفسها, ركضت وتجاهلت وجهه وتبغه وخيالها الباحث عنه وكأنه يراقبها, تجاهلت غضب أبيها وقلق أمها

تجاهلت الماضي وهربت من المستقبل

امتطت حاضر عشق وركضت وحينها فقط استعادت السيطرة.

الحب يشبه نوبة مرض مفاجئة, الفارق أنك لا تودّ أن تُشفى

يا حبيبي

كل ما في الصمت نادى

ومضى الموج وعادا

وانا في موج عينيك

شراع يتهادى

سقط الليل عليا

وتمادى

كاد أن يجعلني الليل سوادا

ياحبيبي

هو العالم

نركض.. نسقط!

****

- جاهزة؟!

في مضامير السباق الأصوات دوماً إنفعالية.. برودة طقس تهرب من حرارة الحماس وأبواب منظمة يحين وقت انفراجها في وقت محدد..

صرخة.. زعقة.. نداء.. خوذة.. صهيل.. رقم..

أحاطت ذراعيها تكافح برودة تملكت من أوصالها ودارت بعينيها مجدداً بين الوجوه والكارثة أنها تبحث عنه!

وانتفضت مع صوت أبيها الذي ظهر من العدم يقترب منها بصلابة حنون!

- جاهزة؟!

ابتعدت خطوتان وهي تترك نظرها للأرض وتومئ بطاعة هاربة, وقرَّبها هو نحوه من جديد.. أحاط خوذتها بكلتا يديه وثبت جوانبها قبل أن يقترب من وجهها مجدداً وصرامته تسبق مخاوفه:

- جاهزة يا تميمة؟

وتلك المرة إيماءتها حملت إنفعال باكي, تشبثت عيناها به في اكتفاء وثارت دواخلها بحثاً عن من غاب وابتعدت بخطوة تلو آخرى ونجاتها فوق ظهر حصان.

وحولها الأصوات تغيب.. الهتاف.. الصراخ.. الحماس

الأبواب المنفرجة

إشارة العد

طلقة البداية

وحماس صراخ بأسماء خيل تركض

وشرود جعلها تراقب حوافر كل من جاوروها

مرجانة.. أدهم..

المقدمة لأدهم

وصوت المُعَلِّق رفيع حد الإزعاج وهو ضاق بحثاً عن محطة تهتم بالسباق أو تنقله حتى وجدها بصورة سيئة والكثير من الإعلانات المكتوبة في شريط سفلي تحوي رسائل عاطفية!

مرجانة.. أدهم.. ياسمين

خيول مصرية.. عربية.. إنجليزية, وملاحقات فوز لا تحمل بصمتها.

ضم قبضته في غضب وحرق لفافة تبغه حتى أسقطها في مرمدة مُظلمة وهمسه يبحث عنها ولو بيده لقفز بينهم جميعاً واختطفها لتفوز

"يلا يا تميمة"

أدهم.. ياسمين

عشق.. عشق!

وصرخة المعلق كانت حماسية.. الموستانغ الذي ظهر من العدم ليتخطى الجميع في سرعة قياسية, الراكضة فوق صهوته تميل بانسيابية وتغيب

بل يغيبا معاً في ركض منفرد بدا أشبه بموسيقى تصاعدية.. تعلو وتعلو من الخفوت حتى الذروة.

عشق.. عشق

تميمة خالد رضوان

واستقامت أمها تقبض فوق ضربات قلبها قبل نصف دقيقة من الفوز, أما شفتيها فترُتِّلان بأدعية خاصة تبغي سلامتها وكفى

أحاط خالد جانب جبهته مرتكزاً بنظره عليها وهمسه يتشبث بصديقة عمره

طفولة مرت عليهما سوياً

أخته دون رابطة الدم

"يلا يا تميمة"

أما رضوان.. خالد رضوان. تصلبت ملامحه قبل أن يتخطاهم.. يتركهم

يركض بين المدرجات وكل همّه أن يقترب.. يُكذِّب عيناه!

عشق.. عشق..

نوبات الحب مرض مفاجيء!

وما بين المنال والفقدان شعرة

أرادته.. عشقته.. فقدته.. وفازت!

المرض لا يبيح الأفكار والرفاهية هنا لا تحمل خيارات, شعرت بالغياب يتسلل من بين عينيها وأيقنت متأخرة أنها كانت تركض وتبكي

تكره نفسها لرحيله وحيداً..

تكره اللحظة

وتحاول الفوز من أجل الجميع سواها

أو كما أخبرها مُعلمها

تركض وتركض وتفقد السيطرة!

وحماس السباق لم يبيح لعشق التوقف, هي فقط مفارقة ثوانٍ أبطأ فيها من سرعته

قبل أن.....

تسقط

هو العالم..

نركض.. نسقط!

وتوقف الحماس وشعر خالد بنفسه يركض بين السكون..

تهاوت إيناس على مقعد أفقدها القدرة على الإستيعاب

وتشوشت أمام عيناه من بعيد..

سحابة

مرت بظلمة موجعة وهو يُراقب بعجز سقوطها أمامه

سقوطها دون حراك.

****

تحتضر وتعود في لحظة!

وآه من تلك اللحظة التي تخطفك نحو زحام, جلبة.. وضجيج. وسارينة عربة تُسارع وهي بين ذراعيه لأنه رفض أن يتركها لأحد والنهاية رضوخ رغماً عنه.

مسعفين حركوها بحرص ووجع أخبره باحتمالية كسر عمودها الفقري, فسقطة الجواد دوماً ما تحمل نسبة موت.

تحتضر وتعود في لحظة!

لحظة تناثرت بها أمام عينيه أوراق لم يكتبها, كانت استمارات رحيل وتوقيع نهائي بقبول عقد عمل مجحف فقط ليهرب منها ومن أجلها, صرخة المتابع كانت آخر ما استوعبته أذناه قبل أن يقفز راكضاً غير واعي..

غير مدرك..

غير منتبه لوجهته حتى أنه أدرك في منتصف الطريق أنه لا يعلم نقلوها لأي مشفى..

تحتضر وتعود في لحظة!

لحظة توقف فيها قلبها جوار السقوط, غاب عقلها وتشوش مجال الرؤية وتهاوت فوق مقعد وعيناها متعلقة بأمل, وتشبثت بخالد تحبس السؤال ووسط الهرج والمرج ابنتها البطلة!

- خالد..!

واحتضن هو كفها بحنان ابن:

- متخافيش

وكان كاذبٌ ماهر, فما حدث لا يستدعي شيئاً سوى الخوف.

وعلى بعد كيلومترات بمشفى قريب أخفوها خلف غرفة, الجميع كان متصنماً في انتظار خبر وفقدت إيناس قدرة قدميها على الصمود فأحضر لها خالد مقعداً متحركاً مضطراً, ليلى

كانت أول القافزين في سيارتها خلف عربة الإسعاف ورقية أيقظت حسن في هلع ليهرع كلاهما رغبة في اطمئنان.

أما هو.. فصمته وازى تعلق عيناه بغرفة الطوارىء وقبضتين تحكم في إرتعاشهما بمعجزة.

خالد رضوان فقد السيطرة على نفسه..

بل واجه أسوء مخاوفه بشأنها, ابنته في مشفى بين موتٍ وحياة!

- بشـ... مهندس

والصوت كان لطبيبة مُتدربة وتردد نبرة تقترب من قلق أب, طلبت منه بهدوء أن يرافقها لغرفة الطبيب المعالج وهناك مرت الكلمات فوق أذنيه كطيف, رغم ما تحمله من راحة كانت طيف لأن الواقع كابوس مزعج يودّ أن يستيقظ منه.

- ربنا ستر.. إنت عارف يا بشمهندس مخاطر الوقوع من على الحصان بسرعة عالية بس اللي حصل معجزة. الحصان بطء من سرعته في وقت قياسي فقلل حدة السقوط.

أغمض عينيه جوار زفرة راحة حملت الكثير.. دعاء.. شكر لله.. وإرتياح قطعه بلهفة:

- الوضع إيه؟

وأكمل الطبيب باستيعاب لـ قلقه:

- طبعاً غير الرضوض والإنزلاق الغضروفي في كسر في رجلها اليمين حيحتاج مننا علاج شهر وست شهور ممنوعة من الخيل

وتنهيدة راحت آخرى مرت عليها باقي التعليمات دون تركيز.. شكر الطبيب وفهم أنها ستبقى منومة لباقي اليوم بسبب آلام الظهر وغادر متحاملاً على نفسه بثبات, اقترب منها وآلمه وجودها فوق مقعد متحرك غبي تهاوياً بسبب ابنتها. أسندها محتوياً جسدها بين ذراعيه ليترك لها مساحتها الخاصة من البكاء, تحشرجت نبرتها في خوف:

- خالد؟

وقاطعها على الفور:

- تميمة كويسة..

ارتجفت شفتيها بتعبير باكي:

- بنتي اتبهدلت يا خالد

جذب رأسها وعيناه مع خالد وليلى كي يعتنوا بها:

- هششششششش.. تميمة كويسة اهدي بنتنا كويسة

وكما توقع رفضت الرحيل.. رفض جميعهم الرحيل حتى الإستفاقة والإطمئنان عليها فحجز لها غرفة كي يضمن هدوءها ورغماً عنه استعان بعقار وفهمت ليلى قلقه بشأنها فلم تتركها, تولى عبد الله الذهاب لإعادة عشق للمزرعة ومعه حمزة وبقي هو وحيداً مع ابنته في غرفة..

فقدان وعي كامل ورضوض جسد ووجه أكدت صحة قراره بإخفاءها في الوقت الحالي عن إيناس, ساقها اليُمنى ممددة

بالكامل في تجبيرة قاسية وآخرى صغيرة لم يخبره الطبيب بشأنها طوقت مِعصمها, ظهرها ممتد بوضع مستقيم سيستمر لأيام حتى الشفاء وشفتيها صامتتين بشحوب قاسي.

جاورته الممرضة كي تطمئن قلقه:

- حتبقى كويسة

وإيماءته كانت مقتضبة قبل أن يقبل جبهتها ويرحل.. يحبس بقلبه غصة وقلق وغضب لا يحرق سواه. نبَّه الممرضة ألا تسمح بالزيارة لأحد وعاد مضطراً لإدارة المشفى ينهي التفاصيل المالية ويستفسر من الطبيب عن تفاصيل أكثر وموعد الخروج.

وفي غرقها بين وعي ونصفه كان هو يموت.. يبحث عنها يائساً ويتوسل استجابة من هاتف أخيه. صوته كان نجاة وزعقته كانت انهيار باحث عنها..

- محمود اهدى

- إنتم فين يا خالد!

- تميمة كويسة إهدى

وسقطت رأسه بتهاوي خلفي نحو فراغ قبل أن يمشط خصلاته بقسوة والنبرة أبحة لا تحتمل عليها هفوة:

- إحلف

- والله العظيم كويسة

وهمسه تساقط بحروف شاكرة:

- الحمد لله.. الحمد لله

وترك الهاتف ونسيه ثم أعاده وهو يأكل كلماته:

- عايزة أشوفها.. خالد أنا لا زم أشوفها

تلفت خالد حوله بيأس والضيق يتمكن منه في أمر لا يملك فيه شيء

- محمود الوضع هنا...

قاطعه بتوسل وتلك كانت مرة أولى له معه:

- خالد أرجوك.. أشوفها ولو مرة واحدة

ووازى الإستجداء لمحة لـ خالد رضوان مغادراً مدارها والأمل أن يملك هو وقت الغياب.. ضاقت عيناه بصرامة وهو يهمس لأخيه:

- حمليك العنوان

****

تحتضر وتعود في لحظة!

لحظة كانت مشوشة في عينيه

لحظة شر لم يكتمل

فقد فيها نفسه وكاد أن يُفقدها نفسها

سقطت عيناه فوق ملامحها وسقطت قدميه أمام جسدها الممدد, وجهها شاحب بأطراف باردة بسببه ودونه.. خصلاتها نائمة خلف ربطة مشفى باهتة ورضوض غبية أرادت أن تستحوذ على جمالها وجبيرة بيضاء تأكل منها ساق وذراع.

التقط كفها بحرص قطعته شفتاه بقُبلة لم تترك الأنامل, ظل متشبثاً بها في احتياج وعيناه تتأملها في ندم.. لمَ كان عليه أن يتوقف بعد أن تدفع هي الثمن!

أن يُدرك متأخراً أن محاولة شره دهستها دون رحمة.

همس بنبرة تائهة:

- تميمة!

وتجاهل صوت الممرضة بالخارج التي تولى أمرها خالد ليستقيم في بأس ساحباً رأسها نحو صدره, والوجع هنا لا يستوعب التفاصيل.

ربما بكى.. ربما سقطت فوق وجنتها عبرة منه.. ربما انتفضت بنصف وعي بين يديه دون أن يشعر ربنا طالت القُبلة فوق الجبهة وودّ أن يبقيها لـ مالا نهاية

أن يدفن رأسها بين ضلوعها ويبقيها له وطن.. أن يستشعر بها ومعها الحياة. أعاد رأسها لموضعه بحرص وأيقن أن خصلاتها تناثرت بين لهفته فرتبها بحنان, مرر أصابعه فوق وجهها برِقَّة ووجد نفسه يهمس لها باعترافات

ليس مجرد حب ولا اشتياق

هي ببساطة نصفه

نصف دونه لا تكتمل حياة

أغمض عينيه جوار زفرة مؤلمة:

- تميمة أنا ماستهلش كل ده.. تميمة ارجعي.. ارجعي علشان أعرف أعيش

وظل قابضاً فوق أناملها بكلتا يديه:

- أنا مش حسافر.. مش حابعد.. مش حاقدر بس بالله عليكي ما توجعي قلبي

وسقطت جبهته جوار فوق احتجازه لضعف أناملها وعادت قبلاته تبحث عن دفئها.. تمحي كل صورة موجعة مرت بها معه ولو بيده لأوقف الخيال عند رحيل طفل ووداع فتاة

لُعبة محشوة واهتمام تبعه لقاء

وليته لم يعد.. ليتها لم تعرف بوجوده

وانتفض قلبه مع حركة كفها.. أنامل بحثت عنه حين قرر الرحيل ونصف وعي تشبث بيده كي لا يغيب, شفتيها كانت تتمتمان بما لا يدركه وتصلب حين أيقن أنها تبحث عنه..

ليس بالكلمات

وليس بشبه حروف

سقطت من جانب عينيها دمعة وقربت من وجهها يده تتلمس الطمأنة في دفئها قبل أن...

قبل أن تُقَبِّلها!

لامست شفتيها أنامله في قُبلة مرتجفة قبل أن يغيب وعيها من جديد, وكأنها وجدته فاقتنصت منه ثوانٍ قبل فقدانه.

هي لا تحتمل فقدانه

تحجرت مقلتيه واستشعر قلبه يتوقف عن النبض.. معها لا نبض يُترجم إحساسه.

رفع رأسها مجدداً نحوه في تملك قاسي قبل أن يحرق نفسه بـ قُبلة أخيرة فوق الجبهة ويجر خطواته ليرحل, يلقي عليها نظرة أبداً لن تتركها

حتى لو كان قدرهما معاً البعاد

حتى لو وقف أمامها العالم

ستظل دوماً معشوقته الوحيدة وتحت نظره

وهمس أخير سنّ به شبه وداع:

- بحبِّك..

ومضى ليرحل.. يهرب.. يركض.. يتمالك نفسه كي لا يأخذها رغماً عن أنفهم جميعاً ويُبقيها معه.

أشار لخالد بتحية مقتضبة وتخطى زحام عند مدخل المشفى وجفف عبراته التي زادت وسقطت فقط معها

"عيناها انتصرت يا حكيم.. عيناها انتصرت"

وصمت عقله وهربت أفكاره مع نبرة لم يمتلك معها سوى استدارة

مواجهة لا يفهم أهو حينها أم لا فارق!

ونظرته تأملت صاحب الصوت في مرارة والتكرار كان مناداة اسمه

- محمود!

****

الفصل التاسع والعشرون

وما تبقَّى من الحكاية.. يحتاج لخاتمة

- محمود!

ومسافة شبه فاصلة بين خطوات شاب وتشبُّث عجوز, نبرة صاحبتها حشرجة طفيفة وحروف بدت عاجزة عن التعبير.. وإن تسلل من بينها ندمٌ متأخّرِ.

وهمّ ليناديه مجدداً وتوقف أول حرف على طرف لسانه

- مــ

وأشياءٌ كثيرة, ربما قرار منفرد بزيجة غير محسوبة لينال النسل وناله وجادت الحياة ولكن...

وتوقفت الفكرة كما الكلمة والقطعة منه يوليه ظهره هاربٌ وليس براغب.. وهو يستحق!

أحنى رأسه والنبرة تنكسر رغماً عنه والوجع هنا بات مرافقاً للحاجة ويالها من حياة, نحن نُعطي وننتظر وبينهما لا نفهم ما منطق العطاء حتى الفناء ومن فينا يستحق.

- كادت أن تغيب الحروف ولكنه تقدم وأراد اللمس جوار تشبث أخير ونبرة بساطتها لا تجوز ولكنها ستبقى كبيرة من كل أب

- سامحني يابني

نبرة.. لجَّمت ابتعاد

ومُتابعة أوجعت صلابة

واستدارته كانت كافية لمرور شريط سنوات كامل, وكلٌّ منهما يرى ما يرى حتى التلاقي في نقطة لا سواها

هو لم يكن أبٌ جيد

هو لم يكن أب.

فرك محمود جبهته بتعب قبل أن تعود عينيه نحوه بتعبير آخر.. نظرة جمعت بين الرجل والشاب والطفل وجميعهم لا يبغون سوى الراحة.

وعلى مقهى قريب لا يعرف كيف وصلا إليه جلس معه, راقب كل منهما ملامح الآخر في صمت. شعيرات لحية حسن البيضاء النابتة واستطالة وجهه تحت جحوظ عينين في إنهاك جديد.. لفافة محمود التي أخذت في الاحتراق حتى تآكلت فتبعها بآخرى وكلاهما لم ينبس بحرف.

نادل جاء وحضر مرتان حتى طلب محمود لكلاهما القهوة دون أن يقرباها واهتزت حنجرة حسن مع اللفافة الثالثة.

- صحتك يا ابني

والتعبير ساذج وبالأحرى لا يليق. يسأله أم يهتم وقد مرت طفولة كاملة لم يُدرك منها سوى الهوامش, مراهقة شرسة هاجمت الجسد والعقل واكتفى هو بمراقبتها في زيارات سنوية مع هدية تشبه ما يُحضره لأخيه ونقود من المال.

كان يريح ضميره بأن هذا العدل!.. بأنه سعيد.. وأنه يستحق حنان أمه!

وهنا غابت أفكاره ورفاهية الكلمات تماماً, فالأمر هنا لا يحمل بساطة اعتاد أن يمرر بها حياته ولا هو مطب صناعي يستحدث له حلاً مؤقتاً وتدفع المركب رُقيَّة.

استدار نحوه يتأمله مجدداً, يتشبع من تفاصيله مدركاً لأول مرة أن الحياة قد لا تتدخر له الكثير أو بشكل علمي مبسط كما أفندها طبيبه

- لازم جراحة في أقرب وقت وافتكر يا باشمهندس احنا هنا بنسابق الزمن

ومشكلتنا أننا بركض الحياة ننسى الزمن.. ببساطة ننسى أنه يركض جوارنا بدوره, بعفوية مترددة مد أُنمله نحو دخان التبغ ونبرته تخرج بمودة تجاهد لتثبت الحضور:

- ليك حق تكرهني

وتصلبت ملامح محمود جوار ارتجافة مشتتة بعضلة فكه, هرس اللفافة دون أن يعي حريقها بين أنامله وأغمض عينيه كي لا ينظر..

يضعف.. يجاهر.. ينفجر يصرخ يغادر وينتهي الموقف دون أن يبدأ بلا شيء!

ليته قادر على الكراهية.. على اللوم الذي يتبعه راحة والمصارحة التي قد تقطع نفور, هو ببساطة غير قادر على شيء

توقف الشر متبختراً بين محاولات يائسة فلا الشرير عابث ولا الملاك يركض فوق الأرض.

جميعنا بشر!

- نُخطيء ونصيب

وسألها من قبل لحكيم, كانت ليلة ممطرة وحكيم في المطر له طقوس خاصة.. يدير المذياع الأثري على أغنية قديمة ويعد لنفسه مشروب العواجيز كما يُحب أن يكرر ويستمتع بمراقبة قطرات المياة فوق النافذة.. واحدة تنجو فترسم لنفسها مسار وآخرى تسقط وكأنها لم تكن.

لا تترك أثراً بالحياة

-وأصحاب الأثر؟!

وكان سؤاله التالي, هل يحمل جميعاً خلف خطواته آثاراً جيدة أم بعضُنا يخفق.. وحسن أخفق, بل نصَّب نفسه بنفسه فوق عرش الإخفاق. ولكن هل كل مُخفق شرير!

وعاد محمود نحو أبيه الحائر بنظرة تائهة رغم ما وصل إليه منذ أيامٍ من يقين,

مشكلة حسن أنه ليس شرير لينال كراهية وليس مثالي ليستحق التقدير.. هو الظالم دون قصد وهذا أسوء.

سأله وبنبرة صادقة تحضر بينهم أول مرة وكأنه بدوره كان يتشبث بارتياح:

- ليه.. عملت كده ليه؟

توقفت انفعلات حسن جميعها لوهلة, محمود يهديه بداية وهذا أسوء.. أسوء ببساطة لأنه لا يمتلك جواب

الجواب هنا وبعد سنوات يبدو سيء.. حقير, وإن لام عُرْف الرجال المرأة في جميع الأحوال.. هو هنا لا يمتلك رفاهية اللوم

فـ السائل ابنه!

- مش عارف!

وخرجت نبرته بصدق قرر أن يسحب نحو أنفاسه لفافة تبغ بعد غياب سنوات ورغم كل تحذير طبي ممكن, أرخى رأسه فوق الجدار خلف المقعد ومرت أمام عينيه لحظة أراد فيها أن يتخذ قرار, أن يُحافظ على استقرار عالمه مع زوجة اختارها ونسل كان يجب منها أن يكون ويبيح لعقله تصور أن أفضلية الآخر جوار الحنان

جوار امرأة لم يطق هو معاشرتها.

وجد نفسه يحكي.. يعود بأريحية نحو البداية ويُفند التفاصيل دون أن يُدافع عن نفسه, يعيد التبريرات بمنطق ساخر ويتوه

ككهل مسكين يتوه بين تفاصيل سهام ورقية دون أن يخرج بنتيجة مُرضية.. ليعيد الكرَّة مرة آخرى لأنه ببساطة لا يمتلك سواها

- سامحني يابني

وتلك المرة استقام ليرحل, لم ينتظر الجواب ولم يكن يبحث عنه.. كان يودّ أن يُخرجها علّه يستريح

وليست راحة كتلك التي اعتادت تلبيتها رقيَّة.. راحة منه نوع آخر

راحة لأول مرة ومنذ سنوات كان حسن وحده بطل حياته

تهتم!

وتلك الراحة لا تجرؤ على انتظار الغفران

تطلبه وكفى

****

الحب هو ضربة فوق الرأس علّمتنا أن نحيا بصُداع!

وتباطئت نظرتها على التفاصيل حولها لمدة ثلاث أيام.. تفيق وتغيب ويزيد الطبيب من جرعة دواء قاتل لليقظة كي يمرر آلام عمودها الفقري ويعيدها نحو طيف مَرّ وتتشبث هي بكونه واقع. وبكت أمها لحظة ما استفاقت وانتفض عبد الله في لهفة شقيق وظل خالد رضوان يُراقبها جوار باب الغرفة لمدّة خمس دقائق كاملة دون حراك. يتأمل تفاصيلها بتأني.. يتشبع من الحياة بعينيها ويشكر الله في سرّهِ لأنها بخير.

- زي الفل إن شاء الله

وتلك كانت ليلى, مرَّت ببهجتها أمامهم جميعاً وقبّلت جبهة تميمة بحنان أخت كُبرى وحنكة امرأة أدركت الخبايا.. لمحت توتر شفتي إيناس وتلك العبرة المكتومة من أجل ابنتها..
لمحت الغضب المُقيَّد بملامح خالد.. وفهمت عشق محمود الذي تمّكن من تميمة

تمّكن حد المرض

حدّ الصداع المزمن الذي لا نملك القُدرة على إيقافه

أول مرة تحب يا قلبي وأول يوم أتهنى
ياما على نار الحب قالولي ولقيتها من الجنة
أول مرة أول مرة

ليه بيقولوا الحب أسيه ليه بيقولوا شجن ودموع
أول حب يمر عليا قاد لي الدنيا فرح وشموع

افرح واملا الدنيا اماني لا أنا ولا إنت حنعشق تاني
أول مرة أول مرة

وكان اليوم الرابع,, والممرضة الملازمة لها فتاة بها بهجة.. لها صوت مُزعج بعض الشيء وهي لا تتوقف عن استخدامه. فتارة

تُغني وتارة تزعق مع صديقة على الهاتف وتصاب بنحنحة طفيفة حين يَحضر خالد ولم يكن في الأمر إعجاب وشيك أو خُطة من أول طلّة.

خالد نقدها مرتين كي لا تخبر أحداً بدخول محمود وهي أخذت النقود وتعترف ولكنها فتاة والفتاة أنثى والأنثى تقدر الحب ولهذا تغاضت عن تسلل عاشق

ولهاذا نحن صاحبات صداع دائم

- خالد..

ونبرتها تباشره لأول مرة منذ أيام محاولات عودتها للواقع, أخفض الطبيب جرعة دوائها صاحب الدوار وتدريجياً تنال قُدرتها على رفع جسدها فوق وسادة, وسؤالها بدا تكراره مثيراً للشفقة مع نغمة الهاتف المبهجة للفتاة المذكورة

حليم سعيد.. حليم يُغني.. حليم يدافع عن الحب

وكان حبه الأول الذي لم ينله! وحينها شعرت بغصة.

مرور مرير بالحلق لمجرد فكرة فقدانه.

واستقوت نبرتها عليها فتشبثت بها وهي تكرر بأمل لا يخبرها أنها مجنونة, هي لم تفقد عقلها بسببه بعد

- خالد.. هو كان هنا صح؟

وأي وجع وأي سقوط وأي ذبول أصاب تميمة, نبرتها لم تعد كما هي.. حتى النبرة منها مُتعبَة, وأومأ بتعجُّل لا يريد سوى أن يطمأنها. وإن تناقصت الطمأنة حين لمح العبرة

- أيوة

وبكت.. مجرد تحقيق الحلم أوجع بعينيها البكاء. شهقت تكتم أنفاسها بظهر يدها ومسحت ما استطاعت من التدفق الغير محسوب ووجدت نفسها بدورها تومىء

كي تطمأنه.. كي تصل إليه ولو من خلال أخيه

- أنا كويسة.. أنا كويسة.. أنا..

وتوقفت كلماتها مع تنهيدة يائسة باعتراف لأول مرة

- أنا مش عارفة!

****

تسقط المعرفة جوار الفلسفة.. في بئر الحب!

- النهاردة زي القمر

اليوم السابع بعد التعافي, وهي علمت أن اسمها ميّادة وأنها كانت مخطوبة لابن عمها وتركها ليتزوج محبوبته الوحيدة وساعدته وفسخت هي الخُطبة قبله بشموخ وتمنت له عشق أسود

لأنها كانت تحبه!

- وبعدين؟

وسألتها تميمة بنصف انتباه وتلك باتت عادتها, تُحدث الجميع بنصف انتباه وتُبقي النصف الآخر من أجله.. تعيش معه.. تمر ببطء على ذكريات قليلة جمعتهما معاً وتتوقف عند اللحظة التي تشبثت فيها بيديه كي لا يرحل

وإن كانت دون وعي ولكنها تتذكر دفئه, وعادت من جديد لميَّادة وسألتها كيف.. تنام وتصحو مع نصف حب ونصف كراهية لأنه رحل

أو نذل

أو وضعها في بؤرة لا تفهمها وكاد أن يدهسها كـ لا شيء ثم تراجع ليندم ويهرب ويقدم لها الحب والعشق ويبكي فوق أنقاضها علّها تحيا

وهي حية وإن لم تعد

عاشقة وإن لم تغفر

باكية تختبر ذات الذنب

وهنا أيقنت أنها لم تكن تتحدث عن ميادة.. كانت تتحدث عن نفسها.

ضمت حاجبيها وهي تسحب شهيقاً بطيئاً تلاه زفير:

- ميادة أنا عايزة دوا تاني.. محتاجة أنام

- بلاش منوم يا ست الكل.. إنت محتاجة شوية يانسون دافي

وهي أخذت عهداً على نفسها بمفارقة الابتسامة منذ رحل, انحنت شفتيها بلاشيء وهي تردد بيأس:

- ميّادة إنتِ ممرضة مش جدتي هاتي أي علاج دماغي حتنفجر

لوت ميادة شفتيها برفض ثم همّت لتحضر لها عقاراً مسكناً ليُساعدها على النوم وجوار هذا استغلال فرصة:

- هو الأستاذ اللي جه امبارح ده قريبك

واستدارت نحوها تميمة لا تصدق, هي لن تمر بأسئلة زميلات المدرسة والجامعة مجدداً.. لم يعد بها طاقة لهذا الهراء:

- ده خالو

- متجوز؟

- امشي يا ميَّادة

- الله هو السؤال حُرم

- امشي يا ميادة مش عايزة منك حاجة

وتباطئت خطوات ميادة وهي تتذمر بكلمات كان مفادها:

- خلاص الدكتور كتبلك على خروج بكرة

ولم تلمح تلك النظرة الغائمة التي احتلت وجه تميمة, وكأن نصفها الراحل معه رغم كل شيء كان يتمنى رؤيته مجدداً

رغم كل شيء

رغم السقوط والغضب

الهروب منه ومن أجله

الاختناق بين شفتيه والتشبث بأنامله فقط ليبقى

ويا له من فارق بين اللحظتان

- ميَّادة

وارتعاشة شفتيها جاورت صوتها ولا تملك سوى البحث عن عقار ونوم.. وإن لم تظهر ميادة وبالطبع لم يكن هناك دواء.

كان عقار آخر يتسلل للقلب قبل العقل وإن بدا وصفه لها خيالياً إلا أنه يقف بـ بابها الآن لزيادة

"حكيم"

****

أحضرت ميّادة للزائر كوب عصير وزجاجة مياة باردة, وتلك سابقة في تاريخ ميَّادة فهي لا تُحضر في المشفى سوى العقاقير وباقات الورد ولكنه... "حكيم"

هذا الرجل يحمل تأثيراً غامضاً جعلها تجلس أمامه حتى الآن بتصلب دون حراك, وكأنها تحولت لمنحوتة عاطفية مبالغ فيها لا تملك سوى أن تبكي ثم تسأل عنه

ولم تسأل..

بقيت صامدة حتى انجذبت دون وعي لرزانة حرف مر جوار آخر وهو يتلذذ بعصيره باستمتاع:

- عارفة علي بابا؟!

استدارت ولم يكن بصدمة قدر التفات طفلة حائرة لمعلم قرر أن يلقنها درس الرياضيات ففتح كتاب الجغرافيا, وحيرتها توسدت كل ما بها من ملامح حتى أنها رفعت كتفيها في يأس

وكأن "علي بابا" الذي سيتحدث عنه لا تعلمه.. هو حتماً سيقول ما لم تسمع به من قبل.

ابتسم حكيم بحبور وعيناه الضيقتان تغيبان وسط انفعالات وجهه وهو يقص حكايته بصوت رخيم يجبر أياً كان على الانصات:

- علي بابا كان راجل مسكين, ممكن نقول ملوش حظ.. أو ملوش مخ.. حتى المغارة والكنز والأربعين حرامي كانوا فرصة جوه حكاية مش بجد.. الجد والحقيقة هما سالم.. سالم الطماع اللي كان حيكسب فلوسه وفلوس علي بابا.. سالم الشرير

- مش فاهمة

ولم تكن نبرة حائرة بقدر ما كانت حزينة, هل معضلتها أنها لم تفهم.. لم تفهم أبداً ما حدث

تابع حكيم وقد أيقن أنها استوعبت تلميحاته:

- محمود طول عمره ماسك في الشر, شايف إنه هو اللي بيفوز وبيكسب.. محمود لا سمع حدوته على بابا ولا ضحك في حضن أبوه وأمه على الأربعين حرامي.. ده محمود يا تميمة لا كان ينفع يبقى علي بابا ولا قدر يكون سالم

وتساقطت دمعة.. تلو آخرى, وكل منهما شقت طريقها ببطء بين حنايا وجهها حتى اختفيا بين الشفتين في كل تذوق أنثوي للطعم المالح.

همّت لتقول شيء ولكنها توقفت وكان هو يودّ أن يُتابع:

- ومش مسامح نفسه..

تصلبت قبل أن يخرج صوتها بمُجاهدة:

- إنــ ت عارف!

وهدأت نظرة حكيم فبدا وكأنه مُغمضاً ولكنه لم يكن مغمض, هو فقط أرخى جفونه في حلم كان واجب ليقول ما هو بصدد قوله:

- ولا إنتِ سامحتيه.. إنتِ تايهة بين المغفرة والغضب, قلبك وعقلك وحق نفسك عليكِ وعليه وعلشان تايهة وقعتي يا تميمة.. لا عرفتي تنصري عقلك وتفوزي ولا عرفتي تنصري قلبك وتسامحيه

ولم تتصور أنه قد يصيبها هكذا في حضرة غريب انهيار, انكمشت حول نفسها وغابت العبرات استحياءً من حُرقة الصوت.. وإن خفَتَ بنشيج يُجاهد إلا أنه حضر, حضر وكأنه لا ينوي الرحيل أبداً

وهمهمة حروفها تحارب كي تخرج من الجوف وفشلت, لم تجد ما تقوله.. هي تبحث عنه.. تريده.. تحبه بفطرة لا تفهمها.. تحبه كرجلها الوحيد ولا بديل سواه ويقيدها عقلها كي لا تقترب.. يقيدها ويعيد بعقلها رغماً عنها.. مشاهد تصفد بقلبها الغفران. تباطأ ارتجاف كفيها فوق وجهها تمسح فوضى العبرات وتهذي

فحروفها غابت عنها الكلمات.. كانت هذيان:

- محمود عمره ما كان شرير.. لكن...

وانقطع هذيانها لا تجد ما تود قوله, أو ترفض.. تخاف..
تحبس كل جيد وسيء بشأنه داخلها, أكمل لها حكيم بحِنكة:

- كلنا فينا الاتنين.. الخير والشر وحنفضل نتمرجح بينهم

- ومحمود لسه تايه؟

وبراءة سؤالها طغت عليها حروفه, حروف منها تنبض بعشقه

وجوابه هو بدا شيئاً آخر ولكنه كان الجواب الوحيد الصحيح:

- مش مطلوب منك إنك تسامحيه

رفعت عينيها نحوه بارتباك فزاد وملامحه تنبض بطمأنة:

- مطلوب منك إنك تسامحي نفسك.. سامحي نفسك يا تميمة
علشان محمود يعرف يسامح نفسه

واقترب منها وفمه يتسع باستعراض بطيء جوار كلمته الأخيرة

كلمة واحدة فهمت منها كل شيء.. قدمته.. بررته.. أيقنت ما بينها وبينه ولم ينطقا به منذ افترقا, هي تلوم نفسها.. هي تتحمل عقاب جنونه وفُقدانه

لعَنَته وجلست جواره ملعونة, ولم تحتمل فكادت تنتهي تحت حوافر نصفها الراكض.

- عيشي يا تميمة.. عيـــشي

قالها حكيم ورحل.. سنّ قانونه من أجلها وأجل الغائب, منحهما بداية كي يحاولا أو كي يجرؤ كل منهما ليبحث عن الآخر وفي الطريق.. يغفر لنفسه.

وتشبثت به قبل الرحيل بكلمة.. سؤال.. أنانية أنثى تعشق واسمه جوار علامة استفهام لا تحمل سوى معنى واحد

- محمود؟

سألت..

وأجاب هو..

- مش حيسافر.

****

هناك حكايات لا يجوز لها تتمة.. البتر واجب.

وهي في تلك الحالة مريضة.. كمن فقد جزءاً هاماً منه فجأة ولم يتسنى لها وداع.. مفاوضة.. بكاء وإشارة رحيل ووعد كاذب بالعودة.

ومرض الأنثى غير الرجل, فالرجل ينظر في وصفة دواءه.. يحسب الجرعة وآثارها الجانبية ويُفاضل حتى يتخذ القرار. أما الأنثى فتقذف بثلاث حبات بحلقها دفعة واحدة كي تتخلص من الألم وتغفو. وإن دفعت الثمن .

وبحثت عنه..

بعد ثلاث أيامٍ اتخذت القرار فوجدت نفسها أمام منزله وأخبرها الحارس أنه ترك الشقة, هاتفه مغلق وأخذ أجازة من مقر عمله ووظنت أنه سافر بالفعل فبكت اليوم الرابع قبل أن تعلم بحادث تميمة وتتصل بها تطمئن على استحياء.. تردد.. وهروب من كل ما قد يخص خالد.

وبمكالمة مقتضبة بين طرفان واحدة حاولت بشتى الطرق أن تصل باعتذار وحين انتهت في شبه تيه ظهرت صاحبة الدعوة وآخرى.. لم تكن تُفكرِّ فيما تظن تميمة ولم يعد يحمل الاعتذار فارق.

كانت تبحث عن جرعتها الخيالية من الدواء. وفقدت تميمة استيعابها حين أيقنت الاسم الذي تبحث عنه.. وترددت بتلعثم لأن الجواب بدا سيء

بدا أسوء ما يمكن قوله وإن كان الردّ واجب:

- ماما راحت توصله المطار.. طيارته المفروض كمان ساعة!

ولم تعلم أن الآخرى قفزت بكل عزمها لتركض نحو أول سيارة أجرة.. تركض وتسابق الزمن وتفرك كفيها مع دعاء مستتر لتلحق به..

تخرج من السيارة دون ان تدفع الأجرة وتتعثر ويعيدها السائق بزعقة فتُخرج أكثر من حقه وهي تبكي, ترتطم بعربة نقل حقائب قاسية وتتخطى زحام عائلة تودع آخرى وعيناها تقفز بهلع بين بيانات الإقلاع والهبوط... أخبرتها تميمة الوِجهة, بلد أوروبي صغير أخبرهم أنه سيبقى هناك لوهلة لإدارة شركة صديق ويكذب وهي تعلم

هرب منها ولا يريد عودة..

عاد بصرها ليتقافز مجدداً دون جدوى

لا تجد شيء.. حتى الرحلات المُغادرة لا تحمل وجهته,
استدارت وأسوء مخاوفها تقول أنها ذهبت لصالة إقلاع مختلفة
وإن تحققت أسوء المخاوف ولكن بشكل آخر..

هي وعلى بُعد أمتار منها تقف إيناس بثوب كلاسيكي أبيض
وحقيبة يد متوسطة, و... وحيدة

تقف وحيدة دونه وعيناها تميل نحو طائرة تصعد بالفعل

حركت رأسها برفض وترقرقت الدمعات آبية أن تسقط ونبرة
إيناس توميء ورغم هدوءها لم تكن رحيمة

كانت واضحة حد حقيقة رحيله

- لو كنتِ بتحبيه كنتِ لحقتِ الطيارة يا ندى

الفصل الثلاثون

وحان وقت النهاية

صالات السفر.. في حياة البعض قد تكون مجرد محطة عابرة وللبعض الآخر هي نقطة فاصلة.

بداية.. أو نهاية

وفتاة لم تلحق طائرة! طولها لا يتخطى المائة وستة وستون سنتيمتراً وترتدي ما صادفته في خزانتها من الملابس لأنها كانت مُتعجلة وعجلتها تشهد بها قدميها بـ خُف بيتي أزرق ومع كل هذا لم تلحق به..

واستدارت نحو محدثتها وبأعماق عينيها وُلدت عبرة, هي البداية.. وكأنها قررت أن تكون عبرة جديدة تختلف عن كل ما مرت به من قبل.. نوع آخر من العذاب.

- يا الله

خرجت من الآخرى بعفوية أم.. امرأة.. وأخت راقبت رحيل أخيها ورغم الألم تدرك أنه الأفضل

لكلاهما الأفضل..

جذبتها في ضمّة دافئة وهمسها يبيح لها البكاء.. لم تكن لحظة تسمح بأكثر من هذا..

بُكاء..

وطائرة تُقلع.. ابتسامة عملية من طاقم ضيافة ورأسه فوق مقعد يسترخي دون أن يغفو, أرض تبتعد بمن عليها وهي أولهم.. وحياة كاملة تمر أمام عينيه..

والمفارقة أن صورتها تمحو جميع التفاصيل, وكأنه يودع صورتها وفقط..

طائرة تُقلع.. وما بينهما بات السماء والأرض, ابتعد ولم يتبقى لها منه سوى ورقة.

جعدتها مجدداً.. هربت من عناق اخته و قذفت بجسدها في سيارة,وبحثت عيناها في السحب عنه ولم تجده فقبَّلت خطابه.. تركته ملك شفتيها وابتل بفعل ندى اللحظة.. ندى الوجع.. وندى العين بدمعة صدقها بات فقط من أجله.

نعم.. هناك حكايات لا يجوز معها سوى البتر

حتى وإن غافلته الذكرى

****

هي امرأة دوماً ما حمل معها الصباح طقوساً خاصة, قدح قهوة ضخم وفطور ملكي كان وما زال لأجله.. أوراق نعناع خضراء يجاورها ريحان بات عبق حديقتها, وبِشر ليمون أصفر لائم بشكل ما فطيرة.

وأعدتها لتحارب بها وسواس مُزعج, وتُقسم لنفسها في المرآة سبع مرات أنه سيأكل منها.

- رُقيّةِ

ونبرته خرجت تائهة وهو يستند شارداً على حافة مدخل المطبخ وقد ارتدى ملابسه كاملة, قميص سماوي فاتح مع سروال أسود باهت تعاركت معه ليتخلص منه مراراً ولكنه يعتز به. استدارت وشعرت أن كل لعنات الكون واتتها في تلك اللحظة.. وجهه منير وابتسامته صافية وكأن العمر بينهما عاد لسنوات.. لبداية كانت دوماً ملكها ونهاية لم تستطع أن تتخلى عنها

"حسن"

اقتربت منه لتعدل من خصلاته البيضاء الخفيفة التي تآمر عليها الزمن للرحيل وأشارت بعينيها للخارج تُجاهد اختناق النبرة:

- خالد بيحضر العربية وأنا جهزت لك...

قاطعها بسخرية تلمحها بين ملامحه لأول مرة:

- تفتكري حادوقها

وتيبست ملامحها في نفس واحد.. حتى العبرة تجمدت رافضة المرور.. رافضة فكرة الرحيل ومقدماتها اللاذعة ووجهه المضيء بأناقة الراحلين. جذبته أم تشبثت به لا فارق فالعناق بين زوجين أكلت منهما السنوات عمراً كاملاً سيتخطى تلك التفاصيل.

رفع رأسه بعد وقت من فوق كتفها ليُقبِّل جبهتها بحرارة يعلم وتعلم أنها لا تستطيع الاستغناء عنها, وهمس ضعيف تعلق بها في احتياج:

- رُقيَّة أنا عايز ابني الكبير جنبي.. عايز أشوفه

وسقطت العبرة فوق وجهها جوار الإيماء, وإشارة عين لخالد فهمها وإن كان هذا ما ينتويه بالفعل فحتى وإن خجل من طلبها حسن إلا أن محمود يستحق أن يكون جوار أبيه. أسندته برفق حتى استقر داخل السيّارة وأشارت لخالد أنها ستحضر باقي ملابسه من المنزل.

حقيبة تكرهها وفطيرة غلفتها لتنتظره وهاتف بين أناملها..
حوار لم تظن أنها قد تستهله يوماً, حتى النبرة.. البوح والطلب والعوز

وتاريخ كامل في لحظة يُنسى

يُهشَّم لأن الحاضر احتل الصورة والمستقبل رفض القدوم على أنقاضه

- الو

وارتعش جانب فكها فتيبس الحرف لا لشيء سوى أنها أدركت لأول مرة أن صوته يشبه شباب حسن.. أنه قطعة منه وكل ما منه لا يجوز فُقدانه

- أبوك محتاجك يا محمود.. محتاج ابنه

فاجآتها نبرتها ربما كما فاجآته وهو يستمع لآخر صوت ظن أنه قد يبدأ به صباحه.. كانت نبرة يائسة تستشعر في تفاصيلها حنان غامض والغريب أن وقع كل حرف كان يمر بـ رِضا.

وأفكاره لم تسعفه بالمزيد, وجد نفسه يقفز ليتخطى مقعد واثنان ويُكمل ارتداء قميصه فوق درج.. يحادثه خالد بتفاصيل عن عنوان مشفى وجراحة هو نفسه لم يعرف بشأنها إلا ليلة أمس ومشفى قاتم آخر ولا يعلم ما سر وجع المشافي معه. فلم يكد يمر شهر على حادثتها ليجد نفسه متعثراً بين جدرانه قلقاً على أبيه

أبيه..

يرقد فوق فراش وجسده ملفوف برداء أخضر عقيم تمهيداً لقطعه بمشرط, يبتسم له وكأن رؤياه آخر قشة بظهر بعيره قبل أن يسقط بارتياح ويتلمس ملامحه بباطن يده مع ابتسامة مبتورة وجملة واحدة لا غير

- إنت شبهي أنا مش شبه جدك

أما هو فتجمدت بحلقه الكلمات.. تجمدت وتكدست حتى اختنق وأيقن أنه لا يمتلك تعبيراً مناسب, سرد ما به لا يحتاج لفيلسوف ولا يليق به حروف كاتب يمر بارتياح فوق مفرداته ليسرد وجعه.

قست أنامله فوق خصلاته فهرسها يراقب ابتعاده فوق جرار راكض, وغُرفة أغلقوها عليه وكل ما في الدنيا بعينيه تضاءل.. فوجع الموت لم يكن بحسبانه.

"حتسامحه يا محمود.. حتسامحه علشان ببساطة دي الفطرة"

وكان صوت حكيم تلو مصارحته الشهيرة.. يومها هرع إليه.. ارتمى برأسه وهمومه فوق أريكته وعبأ منزله بدخان لم يتذمر منه يوماً.. قذف حيرته مع أنفاس تبغه دون جهد ومررت الحروف الحكايا والتيه

ونبرة حكيم تقوى وتضعف وترج أركان المشفى حوله مع عداد ثوانٍ زاحف

"حتسامحه"

****

وغافلتني النهاية حين ظننت أنني أبدأ

قالوا لها.. تمرُّ حياة.

بالأحرى نطقها خالد في يوم كانت أجواءه لطيفة واختارت لنفسها بُقعة وحيدة تراقب الغروب, كانت قد مرت أربعة أيام على مغادرتها المشفى ولم تكن ترغب في شيء سوى رؤية

عشق. وتقف في طريقها جبيرة ضخمة بيضاء ما زالت تقيد ساقها فتمنع حرية!

أسندها عبد الله برفق حتى وصلت لسيارة مكشوفة قادها خالد بتأني وحين وصلت وجدت نور يقف جواره وهو يمسح ما ادعى أنه تعرُّق حول عيناه:

- وحشتينا يا ست تميمة.. سلامتك يا رب

تيه عينيها توقف عنده فحيته بشبه ايماءة وكان يدرك أن ما تبقى منها شبح ابتسامة ولكنها جاهدت لتخرجها من أجله, جواره كلن يقف الآخر كصخرة سوداء..

نصفها..

نصفها الراكض بكل ما يحمله التفسير من نصف

قدرتها على الوقوف حينها كانت معدومة ومع عكازها الذي أصبحت مضطرة لاستخدامه وذراع عبد الله تحيط خصرها كي

لا يغادرها التوازن مرت بأناملها فوق تفاصيله.. عيناه وفمه ومنخاره وحمحمته التي كانت تبحث عنها.

همس كانت بدايته جبهتها التي استقرت فوق رأسه وصمتٌ دام لدقائق وفحواه لا يدركه سواهما. حين تراكمت فوق جفونها العبرات تدخل خالد فأجلسها ببقعة مجاورة كي تنفرد بالغروب وتترك لحزنها مساحة

وسألته بعدها في تردد عن الحبيبة الغائبة وكان جوابه جملة لا غيرها:

- خلصت الحكاية

أو كما أفند بعدها مراراً

تمرُّ حياة

يمر الوقت جوار إيناس وعبد الله وأبيها.. سقطت بين ذراعيه أول يوم لها بالمنزل وبكت, وكانت حشرجة نادمة ليس بسبب خسارة أو سقوط

بل لأنها خذلته

تُخفي عنه ما يستحق معرفته وتكفِّرِ عن ذنبها وذنب من عشقت ببقاياها بين أطلال, يومها قبَّل رأسها بتنهيدة حارة وطلب منها ألا تبكي مجدداً

أحاط رأسها بكفيه وقربها منه والتتمة كانت عهداً وله أمل

- عايز بنتي ترجعلي

وحاولت.. تقسم لنفسها كل ليلة أمام المرآة أنها ستحاول وبشكل ما تفشل, تُجهد جسدها مع طبيبة العلاج الطبيعي وتحاول أن تلحق ما فاتها من أوراق جامعة أهملتها وتمر باستحياء أمام غرفة عشق وما زالت قدمها قيد عجز مؤقت رغم خلع الجبيرة.

فإن نزعت جبيرة الجسد فماذا عن جبيرة القلب

وآخر ما تصورته في هذا اليوم, مجرد يوم ببداية عادية وعبارة خالد المكررة عن مرور وقتٍ وحياة

آخر ما تصورته كان رؤيته

وكأن بشكل ما المشافي تحمل لهما قدراً, اتصال متعجل وغاضب من أبيها وزعقته سمعتها منه لـ خالد, والتفسير عرفته في الطريق عن جراحة يجريها حسن وإصراره على زوجته ألا تخبر أحد.

هناك كان الرواق حتى غرفة العمليات يبدو طويلاً.. لمحت رُقيَّة تجلس على مقعد جانبي وتُمسك بين كفيها مُصحف أما خالد فعلى ما يبدو كان يُحادث الطبيب ومن صوت أبيها وحديث جانبي عرفت أن الجراحة انتهت وأنهم نقلوه لغرفة عادية ولكنه لم يفيق بعد. ووسط كل هذا الزخم وجدت نفسها تبحث عنه

هل يجوز؟!

في الحب لا وجود للمنطق.. الحب كله فرضيات!

وكان لتوه خارجاً من الغرفة لتلتقي عيناها به, لم يكن مجرد اصطدام عفوي بين نظرتان.. هي التقته والوصف هنا تصادم لحظة لا تخص سواها وإياه وحولها كل شيء خفت

هي لحظة اختلال التوازن

شعرت أنها تجمدت.. توقفت جميع خياراتها أمامه فتصلَّب كلاهما ف نقطة اتصال لا مرئية فقط ليتوقفا بجانب بعضهما البعض, كتفها يلامس كتفه في جزء من الثانية وخصلاتها تتأنى جواره فتهديه آخر ما قد ينال من العبق. ملامح كل منهما ترسم تعابير مختلفة.. اشتياق يجاوره حزن, وتشبث تحت سحابة المستحيل.. وفوق كل هذا التشتت يُطّلِ العشق.

أغمضت عينيها تُجاهد لتتم الخطوة ويمحيها هو بنبرة أجشة:

- خودي بالك من نفسك

مجرد حروف ولحنها شهقة مختنقة منها ووداع أنيق منه

قدّمت الانهيار وادّعى السيطرة وتعلم أنه كاذب.. وتعلقت نظرتها به في لمحة أخيرة ودون أن تدرك تفوه لسانها بقانون:

- حتسافر؟!

كان خوفاً وعنده بات عهداً

- مستحيل..

تشنجت على أطراف شفتيه شبه ابتسامة والنظرة منه تتأنى على كل ما يمتلكه من ملامحها غير مبالي بمن حولهما, فالسجين له مع الحرية قبل الرحيل فرصة أخيرة وهي كل ما يمتلك من حرية

وبنفس سرعة جوابه تباعدت خطواته.. هرب منها ومن نفسه ومن سيطرة ادعاها وأمامها تسقط

هي امرأة من أجلها تسقط كل القوانين وتُسَّن!

هي العطاء

هي الدفء والرغبة واللهفة

هي نصف العقل ونصف العاطفة

وبوادر الهمس التي توسدت فوق الصمت

وياله من عشق كذاك الذي يشبه مشاعرك فوق ظهر جواد

هي تشبهه

هي كل مراحله وتفاصيله

هي وهو..

عشق الجياد

****

- لإمتى يا خالد!

هل غادر الفارس جواده فلم يعد يكترث بالطيران, هو كان..

هو كان مثل رعد

يركض فوق صهوته دون حواجز.. دون حسابات.. يغمض عينيه ويترك صدره للهواء لا يكترث سوى بلحظة حياة

ضمّ حاجبيه بقسوة لتخرج نبرته جافة قاطعة لنفس الحوارالمكرر:

- الحكاية خلصت يا إيناس

- بنتك تعيسة

والأنثى لا تحسب ما يدور بالعقلانيات.. هي ملكة الحب وأميرة الحكايا والهامسة لجواد أعمى

هي من قفزت لتأخذ بدلاً منه رصاصة

استدار ولأول مرة منذ سنوات زواج, بل منذ رحل رعد تلمح ضعف:

- حتتعب معاه..

اقتربت منه بحنو وغريزتها تنبئها أنه سوف يرضخ:

- الحب تعب

وما ظنته رضوخ بات انفجار:

- الحب إنها بتعرج لغاية دلوقتي.. الحب وقوعها من على الحصان.. الحب كسرتها قدامي وإيدي اللي اتمدت عليها. لو ده التعب يبقى ملعون أبو التعب.. لو ده الحب يبقى ملعون أبو الحب..

غريزة أنثى

غريزة أم

زوجة!

تهدجت أنفاسه فمرَّت بارتعاش أناملها فوق ضربات قلبه.. تجذب رأسه نحو صدرها رغماً عنه وتميل بعينيها من فوق حافة نافذة لتكتشف ماذا كان يُراقب

- تميمة!

واستدارت لطبيبتها بعد شرود.. عادت تبحث عن ظل أبيها من خلف النافذة ولكنه كان قد اختفى, انحنت شفتيها بارتجاف حائر فاقتربت منها المرأة الأربعينية بحنان:

- مرة كمان.. مرة ومرة وحتقدري

دمعت عيناها بيأس:

- مش عارفة!

وخفتت النبرة مع بحّة متألمة:

- مش قادرة

وكانت تحتاج للحظة, ككل مجاهدة علاج تمر بها.. تغيب مع ملامحه, مع استرضاء أبيها.. وصهيل عشق

تغيب وتعود طابقة شفتيها ببأس والتتمة محاولة

لأجلهم..

لأجلها..

ولأجله

حتى وإن كان قدرهما البُعد.. فعشقه يبقى..

عشقه.. سيبقى!

أنا راح مني كمان حاجة كبيرة

أكبر من اني اجيبلها سيرة

قلبي بيزغزع روحه بروحه

علشان يمسح منه التكشيرة

ادعوله ينسى بقى ويضحك

بعد مرور ثلاث سنوات...

- آنسة ندى!

استدارت لمحدثها بملامح هادئة بعد أن حيته بإيمائة متزنة لتخبره أنها مستعدة, هذا هو الحفل الرابع لها على مدار الشهر وتُلاقي جولتها الحالية نجاح مُبهر حتى أن رئيس أحد الدول الراعية حضر ليستمع إليها خصيصاً.

جاورتها مساعدتها من جديد كي تضع فوق أناقتها اللمسة الأخيرة وتناولها المشروب الدافيء الذي تحرص عليه قبل كل صعود فوق المسرح.. جوار ورقة!

خطاب..

كلمات لا تستغني عنها وإن ذهب صاحبها فبقيت هي

تُصاحبها دوماً

ويلقبونها الآن صاحبة الفيتارة

أغمضت عينيها وغابت من جديد مع ركض العازف ووقتما يحين دور أنغامها يخفت احتراماً.

وابتسمت له النادلة بترحيب حار بعد أن وضعت أمام طاولته قهوته المعتادة, المقهى كان مزدحم الليلة بجنسيات عربية والتلفاز مُعدّ لاستقبال الحفل.

وكما كل مقطوعة تُنهي عرضها باهداء خاص.. لرجل..

حبيب مجهول كما يُطلق عليه معجبيها

وصاحب الفضل عليها فيما وصلت إليه كما تُصِرّ هي

فما بينهما يتخطى تلك المعاني العابرة عن الحب!

أنهى قهوته على مهلٍ ثم رحل, وحفلها انتهى مع ذات التصفيق الحار

من أجلها ومن أجله

****

يلقبونه بالعازف والفاسد والإعصار!

"خالد حسن"

رتبت أوراقها للمرة العاشرة ثم عدلت من لافتة اسمه الغريبة بتصميم زجاجي مبتكر وتعلم أنها هدية من صديقة وتعلم أيضاً وذاك هو الأهم أن هجومه الصباحي سيتصيد لها سقطة.. هو تواجد في هذا العالم من أجل تصيُّد أخطاءها.

خطواته كانت تتحرك بتعجل وهو يزعق بأحد مسؤولي الري ومهندس حديث التخرج كاد أن يُفسد محصول كامل لأنه نبيه!

وتلك كانت بادرته:

- نبيه يا فندم والله.. بقولك إيه يا أخويا إنت فاكرها تكية أبويا.. خالد رضوان بينفخني

والضحكة المكتومة كادت تتسلل كالعادة من بين شفتيها وظنت أنها حاذقة فغلفتها بـ عطسة

- أتشو..

وحتى إن كانت رقيقة أنثوية تشبه صوت العرائس القديمة قبل طفرة باربي فلن يمررها

- يرحمكم الله يا هانم

وبرطمت بتذمر وهي تسحب أوراقها التي وقعها وتشتكيه مجدداً مع صديقة هاتف, تلعن اليوم واللحظة والساعة التي

وافقت فيها أبيها كي تعمل مساعدة لابن صديق عمره وظنت أنه سيكون لطيف

أو عريس!

وسقطت فوق طاولة الواقع

- أنا يقولي يا هانم.. طب هانم وست الهوانم كمان

ضحكت محدثتها التي وجدت في مآساة صديقتها تسلية:

- نفسي أشوفه والله

وزمت هي شفتيها ونسيت أن الغضب ساهي:

- ماتشوفيش وحش.. ده مجنون يا بنتي.. متعرفيش هو إيه مغني ولا مدير غلس ولا عازف وهو أصلاً كان طموحه يبقى دكتاتور لعلمك

- وإمبريالي وإشتراكي وشيخ وثورجي وكل اللي تطلبيه يا حلوة

وكانت مجرد فضفضة وستنتهي والله العظيم!

وهذا ما قالته وهي تنتفض حين هاجمها صوته من خلف أذنيها تماماً دون رحمة ولم ينتظر منها تبرير آخر.. تركها عائداً لغرفة مكتبه مع حاجب أيسر ارتفع في قسوة وإشارة يد مفادها معروف ومكرر

- شوفي شغلك

****

بالأمس أخبرتها صديقة أن خصلاتها استطالت واستدارت لها بشرود لمدة خمس دقائق لتدرك أنها ببساطة لم تعد تهتم!

اليوم كان نتيجة اختباراتها للعام وصرخت زميلة آخرى جوارها ببهجة كان يجب أن تكون منها

- امتياز يا تميمة.. امتياز

وسطرتها على صفحة تواصل كما تفعل دوماً.. وكأنها تحادثه دون انتظار الردّ

"جبت امتياز!"

وعلى مدار سنوات دئبت على تكرار ما يخصها.. فقط لأجله

"خلصت العلاج"

" بدأت أتمرن تاني"

"ركبت عشق!"

ويوم ما امتطت عشق لم تكن تعلم أنه تحايل كي يبيح لعينيه منها رؤيا, اختار له خالد بقعة ماكرة أباحت له تلصصاً من سيارته وكانت جرعته المقننة من العشق

فقط لأنها تركض

تهمس وتميل فوق صهوته وتبيح لخصلاتها معه جموح

ببساطة تعود..

تستيقظ وتنام مع صورته وتراقب تبدل ملامحه الطفيف على مدار أشهر وسنوات, يجاور زملاءه في رحلة صيد.. ويقف

وسط دفعة طلاب جديدة ولا تتركه الفتيات وحده..

يلتقط له صديق صورة مفاجئة وهو منشغل فوق لوح الرسم.

مررت أناملها ببطء فوق ملامحه وارتجفت الضحكة.. تعود وتذهب وتتوسع وتختفي فقط لأجله

القلب لم ينسى.. ولكن الضحكة تفاوض فقط أمام صورته

****

- خالد!

ونبرة إيناس رغم مرور العمر ما زالت تحتفظ برقتها, استدار لها بهدوء وكان الوقت قد تخطى شروق الشمس بثوانٍ ليس أكثر وطقوس قهوتهم الصباحية ما زالت حاضرة. جاورته فأحاطها بذراعه وابتسامته تتلون فوق الكوب لأنها ببساطة امرأة يفهمها:

- طلب كل عيد ميلاد

زمت شفتيها والضيق يسبقها لا الحلم تلك المرة:

- كفاية بقة يا خالد

ارتشف القليل من قدحه الساخن قبل أن يشير نحو سور المزرعة بنبرة مسيطرة:

- بيجي يبص عليها وهي بتتمرن كل كام شهر وأخوه بيساعده

ثم رفع حاجبه الأيسر في شبه جدية:

- سايبه بمزاجي على فكرة

عاندته والسنوات بينهما تبيح:

- هو محترم قرارك وعلشان كده مش بيقرب

رمقها بنظرة ثاقبة فلم تبالي ولن تبالي.. تلك المرة لن تصمت وسينتصر عشق ابنتها رغماً عنه:

- أنا عايزة تميمة ترجع تضحك يا خالد

وارتجف فكه رغماً عنه ولكنه هرب لقهوته مكابراً فتابعت تطرق على الحديد في آخر فرصة:

- الحب ده أقوى من الوجع

- تفتكري؟

وكان سؤاله متشبثاً بها.. يعلم أنها بندقيته.. أنها أول من سيدافع عن العشق والوحيدة التي تجذبه نحوه

تُسقطه فيه مهما مر الزمن

استدار قاطباً حاجبيه وتلك المرة جوار حضور غيرة الأب:

- أنا مش حاكلمه.. خلي أبوه يتصل بيه

وتوسعت ابتسامتها بقدر لم يلمسه هو نفسه منذ ثلاث سنوات

فهي كابنتها تماماً

صاحبة جدائل البندق

****

الخاتمة

دخان تبغ.. كان قاتل!

طاولات تناثرت هنا وهناك وعلم أن الوقت كان باختيار أبيها لتكون حفلة عيد مولدها صباحية, ورغماً عنه أعادته ذاكرته للوراء ثلاث سنوات.. كان يقف هناك على مقربة من منصة لطيفة أعدها أخيه لتكون انطلاقة الحفل وعيناه ترسم من خلف دخان تبغه ما يود رؤيته.

- شكلك اتغير؟!

أجفله ضيفه فاستدار على عُجالة وعيناه تمرر انفعال مشوش.. حتى بهجة أبيه لم تطمئنه حين أخبره أن خالد رضوان يود رؤيته, فكل ما بداخله بشأن هذا الرجل مُربك

يحترمه.. يبجله.. يخافه.. لديه رغبة يقيدها بمصارحته ولأجلها يصمت

لأجل من ضحَّت لأجله يعيش حقبة الصمت بكل تفاصيلها وحقاً هي مؤلمة.

- حتاخد بالك منها

هو خالد رضوان وكفى.. لا يجمِّلِ ولا يسرد ديباجة دون معنى

جذبه نحو المضمار في لحظة

غامت نظرته وكأنه يحادث نفسه.. وكأنه حديث بكل صدق ممكن:

- أنا خايف عليها مني

واقترب منه خالد وتلك المرة بحنان أب.. حنكة رجل.. وتفاصيل بدأت تدرك أن هذا الذي يقف أمامه لا يشبهه.. لا في ثورة شبابه بحثاً عن حق سُلب منه ولا في قسوة نضجه

حتى وإن أراد انتقاماً من ذي قبل

فهو فشل وبجدارة!

- وده كافي أنه يطمني

وهدوء النبرة صاحبته تربيتة.. نظرة عين تبيح أول خطوة وطريق نحوها بدا منذ ساعة فقط مستحيلاً.. تأملت نظرته بـ شكر ومصافحة ووعد أراد أن ينطق به

ولكن...

ونبرة خالد رضوان هي السابقة.. لن يترك الفارس ابنته بسلاسة لأي رجل

- أنا في ضهرك.. لو زعلتها مش حارحمك

ورغم حدة النبرة تسللت من بين الشفتين ابتسامة.. عهد ومصافحة وعناق, كما استلم صاحبة البندق منذ سنوات من يد أبيها

حان دوره ليسلم ابنته

****

- تيجي نجري

بسبابتها رسمت خيوطاً فوق وجهه الأسود والغرض ممازحة والأساس هروب, الطاولات والكعكة وشموع أتقن توزيعها عبد الله ولحن جديد لخالد.. وكأن اليوم تآمر عليها ليعيدها نحو ذكرى سنوات مرَّت.

وانحنت شفتيها بتاريخ يحمل أول لقاء بحروفه

"محمود"

وتلكأت العبرة فرسمت أمام العين غيمة.. واعتراف:

- وحشني!

وسبابتها عادت لترسم الخيوط من جديد, ترسم وترسم وتستدعي ملامحه

تستدعيها فوق وجه عشق

ودون أن تدرك استدعت عبَقه.. جاور الحلم اليقظة وحين أيقنت الفارق تجمدت مع مجاورة سبابته لخيوطها وخارطتهما ملامح من كان ثائر, استدارت وغيمتها تزيد.. تمطر وتمطر رغماً عنها وعنه..

استقامت لا تصدق فوجدت نفسها تتحسس ملامحه فقط لتتأكد أنه موجود.. أنه هنا أمامها الآن وليس مجرد خيال بعيد أو تسلل من صورة.

توقفت أناملها فوق لحيته لترتعش نبرتها باشتياق:

- شكلك اتغير!

وانفجر المطر.. ابتعدت عنه تكتم العبرات وتضرب صدره بكفها في ضعف..

لأنه انفجر

لأنها أحبته

لأنه سقط سهواً

غاب.. حضر.. نمت لحيته وبات آخر.. أو بات أكثر منها قُرباً

أمسك ذراعيها يقربها إليه.. عيناه تنطق دون النبرة باعتذار وذراعاه تحيطانها في عناق لابد منه

كان يحتاجها وكفى

بعينيها سقوطه وفوق صدرها النجاة

هي ببساطة الوطن

العشق هو العاطفة

هو العطاء

الرغبة..

واللهفة

هو الدفء, وهو الاحتياج

استمالة بعد هروب

وشغف فقد اتزانه

العشق هو..

عشق الجياد

تمت بحمد الله

مروة جمال

2017/3/22

شكر خاص

جميع أعضاء إدارة جروب شخابيط وردية على دعمهم المتواصل لخروج هذا العمل بشكل يليق

شكر خاص

عضوات شخابيط وردية ومتابعات الرواية على وجودهم بجانبي طوال عام كامل بدعم الحرف والكلمة

شكر خاص

أماني عبد العظيم لتطوعها بسرد الأشعار العامية بالعمل

شكر خاص

لكل قاريء وضع ثقته بحروفي وبحث عن كلماتي

إلى اللقاء مع رواية آخرى

مروة جمال